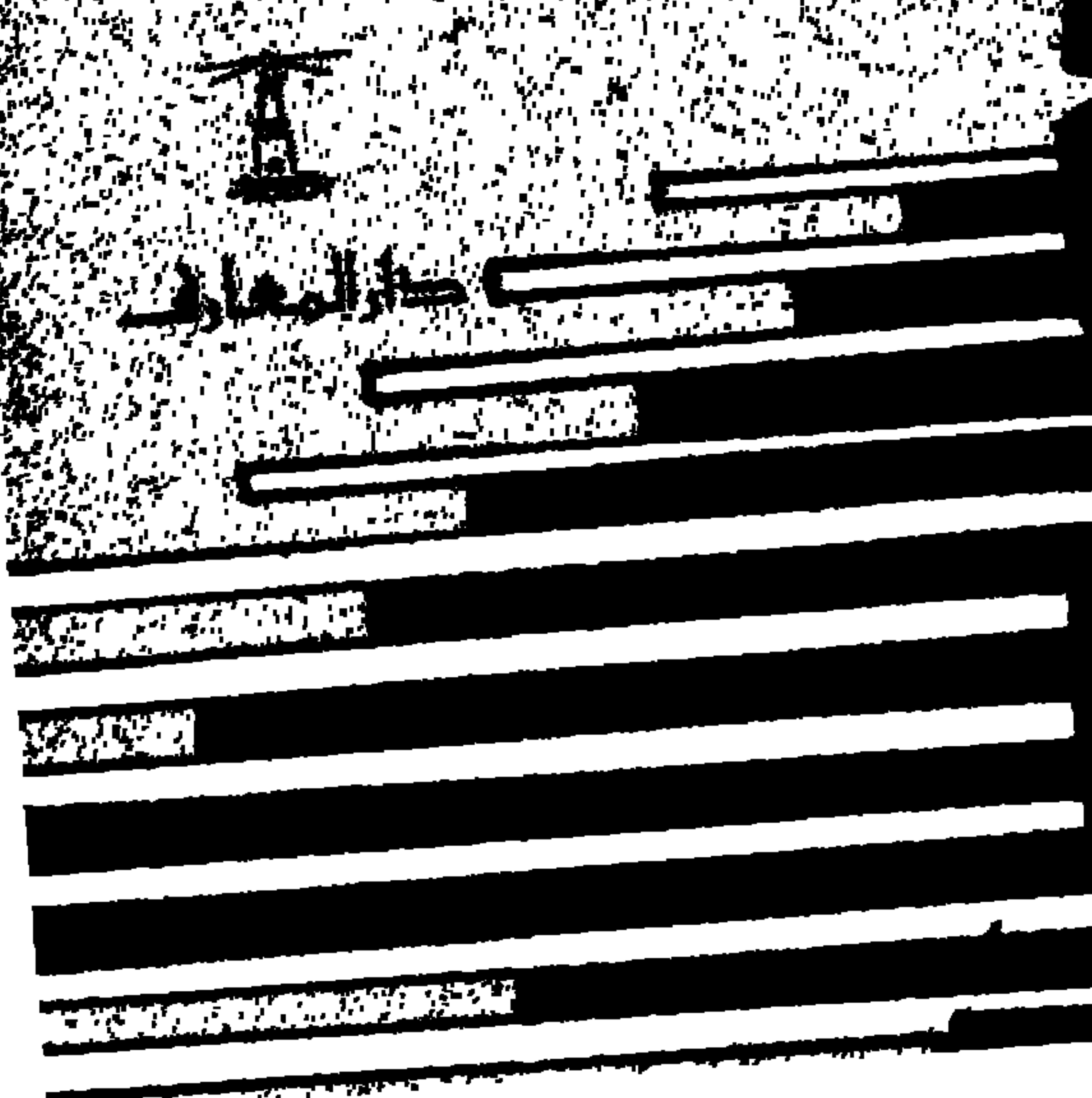
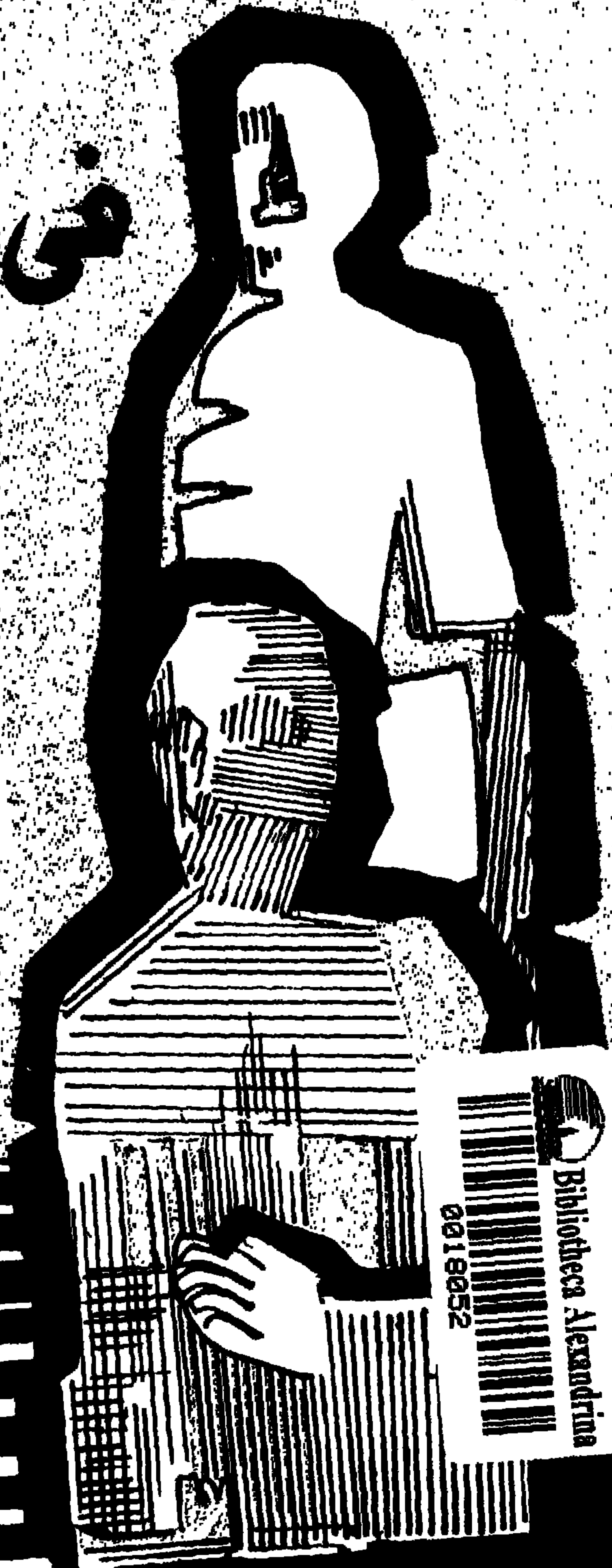


دكتور محمد إبراهيم الفيومي

في الفكر الديني الجاهلي



Bibliotheca Alexandrina
0018052

في الفكر الديني الجاهلي

دكتور محمد إبراهيم الفيومي

عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية
جامعة الأزهر



دار المعارف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ عَلَى
الدِّينِ كُلِّهِ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ
الَّذِينَ مَعَهُ أَشْدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ
يُكْرَهُوا بِحَدَّ مِحْزٍ فَظَلَمُوا ۗ بَلَّغْنَا سَيِّئَاتِهِمْ
فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ
وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ
فَأَسْتَفْظَ فَاَسْتَوَىٰ عَلَى سَوْقِهِ ۖ يُعْجَبُ الزَّرَّاعُ لِيَغْفَلَ
بِهِمُ الْكُفَّارُ ۗ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾

سُورَةُ الْفَتْحِ

فهرس الكتاب

الصفحة	الموضوع
٧ - ٥	مقدمة الطبعة الرابعة
١٢ - ١١	مقدمة رؤية الكتاب الفكرية

الباب الأول

٧٣ - ٢٧	الهلينية والمنطقة العربية قبل الاسلام
٢٧	عواصم العرب السياسية
٣٤	البيتراء
٣٥	تدمر
٣٧	دولة الغساسنة
٣٧	دولة المناذرة
٣٩	التراث الهليني ومراكزه العربية
٤٣	مدرسة الاسكندرية حاضره البحر
٤٧	مدرسة أنطاكية
٤٨	نيقولوس وظهور الهرطقة
٤٩	برنابا في أنطاكية
٥٠	من أهم جهود برنابا
٥٠	انطاكية تحت حكم تدمر
٥٢	مدرسة نصيبين
٥٣	مدرسة الرها
٥٥	آراء قلقة للمستشرقين

الباب الثاني

١١٢ - ٧٧	الهلينية بين الرفض اليهودي والتسليم المسيحي
٧٧	اليهودية ومكافحتها للوثنية الهلينية
٨٤	اليهودية وانتشارها في بعض القبائل العربية
٨٦	اليهود في نظر القرآن
٨٩	المسيحية الهلينية
٩١	المسيحية في المنطقة العربية
٩٣	الشقاقت المسيحية
٩٣	النساطرة

الصفحة	الموضوع
٩٥	أصحاب الطبيعة الواحدة
١٠٤٠	مناقشة العرب للرسول في مصدر القرآن
١١٢	رواية علاقة الرسول بحكمة لقمان
١١٣	عائقة القرآن باليهودية والنصرانية

الباب الثالث

٢٠٢ — ١٢٥	الصابئة والمجوسية
١٢٥	تاريخ الصابئة وجغرافيتها الفكرية
١٢٩	انتقالها الى جزيرة العرب
١٣٤	معنى الصابئة
١٤٢	اقسام الصابئة
١٤٢	صابئة الحنفاء
١٤٨	صابئة بوداسف
١٤٨	القرات الهندى
١٥٠	صابئة الأشخاص
١٥٥	صابئة الهند
١٥٦	صابئة الفلاسفة
١٥٧	صابئة أهل الكتاب
١٥٨	صابئة البطائح
١٥٩	حول نسبة مذاهب الصابئة
١٥٩	هرمس وعازيمون
١٦٧	بوداسف
١٧٤	أصل فكر الصابئة الأولى
١٧٧	أعمال الصابئة
١٧٧	هياكلهم
١٧٨	تعقيب حول فكر الصابئة
١٨١	من قضايا الصابئة وموقف القرآن منها
١٨١	ابراهيم والصابئة
١٨٥	الوساطة بين الانسان والله
١٨٦	ملاحظات على ما أورده الشهرستاني
١٨٨	ملاحظات على ما ذكره المسعودى
١٩٠	الزندقة عند عرب الجاهلية

الصفحة	الموضوع
١٩٠	ملاحظات على ما ذكره ابن قتيبة ..
١٩٤	على هامش الصابئة (المجوسية أقدم من زرادشت) ..
١٩٦	زرادشت ..
١٩٨	المجوسية والعرب ..
١٩٩	علاقة الاسلام بهم ..
٢٠٠	القدرية والمجوس ..

الباب الرابع

٢٦٠ — ٢٠٥	الكعبة مركز العرب الديني ..
٢٠٥	مكة وبناء البيت ..
٢٠٦	نبي الله ابراهيم والجزيرة العربية ..
٢١١	اله ابراهيم الخليل غير اله اليهود ..
٢١٤	النبوة الالهية عربية لفظا ومعنى ..
٢١٦	الكعبة بيت الله الحرام ..
٢٢٢	الكعبة والمرحلة العبثية ..
٢٢٣	الاتجاه نحو الوثنية وكيف نشأت ؟ ..
٢٢٦	مظاهر معبوداتهم ..
٢٢٧	سدنتها ..
٢٢٩	الاتجاه التوفيقي بين المظهر القبلي والديني ..
٢٣٧	معاهدات العرب التجارية ..
٢٣٨	المحتوى الفكري لمذهب قريش الديني (التحمس) ..
٢٤١	من نتائج التحمس (القرشي — الطواغيت) ..
٢٤٣	تقويم التحمس القرشي ..
٢٤٧	موقف القرآن من التحمس ..
٢٤٩	أسماء الذين أمرهم الرسول بتكسير الأصنام ..
٢٥٠	التشكك في الأوثان وسحب الثقة منها ..
٢٥١	موقف الساخطين على الأوثان ..
٢٥٢	المتشككون في أوثانهم ..

الباب الخامس

٣٠٢ — ٢٦٣	موقفهم من قضايا الفكر الديني ..
٢٦٣	نظرة تحليلية حول الوثنية العربية ..

الصفحة	الموضوع
٢٦٥	الوثنية في نظر الرازي
٢٦٦	اعتقاد الشبه
٢٦٧	اعتقاد في الأسباب الظاهرة
٢٦٧	تعظيم المجهول
٢٦٨	اعتقاد الأرواح
٢٦٨	اعتقاد المقدسات
٢٦٨	التجسيم
٢٧٠	موقفهم من قضايا الألوهية
٢٧٠	(أ) المشركون
٢٧٢	(ب) الدهريون
٢٦٣	(ج) الموحدون
٢٨١	موقفهم من الرسالة
٢٨٢	قضايا الغيب
٢٨٥	رمزيات أساطيرهم
٢٨٥	الاختلاف في النفس عند العرب
٢٨٨	الغول
٢٨٨	الهواتف والحان
٢٨٩	التطير
٢٩٠	الفرق بين الفال والتطير
٢٩١	الكهانة
٢٩٧	تعقيب
٣٠٣	ملحق على هامش الأخبار العربية
٣٠٥	العربي والعبري
٣١١	مكتشفات مصرية
٣١٩	رسالة الجاحظ
٣٧١	لمراجع العربية
٣٧٩	الفهرس

مقدمة الطبعة الثالثة

طرح العرب قديما قضية « علاقة الرسول بالاديان السابقة » على الرسول ابان دعوته ودونها القرآن ورد عليها وكان اهم ما يبغون من ورائها دعوى : بشرية القرآن .

وتعنى بشرية القرآن ، من حيث السند التاريخي : عزوة الى تاليف محمد . أى أن القرآن من وضع بشرى ، وليس من وضع الهى وتعنى القضية أيضا أن محمدا ليس برسول .انما هو مفكر استطاع أن يؤلف القرآن .

هذه هى جوانب قضية بشرية القرآن سجلها القرآن ، كدعوى مفتر من العرب على الرسول ذكرها القرآن فى قوله تعالى : « ولقد نعلم أنهم يقولون : انما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون اليه أعجمى ، وهذا لسان عربى مبين » هذه الآية على قصرها تناولت القضية شكلا ومضمونا ، دعوى وردا عليها حين قالت : « انما يعلمه بشر » هذه هى الدعوى أما الرد عليها فجاء تاليا بعدها مشارا اليه فى الآية ذاتها فى قوله تعالى : « لسان الذى يلحدون اليه : أعجمى ، وهذا لسان عربى مبين » .

فالدعوى والرد عليها من قبل القرآن أفادنا من حيث الجانب التاريخي : انها قديمة منذ أن ادعى الرسول رسالته وقام بععب الدعوة اليها . كذلك تفيدنا من جانب آخر أن القضية حين سجلها القرآن - ونحن نعلم ان القرآن كتاب عالمى ، لا يختص بزمن ولا بمكان ولا بأمة - معنى ذلك أن تسجيلها إنما هو تسجيل للرد على تلك القضية ، قضية بشرية القرآن ، وعلى العقل الانسانى أنى وجد وحيثما اتفق له أن ادعى تلك الدعوة على الرسول ، فالقرآن سجلها ليعين المسلم وهو بصدد التيارات الفكرية أن يدفع تلك القضية لان القرآن دافع عنها ثم هى فى النهاية تصيب بصميم دينه هذا ما تعنيه قضية بشرية القرآن بشكل عام .

أما شكلها التفصيلي - وهو موضوع الدراسة - فانها تحتاج الى تبسيط القضية بعد تجليلها تحليلا تاريخيا من جانب ، وواقعا من جانب آخر ،

مع الاهتمام بالجانب المنطقي في مناقشة بعض القضايا الموضوعية التي سوف نعرض لها فيما نعرض لي طرح العقل سؤاله من خلال اثاره دعوى بشرية انقرآن .

وحقيقة هناك أسئلة كثيرة لكن من الممكن أن نتردد الى سؤال واحد يقول : اذا كان الرسول ألف القرآن وهو الآن بين أعيننا وبين أيدينا فياترى متى تعلم الرسول ؟ وفي أى مدرسة من المدارس القديمة انتظم فيها ؟ . . ؟ وياترى عندما ألف القرآن هل استمده من المسيحية ؟ أو من اليهودية ؟ أو من المجوسية ؟ أو تلك الصابئة ؟ أو من الوثنية ؟ . . ؟ وهل كانت هذه الأديان أو تلك الملل منتشرة في الجزيرة العربية ؟ . . ؟ وبأى لغة كانت ونحن نعلم أن هذه الأديان ليست ناشئة في مكة وإنما نشأت بعيدا عن الجزيرة العربية وحقيقة كانت بلسان اعجمى .

فالمسيحية لم تكن بلسان عربى وإنما كانت لسانا سريانيا .

واليهودية لم تكن بلسان عربى وإنما كانت لسانا عبرانيا .

والمجوسية كذلك لم تكن بلسان عربى إنما كانت أعجمية باللسان الفارسي .

كذلك الصابئة لم تكن بلسان عربى وإنما كانت لسانا آراميا .

كذلك الوثنية الفكرية لم تكن باللسان العربى إنما كانت لسانا أغريقيا رومانيا على أساس أن الفلسفة اليونانية كانت لا تعتقد بعقيدة دينية وإنما كانت تؤمن فيما تؤمن بالعقل الانسانى وفكره وحسب ، فاذا ما تكلمنا عن الوثنية الفكرية لابد للذهن أن يتجه نحو اليونان .

أما الوثنية المنتشرة في العرب فانها كانت وثنية ساذجة ليس لها مضمون فكرى .

وهى أيضا كما تذكر الرواية العربية انها وفدت الى العرب على يد عمرو بن لحي حينما جاء « بهيل » من بلاد « البلقان » أيام الاسكندر الأكبر هكذا جاء في المراجع العربية .

فالوثنية العربية بالرغم من أنها وفدت الى العرب فانها كانت وثنية لا تخرج عن عبادة الحجر من غير شكل فنى أى من غير صورة يخلعها العربى على هذا الحجر نحتا أو تصويرا انما كان يكتفى العربى من الحجر عبادته بحسب .

واضح مما قدمناه سابقا ان الأديان التى انتشرت فى الجزيرة العربية ومكة منها والتى جمعها الله فى قوله تعالى : « ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين والمجوس والذين اشركوا » الى آخر الآية .

هذه الأديان كما عرضنا سابقا أنها كانت أعجمية وفق ما قال القرآن (لسان أعجمى) فتسجيل القرآن لتلك الأديان يعنى من وجهة النظر التاريخية ان العرب كانوا يعلمون شيئا أو أشياء عن تلك الملل والنحل (الأديان والمذاهب) والمنقشرة فى أجواء الجزيرة العربية .

فهل يا ترى أى شيء تعلم منها محمد ؟ وما هى اللغة التى قدر ل محمد ان يتعلمها . . ؟ قطعا الاجابة سوف توجه بشكل تحليلى بمعنى أننا سوف نسير بخطوط متوازية مع تلك الأديان وعلاقة الرسول بها وذلك موضوع الكتاب :

وليس فى هذه الطبعة جديد أضفناه سوى تحرير ما رأينا تحريره وتنقيحه فهى مثل الطبعة الثانية التى تزيد كثيرا على الطبعة الأولى . .

والله من وراء القصد . .

محمد ابراهيم الفيومى

٦ صفر سنة ١٤٠٢

مصر الجديدة يوم الاثنين

٢٢ أكتوبر سنة ١٩٨٢

مقدمة

رؤية الكتاب الفكرية

أما قبل :

فمنذ ان كان للشرق تراث وهو ينقسم قسمين :

• * قسم مقدس •

• * وقسم غير مقدس •

أما القسم المقدس ، فهو الذى أوحى الله به للانسان أى : ما كان أصله
الوحي الالهى •

وأما القسم الآخر : فهو ماسوى ذلك •

ونعنى بصفة التقديس :

١ - أنها تشتمل على معنى تعبدى •

٢ - أن الانسان مطالب بعدم ردها •

٣ - أنها محددة من حيث الاتجاه العام بأوصاف معينة :

فهى من حيث الزمان : لا يسأل عنها الانسان الا فى سن معينة ، ومن
حيث المكان : يتعين على الانسان فى عبادته أن تكون نحو مكان معين •

ويرتبط الانسان بها من خلال مستوياته العامة : من مستواه العقلى
الى مستواه الوجدانى • • وتبرز فى سلوكه تطبيقا عمليا •

ولها أركانها المكونة لها من حيث أساس بنائها :

الركن الاول : الله ، الركن الثانى : الوحي ، الركن الثالث ، الرسول •

والتراث المقدس يرتبط بالمادة والروح معا غالبا •

وتصبح الصفة العامة للتراث المقدس : أنه موضوع للعبادة أو للتعظيم

مثل الكعبة والحجر الأسود ، فانها مثل للتعظيم وليست للعبادة •

والعبادة تقتضى :

عابدا : وهو الانسان • ومعبودا : وهو الله • وعلاقة : وهو الرسول •

والتراث المقدس : الانسان معه بين امرين :

* اما مؤمن •

* واما غير مؤمن •

فنلمس هنا أننا أمام امرين : اما واما ، أى أننا فى حرية من حيث الاعتقاد فى التراث المقدس • ولكن حرية الاعتقاد مقرونة بالتخويف والوعيد وسوء العاقبة والطرده من رحمة الله •

فعدم الايمان على المستوى النفسى : يودى الى تشويش فى الرؤية نحو غد الآخرة ، هذا من حيث مستوى الانسان النفسى •

ومن ناحية عضويته فى الهيئة الاجتماعية : فهو - أيضا - مهدد بالطرده منها ، وغير مشهود له بالعدالة ، وقد تنادى بعض طبقات الهيئة الاجتماعية بحل دمه ، فلا رفق ولا لين - من ناحية الهيئة الاجتماعية - مع مريض الايمان ، لأن هذا المرض الذى يلم بصاحبه تنتشر عدواه فى المجتمع ، وهو من الأمراض الخبيثة التى يرى المجتمع أنه يجب عليه مكافحتها ، ويحجر على من فى قلوبهم زيغ مخافة الفتنة • هذا من ناحية عضويته فى الهيئة الاجتماعية •

أما من حيث صلته بتراثه التاريخى : فهو بموقفه الراضى للايمان يسبق عصا طاعة تراثه ، وتلك وصمات سياط قاسية يتعرض لها من يزور عن الايمان ويجاهر بازوراره •

وفرى حالات شتى لمن توقفوا بين الايمان وعدمه : فنرى منهم من التزم الصمت بعدم المجاهرة مع دأبه فى البحث والمطالعة مثل : الامام الغزالي ، قال واصفا حاله عندما انتابته هذه الحالة - حالة تهديد ايمانه الراسخ : مكثت على هذه الحالة قرابة شهرين بحكم الحال لا بحكم النطق والمقال ، أى ظل صامتا مع دأبه على البحث عن جسر الحقيقة ، ثم انتهى بعد مرحلة صمته الى نتائج الايمانية التى ربطته بالهيئة الاجتماعية وبعقيدته وتراثه التاريخى وجعلته عن جدارة يوصف بحجة الاسلام ، ويبدو أن الغزالي كان يرى وصفه بذلك اللقب حقا فى نفسه ، وذلك عندما قال فى كتابه « المنقذ »

لما رأى حالته وما هو عليه من قلق في حله وترحاله قال : وارتيبك الناس في الاستنباطات وقالوا : عين أصابت أهل الاسلام .

أى ما أصاب الغزالي أصاب أهل الاسلام . . على أى حال هذا نوع من الاسراف في فهم الذات ، والا فكيف نفهم أو يفهم الغزالي : أن ما طرأ عليه من اضطراب أو قلق اضطراب أو قلق في أهل الاسلام . هذا صنف .

وهناك نوع آخر من الناس تلابسه تلك الحال - حال التوقف في مسائل الايمان - تراهم يهربون منها وبها الى آراء فلسفية ويلبسونها البسة دينية وفي النهاية لا ندري هى فلسفة أو دين ؟ على أى حال هو نوع من الملقى الفكرى الاجتماعى يلجأ اليه صاحبه حذر التنكيل به أو اضطهاده من قبل الهيئة الاجتماعية ، وعرف التاريخ الفكرى هذا اللون أيضا وحفظ شعاره وهو : التوفيق بين الفلسفة والدين . شعار طريف فيه طرافة ومتمعة للعقل بيد أنه من ناحية النقد العقلى أو العلمى نراه هشاً ومشوشاً : لأننا فيه نساوى بين ما هو مقدس ونحمل أنفسنا على الدينونة به ، وبين ما هو غير مقدس نرى فيه حريتنا الفكرية وذاتيتنا وتمردنا .

غهل يا ترى أى الصفتين أردنا الباسها بالآخر ؟ .

هل أردنا الباس صفة التقديس للفلسفة أو أردنا الباس صفة البشرية للدين ؟ على أى حال جانب الطرافة واضح وجانب التشويش فى القضية أوضح ، لذلك قلنا أن هذا لون من الملقى الفكرى للهيئة الاجتماعية وفى نفس الوقت توسعة فى مفهوم المقدس ، وفى توسعة مفهوم المقدس جور على العقل والدين .

بعد ما سبق نرى : أن التراث المقدس ضرورى ، وتظهر ضرورته فى حياة الانسان الدينية وفى المجتمع حين لا يحجر على الفرد الا بعد مجاهرته بعدم الايمان ، وأما حقيقة العقيدة فهى تحدد فى المستوى النفسى وأمام الله .

وأن التراث المقدس هو ما كان من الله أو من رسوله وصفة التقديس تطلق حقيقة على ذلك شكلا وموضوعا .

وأصبحت القاعدة في مصدر المقدس وغيره قولهم : كل انسان يؤخذ من كلامه ويرد الا صاحب الروضة الشريفة .

تطور مفهوم المقدس :

ثم تطور مفهوم المقدس في نفس الانسان وفي علاقته به ، وكما لاحظنا ان الالتزام بالمقدس شيء ضروري ، وليس بالهين ولا باليسير على الانسان تركه ، ولا سيما ان تركه فيه ما يعرضه لمصاعب نفسية واجتماعية لا يقوى على تحملها وان تحملها فسوف يكون في تحملها انتحاره .

وبالرغم من أن المقدس تكتنفه تلك الصعوبات أو كما وصفه القرآن (انا سنلقى عليك قولا ثقيلا) .

وقال : « انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان أنه كان ظلوما جهولا » .

نقول : بالرغم من تلك التبعات فانه وجد بجانب الأديان الصادقة والنبوءات الصادقة أديان كاذبة .. أي وجد بجانب المقدس الحقيقي مقدس غير حقيقي ..

معنى ذلك - كما يفيدنا التاريخ - أن في الانسان جانبا يجب الالتزام ببعض المبادئ وعليه أن يرعاه بالاعتقاد المقدس ، فطلبها لحاجات الانسان الروحية تبني متنبئون كثيرون هذا الجانب وأثروه بما شاء لهم من أثارا وبما طاب لهم من قول .

فالنبوءات الكاذبة توسع وتخيل في مفهوم المقدس ، وقلنا : توسعا ، لأنها في حقيقة الأمر ليست من عند الله ، لا وحييا ولا تكليفا ، وتبين لنا في وضوح أن وجود المقدس الذي حمل الانسان نفسه عليه كان لا يرى فيه أنه يلغى حرقيقته لأن عدم وجوده دعاه الى طلبه وأعانه عليه شعوره بالحاجة اليه .

كذلك النبوءات الكاذبة : هي شلت العقل الشرقي عن أن يتابع وظيفته ، وكان دور العقل معها شاقا وعسيرا حينما عزلته عن مناقشتها أو حتى

عن فهم رموزها كما عرضت الانبياء الصادقين لمحن القتل والاضطهاد وهم
بصدد تحرير الفكر البشرى والالهى من زيف المزيفين ولبست النبوءات
الكاذبة ثوب الصادقين لتلبي حاجة الانسان الضرورية الى المقدس الحقيقى .
وفى ذلك كله ما يؤكد أن فى الانسان حبا وميلا طبيعيا يدفعانه الى الالتزام
بمبادئ مقدسة ان غابت يبحث عنها فى نفسه ويصاب بالقلق ان لم يجدها
ويبحث عنها المجتمع ان غابت عنه ، فهى عامل أساسى فى بنائه وتوجيه
علاقاته .

• ويصبح التاريخ فى سيره من غير النبوءات الصادقة لا يسمو نحو الله .

فالنبوءات الكاذبة ساهمت فى تزييف معتقدات الانسان الدينية وألتهته
عن معتقداته الصادقة ووسعت مفهوم المقدس حتى انحرفت بعبادة الانسان
الصحيحة الى شتى الأنماط : كالنار والكواكب وغيرها . وعلمت الانسان
الشرقى كيف يخضع عن ذلة لغير الله ، وأن الشرق - من الناحية التطبيقية -
لا يحكمه إلا مستبد عادل يسهم بدوره فى إعادة هذه المعانى المزيفة والا كيف
يعدل وهو مستبد ؟ وكيف يستبد وهو يعدل ؟ وهو أيضا معنى من معانى
النبوءات الكاذبة التى عودت الانسان الشرقى أن يخضع لغير الله باسم
الانسان المعصوم من الخطأ وهو العادل .

بهذه الأوصاف التى ألبسها المزيفون عليه أمن به الشرقى على أنه حقيقة وليس
أسطورة ، وبات يمنى نفسه به كما منى الفارابى به نفسه فى كتابه آراء أهل
المدينة الفاضلة ، ومازال بيننا من يعتقد فى حكم المستبد العادل ، وهو على
أمل اللقاء به ، ومازال ينتظره باسم المهدي المنتظر ، أو الامام المعصوم ،
ليس هذا المستبد العادل - المثل الأعلى فى نظرية الشرق السياسية - يماثل
نظرية الحزب الواحد فى روسيا الشرقية من حيث الاهتمام بالرأى الواحد ،
وعدم الخوض فى تصرفاته بالتعديل أو النقد ، وعلى الانسان - أخيرا - أن يقدم
ولاءه فقط للحزب ، أو المستبد العادل ، وأن ما لدى الحزب من آراء تماثل
المقدس وفى النهاية : انها رؤية واحدة لراى واحد وما وراء ذلك كله من
تخويف وارهاب ، وذلك عين التطرف والاستبداد المقدس فالانسان الشرقى
- وهو رائد فى حضارته المعاصرة - حكم نفسه من خلال تراث تاريخى

مزيف وهو نظرية الواحد المستبد العادل ، وهذا لون من التوسعة في معنى
المقدس على المستوى السياسى .

ووثنية الاغريق تعنى من جانب الانسان : اشباع حاجته الضرورية
الى ايجاد معنى المقدس في حياته . ورحلات فيثاغورس وأفلاطون الى الشرق
ساعدتهم على أن يرفضوا وثنيتهم ليحلوا بدارهم وفكرهم فكرة : مثال المثل ،
أى الذى لا يتغير ولا يتبدل وهو المثال الأعلى الذى تتحول الانسانية اليه
محاولة العود الى ما كانت عليه في رحاب الله . هذا توسع في مفهوم معنى
المقدس ومحاولة منهم لايجاد صورة طبق الأصل ، لما عليه الدين الحق ، غير
أنها في النهاية تفتقر الى شعار خاتم النبوة ، ليجيز معناها الحقيقى المقدس ،
على أى حال نرى في فكرة أفلاطون الفلسفية : تمردا حقيقيا على
الوثنية ، لأنه كان يرى : أن الوثنية ان صحت عقيدة شعبية ، فانها لا تصح
عقيدة للفلاسفة الكبار أو حتى صغار الفلاسفة .

هدف فكرة أفلاطون الفلسفية - ذات الطابع الدينى الشرقى - السعى
بها الى تنزيه الله عن مستوى الفكر الفلسفى ، عن مستوى العقيدة
الشعبية الوثنية ، وشاعت فكرة أفلاطون على يد من بعده من الفلاسفة الذين
رضوا لانفسهم أن يأخذوا بفكرته ، ثم راحوا يطبقونها على القرآن ، الذى
أنزله الوحي الالهى ، وقالوا : أن ما فيه يلائم الحياة الروحية السائدة بين
العامّة وذوى السباجة فى رأى ، أما العلماء المستنيرين ميرون - من وراء
استبطانه وما يعين عليه الادراك - ما فيه حق وصدق ، وهم أهل التأويل .
ومنهم أهل التوفيق بين الفلسفة والدين ، الذين يرون : أنه ليس من المصلحة
الدينية أن يكشف للعامّة . أما من ناحية الموازنة العامة بين أفلاطون وأهل
مدرسته من بعدهم فانا نرى فى موقف أفلاطون جدوى وله مسوغاته ، وهو تمرده
على الوثنية الاغريقية ، أما موقف هؤلاء الفلاسفة كالفارابى مثلا : فانى
رجوت نفسى أن تفهمه أو تنظر جدوى رأيه فتأبى عليها أن تفهمه ، وتحصل
لها من البحث فى جدواه : أن فيه من التقليد والتعصب الذى يجانب عقل
الفيلسوف أو المفكر ما فيه . روى عن على : وقد سئل : هل خصكم رسول
الله بشيء ؟ فقال : « ما عندنا غير هذه الصحيفة ، أو فهم يؤتاه الرجل فى
كتابه » فعلاقة المقدس الحقيقى بالانسان هى كما قال على : « فهم

يؤتاه الرجل في كتابه « من غير مصادرة ، أو تمييز خاص ، لأن معايشة فهم كتاب الله حق للجميع بشروطه .

على أى حال أسهمت نظرية أفلاطون في مجال السياسة فخلقت حرية الرأي واحترامه ، أو الرأي ومعارضته ، فلا يكافح أحدهما الآخر ، وكان هذا معنى من معانى الديمقراطية اليونانية .

ومن الذين ترسعوا في مفهوم المقدس : الذين دعوا الى عبادة الوثنية في شتى أشكالها :

منهم الذين دعوا الى عبادة الكواكب ، ربطوا مصير الانسان بمطالعها وأن ميلاده مرتبط بالصدفة ، فهو ان صادف ميلاده سعودا في طالعه فهو سعيد ، وان صادف نحوسا في طالعه فهو نحيس أو شقى ، فعبادة الكواكب خلفت : مشاكل الجبر ، والتسيير ، والصدفة ، والحظ ، وفيها مصادرة حقيقية على الحرية الانسانية ، وأصبح الوجود معها يشكل حرجا في الوجود الانسانى ، ومع ذلك عبدها الانسان ، واستلطف الارتقاء في احضانها ، واستعذب شقاءه في عبادتها ، فجبلة على رضى فيه معنى المذلة حين منحها الانسان معنى المقدس الذى لا رد فيه ولا مراجعة .

ومع ذلك وجد من الانسان من ثار على ذلك النوع من العبادة ، ورد للانسان حريته واعتباره ، فاستحدث السحر ليلى به سيطرة الكواكب عليه وعلى مصيره . وبالسحر استطاع الانسان أن يعلن سيطرته على الارواح ومدى قدرته على تسخيرها ، ألهمته عرفانا بالغيب وأعانته على قضاء حوائجه ، فغير بها من مستقبله ورفع بها من عظمته ، وألغى من حياته سيطرة الكواكب عليه ، وبواسطة السحر استبانتم قدرة الانسان في تمرده على عبادته .

ولأول مرة تقع دولة الارواح مستعمرة للانسان ، يجندها لخدمته ، ولا تقوى على النفور منه الا برسالة الهية : قام بها نبي الله موسى ، وذلك حينما بات الناس في خوف وعدم أمن من كيد السحرة ، فرهبهم الناس أى وقع الناس وهم يفرون من سيطرة الكواكب الى أسر السحرة ، ودخل (م ٢ - الفكر الدينى)

الإنسان مرة ثانية تحت سيطرة الإنسان وهو من نفسه نرى : « نوحاً بن سحر
السحرة والأعبيهم ، وبه قناعة ان عبادة الأرواح أصبحت غير مجدية إلا عن
طريق السحرة وارضاء أهوائهم فأصبح السحر يؤدي الى نوع من الاستعباد
للإنسان .

فمن ثم اتت الحكمة الالهية - وهي دائماً تنف - ببثاب الحربه
الانسانية - أن ترسل رسولا ليبطل كيد السحرة ويحقق الحرية الانسانية
وانها لا تدين لغير الله . ودائماً رساله الله ترمي الانسان في حريته وفي
عبادته وان ما توحى به لا سيطرة لأحد عليه وليس عليها تيم سوى كتاب
الله ، وأما من يدعى القوامه على كتابه فانه يدفعه الى ذلك حبه النفسى لأن
يكون شيئاً في الهيئة الاجتماعية .

وفي عبادة الحجر والشجر والشكال الوثنية المختلفة توسع من الانسان
في دعوى المقدس ، ونلاحظ من وراء توسع الانسان في الرمزيات المقدسة
شيئاً جوهرياً يدفعه ليحدث هذا التوسع هو : شعور الانسان ببارادته
وحريته وخوفه من الكون وليس حبه له .

وعلى رداءة الوثنية في تظهرها فمعنى الحرية الانسانية نادى فيها ،
فالانسان الوثنى ساء ان يتس ، فدفع أنه ، واختار حبر . ومثل
شكله ، وحدد مكانه ، فنتاه ، ثم ان ساء ان يستبدل بمشتر آخر او
بشكل أحسن ، ثم ان ساء الانسان الوثنى ان يمدح بن الله . ان ساء .
كل ذلك فعل غير مبال احدى فليس فيها سيطرة البارادته الذاتية على
ما صنعت من رمزيات المقدس .

لكنها حرية وبله بنيلة حين منحت عظمتها ارمزيات زواله لا تفر
عنيا شيئاً . . لكن لماذا فعلت ذلك ؟

نرى - من وجهة نظرنا - أن التوسع في مفهوم الذات من سيطرة الانسان
بمعنى الخوف المتزايد عند الانسان السرى ، وشاك ساء ان الانسان عن
فهم الكون . ثم خافه فتمسه ، فصفة الإيقاب من الكون ساء ان ساء الانسان
الوععية المتعددة في الشرق . فالديانات الودعية التسوية دوا بالذعة الخوف

الناسئة من عدم تعقل الوجود • فالافراط في المظهر التقديسي للأشياء مظهر من مظاهر الخوف •

والتوسع في مفهوم المقدس : فيه راحة لوجدان الشرقي ، الغاء عقله • •
والا فلماذا توسع في المقدس وهو يعلم أن التوسع ليس من مصلحة العقل •
لذلك نقول - ومن غير افراط فيما نقول : أن الشرقي عندما يعجز عن فهم الشيء يخافه ، ثم لا ينصرف عنه حتى يخلع عليه اثرا من آثاره النفسية ، وهو التقديس ، ومن خلال نزعة الخوف الكائنة في نفسه من الوجود تسهل قيادته ، كذلك يتميز الشرقي بالاسراف في فهم ذاته وذلك من خلال نصوص مقدساته فلا يكف عن نجوى ذاته بها •

فاليهودية تقول : نحن أبناء الله وإحباؤه • • وأنهم شعبه المختار •

والمسيحية تقول : نفس القول مع اعتقادهم بأنهم أمة الخلاص •

والمسلمون على حالهم هذا يقولون : خير أمة أخرجت للناس من غير أخذ بالقرآن الذي يهدى للتي هي أقوم •

فهو لا يجب أن يفهم ذاته من خلال واقعها ويواجه أخطاءه ، وهو لا يجب أن يفهم ذاته فقط إنما يتعالى على فهمها ويعتبر كل من يشير الى خطأه يتحسس العورات •

فالتعالى عن فهم واقع الذات خلق له من الأسباب ما يبرره مثل :

تبرير الأخطاء ، كأن يبرر الشعب أخطاء الحاكم وهو يعلم أنه ينافقه •

والقاء المعاذير أسلوب لازم للمنطق التربيري •

ومن ذلك كله الافراط في أساليب المجاملات •

كل هذه خصال و ادعاءات ، تخدم التعالى وترفع من شأن الفردية في نفس الشرقي لأنها أساليب نابعة من نزعة الخوف ، تشيخ في فرجسية الذات غرورا واستبدادا ، دون أن تساعد على فهم أخطائها ، وليس ذلك يعنى أن الانسان الشرقي ليست عنده تمييز الخطأ من الضواب ، قطعا لا نعنى هذا ، إنما نعنى أن عنده قدرة التمييز ، إنما يغلب أسلوب التبرير والمعاذير والمجاملات على مواجهة الخطي بما خطأ فيه ، ولذلك نراه فيما بعد

يجكى نفس العمل ثم يصفه بالخطأ - الذى برره من قبل - على شكل رواية تاريخية وبعد أن يزول عامل القهر مصدر خوفه .

فاذا قدر للشرقى أن يفهم قبل أن تحتويه نزعة الخوف تفزد وغلب وسيطر ، وذلك كان منه على فترات متطاولة فى تاريخه وسوف أسوق مثالا شاهدا على ذلك وهو منهاج الاسلام :

تضطر الشرقى كثيرا وهو يبحث عن ذاته ، من خلال الديانات المتعددة ، وبينما هو يتعثر عثر على حقيقته فى نظام الاسلام ومنهاجه ، ووجد فيه ما يجيب على أسئلة شتى ، استغلق عليه فهمها ، خلال رحلته الطويلة فى البحث عن حقيقته ، وفيه ألفى ما تتجاوب معه النفس الانسانية من حيث هى نفس انسانية لأنه ، وهو الصيغة النهائية لسلسلة الوحي الالهى ، قدم المزيد مما يساعد الانسان على تفهم حقيقته من خلال واقعة وجوده ، وعلاقاته بالله . وان شرعية مبدأ التوبة فى حد ذاته الجى تصوراتنا عن الانسان الملائكى وأمكانية وجوده . ومعنى ذلك أن على الانسان أن يفهم ذاته من خلال بشريته أو من خلال قول الرسول : كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون .

لذلك نرى أن الاسلام يركز على أمور تبرز منها :

أولا : حدد مفهوم القدس من غيره وحدد مصدره وهو الله وما أوحى به على رساله ، بذلك التحديد كفل للعقل مجاله وحرية .

ثانيا : سد الطريق على كل متخبيء بقوله عليه السلام : « أنا الباعث فلا تخبى بعدى » .

وقوله تعالى : « لليوم أكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام بيثنا » .

وتلك مكرمة الاسلام الحقيقية. لأن هذا المبدأ الذى قرره الاسلام حمل الفعل الانسانى مسئولية الكفاح ضد الذين يحاولون أن يعوقوا من مسيرة العقل الانسانى ، باسم التنبؤ أو باسم الأوصياء الشرعيين من قبل

الله . . . وأبطل قول كل من يدعى العصمة ، ولا يفيد معنى انتهاء النبوة
انتهاء الدين لان الحياة الدينية باقية ببقاء الوحي الالهي وهو القرآن
وسنة نبيه .

ثالثا : دعا الاسلام العقل الى وظيفته ، ووظيفة العقل في نظر الاسلام :
ان يقوم بعبء وظيفته الشرعية ، وهي الفهم ، والتدبر ، والتفكر ، والا يدع
وظيفته هذه لاي داع مضلل ينهاء عنها .

قال تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا
فيه اختلافا كثيرا » .

بذلك أرشد العقل الى أخص وظائفه : وهو الفكر ، حتى ولو كان في
القرآن أو في مصدره . وكان هذا الوضع طبيعيا من دين الغي طريقا طويلا
أزدهم فيه متنبئون كاذبون : وانها لدعوة استجاب لها التاريخ نفسه على
مستواه العالي .

رابعا : الغي الخوف الذي يدفع الانسان ليتوسع في المقدسات بقوله
تعالى :

« وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه » .

بذلك رفع عن كاهل الانسان عبء الخوف ، الدافع الى الذلة ، ليحل
محلها : الخشية لله فقط . . . فرد بذلك الى الانسان اعتباره .

خامسا : يعتبر الانسان في نظر الاسلام : « خليفة الله » وصور الرسول
همة ذلك الخليفة بقوله : « لو تعلقت همة ابن آدم بما وراء العرش لנالتة »
ومعنى ذلك أن على الانسان أن ينهض بعبء خلافته ، وان عليه في سبيل
ذلك : الأخذ بمبدأ الشورى الذي قرره الاسلام ، فان سلك سبيل الاسلام
الغي الحكم الفردي من طريقه وكل تصوره عن المستقبل العادل .

والله ، وهو حقيقة العقيدة الاسلامية ، ليس جبارا ولا متحيزا للمسلمين ،
كاهل اليهود وأى اله في أى دين . انما الله في الاسلام تتحدث عنه آياته
في الكون حديث العقل تارة وحديث الوجدان ، تارة أخرى ، وفي ذلك كله
ما يؤكد المعرفة في النفس الانسانية ، ويعين الانسان على تفهم وجوده في
واقع الوجود .

فمقيدة المسلم ، قوة من الحب ، وليست ضعفا من الخوف ، فحملها الانسان حين حملها تفتح بها عقله وأطمأن اليها وجدانه .

أما حين تخلى عن رسالة الاسلام ، وكفاه منها انتسابه الاسمى اليها فانه تردى إلى طبيعة الخوف ، فجبن دون مسئوليته أمام الاسلام ، وانقاد مع الخرافة التي تسلك الى مخاوفه ، وأعانته على توسعة معنى المقدس مرة ثانية ، وتلك مرحلة يقاسيها دعاة الاصلاح .

بذلك كان الدين الاسلامى بما قدمه للعقل الانسانى - من بين سائر الأديان التي حفلت بها المنطقة العربية - الصورة الوحيدة في التاريخ التي تجاوبت معها الارادة العربية .

أما الآن فان الارادة العربية متخلفة كثيرا عن فكرها لعوامل كثيرة ترجع - في نظرنا - الى نوع الولاء والحكم ، فبعض هذه الدول محكوم بعصبية الزعامة الاسرية ، والبعض الآخر ، محكوم بعصبية الزعامة الثورية ، وفي الشكلين معا كان ولاء الحاكم لنوع عصبية انتماؤه ، أما الولاء للشعب ، فغير متبادل بينهما الا بما تحتمه ضرورة الجاملات ، واذا كان الفكر لا يعرف ولاء غير ولاءه الانسانى ، فان نظم الحكم عاقت تجاوب الارادة معه ، وفي هذا كله ما يعوق النهضة العربية الاسلامية عن بعثها الحقيقى ، لكن متى تتجاوب الارادة العربية لتقوم بعبء رسالتها مرة ثانية ؟

دكتور محمد ابراهيم الفيومى

مصر الجديدة فى ١٠/١١/١٣٩٩ م

١ / ١٠ / ١٩٧٩ م

ابواب الكتاب

- الباب الاول : الهلنستية والمنطقة العربية •
- الباب الثاني : اليهودية والمسيحية في المنطقة العربية •
- الباب الثالث : المسيحية واليهودية •
- الباب الرابع : الوثنية والفكر العربي •
- الباب الخامس : من قضايا فكرها الديني •

البَابُ الْأَوَّلُ

الهَيْفِستِيَّةُ وَالنُّطْقَةُ الْعَرَبِيَّةُ
قَبْلَ الْإِسْلَامِ

• مواضع الصوب السياسية :

لم يكن العرب قبل الاسلام في عزلة عما حولهم : فكريا ، أو اجتماعيا ، أو اقتصاديا ، وليس ثمة داع لها ، فلم يؤثر تاريخيا ، أنه ضرب عليهم سبور يعوق من حركات الدخول في الجزيرة العربية أو الخروج منها ، وليست الجزيرة العربية بالأرض الخصبة ، التي تكفل لقاطنيها وفرة في العيش ، وخصوبة في الرزق حتى يكره العربي في حبها السعى عن تحصيل ضرورات عيشه . إنما كانت طبيعتها قاسية جافة ، وأرضها جرداء مقفرة ، ورغم أهلها أن يضربوا بابلهم في أفناء الأرض شهورا ، ليصيبوا منها أقاتهم ، وضرورات عيشهم ، ونرى في القرآن تسجيلا لهذه الرحلات في سورة كاملة - سورة قريش - قال تعالى :

« لا يلاف قريش ايلافهم ، رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت ، الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » . هذا من ناحية حركات الخروج منها :

أما من ناحية حركات دخول الناس فيها - أي الجزيرة - فله من الدواعي الكثير :

ففيها الكعبة : وهي - من البيوت السبعة القديمة - مما يطمع اليها الرائي أو السايح للتعرف عليها ، وهناك روايات تاريخية تذكر : أن الفرس تصدروها كثيرا (١) .

كما دخلها جيش أبرهة الحبشي (٢) ورحل اليها قديما نبي الله ابراهيم وأقام ابنه اسماعيل فيها وجدا معا بناء الكعبة وأسسها حولها دين التوحيد .

(١) يراجع المسعودي - مروج الذهب ج ١ ص ١٨٨ قال : وقد كانت أسلاف الفرس تتصد البيت الحرام ولطوف به تعظيما له ولجدها ابراهيم .

(٢) وكتب غير واحد من اليونانيين المؤرخين : أن أبرهة زحف على مكة في مركب يجرها أربعة من الفيلة وأن جيشه لم يعد منه الا القليل لكثرة من مات منه بالوباء : أبو الانبياء : المعتاد . كما لجأ اليها النساطرة وأصحاب الطبيعة الواحدة وكلا المذهبين اضطهدا منهايتها ودينها .

يذكر القرآن ذلك فيقول : واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا أنك أنت السميع العليم « وهي وان كانت من حيث طبيعة جوها لا يطمع فيها طامع ، مما جعلها بمعزل عن أطماع السياسيين ؛ أصبحت بذلك كأنها منطقة حيادية ، ولهذا السبب - وهو عزلتها - رغب فيها اللأجئون السياسيون الذين وقعوا فريسة للاضطهاد السياسي ، أو الديني ، فكانوا يفرعون اليها لأنهم يجدون فيها اللجأ الآمن المطمئن وكذلك جاليات اليهود ، والنفر من النصرارى ، ما دخلوا تلك البلاد الا فرارا من حملات الاضطهاد الرومانى التى وقعت عليهم .

لذلك لم يكن بعيدا علينا أن نجد فيها - كما ذكر القرآن - من اليهود والنصارى ، والمجوس ، والصابئين ، والذين اشركوا ، وتجد فيها : الأصنام ، والأوثان ، ومصطلحات دينية غير عربية مثل : الجبت ، والطاغوت .

ومعلوم : أن اليهودية لم تنتشأ فيها ، ولا النصرانية ، ولا المجوسية ، ولا الصابئة ، انما وفدت اليها تحت قسوة الاضطهاد السياسى أو الدينى .

وسنعرض بالتفصيل لتلك الأديان والمذاهب .

كل هذا وغيره يعطينا : أن العربى لم يكن فى عزلة عما حوله ، سواء من ناحيته ، لأنه خرج منها متاجرا ، أو من غيره فلم يكن فى عزلة عنها : اذ وجدنا من يمم وجهه شطرها .

ومن العوامل الأساسية فى التوسع وتدعيم النفوذ الرومانى وتوطيده فى الشرق كان قوامها :

- الدبلوماسية .

- والتجارة .

ولكنها كانت مؤيدة بقوات حربية عظيمة ، ونشاط حربى مضمّن . وفى مصر وفى بلاد العرب وشمال أفريقية اتبعت هذه السياسة بعينها . فالبلاد العربية جرى فيها حركات حربية وتجارية ودبلوماسية .

يرى م - رستوفتزف : أن الدبلوماسية والتجارة هما من أسس التوسع الروماني في بلاد العرب وهذا معناه - في نظرنا - أن العربي له اعتباره الفكري منذ القدم .

ويقول : ولم تكمل حملة ابلوس جالوس على بلاد العرب بالنجاح التام ولكنها على أي حال ضمنت للتجار الرومان الحصول على مرافئ آمنة وهم في رحلتهم من مصر إلى موانئ الهند .

ويقول : وكان التجار الأعراف يقومون بدور الوسيط بين التجار المصريين وزملائهم في الهند وكانت هذه التجارة إلى حد كبير تقوم على الكماليات (١) .

وليس الأمر بحثاً في دوافع الخروج ، أو الدخول فيها وحسب ، بل يرى علماء التاريخ : أن شبه الجزيرة العربية هي أصل الهجرات السامية لتلك المنطقة (٢) .

وحجتهم في ذلك أنها بلاد صحراوية ، ويحيط بها البحر من ثلاث جهات ، لذلك عندما يزيد السكان عن قدرة الأرض المأهولة الضيقة لأعالتهم فإنهم يميلون إلى البحث عن مجال حيوى ، فيجدونه فقط في الأراضي الشمالية الخصبة التي تجاورهم .

ويؤدى ذلك إلى الحجة الاقتصادية التي تقول : ان أهل الجزيرة الرحل كانوا نوما يعيشون على ما يقرب من الجوع ، وأن الهلال الخصيب كان أقرب مكان يزودهم بما يحتاجون إليه .

يقول سبتيينومو سكاني (٢) :

« فالساميون يظهرون في أقدم المصادر على أنهم بدو صحراء العرب يدفعون بأنفسهم دائماً إلى الخارج ويتغلغلون في المناطق المحيطة ويوطدون أقدامهم فيها فهناك :

-
- (١) تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعية والاقتصادية صفحات : ٩٢ ، ١٤٥ .
 (٢) العرب واليهود ، التاريخ ج ١٨٩١ د ١ أحمد هوجج . وتاريخ سورية : نبلب حتى ج ١ وثمة الحضارة ٢ ص ٢٦٤ .
 (١) يراجع كتابه ، الحضارة السامية ص ٢٢٥ .

– الأكديون الذين نراهم في أرض الرافدين في الألف الثالث قبل الميلاد .
 – ثم الأموريون الذين أسسوا في بداية الألف الثاني سلسلة من الدول
 في فلسطين وسوريا وأرض الرافدين .

– ثم العبريون والآراميون الذين جاءوا بعد ذلك بقرون قليلة ليسدوا
 الفراغ التاريخي الذي خلف انسحاب « شعوب البحر » في فلسطين وسوريا .

ثم العرب الذين خرجوا من صحرائهم بعد ذلك بعدة قرون في حركة
 فتح عظيمة نقلتهم الى أقصى البقاع ، وهؤلاء جميعا ليسوا سوى أسماء
 مختارة برزت في الحركة المستمرة التي كانت في كثير من الأحيان خفية
 مجهولة الأبطال ، والتي وجهت ودفعت سير الأحداث في الشرق الأدنى ثم
 يقول : ولم يكن بد من أن ينقل البدو ومعهم آثار أحوالهم الأولى ومن هنا
 بحثنا في النظام الاجتماعي القديم لصحراء العرب عن الخطوط التقريبية . . .
 وحاولنا أن نقيم على وجه التقريب أيضا ، الصور السياسية للشعوب المختلفة
 وفي معتقداتها أو طقوسها وفي قوانينها بل في فنها أيضا وليس التراث البدوي
 لتلك الشعوب كافيا وحده لتفسير ذلك التطور وهو العنصر الذي وصفناه بأنه
 سام .

ويضيف ننتج فيقول (١) :

« المحاولات الناضجة في القرن التاسع عشر في فك رموز الكتابات التي
 تعود الى العصر السابق على ظهور المسيحية كشفت عن تشابه بين لغات
 البابليين والآشوريين والآراميين والكلدانيين والفينيقيين والعموريين والعبرانيين
 والعرب والأحباش . وهو تشابه ملفت للنظر بحيث يوحي بأن هؤلاء الناس
 جميعا لابد وأنهم ينبثقون من نفس الأصول .

ومن هذا ثبت أن أسلافهم المشتركين كانوا العرب الأصليين – أو
 الساميين من قبيلة سام – إذ ان اسم « عربي » هو التعبير السامي عن

ترجمة : دكتور السيد يعقوب بكر .

مراجعة : دكتور محمد القصاص .

(١) ص ٥ العرب نتج ترجمة د . راشد البراوي الانجلو .

ساكني بلاد العراق . . . وازن أول : تيدان للعرب على نطاق شامل، انما كان في اليمن على يد ملكة مأرب وهي : تيدان - تيدان من نسل . . . سام .

وقد ثبت تلك التسمية في كتب التاريخ فيها :

✽ الترادف اللغوية بين الشعوب التي تتكلم اللغات السامية .

✽ عقائدهم الدينية .

✽ مؤسساتهم الاجتماعية .

هذا فضلا عن : ما ذكره ابن خلدون في كتابه من أن ضرب صفحا عنها .

هذا التشابه يدل من السهل الاستنتاج : أن الأسلاف الذين تكلموا
البادلية والأشورية والآرامية ، والكنعانية ، والعمورية ، والآرامية ، والعربية
والعبرانية ، تميزا غالبا في اللغة واحدة في الأصل . لعوامل : سيامية
التي تميزت في وضع التاريخ ، حصل بينهم خلاقات وكان من آخر الهجرات
التي تميزت نحو الـ ٥٠٠ ق م : هجرة الأنباط إلى شمال شرقي جزيرة مسنداء ،
حيث كانت عاصمتهم البتراء . هذا عدا هجرات الفتيق السامية . وهذه
الهجرات الأخيرة : هي التي أنتجت العربية التي يؤيد بها : سائر النظريات التي
تجعل من شبه جزيرة العرب الموطن الأصلي للعرب ، ويذهبون إلى ذلك
حجة لغوية وهندسية : أن اللغة العربية قد احتضنت في فواح كثيرة بأشد تشابها
باللغة السامية التي كانت جميع اللغات السامية من لهجاتها .

والله اعلم بحقيقة ما ذهب إليه : قري ، أن سكان شبه جزيرة العرب

ربما كانت تسمى آنذاك : العرب ، من الصفات السامية .

وبما ندب أن نشير إليه هو أن عقائدهم الدينية كانت تقوم على عبادة

الالهة ، في شكلها البدائي ، وكانت هذه العبادة شائعة بين الرحط ، من بلاد

الشمام وبلاد العرب ، وكان يوجد بجانب اله القبيلة اله اعظم يطلق عليه :

هبل أو بعل . أو . اللات .

وتنعت لذلك أو هبل الآلهة الرئيسية في الجزيرة العربية .

وهذا هو الذي نرى في : حوزم عن العالم القديم وثقافته عزلتهم عنه ، غير

والتاريخ الحديث الذي أصبح يتكلم عن العرب ودورهم

في التاريخ القديم . ومن أجل ما ذكره الحفائر والنقوش التاريخية القديمة ،

وهذا ما يفسر أن يقال : أن ما دستك : مؤونه من حفائر تاريخية في تلك المنطقة ،

يعطى ما أشار اليه القرآن : وهو عدم عزلتهم ، وما تعاقب في المنطقة العربية على فترات متتالية في التاريخ من مراكز حضارية عربية يشهد عليها ، فضلا عن المركز الديني الثابت وتلك المراكز هي :

* مكة : عاصمة دينية قديمة تقع في وسط الحجاز .

* البتراء (١) دولة البتراء عاصمة تجارية عربية ورئيسها عربى وكانت

في الجنوب .

* دولة تدمر (٢) عاصمة تجارية عربية ورئيسها عربى في الشمال .

(١) ان كلمة : البتراء Patra هي اللفظ اليونانى لكلمة صخرة ، وهي العربية النصحى : الرقيم ، وهي الواردة في القرآن في سورة الكهف وهي وادى مرمى الاسم الحديث للبويع باكملة . أسسها : الحارث حوالى ٦٩ : م . ويدعى (اريانس ملك العرب سفر المكابيين) وقد نسي بهذا الاسم كثيرا من ملوك الانباط وملوك الفساسنة ، وينتعلق باكتشاف = آثارها بعض اشياء ذكرها القرآن أن الاماكن المرتفعة التي لا تزال قائمة في البتراء التي تمثلها قبور الحجر (مدائن صالح) في الحجاز الى زمن حكمه . وكانت الحجر مركزا لقبيلة ثمود الواردة في القرآن اكتشف آثارها للعالم في ١٨١٢ المكتشف السويسرى : بركهارات Burckharat وكان أحدهم كما ذكر الكتابات الاثرية التي وجدت في حوران : رابيل الثانى حوالى ٧١ - ١٠٥ آخر ملوك الانباط ، وهو ابن مالكور ووريثه ابتلعها الدولة الرومانية واصبحت في ذمة التاريخ الذي منه أنت - تاريخ سورية ج ١ ص ٤٥٤ .

(١) تدمر : معناها : قيل - وهو قول الهذاني في كتابه الاكليل - : ج ٨ ص ١٢١ مع تعليقات الاب انستاس ماري الكرملى .

والتاريخ الاسلامى العام « على حسن ابراهيم » انها سميت تدمر : بتدمر بنت حسان ابن اذينة ، وقيل معناها يعنى بالارامية : الامعجوبة والمعجزة لانها كانت اعجوبة مدن الارض .

وقيل : كما ذهب الاب الكرملى الى أن أصل الكلمة مأخوذة من الثمر وكذا في الارامية فيكون معناها : مدينة النخل أو مدينة الثمر . التاريخ الاسلامى العام د / على حسن ابراهيم ص ٨٦ .

قامت دولة تدمر : بعد ولاية الانباط التي كانت تابعة للدولة الرومانية ودولة الانباط كانت قبل ميلاد المسيح بزمن طويل وسيطروا خلال الحقبة الهلينية على تجارة القوافل بين جنوب بلاد العرب وشمالها ، وكان الانباط يتكلمون اللغة العربية ، ويرى انوليتمان : أن النبطية لهجة آرامية اختلط بها صيغ وكلمات عربية لان الذين كتبوها كانوا من العرب العاربة ، انوليتمان . لهجات عربية شمالية قبل الاسلام بحث مستخرج من مجلة مجمع اللغة العربية الملكى سنة ١٩٣٦ .

* بصرى : دولة الغساسنة (١) عاصمة تجارية عاية ورئيسها عربى
وتقع بينهما .

يجمع بين هذه الدول الثلاث بعض المظاهر العمامة وفق تاريخها المتعاقب
من حيث :

* أصلها : يرجع الى تحضير القبائل البدوية أو المتقلبة .

* وازدهارها : يرجع الى تجارة المرور .

* وتحالفت كل منها واحدى الدولتين لبعض الوقت باعتبارها دولة حاجزة
بين إحدى الدولتين العالميتين وهما : فارس ورومة ، وتلقت المساعدات منهما .

* ونهايتها كانت على يد إحدى الدولتين .

فرومة قضت على الدولتين : الدولة النبطية ، والدولة التدمرية (الزباء)
وقضت فارس وبيزنطة على دولة الغساسنة .

وأنها جميعا كانت وسائل جيدة للقراوج بين حضارات الغرب : رومة ،
واليونان ، وبين حضارات الشرق : فارس والهند وبيزنطة ، فنقلت من
الهند الى الغرب ونقلت من الشرق الى الهلينية . وكانت مع مرفئها التجارى
عاملا مهما فى ظهور التراث الهلينى (٢) وظهرت مدارس اشتغلت بالفكر
الشرقى والهلينى فى ربوع تلك الدول منها :

* مدرسة نصيبين .

* مدرسة الرها .

* والمدائن .

(١) يقول نيكلسون : من الصعب الاعتماد على الأخبار العربية الخاصة بدولة
الغساسنة لما فيها من اضطراب لأنه قل أن يجد الباحث مادة يؤخذ من شتاتها صورة
تقريبية. يمكن أن تضاف الى تلك المعلومات المبعثرة فى كتب المؤلفين البيزنطيين .

وتقول د . على حسن إبراهيم : وسبب هذا الاضطراب فى أقوال مؤرخى العرب .
هو عدم استقرار الغساسنة الذين لم يكن لهم ملك ثابت حتى أنهم اتخذوا أكثر
من عاصمة (التاريخ الإسلامى العام ص ٩٠) له ما يورده .

(٢) الفترة التى يطلق عليها العصر الهلينى هى التى تقع بين حكم الإسكندر وحكم
روما ٢٣٠ - ٣٠ ق م . يراجع ج ١ ص ٢١٨ تراث العالم القديم .

(م ٣ - الفكر الدينى)

* وأنطاكية .

* وجنديسابور .

فتلك المدارس : كانت روافد صالحة لنشر الهلينستية في الشرق والغرب ونشر تراث الشرق والغرب أيضا في المغرب الروماني . وسنعرض لتلك المدارس ووظائفها :

١ - فالبتراء : من الدويلات المهمة التي قامت في العصر السلوقي وأهلها من الأنباط (من العرب المتكلمين باللغة الآرامية) وازدهرت طوال ثلاثة قرون من القرن الثاني ق.م الى القرن الثاني الميلادي ، وفي نفس القرن ضمها الامبراطور الروماني تراجان(١) الى الامبراطورية ، وظلت الى أواخر القرن الرابع وهي المدينة الرئيسية على طريق القوافل تربط بين جنوبي الجزيرة الذي ينتج التوابل وبين مراكز البيع في الشمال .

وكانت تسيطر على الطرق المؤدية الى مرفأ غزة في الغرب والى بصرى ودمشق في الشمال والى آيلة (ايلات) على البحر الأحمر والى الخليج الفارسي عبر الصحراء .

وكانت يستبدل فيها الجمال النشط بجمال القوافل .

واستطاع الحارث الثالث العربي النبطي(٢) : أن يدخل مملكته ضمن المحور التام للحضارة الهلينستية : وكسب بذلك لقب محب الهلينية .

(١) يراجع : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة : طه باقر ص ٥٦٨ منشورات دار البيان .

(٢) كان المؤرخون القدامى يرون أن العرب غير الأنباط فترى المسعودي في كتابه مروج ديمشق ج ١ ص ١٨٢ يقول : وقد تفرغ الناس في ملوك الطوائف : أمن الفرس كانوا أم هذا النبط أم من العرب ؟ غير أن هذا الخلاف يشير الى أن هناك أصلا لهذا الاختلاف، ويقول فيليب حتى : وقد أصاب (سترابو) و (بوسيدوس) و (ديوروس) بإطلاق اسم العرب على الأنباط إذ أن أسماء الشخصية وأسماء آلهتهم وأثر التحريف العربي في كتاباتهم الآرامية لا تدع مجالاً للشك بأن لغتهم الوطنية كانت لهجة عربية شمالية وظهر في الكتابات الآرامية أسماء مثل : على ، حبيب ، سعيد ... الخ .

وبلغ من كثرة استعمال كلمات عربية صرفة في إحدى الكتابات الآرامية المتأخرة (٢٦٨ م) أن النص كله يكاد يكون عربياً ، راجع : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ص ٤٢٦ و ٢٢٧ ج ١ ترجمة د / جورج حداد وعبد الكريم رائق ومراجعة د / جبرائيل جبوز ، دار الثقافة ببيروت .

وبدأت البقراء - جزء من الولاية الغربية الرومانية - تتخذ مظاهر هلينستية نموذجية . يقول فيليب حتى : كانت حضارة الأنباط : عربية في لغتها ، آرامية في كتابتها ، سامية في ديانتها ، ويونانية ورومانية في فنها وهندستها ، المعمارية وهي لذلك حضارة مركبة : سطحية في مظهرها الهليني ولكنها عربية في أساسها وبقيت كذلك .

٢ - تدمر :

وأما تدمر (زنوبيا) فيرجع بناؤها الى نبي الله سليمان . كانت تقوم بين هاتين الامبراطوريتين العالميتين ساعدها موقعها هذا على عدة ميزات منها .

* عدم تمكن الفرق الرومانية والفرق الفارسية من سهولة الاستيلاء عليها .

* استفاد تجارها من وضعها الفريد كمحطة رئيسية لنزول القوافل عند نقطة التقاء الطرق التي تعبر الصحراء من الشمال الى الجنوب ، ومن الشرق الى الغرب .

* استغل رجال السياسة بذكاء موقعها الاستراتيجي من حيث انها بين دولتين كبيرتين متنافستين : فكانوا يقفون مرة بجانب رومه ، ومرة بجانب الفرس ، مما جعلهم يحافظون على ميزان القوة ويستفيدون من الحياد .

وحصل الزعماء التدمريون من شيوخ القبائل في الصحراء على اذن بمرور قوافلهم بسلامة . وكانت النتيجة ان أصبحت (تدمر) من أكثر المدن ثروة في الشرق القديم .

واصبح رئيسها - (أنينة زوج زنوبيا) يحوز لقب (زعيم الشرق) ونائباً للامبراطور غالينوس ، الروماني - غالينوس في الشرق ، وذلك بعد أن خاض معركة ضد الغرب ليخلص « فاليران » الامبراطور الروماني ، الأسير لدى الفرس ، فهزم الفرس ، ولم يستطع تخليص الامبراطور الأسير ، ثم اغتيل في ظروف غامضة .

تولت زنوبيا أو الزباء من بعده ، وكانت طموحا ، فوسعت من دولتها حتى أصبحت تشمل سوريا ، وجزءا من آسيا الصغرى ، وشمالى الجزيرة

العربية ، ويقول المؤرخون : كادت أن تكون امبراطورية • ورعت الثقافة اليونانية وجمعت تاريخا للشرق • يقول فيليب حتى : وكانت حضارة تدمر : حضارة غربية فهي مزيج من عناصر سورية ويونانية وفارسية ، ولا شك أن السكان الأصليين كانوا قبائل عربية وبقيت اكثرية اللسان عربية •

ويصف م • رستوفتزنف قوة دولة تدمر فيقول (١) :

وكانت الحال في المشرق أسوأ منها في المغرب فقد غزا الفرس سوريا وهددوا آسيا الصغرى فسار فاليران لصددهم وبالقرب من اديسا (الرها) هزمه هزيمة نكراء ووقع في أيدي أعدائه (٢٦٠ م) ونجت آسيا الصغرى وسوريا من قبضة فارس أنقذ الأولى (آسيا الصغرى) كاليسنوس - أحد قواد الرومان - الذي طرد الفرس •

وانقذ الأخرى : (سوريا) اوديتاثوس شيخ تدمر الذي أنزل الهزيمة بالغزاة عندما حاولوا عبور الفرات في عودتهم الى فارس •

لذلك اعترف جالينوس باوديناثوس الذي استمر يحكم سوريا وجزءا من آسيا الصغرى ، وبقي يحمل لقب امبراطور حتى قتل ٢٦٦ - ٢٦٧ م فخلفه على العرش ابنه فابالاثوس وقد قامت أمه الملكة زينوبيا بأعباء الحكم نيابة عنه وكانت امبراطورية تدمر في المشرق أكثر رخاء وأشد تماسكا تحت حكم زينوبيا وابنها فابالاثوس وقد لاحت بالتدريج لزينوبيا فكرة انشاء امبراطورية رومانية شرقية مستقلة يحكمها أغسطس مستقل •

ولكن اوريليانوس الذي تولى زمام الأمور بعد كلوديوس - الذي لقي حتفه ضحية طاعون عصف مرة ثانية بصفوف الرومان سنة ٢٧٠ م - بعد أن هزم القوط سار الى الملكة زينوبيا واستطاع بعد حملة اكتنفتها الصعاب من كل جانب أن يعيد سيادة رومة على المشرق وأن يفتح مصر مرة ثانية وأن يستولى على مدينة تدمر ويأسر حكام الامبراطورية التدمرية رغم المدد الذي جاءهم من الفرس •

(١) تاريخ الامبراطورية الرومانية الاجتماعى والاقتصادى د ١ ص ٥٢٧

٣ - دولة الغساسنة :

ودولة الغساسنة : (الحارث بن جبيل بن الأيهم) وتنحصر في خلال القرن الرابع الميلادي الى أن جاء الاسلام .

منح الحارث من قبل « بوستنيان » لقب « فيلارك » أي رئيس قبيلة واستطاع أن يهزم المناذرة في معركة قنسرين التي تعرف « بمعركة حطيمة » .

وقام الحارث في عام ٥٦٣ بزيارة بلاط « يوستنيان » حيث ترك تأثيرا

عميقا على افراد حاشيته كشيخ بدوي مهيب .

ويقول المؤرخون : وكان موظفوا البلاط بعد سنوات من هذا الحادث حين يريدون أن يهدثوا الأمير المعنوه « يوستين » وهو ابن أخ يوستنيان ووريثه يكتفون بالقول :

اسكت : والا استدعينا الحارث :

وحصل الحارث أثناء وجوده بالقسطنطينية على تعيين يعقوب البرادعي(١) اسقفا على الكنيسة فكان يعقوب من أتباع نسطورا ومذهبه القائل بالطبيعة الواحدة للمسيح .

وأصبحت بصرى - التي بنيت كاتدرائيتها في عام ٥١٢ - العاصمة الدينية ، في المنطقة ووصلت الملكة حينذاك ذروة اتساعها إذ كانت تمتد من قرب البتراء الى الرصافة شمالي تدمر وتشتمل : على البقاع ، والصفاء ، وحران .

٤ - دويلة المناذرة :

وقامت في بداية القرن الثالث الميلادي في البادية المحاذية للفرات في منطقة الكوفة دويلة عربية مهمة هي مملكة الحيرة ، وأصل أهلها وطوكها من عرب اليمن ، عرفوا بالمناذرة واللخمين ، وتقع الحيرة ، عاصمتها على بعد نحو

(١) وكان الحارث مسيحيا يعقوبيا وقد دافع عن مذهبه بحماسة وتوفيق عظيمين نبي وقت كان التعلق بأهداب هذا مجازة خطيرة كما كان لا يدخر وسعا في الدفاع عن أصحاب الطبيعة الواحدة وتحريرهم من الاضطهاد ان يقع عليهم ، وبفضلة توطدت دعائم الكنيسة البعثوية بعد ان كانت مهددة بالخطر : نولدكه : امراء غسان ص ١٤ ترجمة دابندي جوزي ودا قسطنطين زريق .

٣ أميال جنوب الكوفة ، وكان أهلها نصارى على المذهب النسطورى وكان ملوكها موالين أو محالفين لملوك الدولة الساسانية ، ومن ملوكها الأوائل امرؤ القيس الأول (القرن الرابع الميلادى) والنعمان الأول ابن امرى القيس ، والمنذر الأول (٤١٨ - ٤٦٢) ابن النعمان ، وقد عظم في زمنه شأن الحيرة ، والمنذر الثانى (٥٠٥ - ٤٥٥) وهو الذى سماه العرب « ابن ماء السماء » ، وأعقبه ابنه المسمى : عمرو بن هند (٥٥٤ - ٥٦٩) الذى خلفه شعراء العرب من الجاهلية مثل : طرفة بن العبد ، والحارث بن حلزة وعمرو بن كلثوم . وانتهى حكم السلالة في حكم النعمان الثالث الذى يكنى « أبو قابوس » (٥٨٠ - ٦٠٢) ، صاحب النابغة الذبياني ، حيث صار الملوك الساسانيون يتدخلون في شئونها وأخيرا انحاز عرب الحيرة الى خالد ابن الوليد في فتحة العراق (٦٣٣)(١) .

وقد بذلت داخل الصحراء نفسها محاولات للتنظيم السياسى كدولة كندة التى وحدت تحت حكمها عدة قبائل من وسط الجزيرة .

ولكن ظل البدو في حملتهم أحرارا من مثل هذه التنظيمات السياسية فلم يطلبوا وحدة فوق قرابة الدم التى وحدت بينهم في قبائل . وانما كانوا يجوبون بلادهم الرملية الشاسعة مستقلين بعضهم عن بعض . وقد ذكرت لنا الرواية الاسلامية ذكرى تنافسهم وتصارعهم « فأيام العرب » مملوءة بحروب وثورات نشأت في الأصل عن نزاع على الماشية أو المراعى . أو عيون الماء . وهنا تبرز شخصية البدوى حية نابضة بصفات الشجاعة والكبرياء والاصرار والحيلة وهى صفات كان لها دور لا يستهان به في النظام العظيم الذى انبثقت عنه الجزيرة العربية فيما بعد . وقد قامت مدن في واحات الحجاز خاصة وكان طريق القوافل المتجه الى الشمال يسيطر عليه مركزان يغلب عليهما طابع التجارة هما : يثرب التى سميت المدينة فيما بعد ومكة الى الجنوب منها . وكانت تحكم مكة حكومة قله قوامها التجار .

وكانت تفقد عليها في أيام الأسواق والمواسم الدينية أفواج العرب من

(١) مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، طه باقر ص ٦١١ منشورات دار البيان

جميع أنحاء الجزيرة فلم يكن في وسط الجزيرة رقعة تضارع مكة مركزاً
لاجتماع القبائل واختلاطها بعضها ببعض (١) .

من هنا يتبين لنا ، أن المنطقة العربية تعرضت لتيارات : من الرومان
قارة ، والفرس أخرى ، وبيزنطة الثالثة الأخيرة ، وفي هذا ما ينفي القول
القائل : أن العرب كانوا في عزلة عن التاريخ ، ويعطى لدينا : أن المنطقة
شهدت حضارات تعاقبت عليها ، وشاركت في أحداثها السياسية ، والاقتصادية
ومظاهرها الاجتماعية ، أيضا ، غير أن هذه التأثيرات بتياراتها لم تستطع
أن تلغى شخصيتها العربية ، إنما كانت طلاء ظاهرا لم يلبث أن انجلى عنها .
أما لماذا انجلى عنها ؟ فسوف نعرض له .

وبعد ما كانوا يرون أن العرب حجزهم التاريخ عن حضارته ، أصبحوا
يرون ، من خلال ما استجد أمامهم من وثائق تاريخية وصلوا إليها عن طريق
الحفائر والآثار : أن المنطقة تعرضت للتغيرات المختلفة : من غزو يوناني ،
إلى روماني ، إلى فارسي ، إلى بيزنطي ، وبالتالي « أصبحت قادرة على
العطاء ، وأصبح الإسلام - في نظرهم - هو ثمرة هذا العطاء وتلك قصة
سنعرض لها .

وأصبح الإسلام يتكون - في نظرهم - من عدة تأثيرات :

- التراث الهلينستي : أي التراث الشرقي والغربي الذي ألفت بينه
مدرسة إسكندرية حاضرة البحر الأبيض .
- التراث الديني : العبري ، والمسيحي .
- وسوف نبدأ بالتراث الهليني وموقف الشرق منه .

التراث الهليني ومراكزه العربية :

لقد عرضنا للاحداث السياسية التي تعرضت لها المنطقة العربية
والدويلات التي قامت بها على فترات متعاقبة من التاريخ وكيف كانت
تحتويها إحدى الدولتين العالميتين حينذاك أما الفرس أو الروم .
وكان الهدف الذي كانت ترمي إليه الجمهورية الرومانية الناهضة
هو العمل على الحيلولة دون قيام أي نظام سياسي قوى في الشرق يخشى

(١) راجع المصارات السامية القديمة ص ٢٠٤

ان يكون خطرا على الدولة الرومانية وكلما زادت القلاقل والمتاعب في الشرق كلما كان هذا أفضل لصالح روما ، وكلما تضاعف عدد الدول المستقلة كلما كان هذا أجدي وأنفع لروما وكلما زادت الارتباكات وتعقدت الأمور في الشئون الداخلية لكل دولة من دول الشرق كلما تضاعف أمل روما في أن تصبح سيدة الموقف والقوة المتحكمة في مصير الشرق بأسره (١) .

وان أهم ما يقال عن هذه الدويلات من حيث مظهرها السياسي : أنها كانت دويلات تزدهر بازدهار مرفئها التجاري ، وتندثر باندثاره ، وكانت ترى تبعيتها لاحدى الدولتين ولاء سياسيا واجبا ، وكان هذا الولاء يتغير من حين لآخر ، وعامل التغير الأساسى فى ذلك : هو الظروف الدولية للدولتين الكبيرتين ، وأما هذه الدويلات فعليها أن تشكل ظروفها تبعا لهذا التغير دون اعلان رغبتها حتى فى شكل التبعية .

وترتب على ذلك - من وجهة نظرنا - أن أصبحت ميول هذه الدويلات العربية مرتبطة بميول الامبراطور الشرقى ، أو الرومانى ، وبدلا من أن يكون الولاء للوطن : أصبح الولاء للامبراطور ، وفى هذا ما جعل الاسر الحاكمة لهذه الدويلات أن سمعت - نفاقا سياسيا منها - الى التشبث بمظاهر حضارية ذات غشاء رقيق ، لم يلبث أن تكشف عن بداوة وسعى الى حياة الترف بشتى أشكاله وألوانه وصنوفه .

وفى هذا ما صرفها عن دراسة مكوناتها الحضارية ، وعن ابراز عوامل شخصيتها الانسانية ، وعن الدعوة الى توظيف لغتها ، ورفع ادبها ، ومناقشة قضايا وطنها ، والبحث عن حريتها الانسانية ، وحريتها فى العلاقات السياسية .

لذلك كنا نراها : دويلات متعاقبة فى سلسلة التاريخ الانسانى ، تظهر « دولة البتراء » ، ثم تغيب مع غياب الاسرة التى حكمت فاذا ما اخطأت سبيل ترضية الامبراطور ، فما عليه الا أن يغطى عليها ، ودون أن يغيب نجم الامبراطور السياسى ، ولأول مرة أرى دويلات تنتحر انتحارا سياسيا نتيجة القلق السياسى الذى انتابها .

(١) تاريخ الدولة الرومانية والاجتماعية والاقتصادى ص ٢٤ ح ١ تاليف : م .
وستوتزف نرجة : ركي على ، محمد سليم سالم - مكتبة : النهضة المصرية .

ثم تظهر دولة (تدمر) لتعيد نفس التاريخ ونفس الأسلوب ويقضى عليها بنفس الوسيلة السابقة .

الى ان جاء الاسلام فاحتوى الدولتين العالميتين : سياسيا ، وفكريا ، ودينيا ، وشفى ما بها من علة القلق السياسى ، وكان الاسلام بما أحدثه من تغييرات ، على المستوى العالمى : يعتبر بحق أظهر بمبادئه الرفيعة حقيقة الانسان عندما ضل عن فهمها من خلال ما حوله من أفكار دينية ما جت بها منطقته . فتلاحظ أنه كان فى المنطقة تغييرات سياسية ، لكن غير محددة الوجهة السياسية ، فتارة الى الشرق وتارة أخرى الى الغرب ، فاذا ناعت دولة الشرق الكبرى فارس بثقلها على هذه الدويلات تغير مجرى علاقاتها الى الرومان وهكذا ، فهناك حقيقة تغييرات سياسية طرات على المنطقة غير ثابتة الهدف السياسى ، والوجهة الحضارية ، يضاعف ذلك : عدم وعى الاسرات التى حكمت بهدفها السياسى ، والحضارى ، وذلك مما عجل من انتحارها السياسى .

وحال العرب اليوم مثله بالأمس ، دويلات ظهرت فى المنطقة العربية وازدهرت لعامل اقتصادى لا دخل للعبقرية العربية فيه ، وسيطرت عليه ، احدى الدولتين العالميتين ، فظهرت المنطقة بمظهر حضارى غربى ، ورجع العربى من غير أن يدرى الى بداوته ، فكره العمل ، وبنات على ذلك منعم البال بترائه المادى ، فشل بذلك من عبقريته ، ومن تفهمه لمستوى حضارته ، وكذلك أسرات حاكمة يرى فيها ، أنها مسئولة عن توجيهه لما تحب وترضى ، فمفهوم التعاون العربى نراه لا يخرج عن معناه القبلى : وهو الأسرة لا الوطن هى الأحق بالرعاية والتقدير .

وفى ذلك ما يشير الى مستقبلها ان ظلت على هذا الحال كلقمة طيبة المذاق يعافها الذوق عندما يتغير مذاقها او يتغير مذاقه على حد سواء ، لذلك كان على العربى أن يبحث : عن شخصيته ، وأصالته ، وأن يرصد أموال البترول لصالح ورعاية السلوك الحضارى النابع حقيقة من الاسلام ، وعليه يتحدد مظهرنا الحضارى اللائق بعبقريتنا ومنهجنا الاسلامى .

وأن وضعنا - عربا ومسلمين - فى حضارتنا المعاصرة مؤسف اذ ما زلنا بعميقين عن المشاركة فى بناء الحضارة ، وأن ما يبدو علينا من مظاهر فهو

مظهر استهلاكي لابنائى ، وفى ذلك تدهور وتدل ، والعربى - تاريخيا - محسود حينما حباه الله برسالة الاسلام - وحيا مقدسا - لا مظهر للعبقرية العربية فى تأليفه ، وهو العامل الجوهرى للحضارة الانسانية ، وحينما منحته أرضه - وستمنحه - بترولها وهو عامل جوهرى فى قوة الحضارة المادية ، فلا مظهر فيه للعبقرية العربية انما هو منحة الهية ايضا .

وفى كلتا الحالتين استحق العربى بهما دوره التاريخى والحضارى . لكن هل قام بعبء هذا الدور ، انه ما زال يتسول التكنولوجيا من الغرب .
نرجع الى حديثنا عن المدارس الهلينستية التى انتشرت فى المنطقة فنقول :

ما عرضناه كان مقصورا على الجانب السياسى فقط . ترى ألم يكن ثمة تغيير من الناحية الثقافية ؟ او بمعنى آخر :

هل اطردت الحياة الثقافية غير متأثرة بالتغيير السياسى ؟

ونحن لكى نجيب على هذا السؤال : نقدم بين يديه شيئا عن المراكز الثقافية الهلينية فى المنطقة العربية ولون الثقافة التى غزت المنطقة العربية .
فلاحظ من مقتضى الأحداث السياسية : أن أصبح الشرق - والمنطقة العربية فيه - خاضعا الى حد كبير للنفوذ الثقافى الأغريقى ، وكما نشأت عواصم سياسية نشأت أيضا بجانبها عواصم ثقافية .

يقول م . رستوفتزف :

ويمكن أن نصف المظهر الذى كان عليه العالم القديم قبل نشوب الحروب الأهلية فى روما وايطاليا على الوجه الآتى : ففى أثناء الفترة التى يطبق عليها اسم العصر الهلينستى أخذ مركز الحضارة فى التحول تدريجيا من الغرب الى الشرق فحلت الاسكندرية فى وادى النيل وأنطاكية على نهر العاصى وبرغامة على نهر كايكوس Caicus محل أثينا فى الصدارة والاسبقية فى المدنية «(١)» . من أولى العواصم الثقافية : مدرسة الشرق الكبرى :

(١) يراجع ، تاريخ الامبراطورية الرومانية الاجتماعى والاقتصادى ج ١ ص ١٦ م .

تستوفتزف .

ترجمة ومراجعة ، زكى على ، محمد سليم سالم
مكتبة النهضة المصرية .

مدرسة الاسكندرية حاضرة البحر :

وكما هو واضح من اسمها أنها تحمل اسم ذلك الفتى الأغرقي ، بانيتها ومؤسسها ، وخضعت لنفوذه الدنيا ، وهو لما يزل في عقده الثالث ذلك السكندر الأكبر . لقد أسسها سنة ٣٢٣ ق.م وقد ظل اسمه علما عليها الى الآن .

وأنشأ خلفاؤه - من بعده - فيها : أكاديمية يونانية ، تناظر بزوها العلمى المدارس الأثينية ، بل وتفوق عليها لما احتوت عليه : من تراث شرقى ، وتراث يونانى ، وأصبحت موثلا للعلماء والمفكرين الذين وقع عليهم الاضطهاد ولا سيما بعدما أغلقت مدرسة أثينا ، فانتقلت الى الاسكندرية بتراثها وفلاسفتها ، مع اهتمام حكماء مصر بها أيضا فانقلوا من معابدهم اليها ، لما لقيته من حفاوة وتقدير : استطاعت بهما أن تكون وريثة عين شمس ووريثة أثينا .

فجمعت : بين خصائص الثقافة الشرقية ، وخصائص الثقافة الاغريقية وأصبح من الصعب : أن يحتفظ الفكر اليونانى بخصائصه ، او أصالته ، كذلك أصبح أيضا الفكر الشرقى يميل الى الاندماج نحو الهليني ، والهليني نحو الشرقى ، وبذلك أصبح فكرها عالميا .

« ومع ذلك فالمحيط اليونانى فى الاسكندرية فقد الأصالة التى كان يمتاز بها الفكر الأثينى واتخذ طابعا عالميا وظهر فيه ميل ظاهر نحو الفكر الشرقى .

وعلى الرغم مما كانت تدعيه الثقافة اليونانية القديمة من الأصالة ، فانها لم تكن خالية تماما من المؤثرات الشرقية ، ويمكن أن نرجع الكثير من مظاهر الحياة والفكر اليونانى : الى أصول مصرية ، وبابلية ، هذا وينبغى أن نلاحظ أنه بالرغم من أن الاسكندرية كانت ذات أثر بارز جدا فى تطور الفكر اليونانى فى العصر المتأخر ، فان مثل هذا التطور لم يكن وقفا عليها ولم يكن محليا ، بل لم يكن قوميا أيضا وانما كان تطورا عالميا « (١) .

(١) علوم اليونان وسبل انتقالها الى العرب ص ١٤ ، دار ديبلاس أو لبرى د . وهيب

كاهل مراجعة ، زكى على .

وقال أو ليرى : ان الحياة اليونانية العالمية الجديدة التي ازهرت بعد عهد الاسكندر ، كانت ذات جوانب متعددة : انتجت نوعا من الأدب خاصا بها ، وأخرجت نقدا أدبيا علميا ، وسارت قدما بالفلسفة منتهجة في أكثر الأحيان سبلا جيدة ، كما أنتجت أبحاثا جديدة في الطب ، والفلك ، والرياضيات ، والفروع الأخرى من العلم ، فكل هذه متداخل بعضها في بعض وأنها كلها ذات منزع متماثل وكلها تتطور تطورا طبيعيا من ثقافة اليونان القديمة (١) .

وفي النهاية يكفى القول : انها ولفت بين التراثين وأصبح ما يعرف في تاريخ الفكر الفلسفى : بالهلينستية يرجع الى نشاطها العلمى تاريخيا واصطلاحا .

ومما ينسب اليها من الشخصيات :

١ - ساكاس (أمونيوس)

يقول عن نفسه : أنه من أهل الاسكندرية ، ونشأ مسيحيا ، وتفقه في الدين على يد والديه ، ولكنه عندما بدأ يدرس الفلسفة تحول عن دينه وصار وثنيا .

٢ - افلوطين : وافلوطين من أسيوط ولاحوالى ٢٠٠ م . ولافلوطين عدة مؤلفات كتبها على فترات .

الفترة الأولى : كتب واحدا وعشرين كتابا من تاسوعات .

الفترة الثانية : في روما : كتب في اثنائها أربعا وعشرين كتابا .

الفترة الأخيرة : كتب تسعة من الكتب .

وانتهت أعمال افلوطين المصرى بتلمذة فورفورىوس الصورى له .

فمن مدرسة الاسكندرية ومكتبتها بدأت تنداح دائرة الثقافة الهلينية دائرة أثر دائرة لتشمل جميع مراكز الثقافة في المنطقة العربية ودوائرها ولم تكن الثقافة التي غمرت المنطقة العربية يونانية ، انما كانت الثقافة الصادرة عن الاسكندرية ثقافة هلينستية متأثرة بالشرق واليونان .

(١) نفس المرجع ص ٢٤ .

ونجهل فيما يلي خصائص الفكر الاسكندري ما دام هو الذى يغذى
المراكز الثقافية وهو فيما يلي :

اولا : تتميز بالاتساع الفكرى ، واتساعها الفكرى وان كان ميزة أبعد
عنها تهمة التعصب لثقافة دون أخرى ، فانه جعلها لا تتعمق القضايا بقدر
ما حملت عبء التوفيق بين القضايا المتنازعة .

ثانيا : ركزت على المنهج التوفيقى أو التلفيقى : فربطت أولا : بين
المدارس الفلسفية القديمة . ثم ثانيا : ربطت بين أفكار الفلسفة القديمة
وبين فكرها الحديث ، هذا من جانب موقفها الفلسفى ، ثم من ناحية موقفها
من الدين حاول بعضهم مثل فيلون الاسكندري : أن يوفق بين توحيدة الدينى ،
وبين اتجاه الفلسفة ، ثم غالى في اتجاهه عندما أخذ يؤكد اتجاه الفلسفة
اللاهوتى وحملها على تأكيد قضايا الدين الذى كان يعتنقه وهو الدين
اليهودى (١) .

ثالثا : ابرزت ثنائية الوجود ابرازا منطقيًا ، وجهتها اليها الروحية
الشرقية من جانب ، والمادية الهلينية من جانب آخر ، عندما كانت تحاول
المزاوجة بين تراث يتميز بالروحية ، وتراث يتميز بالمادية صادفتها هذه
الثنائية فأبرزتها .

رابعا : التأكيد على الحقيقة المطلقة وافق ميلها الى الطابع اللاهوتى
فحولت الفكر الى تلك الغاية .

خامسا : الملازمة بين اليهودية والفلسفة حمل عبئها فيلون .

سادسا : الملازمة بين المسيحية والفلسفة حمل عبئها افلوطين ورجال
الكنيسة وكانت تلك المحاولة بدء الانشقاقات الحقيقية فى المسيحية .

(١) تدهور الامبراطورية الرومانية وسقوطها فى الفصل الثالث عشر من الاملاطونية
المحدثة . وللإستزادة راجع : الفكر العربى ومكانته فى التاريخ ، دالاس أولير فى ترجمة
تمام حسان ، والفكر العربى للاستاذ اسماعيل مظهر وهو يعتبر ترجمة لديلاس أوليرى ترجمة
لها تصرف ادبى كذلك الاراء الدينية والفلسفية ، لفيلون الاسكندري تأليف لاميل برييه ترجمة
د . محمد يوسف موسى ود . عبد الحلیم النجار .

هذه الخصائص وان كانت تبين المسئولية الجديدة التي حملتها مدرسة الاسكندرية وان كانت تتسم بسعة الأفق ، غير أن منهجها هذا - وهو المنهج التوفيقى - شغلها بقضايا عسيرة الحل . وحقيقة الأمر : أنها شاركت واعطت الكثير من الحلول التي تتسم بالطرافة والمتعة العقلية ، غير أنها لم تكن على درجة عقلية مقبولة ، [من جهة الدين ، ولا من جهة الفلسفة .

وبالرغم من هذه المهمات فإنها بدت عاجزة مقعدة عن نواح أخرى : وذلك عندما صرفتها تلك القضايا عن مشاكل واقعها ، وعن تحمل مسئولية وطنها ، وقضايا تاريخها ، وأصبحت مع هذا الازدهار التاريخى : توهم بالعزلة وهي حاضرة الفكر والثقافة .

وما انتهت مدرسة الاسكندرية الا بعد ان خطت منهج خلط الدين بالفلسفة ، أى المقدس بغيره ، وكانت المسيحية باستسلامها لهذه الخطة نموذج هذا الخط . وتقبلها الرومان على أنها أقرب الصور لوجهة نظر «أنطيوخوس» عندما أراد أن يحكم الشرق بسياسة واحدة ، ودين واحد ، تبنت مدرسة الاسكندرية وجهة نظره هذه وراحت تنسج بخيوطها تلك الصورة ، بيد أن صورة المحاولة باءت على شاكلة (أبو الهول) : صورة انسان على جسم حيوان رابض . أنها نفس تصورات مدرسة عين شمس عن الوجود ، وعن دين (أخناتون) أصبحت المسيحية تحمل اسم الدين من غير جوهره ، وتحمل اسم الفلسفة من غير منهجها ، وكان ذلك من أخطر نتائج مدرسة الاسكندرية ومن أشيع مناهجها .

يقول : جيبون :

لقد أهمل الأفلاطونيون المحدثون : المعرفة التي تتناسب مع وضعها وقدرتها ، كما أهملوا : حقل علم الأخلاق ، والطبيعة ، والرياضة ، وذلك في الوقت الذى أجهدوا فيه قوتهم في المناقشات اللفظية في الميتافيزيقيا ، وحاولوا : أن يكشفوا عن أسرار عالم الغيب ، ودرسوا أرسطو ، وأفلاطون ليوفقوا بين آرائهما في موضوعات لم يكن أحد هذين الفيلسوفين أقل جهلا بها من بقية بنى آدم .

هذه هي الصورة العام لنوع الثقافة التي تسلمتها المراكز الثقافية العربية فما هي الصفة العامة لمراكز الثقافة التي انتشرت في المنطقة العربية ،

١- مدرسة أنطاكية :

كانت انطاكية بمثابة حلقة الاتصال بين العالم القديم والعالم الحديث ، لذلك كانت مركز التقاء الحضارتين ، الأغريقية ، والشرقية ، وأنها كانت تزخر بالأغريق المستشرقين ، والشرقيين المتأخرين من جميع الطبقات ، وعلى مختلف درجات التعليم ، فقد أصبحت تشتمل ليس على مجرد المذاهب الدينية الأغريقية القديمة الراسخة لعبادة « زيوس » « أبولو » وباقي جمهرة هذه الآلهة ، بل تشتمل كذلك على المذاهب السورية لعبادة « بعل » Baal والاله الأم فضلا عن الديانات ذات الأسرار بعقائدها عن الخلاص وعن الموت والبعث وعودها لما بعد الحياة .

كذلك شهدت التغييرات التي عرفت بها الحقبة الأخيرة من العصر الهلينستي حينما كانت المذاهب الدينية والفلسفية القديمة آخذة في التحول إلى معتقدات فردية تبعا لانصراف الناس إلى التماس العزاء الديني عن مشاكلهم ومطامعهم الشخصية . وأصبح مثلها مثل المراكز الأخرى التي كانت قد ازدهرت فيها الديانة والفلسفة الهلينيستيان وكان من دعواتها الأول :
القديسان : نيقولاوس ، وبرنايا .

نيقولاوس وظهور الهرطقة في أنطاكية

وطبقا لبعض المصادر فإن نيقولاوس الأنطاكي وهو الذى كان من أوائل المهتدين وأحد الشمامسة السبعة في القدس (أعمال الرسل ٦ : ٥) ابتدع هرطقة باكره عرفت باسمه .

والظاهر أن هذه الحركة المنسوبة الى نيقولاوس كانت ترمى الى ايجاد حل وسط بين المسيحية والعادات الاجتماعية السائدة وذلك بالتوفيق بين ممارسة عادات وثنية معينة والانخراط في سلك الطائفة المسيحية .

والهرطقة المنسوبة الى نيقولاوس كانت - من بعض الوجوه - الطليعة لمذهب الغنوسطية الذى كان يفوقها الى حد بالغ من حيث بعد الاثر وخطوره الشأن وهو مذهب القائلين : بأن الخلاص يتم بالمعرفة دون الايمان .

ازدهر هذا المذهب في جو دينى وفكرى في أنطاكية حيث كان الاختلاط بين جماعات أفريقية وشرقية متباينة الجنس والدين يهيء مجالا واسعا لدراسة ونشر مذاهب جديدة دينية . وفلسفية ولما كان مذهب الغنوسطية مذهبيا يواسط بين الفلسفة الوثنية والدين ، وكانت أصوله أفريقية ، الا أنه اقتبس بعض الآراء المسيحية ، وبعض الآراء اليهودية ، فان ذلك المذهب كان في وضع يهيء له منافسة العقيدة المسيحية . فقد كان يعد بمعرفة التدبير الالهى للكون وبالخلاص . بما في ذلك الامان من قوى الشر على الأرض وضمنان حياة سعيدة في العالم الآخر . وقد بدأ ظهور هذا المذهب في الشرق ثم انتشر في جميع أنحاء الامبراطورية الرومانية وتعددت صورته المتباينة الى ما لا سبيل الى حصره وتفاوتت تعاليم كل قطب من أقطابه ما بين أنظمة غير مسيحية قطعا وأنظمة كيفت على نحو بدت معه على هيئة هرطقات مسيحية .

ومذهب الغنوسطية الذى وصل الى أنطاكية كان سليل تعاليم « سيمون ماجوس » من سميريا وهو الذى كان في عهد الحواريين يدعو بين الناس بأن ثمة ربا أعلى يوزع القوى أو الفيوض التى كان سيمون نفسه من بينها

وقد ادعى سيمون بأنه صنو المسيح وعرض على الأنظار ضروبا من السحر جذبت اليه كثيرا من الاتباع ص ١٦٧ (١) .

برنابا في أنطاكية :

أرسل شيوخ القدس : برنابا الى أنطاكية - وكان من القبارصة مثل بعض أوائل المبشرين في أنطاكية - لكي يتفقد ما كان جاريا فيها وينهى اليهم مدى نجاحه وما ينتظر له مستقبلا . وكان خليقا ببرنابا بوصفه من القبارصة أن يشعر وهو في أنطاكية بأنه في موطنه تماما كما أن أهل المدينة كانوا خليقين بأن يروا فيه فردا من أبناء طائفة مجاورة تربطهم بها روابط الألفة . ولقد تم على يديه المزيد من حالات الهداية ولما رأى أن النجاح كان حليف الدعوة ذهب الى طرسوس حيث كان بولص يقيم اذ ذاك ودعاه الى المجيء الى أنطاكية للمعاونة في بث الدعوة .

وقد مكث برنابا وبولص في أنطاكية لمدة سنة وهما يقومان بالوعظ فامن عدد كبير من الناس وذلك حوالي سنة ٤٠ م .

وكانت النتيجة التي أسفر عنها هذا العمل هي ظهور طائفة تختلف عن الزمرة الأصلية من أتباع السيد المسيح في القدس . وقد تمثل التغيير في ظهور التعبير الجديد ، تعبير « المسيحيين » ظهر هذا التعبير في مستهل الأربعينيات من القرن الأول للميلاد .

وليست لدينا أية بينة عن حجم الطائفة المسيحية في أنطاكية عندئذ وأما عن نظامها فانه يروى لنا أنه كان ثمة « رسل » « ومعلمون » ذكرت أسماءهم على وجه التحديد بأنهم كانوا : برنابا وسميون نيجر ، « ولوكيوس القوريني » و « ماناين » « وبولس » ولقد كان هؤلاء الرجال ورفاقهم في رابطة الاخاء بأنطاكية هم الذين وضعوا الخطة لحملات التبشير المنظمة التي قام بها بولس وزملاؤه وتولت الطائفة تدبير الوسائل التي بدأت بفضلها رحلات التبشير (٢) .

(١) أنطاكية القديمة جلائيل داووى ترجمة د . ابراهيم نصحي - النهضة المصرية .

(٢) نفس الرجوع ص ١٠٦ .

من أهم جهود برنابا :

جدت مشكلة « تطبيق ما تقضى به طقوس الشريعة اليهودية على المهتدين غير اليهود ذلك ، أنه في الأصل عندما كان كل المهتدين من اليهود لم يكن ثمة مجال للبحث في مراعاتهم لمقتضيات تلك الشريعة إذ لم يكن هناك مشكلة الا بعد ما بدأت العقيدة الجديدة (المسيحية) تتخذ وضعا واضحا متميزا . ظهر نزاع من اليهود المتأغريقين مؤداه : أنه ليس من الضروري المحافظة على تلك الشريعة اليهودية .

وعندما بدأ غير اليهود في الاقبال على اعتناق المسيحية دخلت المشكلة مرحلة دقيقة بصدد الختان والاحكام الخاصة بالأطعمة والمشاركة في الواجبات بين المسيحيين من اليهود وغير اليهود .

كان بولص يرى : انه لم يكن امرا عمليا تطبيق الشريعة على غير اليهود وأن من يعتنقون المسيحية منهم يجب اعفاؤهم من طقوس الختان فقد كان من شأنها أن تعنى في نظر المهتدين منهم أن يصبح أحد افراد الأمة اليهودية أو الجنس اليهودى مسيحيا ، وأنه نزل عن ترائه إغريقي الرومانى وقد توصل برنابا وبولص الى الاتفاق مع أقطاب القدس - جيمس وبطرس ويوحنا - على أن تكون الدعوة الى الهداية الموجهة الى غير اليهود طليقة غير مقيدة بأحكام الشريعة اليهودية (١) .

أنطاكية تحت حكم تدمر :

بعد ما هزم الفرس الرومان ٢٦٠ ووقع فالريانوس نفسه أسيرا في يد الفرس وفي صيف ذلك العام بعينه اجتاحت سورية قوات الملك سابور من جديد واستولت على أنطاكية مرة أخرى . وقد هبطت سطوة الرومان ومكانتهم الى الحضيض واغتنم حكام تدمر هذه الفرصة لتحرير مملكتهم من سيطرة الرومان وسرعان ما وجدت أنطاكية نفسها في داخل نطاق نفوذ تدمر الآخذ في الاتساع .

في ذلك الحين كانت أبرز شخصية في أنطاكية هي شخصية أسقفها بولص من سنفيساط ، وكان بولص ينتمى الى الشطر السامى من أهل سورية

(١) نفس المرجع ص ١٦٢ .

ويمثل فصالح العنصر السامى أكثر من مصالح العنصر الأغريقي الرومانى من السكان وقد أسند اليه الاضطلاع بمهام مدنية ومهام دينية معا وكان يتمتع بتأييد « تدمر » ويؤدى مهام المنوب المفوض عنها فى حكم أنطاكية وأصبح بولص السيمساطى شخصية لها أهميتها أيضا من الناحية اللاهوتية فان تعاليمه التى كانت تدعو باصرار الى أن الله واحد والمسيح بشر مهدت هذه الافكار السبيل للمذهب الأريوسى وأنشأت فيما بعد عرفا تقليديا فى مذهب المدرسة اللاهوتية بأنطاكية .

يرى جلانفيل : أن هذه التعاليم المبسطة قد أعدت ارضاء لزنوبيا ملكة تدمر التى كان يظن أن لها ميولا يهودية . ومن المحتمل أن تكون وجهة نظر بولص فيما يتعلق بواحدانية الله وقدرته تأثرت باعتقاد اليهود اعتقادا جازما فى التوحيد . وأما انكار الوهية المسيحى أو متبوعيتها فان ذلك كان فكرة نبتت فى عهد مبكر جدا حالما أصبحت طبيعة المسيح موضوعا للدراسة والمناقشة المفضلة وكانت أنطاكية عندما حل عهد بولص مكانا خلبقا بأن تلقى فيه مثل هذه الفكرة تأييدا ولا سيما بعدما أصبحت معقلا من معاقل المذهب الأريوسى الذى كان فى جوهره يشايح هذا التفسير . وارتبط تاريخ الطائفة المسيحية فى أنطاكية بمجرى النزاع الأريوسى حول طبيعة الوهية المسيحى ، وهو ذلك النزاع الذى أحدث انشقاق الكنيسة الى معسكرين فى الجزء الشرقى من الامبراطورية وظل هذا الانشقاق الى سنة ٣٢٥ موعده مجلس نيقية وفيه تمت الموافقة على حل أدمج بموجبه فى العقيدة النص على وحدة الآب والابن مادة وجوهرا وتسوية وضع جماعة المنشقين .

ولانرى فى أنفسنا ميلا نحو تحليل « جلانفيل » لدعوة بولص الى التوحيد بانها كانت ترضية لملكة تدمر وفى نظرنا ليس الأمر كذلك لأن التوحيد ظاهرة تغلب على الديانات السامية ولنذكر خاصة « ال » وهو اله سامى مشترك :

- ال : لدى الأكاديين .
- وال : لدى الكنعانيين .
- والوهيم : عند العبريين .
- والله : عند العرب .

وقد عرف اليمينيون أيضا هذا الاسم واستعملوه في الغالب اسما عاما .
 بمعنى اله وهو مدلوله الأصلي حقا ولكنهم استعملوه أحيانا علما على اله
 خاص ويكثر وروده عنصرا في أعلام الأشخاص .

وفي هذا الجو الفكرى العام ذى الطابع المسيحى انشأ بسطاثيوس
 Bustathius أسقف أنطاكية : مدرسة بها ، على نمط مدرسة الاسكندرية
 ولم يسر تاريخها على وتيرة واحدة ، ففي أوائل عهدنا نفى بوسطانيوس سلة
 ٣٣١ وترك المدرسة في رعاية فلافيان Flavian وقد أشرك معه الناسك
 ديودوروس Diodorus

وهؤلاء الثلاثة جميعا وهم : الأسقف بوسطانيوس ، وفلافيا ، وديورودوس
 كانوا من زعماء الخصومة مع أتباع أريوس .

وهذه الزعامة : هى السبب فى كثير مما تعرضت له مدرسة انطاكية من
 عفت ، فقد كان لأتباع أريوس فى هذا الوقت ، قوة سياسية كبيرة ، وزادت
 قوتهم بعد موت قسطنطين سنة ٣٣٧ م ومع ذلك فقد استمرت المدرسة الى
 سنة ٣٧٩ عندما صار ديودوروس أسقفا لطرسوس .

وقد كان فى سنة ٣٨١ أحد الأساقفة الذين رسموا فلافيان على كرسى
 انطاكية ، ولما ارتقى ديودوروس الى كرسى الأسقفية : نشئت المدرسة .

وكان بين انطاكية ، ومدرسة الاسكندرية : تنافس لم يكن كله وديا
 وذلك عندما اتهمت مدرسة الاسكندر الأسقفيين : ديوروس أسقف طرسوس ،
 وثيودور أسقف مصيصة ، بأنهما بذرا دون قصد منهما : بذور المذهب
 النسطورى .

٢ - مدرسة نصيبين :

تقع نصيبين : فى الرقعة التى تخطت عنها فارس لروما سنة ٢٩٨ ،
 ولما كانت حينذاك مدينة من مدن الحدود تشرف على الطريق الرئيسى بين

(١) الحضارة السامية القديمة ص ١٩٥ .

شمال ما بين النهرين (٢) وبين دمشق ، فان الرومان حصنوها احسن تحصين ، ولعله كان فيها : بعض المسيحيين في ذلك الوقت ، كما كان الحال في اجزاء كثيرة في بلاد ما بين النهرين .

وفي حوالي سنة ٣٠٠ أو ٣٠١ عدت مقر كرسى أسقفى وكان أول أسقف لها هو : بابو Bapu ثم خلفه الأسقف يعقوب الذى أنشأ مدرسة بها على غرار مدرسة أنطاكية ، وكان فيها قبل أن تقع في أيدي الرومان : مدرسة يهودية ، أنشأها الحبر يهوذا ابن باثيرا ، وهو راوية ، وقد ورد باسمه سبعة عشر فصلا من فصوله في (المشناه) ، والمرجح أن استيلاء الرومان على المدينة قضى على مدرستهم فيها . وعلى أية حال فلا ذكر للمدرسة بعد هذا التاريخ ، وبعد يعقوب أقيم شيخ اسمه ابراهيم على رأس هذه المدرسة .

٣ - مدرسة الرها :

عندما وقعت نصيبين مرة ثانية في يد الفرس ٣٤٣ فر ابراهيم رئيس مدرسة نصيبين ، فهرب الى الرها ، ولا شك أنه كان هناك لاجئون كثيرون مثله فالتفوا حوله .

وهكذا أنشئت مدرسة مسيحية في الرها ، ويمكن أن تعد مدرسة الرها بعثا لمدرسة نصيبين .

(*) قبائل العرب الذين سكنوا ما بين النهرين : ربيعة ، وتغلب بن وائل ، ومضر ، هاجروا من اليمن ، سكنوا ما بين النهرين : دجلة والفرات ، وسهبت ديار بكر ، وديار ربيعة ، وديار مضر : آمد : ديار بنى بكر ، وقرقيسيا : ديار مضر من العرب الطائيين ، ونصيبين . ديار ربيعة ، يقول الالوسى وهذه الجزيرة سكنها اناس مختلفوا الملل والاجناس ، ومنها دارا : التى أخفاها الاسكندر قال الشاعر :

ونعد قلت لرحل بين حران ودارا
اصبرى يا رحل حتى يرزق الله حمارا

الالوسى . بلوغ الارب ج ١ ص ٣١٩ وللاستزادة يراجع . معجم ما استعجم لابي عبيد البكرى ومعجم البلدان : لياقوت الحموى .

دارا . نسبة الى دارا بن كشتاسب ٥٢١ - ٤٨٦ ق.م عندما اراد ان يؤمن الطريق من سوس الى سروس (نى لنديا) سيطر على آسيا الصغرى بقوة من بلاد النهرين وضم . دارا ، أيضا البنجاب ، وبلاد العرب الى الامبراطورية ص ٥٦ تراث .

وكما هو واضح : ان مدرسة الرها كانت في اول امرها جماعة ليس لها صفة رسمية ، وكذلك ليس لها سند قانوني ، او رسمي ، مثل : مدرسة نصيبين ، وأنطاكية .

هذه صورة عامة عن المدارس التي قيل عنها : أنها حملت تراث مدرسة الاسكندرية الى المنطقة العربية ، وبالرغم من أن تاريخها ما زال مجهولا ، فان ما علم منه يفيدنا أن هدفها الأول : نشر أصول الدين الوثني بين المسيحيين الذين يتكلمون بالسريانية ، يقول ديالاسي : « فقد كانت عقائدهم اللاهوتية ، ونظام كنائسهم . كما بين (أستريز يجوفسكي Strzygowski) غير مطابق للاصول المعتمدة في الكنيسة الكاثوليكية » .

وكما نلاحظ : ان رؤساءها أساقفة مسيحيون ، أي رجال دين ، وليس رجال دين فقط ، انما رجال دين منشقون بعضهم على بعض ، فحملت هذه المدارس طابع هذا الانشقاق .

فالمدارس كانت ذات طابع ديني ، وكانت القضية المسيطرة عليها : قضية طبيعة المسيح ، والرأي ومنهجه حول طبيعة المسيح لم يكن واحدا ، انما كان يتغير تبعا للولاء السياسي كما كانت غالبية هذه المدارس يرجع الفضل في انشائها الى بعض المضطهدين : من السياسة ، والكنيسة .

هذا مما أدى : الى فشل الهلينية في المنطقة العربية ، لأن هذه المدارس كان رؤساؤها رجال دين مضطهدين : فحولوها الى غايات دينية غير متفق عليها ، وكثيرا ما كان يستعدى عليها : رجل السياسة ، فيشتت شملها ، ويبعثها ، أضف الى ما سبق : أن بعدهم عن الاغريقية ، جعلهم ينعزلون داخل المادة السريانية المترجمة ، فانقطاعها عن الهلينية : صيرها اقليمية خالصة ، وحامت فلسفتها : حول الدين ، واللاهوت ، وهي وان كانت نشرت بعض أفكار فلسفية عن المسيحية في بلاد جديدة : فان هذا الفكر لم يساعدها على التطور ، وأصبح حال هذه المراكز الثقافية ليس بأحسن حالا من العواصم السياسية للمنطقة العربية ، فما كادت تظهر وتتماثل للازدهار حتى يطويها ليلها الطويل .

يقول دلاسى أوليرى(١) : أن الثقافة اليونانية لم تنتقل الى الغرب عن طريق هذه الاتصالات الاولى ، ولقد تحقق انتقال العلوم اليونانية الى العرب عندما استقرت الخلافة العربية في مدينة بغداد التي كانت حديثة البناء بالقرب من جنديسابور .

آراء قلقه للمستشرقين حول الهلينية في المنطقة العربية قبل الاسلام :

بعد ما عرضناه عن الهلينية في الشرق والمنطقة العربية فيه ، رأينا : أن نعرض بعض آراء استشرافية مغالية وكنا نلاحظ ان هذه الآراء مهما تنوعت أهدافها ووسائل مناهجها فانها ترجع في نهايتها الى موقفين :

* موقف من يصم العقلية السامية : بعدم الفهم الطبيعي للأمور .

هذا الموقف كان من نتائج : أن ميز بين عقليتين :

— عقلية آرية خصائصها : جمع وتحليل : esprit Fusiennist

— عقلية سامية وخصائصها : التجزئ

* وموقف من يرى : أن الشرق لا يجب للثقافة ذات النزعة الانسانية .

وبين الرأيين خلاف جوهرى مؤداة : أن الراى الأول يرد العجز العقلى : الى علة فطرية والراى الثانى يرد العجز العقلى : الى عوامل كسبية اى تخلف حضارى .

وهما معا على اختلافهما في التفسير الذى يعطى اخفاق الهلينية ، يتفقان معا : على عدم تجاوب الشرق مع الهلينية ، ويتفقان أيضا : على أن الشرق هو السبب اما لعله مرضية ، او لعله مزاجية .

وغاب عنهم — كما قدمنا — أن التيارات الثقافية التى غزت المنطقة : بعضها هب من فارس ، وهى دولة كانت عالمية ، فترى في تراثها نفس

(١) علوم اليونان وسبل انتقالها الى العرب ..

Jrenan : l'eslamisme et la science dans discans et canferanccs
Paris 1887 P. 377 - aussi.

2 guatier l'esprit semitique et l'esprit aryen Paris 1923 1,67.

هذه الصفة العالمية ، فكانت تكافح روما سياسيا ، وثقافيا لاحلال سياستها وثقافتها في كل بلد تدخله .

وروما أيضا كانت دولة عالمية ، وتراثها كذلك أيضا أى كانت ترى فيه : هذه الصفة من العالمية ، كانت تكافح الفرس سياسيا ، وثقافيا ، من أجل احلال ثقافتها على كل رقعة يمتد نفوذها عليها ، والمنطقة العربية ، كانت مرة في حوزة الفرس ، ومرة في حوزة الروم ، فكان من الصعب أن تستقر على تراث ثقافى ذى طابع واحد ولا سيما ان الذين قاموا به - وهم من آباء الكنيسة - مضطهدون سياسيا ، ودينيا ، فكان المواطن يعزف عن هذا اللون من الثقافة الحرجة .

فلم تكن في المنطقة العربية دولة ذات طابع استقلالى تبنت الدعوة الى هذا اللون من الثقافة أضف الى كل ذلك : أن المادة الهلينية التى ترجمت جاءت عن الاسكندرية بعدما أتخمتها بالباحث اللاهوتية ، فلو لاحظ المستشرقون هذه الاعتبارات ، وأخذوا في اعتبارهم ضعف المادة الهلينية حين فسروا اخفاقتها في الشرق : لما انتهوا الى هذه النتائج .

أما موقف من يصم العقلية السامية بالعجز لعوامل وراثية فان النظريات العلمية المعاصرة ذهبت به بحددا(١) يقول ديلاسى أوليرى :

يتتبع التاريخ تطور البنية الاجتماعية التى يوجد المجتمع اليوم فيها ثلاثة عوامل رئيسية تعمل في هذا التطور وهى :

• - العنصر القومى

• - اتجاه تيار الثقافة

• - انتقال اللغة

• أول هذه العوامل فسيولوجى

وأهم عامل في تطور البنية الاجتماعية هو : تناقل الثقافة والثقافة ليست من الأمور الوراثةية ، ولكن تناقل الثقافة يعود الى الاتصال ، لأن الثقافة تتعلم وتستفاد بالتقليد، ولكنها لا تورث .

(١) المرجع السابق .

ثم قال : وليس في هذا ما يتصل بمسألة العنصر ، فالثقافة لا تورث باعتبارها جزءا من الميراث الفسيولوجي الذي يرثه الطفل من أبيه ، وإنما يجري تعلمها بالاتصال الناشئ عن الاختلاط بالثقافة ، والتعليم ، وما أشبه ذلك (١) .

فلنعدم مدلولها العلمي رأينا أن نضرب صفحا عنها (٢) .

وأما الموقف الثاني : وهو ما يرى أن لشرق لا يجب الثقافة ذات النزعة الانسانية فنحب : أن نعرض له ، ونفسح له المجال :

يقول هذا الرأي ، من خلال وجهة نظر هانز هينرش شيدر : (٣)

كان غزو الاسكندر الأكبر وما تلاه من تكوين امبراطورية يونانية في غرب آسيا الحادث الفاصل في تاريخ تطور الروح الشرقية .

فمن هنا : وقع الشرق تحت تأثير الثقافة اليونانية ، ودبت فيه حياة جديدة من الحضارات المختلفة ، والتي تتكون منها الحضارة الشرقية عامة ، والتام شملها في وحدة جديدة تحمل طابع الروح اليونانية ، وتلك الوحدة هي التي يسميها باسم الهلينية . ثم يرى المؤلف من خلال بعض تعبيراته أنه :

— تحت تأثير الثقافة اليونانية : دبت في الشرق حياة جديدة .

— وتحت نفس التأثير . تطورت الروح الشرقية .

— وأن الوحدة الحضارية التي ظهرت في الشرق : تحمل طابع الروح

اليونانية .

(١) نفس المرجع : ونحيل القارئ إذا أراد معرفة بها الى : تمهيد الفلسفة الاسلامية

الاستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق .

(٢) في الفلسفة الاسلامية ، منهج وتطبيقه د . ابراهيم مكيور ، الجانب الالهي

من التفكير الاسلامي — د محمد البهي .

(٣) الشرق وتراث اليونان ترجمةكتور عبد الرحمن بدوي بعنوان روح الحضارة

العربية دال العلم للملايين . بيروت .

• ونهاية رأيه : أنه حصل في الشرق تطور ، مصدره ، الحضارة اليونانية .
ثم أخذ يشرح وجهة نظره ، من بين رؤيتين للتاريخ يوضح بهما
الأثر الزمني للسيطرة الهلينية ، فنقول :

– هناك رؤية المؤرخ السياسى : وهى موقوته بدءا من الاسكندر ،
ونهاية حتى قيام ما يدعى بالامبراطورية الرومانية ، فيقول :

«وللمؤرخ السياسى الحق ، حينما يريد أن يفهم معنى الهلينية ، تلك
الفترة التى استمرت حتى قيام الامبراطورية الرومانية من أسوس ، حتى
اكتيوم وحدها » .

– وهناك رؤية للمؤرخ الفكرى ، أو الروحى ، وهى تمتد حتى أعتاب
العصر الحديث كل الحداثة فيقول :

لكن الدارس للتاريخ الروحى للشرق القريب ، لا يستطيع الاقتصار
على هذا التحديد ، لأنه يجد أمامه هذه الواقعة الا وهى : أن ثمة أفكار
يونانية : هى التى أنشأت الحياة الروحية الشرقية ، ووهبتها القوة الدافعة
المولدة ، لا فى عصر خلفاء الاسكندر الاثنى عشر وحدهم فحسب ، بل وأيضا
فى العهد الرومانى ، والبيزنطى ، الى العهد الاسلامى .

والحضارة الروحية التى أسستها الهلينية : قد امتدت حتى بلغت فى
الشرق أعتاب العصر الحديث كل الحداثة ، الى نفوذ المدينة الأوربية ،
والعلم منذ الاجيال الثلاثة الأخيرة .

والنتيجة كما يقول – وفق نظره :

وعلى هذا : فان نقطة ابتداء ، الحضارة الشرقية ، التى بلغت كمالها
فى الاسلام ، هى بعينها نقطة ابتداء الحضارة الغربية .

ثم بعد ذلك : طرح سؤالاً جعله مقدمة لدراسة مقارنة ، ممهدا له بقوله :

لكن أقل مقارنة بين الخصائص الروحية للشرق الاسلامى الحديث ،
ولعالمنا الغربى ، تدلنا : على تباين فى الموقف ينتظم كل شئ : العام

منه ، والخاص ، حتى أبسط الجزئيات ، فنرى أنفسنا أمام هذا السؤال وهو :

كيف أدى قبول قوة روحية واحدة بعينها - ونعنى بها : الثقافة اليونانية - الى نتائج مختلفة كل الاختلاف هناك كما هي الحال هاهنا ؟

للاجابة على ما طرحه من سؤال : أخذ يبين خصائص الشرق الفكرية قائلًا :

في الحضارة الشرقية ، نشاهد الشعور بالسنة والتقاليد وشدة التمسك بهما : قد بلغا أوجهها .

بيد ان كليهما يبدو هناك في تركيبه متميزا بطريقة خاصة من فكرة التقاليد عند الغرب . فالتقاليد معناها في الشرق : المحافظة على ما هو أصلي وقديم .

والتقدم الروحي ، لا يمكن ان يتم عنده ، الا في التفسير ، والتكيف مع الأوضاع الجديدة ، لا في التحويل ، والصياغة من جديد لما ورثوه ونقلوه .

والعلة الرئيسية في هذا : انما هي الرابطة الدينية ، والتي في داخلها يتم تطور الروح في الشرق .

والتقليد (أو السنة) لا يمكن نقضها ، لأنه ينظر اليها : على أنها من الوحي ، وما هو من الوحي : ليس في مقدور المتأخرين ، ولا من شأنهم ، أن يمسه ، لأنه مما بلغ للانسان من قبل على أنه الحقيقة .

ثم رجع المؤلف متسائلا ، مرة ثانية عن عدم نجاح التراث الهليني في الشرق مرة ثانية : كيف أمكن اذن الا يغير اقتحام الفكر اليوناني (للشرق) منذ نهاية القرن الرابع قبل الميلاد هذا الموقف الروحي عند الشرقيين ؟

وبالجملة ، ولصياغة المسألة هنا في صيغة موجزة :

كيف أمكن الا يكون الشرق حتى العصر الحديث قادرا على ايجاد نهضة أو نزعة انسانية ؟

يقول مجيبا : ولقد قدر للشرقيين ، حينما اتصلوا بليونان • أن يجدوا أنفسهم مالكين لثقافة روحية دخلت دور التحجر تبعا لموقفها المحافظ من السنة التقليدية لم تتطور تطورا كافيا •

فلم يكن ثم ما يتعلمونه حقا من يونان بل (على العكس من هذا) لم يكن لهم أن يتعلموا شيئا لأن تقاليدهم قد قدسها الوحي وفضلا عن هذا فقد استقرت الغاية في تطورهم الروحي فبينما أحس الرومان في اتصالهم بليونان • أن المثل الأعلى للفضيلة والمروءة ، يمكن أن يسمى به الى أعلى صورة ، صورة الدراسات الانسانية ، ومن أجل هذا • أقبلوا على يونان : برغبة في العلم غير محدودة تمتاز بالحرية الباطنية والتفتح ، اتجه الشرقيون ، لا الى الانسانية وانما الى الظفر بالقداسة وبالنجاة •

ولهذا فان المثل الأعلى ، ذا الطابع الدينى المرتبط بالعقائد الثابتة ، عند الشرقيين ، لم يسم حينما انكشف له الفكر اليونانى الى استهداف غايات جديدة ، وانما •• اشتد في حركته هو الخاصة •

ولم يكن هذا فحسب : فان الامكانية الحاسمة الجديدة التي تبدت آنذاك أمام الشرقيين : كانت هي استغلال التراث اليونانى من أجل « توكيد » نوازعهم الخاصة •

لذا لم يكن طبع الحضارة الشرقية بطابع الهلينية ، حركة نهضة ، أو ميلادا جديدا ، وبعثا لقديم ، وانما : كان استمرارا في المحافظة عليه وتخليده •

فاستفاد القوم « الشرق » من القوى اليونانية • امكان تنظيم هذا الخليط العديم الصورة • من المنقولات الأسطورية ، والنبوية ، والتشريعية ، والأمثالية ، وترتيبه وتبويبه تحت وجهاً نظر رئيسية موحدة بسبطة ، ثم جعلها تتواتر في صورة أثبت ، وخصوصا وقبل كل شيء : جعل فهم تقاليدهم الخاصة وقيمتها مفتوحا. أمام غيرهم ممن هم خارج نطاق جماعتهم الحضارية •

والعلة في رايه التي جعلت الأثر اليونانى عقيما في الشرق هي كما يقول : وهكذا نرى العلة الرئيسية • في أن التراث اليونانى في الشرق ، قد كان ذا عقم بالغ حتى الأعماق ، وان لم يكن هذا التراث أقل نفوذا وتعبيرا

منه عند الرومان ، وهذا العقم لا يمكن أن ننعته الا بأنه كان مؤلما
 أسيان فما تعلمه الشرقيون ، من اليونان : أفادهم في الاستغلال العربي له ،
 لا في الظفر بتنشئة جديدة وتطور في الثقافة .

ومن ناحية أخرى يتبدى جليا الآن : لماذا كان السؤال - الموجه الى
 الحضارة الروحية الشرقية - عن العلة : في أنها لم تستطع ايجاد نزعة
 انسانية تتجدد من جيل الى جيل ؟

يقول : أي المؤلف : لماذا كان هذا السؤال ليس سؤالا صادرا عن
 خارج أو عن وجهة نظر لا تقوم في طبائع الأشياء نفسها ، بل هو سؤال
 له أساسه في جوهر الأمور عينها ؟

والنتيجة النهائية هي كما يقول :

فالامر اذن على هذا النحو : وهو ان كل من يدخل مع اليونانيين في
 صلة حيوية يوضع امام الاختيار بين احد خصلتين :

- اما أن يقتلهم أي لليونانيين - عن وعى و ارادة .

- واما ان لا يفعل .

يشرح المؤلف ذلك فيقول : فان تأثير يونان له من الصولة ، وكذلك
 قوة عقلهم المفكر ، المنظم لمجموع الواقع المطلق لنفسه ، هو من الاقناع
 بالنسبة الى كل انسان يكون على علم به بحيث لا يوجد ثم مندوحة عن هذه
 القوة وذلك التأثير ، فمن يلقي اليونانيين لابد أن يتعلم منهم ، والمسألة :
 هي فيما اذا كان سيحول هذه الضرورة الى ارادة حرة ويعرف كيف يشكر
 اليونانيين من أجلها أم لا .

فلاحظ ان المؤلف بدأ يظهر بوضوح أله : من عدم استفادة الشرق من
 التراث الهليني ، وأخذ يوطىء لذلك بما قاله عن الشرق وهو :

أن عدم نجاح رسالة التراث اليوناني في الشرق ، راجع بالدرجة الأولى
 الى تمسك الشرق بتقاليدته وتراثه ، فما أحب الشرق أن يكون تلميذا .

ولا أحب أن يفعل ، وان كان اليونان أحب ان يكون معلما مسيطرا فان
الشرق قد نبذه .

ثم يقول : والشرقيون اعتقدوا الثقة بتقاليدهم ، واعتقدوا أنهم
لا يستطيعون أن يأخذوا عن اليونانيين : الا ما ينتسب الى الصناعة الفنية ،
وليس عليهم أن يتعلموا منهم توجيهها روحيا جديدا ، ولم يستطع الشرقيون .
أن يرتفعوا الى مستوى الاعتراف الخليق بالنفس العالية الحرة ، الاعتراف
بالرسالة اليونانية التي يشير بها « هوراس » للرومان في قوله « يونان
مقهورة تقهر المتبربر الظافر » .

بعد ما انتهى الباحث الى هذه النتيجة : وهي ان الثقافة اليونانية
رفضها الشرق ، وما أخذ منها : كان بمثابة الاستفادة ، أو ما أدخلوه على
صناعتهم الفنية : فالشرق لم يقتل على يونان بوعى و ارادة ، لذلك عجز
التراث اليونانى . أن يترك أثرا للفتنة الانسانية في الشرق .

ولقد كان من الملاحظ حقيقة ونظمتن اليه ، وهو ما أفزع الباحث
وأقلق عليه باله : هو أن حروب الاسكندر استطاعت أن تغلب الشرق سباسبيا
غير أن ثقافته اليونانية لم تستطع : ان تقهر الشرق ، ثم بعد ذلك ، بدأ
منه تجاهل - في حنق وفي عصبية - لا مبرر له ، ليس في طرحه سؤاله :
انما في الاجابة عليه ، فهو يقول : ومن ثم تنتضح الصعوبة في العادية ،
التي تكمن في مسألة ما اذا كان على المرء أن يرد مركز الثقل في الانتاج الروحي
- وخصوصا منه الدينى والفلسفى - الذى أبدعه الشرق الى الهليني أو
العنصر الشرقى ؟

وتلك مسألة تعرض نفسها بالحاح خاص في كل درجة من درجات
التطور الروحي للمسيحية ، وبالنسبة اذن الى تلك الحركة التي اقتحمت نطاق
اليهودية ، التي انفكفت على نفسها وغلقت ابوابها باطراد متزايد منذ عهد
المكابيين ضد العالم الهليني المحيط بها ، ولكنها في اصولها لم تظهر بعد
بصورة روحية راسخة ، بل ظفرت بها اول مرة بفضل التوغل في ارض
هلينية حقا : أن هذه المسألة يجاب عنها بصورة جلية منذ القرن الثالث
بعد الميلاد لما أن نما المذهب المسيحى في مدرسة الاسكندرية : الى نظام

فلسى استقصيت فيه الذرائع ، وهذا الجواب : هو أنه ما من أحد يمارى فى سيادة الفكر اليونانى فى علم اللاهوت المسيحى من ناحيته التنظيمية المذهبية . بيد ان الاجابة عن هذه المسألة ، تترجح وتتردد : حينما يتصل الأمر بنشأة تاريخ المسيحية ، وأكثر من هذا : حينما يتصل بالحركات ذات الصلة الماسة بها ، من حيث التوجيه فى النظرية الكونية ، وتسير موازية لها ، وكذلك أيضا حينما يتصل الأمر بالنظرة الاسلامية : فى الحياة والوجود التى أنت بعد ذلك .

نقول : ان اجابة تتردد وفقا لكون المرء فى احكامه هنا يبدأ من الاسس العقلية التنظيمية لهذه النظرات فى الوجود والحياة ، أو يبدأ - وهذا اقرب بكثير الى اهتمام الباحثين اليوم - من الموقف الذاتى ، وبالجملة ، من المثل الأعلى للتقوى ومن الحنين الى النجاة الفردية لاتباع تلك النظرات الكونية .

نلاحظ : أنه عندما أخذ يبين الأثر الهليني : على المسيحية ، واليهودية ، والاسلام ، رايناه : متحيزا : كما يظهر من تردده حين أراد أن يقوم تساعل هل يردده الى العنصر اليونانى ؟ أو الى العصر الشرقى ؟

ثم بعد تردد نراه يقول : الانتاج الروحى - وخصوصا - الدينى ، والفلسفى الذى أبدعه الشرق يرجع الى الهلينية .

ثم يتابع قوله عن الشرق الهليني فيقول :

هنا يرى : أن فى الشرق ثمرات ابداعية : غير أنه أضافها الى الهلينية وفى هذا ما يفيد لديه : أن التراث الهليني نجح ، ويصبح ما أحصاه عليه من خصائص تفوق نموه الثقافى : غير حقيقته لأنها ان كانت فيه فلماذا منعتة عن التطور ؟

ويعترف : ان فى الشرق ابداعا غير أن حيرته فى تساؤله - هل هو ابداع راجع الى العنصر الهليني ؟ الذى أعلن أنه فشل فى الشرق ؟ أو راجع الى الشرق ؟ الذى فيه خصائص تعوق نموه الثقافى ؟ : حيرة تنم عن تعصب

وتعييننا على وصف نظراته بأنها تحتاج منه الى مراجعة مع روية واصطناع
الأناة .

ثم راح المؤلف بعد ذلك : يبين الأثر اليونانى فى الشرق ، واختار فى
سبيل اظهار ذلك : قضية الكون والوجود .

فقال : ولشق طريق علينا على الأمل خلال هذه الرحلة لابد أن يتساءل المرء :

أين مجال التاريخ الروحى الحقيقى ؟ والى أى نقطة يجب أن يتجه
انتباهه ؟ حتى يتبين ، بوضوح : تطور النظرة الكونية ويقدر على ايضاحها ؟

ومن ذا الذى يمكن أن يشك ، وهو يضع السؤال على هذا النحو ،
فى أن الأسس التصورية للنظرة الكونية وتطوراتها ، هى بعينها التى يمكن
تعرفها بيقين ، وتعرف درجاتها فى تاريخ تطور الفكر والتحرر الذاتى للعقل ،
بينما التدين الفردى : حينما يكون عامرا بالقوة والمميزات الخاصة ، يكون
بمعزل عن التطور ، بل عن الارتباط الزمنى الى حد : أن انتظام أصحابه
فى خط التطور : يصطدم بعقبات لا تكاد تفل ؟

ولهذا : فانه لا تكاد توجد امكانية اخرى للتامل التاريخى الروحى عند
الشرق ، غير ابتداء هذه الواقعة الأوهى :

أن الكلم اليونانى والفكر اليونانى - وهذا الأخير ممثلا فى صفة محدودة
بحاجة الى مزيد من الوصف - وقد أثر كلاهما فى الشرق ، وحى هناك ومازال
يحيا حتى العصر الحديث .

وتاريخ الفكر اليونانى فى الشرق : يقدم لنا الخيط الأحمر ، الذى يعين
المرء على ضم كثرة من صور النظرة الكونية ، تحت لواء مركب تطورى
واحد ملىء بالمعانى ، وفضلا عن هذا : يسمح بربطته ومقارنته بالتاريخ
الروحى للغرب .

وهذه المصادرة لا شىء أبلغ فى تحقيق صحتها من مجرى التطور الحقيقى
للفكر الشرقى ، تبعا لكونه قد خضع بكل اذعان : لتأثير العقل اليونانى
منذ اللحظة التى تعارفوا فيها ، وليس فى تاريخ النظرة الكونية فى الشرق :

قوة عقلية واحدة ، يمكن أن تقارن : في أهميتها وجلال شأنها ، بالقوة اليونانية ، بل يستطيع المرء ، أن يذهب الى أبعد من هذا ، ويقول :

ان اتجاهات النظرة الكونية - لدى الشرقيين منذ الهلينية - : تبلغ في كل حالة ، درجة من الوضوح العقلي ، وقابلية التعليم والفاعلية ، الا حينما عملت فيها : نظم التطورات العقلية اليونانية ، والاستثناء الوحيد في هذا الباب هو : الديانة التشريعية اليهودية .

ثم يقرر المؤلف - وهو بصدد بيان الأثر الأغريقي على الشرق - : أن نظرات الشرق في الوجود ، أثر أغريقي ، لأنها خضعت في تطورها : للفكر والتحرر الذاتى للعقل ، واستبعد المؤلف أن تكون هذه النظرات ، وليدة التدين ، لأن التدين - في نظره - حينما يكون عامرا بالتقوى ، والمميزات الخاصة ، يكون بمعزل عن التطور ، بل من الارتباط الزمنى ، الى حد أن انتظام أصحابه في خط التطوير ، يصطدم بعقبات تكاد لا تذلل .

واضح من اتجاهه أنه يميز بين نظرتين بالنسبة الى الكون والوجود :

- النظرة الدينية : ومميزاتها عدم التطور ، ومتحير في مصدرها .

- النظرة العقلية : ومميزاتها التطور ، ويرجع أصلها : الى اليونان .

والمؤلف : اذ يضح هذا التمييز بين نظرتين ، نراه لا يبني حكمه عليهما ولا يراعيهما في منهجه فضلا عن أننا نلمح تعسفا منه : حينما أسند نظرات الشرق في الوجود الى الهلينية ، في الوقت الذى حاول فيه - سابقا كما بينا - أن يطعن الشرق بعدم قدرته على التطور ، وعاجزا عن متابعة الهلينية كما عجزت الهلينية من وجهة نظره - أن تكون دواء لداء الشرق القعيد عن التطور ، فكيف تطور - بعد ذلك - في نظراته حول الوجود ؟

ثم يرجع فيقول : ولهذا فان المثل الأعلى ، ذا الطابع الدينى ، المرتبط بالعقائد الثابتة عند الشرقيين : لم يسم حينما انكشف الفكر اليونانى ، الى استهداف غايات جديدة ، وانما اشتد في حركته هو الخاصة ، ولم يكن هذا فحسب ، بل فان الامكانية الحاسمة الجديدة التى تبعت آنذاك أمام (م ٥ - الفكر الدينى)

الشرقيين : كانت هي استغلال التراث اليونانى : من أجل « توكيد » نوازعهم الخاصة .

لذا لم يكن طبع الحضارة الشرقية بطابع الهلينية ، حركة نهضة ، أو ميدانا جديدا ، وبعثا لقديم ، وانما كان استمرارا في المحافظة عليه وتخليده » .

بعد ما قرر المؤلف هذا التقرير : نراه ناقضه ، وناهضه ، وذلك عندما رد « نظرتهم ، الى الكون والوجود : الى الاثر الاغريقي ، واستبعد أن يكون : وليد تدينهم .

ولنا بعد ذلك سؤال يقول : هل يا ترى تراث الشرقيين ، الخاص بالوجود والكون ، يدخل تحت وصف المؤلف لتراث الشرق « بأنه خليط عديم الصورة » « أو أنها نظرات على مستوى فكرى عظيم » فينحطها الى يونان ؟

حقيقة الأمر أن المؤلف يتحامل على الشرق حينما ينحل اليه « كل خليط عديم الصورة » .

ونراه لا يرى في ذلك استثناء واحدا سوى : اليهودية . فيقول :

والاستثناء المميز الوحيد في هذا الباب هو ، كما سنبين « الديانة التشريعية اليهودية » . بهذا الاستثناء ، بدأ المؤلف : يعطى بعضا من الأصول الثابتة للشرق والأساسية في تكوين تراثه وخصائصه ، حينما رأى ذلك في الدين اليهودى وهذا أقدم دين شرقى بلغة السماء نعرفه بكتابه .

إذا كانت اليهودية مستثناة - وليست كلها - انما شريعتها فما هو المقابل الذى يقدمه المؤلف ويظهر فيه الأثر اليونانى ؟

يقول - وفي مقابل هذا - : نشاهد مثلا : أن الديانة القائمة على عبادة النجوم ، ومنشؤها من البابليين ، ليست مطلقا نتاجا أصليا للتطور الروحى البابلى ، وانما هي بالأحرى : نتيجة تعمق علم النجوم البابلى . والقياسات الفلكية ، بمعاونة التصورات اليونانية ، والفلسفة اليونانية ، وبخاصة : الراقية منها .

وقوة النفوذ الهائلة ، التي كانت للنظرة الكونية النجومية في العصر الهليني ، لا يجب أن نفهم اذن الا اذا اتضح للمرء : أن اللوغوس اليونانى هو الذى نظم تلك النظرية ، وبعث فيها قوة الاقناع .

والامر على هذا النحو - أيضا - فيما يتصل باستمرار تأثير النظرة الكونية الايرانية الأقدم في الشرق القريب وما وراءه . فالتفكير الايرانى : يتضمن بعض التطورات التوجيهية ، ذات القوة الرمزية العظمى ، ومضمونها الرمزي الواسع ، قد جعلها : تبحو أكثر قابلية للتعبير عن الميول الخاصة للثقافة الشرقية ، بنظرتها الكونية فيها عن غيرها ، لذلك : كان لابد لهذه التصويرات الأسطورية المقيدة بالتفكير الاسطورى ، لكى تصبح رموزا كلية مفهومة لدى الجميع فعالة - يقول أى المؤلف - : أنه كان لابد من دخول العقل اليونانى فيها لينظمها على هيئة مذهب محكم في تفسير العالم والتاريخ .

فما قدمه من نموذج ، وهو الديانة القائمة على عبادة النجوم ، أى الديانة الوثنية ، واعتبره أثرا يونانيا : نوافقه عليه ، بل نوافقه على أن الوثنية التى غزت الشرق ، وغزته : كان أصلها يونانيا .

ثم يقول : ولا سبيل - بعد كل ما قلناه - الى ايضاح المهام الملقاة على عاتق التاريخ الروحي الشرقى ، الا بالتأمل فى أهمية الفكر اليونانى بالنسبة الى الشرق ، ووجوهه الخاصة ، أى بالتأمل فى ظاهرة انعدام النزعة الى الشرق ، ووجوهه الخاصة ، أى بالتأمل فى ظاهرة انعدام النزعة الانسانية فى الشرق .

ويحاول المؤلف ، فى النهاية : أن يبين بوضوح أن السبب فى عدم نجاح التراث اليونانى الشرقى : هو عدم اهتمامه بالنزعة الانسانية ، لماذا ؟

يقول : ذلك أن الفكر الشرقى لا يقوى على ادراك عالم محكم احكاما لا يوصف ، منظور اليه بقوة بصيرة دقيقة واضحة ، وفيه لكل شىء مكانه ، وتدبير الآلهة وفعل بنى الانسان كلاهما : يجرى على نظام واحد طبيعى ، ان جاز هذا القول ، اذ الفكر الشرقى يوجه كل همه ، نحو الحاجة للنجاة بالنسبة الى الذات المفردة الخاصة ، ونحو أحدية الله وعلوه على الكون ، وقوته وقدرته التى تهيمن : على كل الأفعال الانسانية .

وكذلك ، لن يستطيع : أن يفهم هذه اليقينية التي وصل اليها سقراط ،
 ألا وهي : ان حياة الانسان الأخلاقية ، لا تملأ معناها عن طريق التفكير العقلي
 الأخلاقي ، أو التأملى النظرى الميتافيزيقى ، انما عن طريق تحقيق مضمون
 الحياة كله داخل نطاق الجماعة ، بينما عند الشرقيين ، فى العصر القديم ،
 قد أصبح التفكير والحديث عن الأمور الأخلاقية : موضوعا للأحاديث الوعظية ،
 وبهذا فقد فقد القوة الدافعة الى العمل . ولو شاء المرء ، أن يعبر فى صيغة
 موجرة عن الحد الذى عنده يقف فهم الشرقيين لليونانيين ، لاستطاع أن يقول :
 ان هذا الحد : هو الفكر الكونى عند اليونان . أعنى : تصور العالم : على
 أنه كل محكم الاعضاء ، جوهره : يقوم فى انسجام أجزائه .

فتطور الفكر الشرقى ، لا يهدف الى تأمل الكون المنظم ، وانما يهدف
 الى جمع الصلة بين النفس المفردة المحتاجة الى النجاة ، وبين ربها .

ذلك : أنه اذا اقتصر كل الاهتمام على النجاة الشخصية ، وعلى التوتر
 بين الكمال الالهى ، وبين النقص الانسانى ، أصبحت العين عمياء عن العالم
 الخارج عن الذات الخاصة ، ولم يعد ثم تفكير فى نظم العالم الموضوعية .

ثم قال : وهنا نشير ، كذلك الى وجهة نظر أخرى يجب ألا نغض
 النظر عنها فى السؤال عن عدم تقبل الشرق لثقافات اليونان .

عاد ليجيب : فان أتباع الأديان الشرقية التى اثمرها الفكر اليونانى
 رأوا أنفسهم منقادين الى هذه النتيجة وهى : أن مضمون الوحي الذى
 كان من نصيبهم : هو الحقيقة المطلقة بالضرورة .

ولبلاغ هذه الحقيقة : كان لابد أولاً من « تأويل » وثائق الوحي فى
 صورتها الأسطورية المنقولة ، تأويلاً بوجهتين :

* وجهة تصور الآلهة وأضدادها ونشوءها وخصوماتها ونسبها الى
 ظواهر كونية .

* ووجهة تعدها بمثابة رموز أخلاقية وتسبغ عليها خيرية النفس
 وشريتها وما بينهما من صراع - بعد ذلك نقول :

ان المؤلف لا يحاول : أن يتراجع ، بعدما قدم من شواهد تثبت عقم التراث اليونانى فى الشرق ، سواء أكان هذا التراث لا يتفق معه ، أم كان لعدم ميله الى الأخذ بالنزعة الانسانية قلنا لا يحاول أن يتراجع رغم أنه بات متحيراً فى حكمه على تراث الشرق - ليعيد النظر من جديد فى تراث الشرق وسيكولوجية التقابل بينه وبين الهلينية . على أنه لا يؤخذ من وجهة النظر العامة للمؤلف : أن الشرق لم يحتفل بتراث اليونان .

أما سؤال المؤلف : الذى بدأ به بحثه : وهو أن نقطة مبدأ الحضارة الشرقية : هى اليونان، كان فرضاً منه ، ألغاه بحثه .

وليس معنى : عدم تقبل الشرق للتراث اليونانى ، معناه : تخلفاً فى الشرق ، بل قد يكون كما قلنا : راجعاً الى نوعية الثقافة التى ترجمت كما قلنا .

وقد يظن لنا أن نركى ثقافة ، على ثقافة ، ولكن من المكروه أن نجعلها المقياس الأمثل ، اليس محاولة فرضه هو عين الاستبداد فى الرأى ؟ والاستبداد مرض يوصم صاحبه بالأثره لا يرجى له العلاج منها .

وفى ذلك ما يفيد - من خلال منهج بحثه - تورطه فى معنى التعصب بشامل معناه :

- * تعصب وطنى .
- * تعصب دينى .
- * تعصب لليونانية .

لذلك جاء البحث بنتائج سابقة لا توطىء لها مقدماته .

ثم نراه يعيب علينا : أن نأخذ من الوحي فى الوقت الذى نراه يستشهد بسقراط فعاب على الشرق ، بما أخذ به ؟

ثم نأخذ عليه : أنه خلط بين الدين الاسلامى ، والدين الوضعى (١) وهو يعلم جيداً ما يعنى مبدأ التفريق بينهما .

(١) فيقول . . أن الخطب كلها نسبة Hone lies clementines هى التى حددت الشعور بالرسالة لدى مؤسس الأديان اللذين ظهروا فى الشرق بعد المسيح ، إلا وهما : حددت الشعور بالرسالة لدى مؤسس الأديان اللذين ظهروا فى الشرق بعد المسيح ، إلا وهما : مائى ومعهد .

وفي النهاية أحب أن أشير الى نقطة جوهرية : بين الثقافة ، والحضارة .

وإذا كانت الثقافة اليونانية - حقيقة كما يتفق الباحثون - : لم تتقدم وأنها نمت نموا بطيئا في الشرق عنه في الغرب ، وأنها : هي العامل الأول - كما يقولون - لكل تطور حضارى ، فكيف نفسر اذن الحضارة الاسلامية ابان ازدهارها ؟ وهذا ما لم يثره المؤلف ولم يتعرض له .

نقول : انه قد تنتقل ثقافة الى حضارة فتتقدم الحضارة ولا تتقدم الثقافة الوافدة ، ومنها الحضارة الاسلامية قد تكون حددت الثقافة بغايتها الحضارية .

فالحضارة الاسلامية ، كانت بعد الوحي : عواملها ذاتية ، واستفادت من الثقافات الأخرى ما وسعها الاستفادة ، فتقدمت الحضارة الاسلامية : لغة وفكرا وتاريخا ، وجغرافية ، وما زال الاسلام مزدهرا وان كان المسلمون في ضعة وضعف . وأصبح لها وزن خاص وخصائص حضارية خاصة . اذا أخفنا هذا في الاعتبار فتصبح دعوى « هانز هيترش شيدر » يشوبها روح التعصب لليونانية ، لأن الحضارة ليست مهمتها تنمية التراث الوافد لتعيده مرة أخرى الى حيث أتى ، انما مهمتها الاستفادة التي تيسر لها مسيرتها وتخدم غاياتها ، حتى تحدث أثارها ذكرا بينا فيما يأتي من حضارات . ولذلك كان لابد للثقافة أن تتغير ، وان تكيف نفسها بكيفية الظروف المتغيرة ، وأن تلبي المطالب الجديدة ، لذلك لا يمكن ان تظل وفيه لماضيها دون حاضرها ، الا حين تكون حياتها غير حقيقية أو تكون ثقافة : لا وظيفة لها ، وعندما يكون حالها هكذا ، فتصبح وظيفة المجتمع : رفضها ، لانها أصبحت ، لا تتناسب مع وضعه وقدرته . على أى حال : لم تكن الهلينية من أقوى المؤثرات في الشرق والمنطقة العربية فيه : انما كانت الأديان السماوية : هي الأثر الوحيد والحقيقي للشرق ، واثره البارز على الغرب ، أو بمعنى آخر : الأديان - وهي تراث شرقي - أثر تركه الشرق على الغرب ، وأما مناهجه العقلية فهي أثر يوناني في بعضه .

النتيجة النهائية التي يجب أن يصل اليها ، غير أن بحثه لم يمهد لها هي كما يقول : « واتي العرب معهم بارادة الغزو ، وكلمة دينية جديدة

لكنهم لم يأتوا بحضارة خاصة يمكن أن تحل محل تلك التي وجدوها في البلاد التي فتحوها ، وبقدر ما توغل العرب في المقاطعات القديمة ذات الحضارة وبقدر ما نقلت مراكز سلطانهم من مواطنهم الأصلية : الى سوريا ، ومنها الى العراق ، وجاء العرب عيالا على الحضارة العتيقة الراسخة في نفسها ذات الطابع الموحد التي كانت عند من أخضعوهم . وهكذا بدأت تبرز ، منذ نهاية القرن الثامن : وحدة الحضارة الاسلامية التي لم تكن شبيها آخر غير تطور عمره ألف سنة . وكانت القوى الروحية المقومة فيها : هي قوة التراث الهليني .

على أي حال : عرضنا للمد السياسي الهليني ومراكزه الثقافية في الشرق والمنطقة العربية فيه ، ثم عرضنا لبحث « هانز شيدر » تبينا أن المؤلف مذعور من عدم نجاح الهلينية في الشرق ، وكان هذا في نظره ظاهرة مرضية - كما بينا - أنه يتحامل على الحضارة الاسلامية ، وعلى الوحي الذي عده عائقا دون نهضة الشرق ، وعده ايضا : من الحواجز الأساسية ، دون قيام الفزعة الانسانية في الشرق ، لذلك صار العرب عيالا على الحضارة العتيقة الراسخة .

ويقول : وكانت القوة الروحية المقومة فيها هي : قوة التراث الهليني ، اذا كانت هذه نتائج طبيعية ساقه اليها بحثه فلماذا يقول متسائلا : كيف امكن ألا يكون الشرق حتى هذا العصر ، قادرا على ايجاد نهضة أو نزعة انسانية ؟

على أي حال : ان محاولة الطعن في الشرق ، أو الاسلام ، كانت رسالة قديمة ، قام بها الجيل القديم من المستشرقين ، وأصبح الجيل الحديث والمعاصر ، يؤدي خدمات جليلة للتراث الاسلامي ، ويعدل كثيرا من وجهات نظر القدامى من المستشرقين مع المحافظة والفهرسة لتراثنا الاسلامي والعربي .

يقول : م : رستوفتزف :

« وعلى ذلك فان حضارة العصر الهلينيستي لم تصبح في أي وقت مزيجا من الحضارة الشرقية اليونانية وانما بقيت أو كادت أن تكون اغريقية صميمة في

جوهرها مع اضافة شيء قليل جدا من العناصر الشرقية اليها ، ولم يكن المظهر الرئيسي الجديد لتلك الحضارة الاغريقية في العصر الهلينستي هو طابعها الشرقي الاغريقي وانما كان طابعها العالمي ، وهذا ما جعلها مستساغة مقبولة لدى مختلف الحكومات الوطنية الجديدة التي ظهرت في كل من الشرق والغرب ومع ذلك ففي الشرق لم تتخذ احدى الدول الجديدة - ومنها بارثيا - باكتريا - والهند - ارمينيا وغيرها - الثقافة الاغريقية تماما ، بل بقيت العادات والأفكار الاغريقية طلاء رقيقا يكسوه بناء محليا ذا طابع شرقي صميم ، وبالإضافة الى ذلك فان الأثر الاغريقي في الشرق قد اقتصر وجوده على المدن وعلى الطبقات العليا من السكان ولم يكن له أى أثر على الاطلاق على سواد الناس وعامتهم . وكان تغلغه أعمق في حياة الأمم الغربية من الايطاليين والكلتيين وأهل ايبيريا والتراقين ولكن الحضارة اليونانية بقيت هنا أيضا وفيه لنشأتها الأولى ولطابعها الحقيقي فكانت هي حضارة المدن وساكنها واستمرت محتفظة بهذا الطابع .

وعلى ذلك كانت الحضارة الهلينستية لا تعدو أن تكون مظهرا جديدا في تطور حضارة المدنية الاغريقية فحسب ، بل انه في الممالك الهلينستية التي قامت في آسيا الصغرى وفي سوريا ومصر وعلى ضفاف البحر الأسود لم تتأثر الجماهير المقيمة في الريف بالحضارة الاغريقية مطلقا وانما حرصت على التمسك بعاداتها القديمة وسجاياها وعقائده الدينية الموروثة (١) .

يقول ديلاسى أوليري : ان الثقافة اليونانية ام تنتقل الى العرب عن هذه الاتصالات الأولى (٢) .

يقول فيليب حتى : ولكن الواقع : هو أن الشرق الهليني كان شيئا مصطنعا ، فديانة اليهودية : احتفظت بتقاليدنا القديمة في وسط هذا الشرق الهليني :

(١) يراجع تاريخ الامبراطورية الرومانية الاجتماعى والاقتصادى ص ٢٣ ج ١ .

(٢) علوم اليونان ص ١٠ .

وبالإضافة الى ذلك فان السلوقيين تبناوا العبادات المحلية بأشكال هليينية وأظهر أكثرهم احتراما للالهة المحلية (١) .

ولكن هذا لا يعنى جعل الشرق هليينيا بقدر ما يعنى جعل العالم الهليينى شرقيا وأصبح أفراد الجاليات اليونانية بالتدريج : أكثر تأثرا بالحياة السامية من تأثر الوطنين بالحياة اليونانية . ونجحت الحضارة فى سورية الأرامية ، وفلسطين اليهودية ، بأكثر من المحافظة على مكانتها بوجه عام ، فأعطت أكثر مما أخذت .

والذى حصل بفتيجة ادخال الهليينية : هو تمزيق البنيان الأساسى والفكرى الذى كان ساميا صرفا ، والسماح للتأثيرات الرومانية بالدخول فيما بعد (٢) .

(١) أصبح بعل يسمى : زئس وأقيم فى معبد أبولون ذلك الاله اليونانى فى « وقتة » وسط غابة من الشجر حيث تكثر المياه (بيت الماء) وأصبح مركزا للخلاعة لها بعد .

(٢) تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ج ١ ترجمة : جورج حداد وعبد الكريم رافق اشرف علي مراجعته د / جبريل جبور - دار الثقافة ببيروت .

الباب الثاني

الهلينية بين الرفض اليهودى والتسليم المسيحى

- * اليهودية والهلينية •
- * المسيحية والهلينية •
- * المسيحية فى المنطقة العربية •
- * حول علاقة الرسول بالمسيحية •
- * مناقشة العرب للرسول فى مصدر القرآن •

اليهودية ومكافحتها للوثنية الهلينية

لقد بدأ شتات اليهود *Diaspora* بعد تخريب اورشليم ، على يد البابليين (٥٨٨ ق.م) ولجأ كثير منهم الى مصر وافناء المنطقة العربية . وعندما سمح قورش باعادة بناء اورشليم بعد هزيمته للبابليين ٥٣٨ فتحها لهم ، غير أن بعضهم فضل الاستقرار خارجا عنها ، ولا سيما بنى الاسكندر : مدينة الاسكندرية ، وهم على شتاتهم ظلوا يحافظون على دينهم وعلى قوانينهم حتى عهد أنطيوخوس أبيفانيس ٤٧٥ - ١٦٤ ق.م *Antiochus Epiphanes* حاول هذا الملك : أن يشربهم الثقافة الهلينية ، وأن يدخل عبادة الآلهة اليونانية في اورشليم ، أدى صنيعه من جانب اليهود الى قيام ثورة بزعامة المكابيين ولم يستطع أنطيوخوس أن يجمعها ، وخلع وقتل في سبيلها : الكاهن الأعظم أونياس الثالث وهرب أيضا : أونياس الخامس ابن الكاهن القليل لينجو من الرجس والفوضى اللتين أشاعتها سياسة أنطيوخوس .

فاحسن بطليموس فيلوميثور (١٨١ - ١٤٦) وفادتهم وأعطاهم معبدا مصرياً مهجوراً في « ليونتو بوليس » (١) حيث أقاموا هيكلًا يدعى أونياس ربما نسبة الى أونياس الكاهن ، على صورة هيكل اورشليم ولعل الترجمة (١)

(*) وذلك على يد بختصر البابلي فكان من اموره على بنى اسرائيل واتخاذهم لهم وهدمه لبيت المقدس واحراقه للتوراة وقتله لاولاد الاتبياء والسرقاته لفضاء ملوكهم ولذرائعهم - راجع و الروض الالف للسهيلى ص ١٨١ ج ١ .

(١) ليونتو بوليس هي : نيتو على عهد الفراعنة ومحلها الآن (كراتل مقدم) بالقرب من مركز ميت غرب من أعمال محافظة الدقهلية وما زالت آثاره للآن تقامد . قال الشهير ستاني في كتابه الملل والنحل ج ١ ص ١٩٩ : السامرة (فرقة من اليهود) هؤلاء قوم : يسكنون جبال المقدس وقريبة من أعمال مصر . وقال : ولغتهم غير لغة اليهود ، وزعموا : أن التوراة كانت بلسانهم وهي تربية من العبرانيين فنقلت الى السريانية ، نقول : لعل هي لينتوبوليس .»

(١) كان يقرؤها يهود مصر أيام نيون الاسكندرية، واليهود الذين انشقوا على الزبانيين .

اليونانية للعهد القديم وهي التي تعرف باسم السبعينية (١) قد وضعت على مراحل متتالية من أجل هذا الهيكل المحلى .

أما « كاليجولا » الذي نودى به امبراطورا في ٣٨ ق ٠م فقد زينت له أوهامه أنه فوق البشر فطالب رعاياه بتأليهه واقامة تماثيله في مختلف المعابد . ولعله قد تأثر في حدائته بفكرة تأليه الملوك الأحياء وهي فكرة كانت شائعة في ممالك الشرق الهلينستي ولا سيما في مصر ، ولكنها كانت غريبة على الرومان فلم تلق بينهم رواجاً كبيراً .

رفض اليهود الامتثال لأمر الامبراطورية الخاص باقامة تماثيله في جميع المعابد ، ولم يكن من المعقول أن يقبل اليهود تدنيس معابدهم بتماثيل البشر مهما جل قدرهم وهم يؤمنون بآله واحد فاقترح الاسكندريون معابدهم ونصبوا فيها تماثيل كاليجولا بالقوة فلما قاومهم اليهود اتهموهم بعدم الولاء للامبراطور .

وكان من البديهي الا يسكت اليهود على ما أصابهم من هوان تجاوز حد الاحتمال في تلك الفتنة .

ففي شتاء ٣٨/٣٩/٤٠ على الأرجح أوفد اليهود الى روما سفارة من خمسة أعضاء على رأسهم « فيلون » وأوفد الاسكندريون سفارة مثلها على رأسها « أبيون » لكي يعرض كل من الفريقين قضيته على الامبراطور وشاء حظ اليهود التعس أن يتلقى كاليجولا وقتئذ نبأ تدمير الجالية اليهودية لمعبده اقامه الاغريق في بلدة بامنيا على ساحل فلسطين فتثور ثأثرته ويبعث الى

(١) وهي مدرسة الاسكندرية التي كانت تتميز بميزات خاصة اتى اتصال اللغتين الشرقية واللغتين الغربية بالثمار في اصدار الترجمة Septugint النسخة الاغريقية لآثار العهد القديم ، وقد اطلقت عليها هذه التسمية لانه يظن أن سبعين مترجماً قاموا بوضعها في القرنين الثالث والثاني ، وربما تنسب الى مجلس الشيوخ (gerousia) البالغ عدده واحد وسبعين عضواً لوانعته عليها وقد حرفت الكنيسة المسيحية « العهد القديم » عن طريق هذه التسمية على الأرض (تراث العالم ص ٢٢١ ج ١) .

بثرونيوس حاكم سوريا بصنع تمثال له وتنصيبه في معبد اليهود الكبير
باورشليم .

وقد تضمنت مطالب اليهود - فيما يبدو - حرية العبادة وفقا للشريعة
الموسوية وتحديد وضع جالياتهم في المدينة أو بالأحرى اكتساب حقوق
المواطنة الاسكندرية صدموا عندما ابتدرهم كاليجولا بأنهم قوم كفر لا يؤمنون
بالوهيته .

أجاب الوفد اليهودي بأنهم نحروا الثيران من أجل الامبراطور : مرة
عند اعتلائه العرش ومرة أخرى بعد شفائه من مرضه ومرة ثالثة ابتهاجا
بانتصاره في حملته على الرين . وعندئذ قال كاليجولا :

قد يكون صحيحا انكم قدمتم القرابين من أجلى ولكنكم قدمتموها لاله
آخر فما فائدة ذلك انكم لم تقدموا القرابين لشخصي (١) .

ولم يفز اليهود منه بطائل اذ صرفهم قائلًا : يبدو لي أن من تبلغ بهم
الغباوة الى الحد الذي لا يؤمنون معه بالوهيتي هم أجدر بالثناء منهم بالعقاب .

وبعد أن خلفه بعد اغتياله كلوديوس تراءى ليهود مدينة الاسكندرية
أن الفرصة قد حانت لتسوية حسابهم مع الاغريق فتقدموا بمطالبهم وهي
حقوق المواطنة الكاملة بها .

غير أن مطلب اليهود يظهرهم بمظهر المتناقض ذلك أن المدينة اليونانية
كانت مدينة وثنية تؤمن بأكثر من اله واحد وكان الدين فيها مرتبطا
بالحياة الاجتماعية والسياسية ارتباطا وثيقا فكان خليقا باليهود أن
ينأوا بانفسهم عن هذه الحياة أو أن يتنازلوا عن دعواهم بأنهم عبدة الاله
الحق الأوحد .

لذلك يرجح كثير من الباحثين الآن أن اليهود كانوا منقسمين :

* فريق متزمت .

(١) مصر والامبراطورية الرومانية في ضوء الأوراق البريدية ص ١٠٠ د . عبد اللطيف
احمد على - دان النهضة العربية ١٩٧٤ :٤

* وفريق متحلل بعض الشيء من قيود الشريعة الموسوية ومتأثر
بأساليب الحياة اليونانية .

لعله كان هناك حزبان بين الاسكندرانيين .

* حزب المتهورين أو المتطرفين .

* وحزب المتزمتين أو المعتزلين .

وعندما ارسل اليهود بمطالبهم أرسلوا بعثتين احدهما تمثل الطائفة
المحافظة ولأخرى تمثل الطائفة المتحررة التي تأثرت بالثقافة وأساليب الحياة
اليونانية .

وظلت هذه الاشتباكات بين اليهود والاغريق من ناحية وبين الرومان
واليهود من ناحية أخرى ، الى أن قامت ثورة اليهود الكبرى وهي أكبر ثورة
نشبت بين اليهود في مصر منذ الفتح الروماني في آخر عهد مكسيموس .

أخذت علاقة اليهود والرومان في التدهور السريع بعد ثورتهم في فلسطين
سنة ٦٦ وتدمير معبدهم الرئيسي بأورشليم سنة ٧٠ وقد زادها سواء
ذلك القرار الذي أصدره فسبسيان بارغام اليهود على دفع ضريبة الدينارين
لمعبد الاله جوبيتر في روما بدلا من دفعها لمعبد اورشليم وقراره الآخر بتدمير
معبد اونياس في لينتو بوليس بمصر وهو (قل مقدم) الذي ارتابت فيه
الحكومة في أنه مركزا لنشاط الحركة اليهودية الأخيرة . وصادرت أملاكه
وهو معبد كان قد شيد حوالي ١٦٠ ق٠م لمنافسة معبد فلسطين . لذلك
قام اليهود وتعمدوا بالذات بهدم معابد وثمائل الآلهة اليونانية : أبوللون ،
وزيوس ، وهكاتي ، وغيرها من المعابد كمعبد ايزيس والمعبد القيصري ودمروا
حمامات المدينة وأروققتها المسقوفة وأنديتها وملاعبها وعاثوا في الحقول فسادا
حتى أصبحت جذباء قاحلة وامتد لهيب الثورة الى قبرص حتى ان مواطنيها
أصدروا فيما بعد قرارا يحرم على اليهود ان تطا أقدامهم أرض الجزيرة ، وتنتهي
بوقوف الامبراطور هدريان في صف اليهود بعد ثورتهم الأخيرة ويقضى بمعاقبة
زعماء الاغريق .

وكانت ثورة المكابيين على صنيع أنطيوخوس تعني :

* عدم احلال الوثنية محل الدين اليهودي واقامتها مكانه في معبد

أورشليم • هذه الوثنية أراد أنطيوخوس من تطبيقها إخضاع الشرق له سياسيا ودينيا • وصف اليهود صنيعة هذا « بالرجس المخرب » (١) •

✳ عدم سيطرة الهلينية من حيث اللغة والثقافة على لغتهم وثقافتهم ؟

✳ قيام حركة يهودية قوية تدعو الى رعاية تقاليدهم العبرية واستعمال لغتهم ضد سيطرة الهلينية وثقافتها •

✳ تضمين دعوتهم بأنهم خير الأجناس وعليهم الانفصال عن « الشعوب » غير اليهودية وما فيها وحولها من تطرف •

✳ لازم قيام هذا التطرف : قيام حركة اليهود الربانيين ، ويبدو : أنها كانت ذات قدرة ، لأنها تحملت من جانبها عبء دعوة تطبيق الشريعة اليهودية على جاليات اليهود في أى مكان ، من مراعاة طقوس وسائر السنن الشرعية الى الختان ، وفرضت ذلك فرضا لازما •

ثم أصدرت عدة فتاوى تتسم بالجرأة وتخدم الروح الوطنية والدينية معا منها :

✳ تحريم قراءة الأسفار المقدسة في البيعة اليونانية •

✳ تحريم قيام أى صلوات ودية مع الوثنيين أو غيرهم المختونين •

أصبحت الشريعة الموسوية أكثر صرامة ، وازدهارا بفضل شروح الربانيين •

بهذه الروح القومية والدينية استطاعت اليهودية أن تعمل • وهى فى شتاتها مبعثرة : على احياء دينها ، ولغتها وثقافتها ، وترابط جنسها ، وهذا من الأمثلة النادرة فى التاريخ الانسانى •

(١) سفر اعمال الرسل •

وبلغ من موقفهم أن أصبحت الأسفار التي أثر فيها الفكر اليوناني
تعتبر لدى اليهود محذوفة لأنها في نظرهم تحمل طابعا رواقيا(١) .

ثم أخيرا كانت الأسفار المقدسة التي تنسب اليهم وهي : - أي أسفارهم
التي تنسب اليهم - أربعة :

الأول : وهو أهمها من الناحية التاريخية : يروى الأحداث التي جرت
في اتليم يهوذا Judee منذ حكم اندايوخوس الرابع حتى موت سيمون
(١٧٥ الى ١٣٥ ق م) .

الثاني : يتناول قسما من الفترة عينها بصورة موجزة .

الثالث : يروى أحداثا عجيبة خاصة بالملك بطليموس الرابع فيلوباتر ،
ويعنى خصوصا ببيان كيف أن الحناية قد انقضت يهود الاسكندرية من بين
أيدي ذلك الحاكم .

الرابع : هو بحث فلسفي ينسب الى المؤرخ يوسفوس وفيه يجرى الحديث
عن الشهداء الشباب الذين يطلق عليهم خطأ اسم المكابيين السبعة الذين حكم
انطيوخوس ابيفانوس باعدامهم لأنهم رفضوا الأكل من لحوم ذبحت
للأصنام(٢) .

وهذه الحركة الإصلاحية التي قامت ضد الهاينية ووثنيتها ، كان من
آثارها عند اليهود : أن خلقت لديهم ميلا طبيعيا الى العزلة القومية نهعت
بها السيطرة القومية اليونانية ، ومما لا يمكن انكاره : أن سياسة العزلة

(١) ملاحظ عندما نقرأ ما كتبه الشهر ستاني من اليهودية أو فرقها : عدم وجود
مسحة من التراث الفلسفي اليوناني على اليهودية ، وينسب الشهر ستاني : تحريمهم
وتفرقتهم : الى دعوة موسى عليهم ، كذلك لا نجد من تريب ولا من بعيد قضية من تضيايا
النسفة . أما الذي لاحظناه : أن الاختلاف يدور حول الأخذ بالنص أو التأويل ووراء
ذلك كله حبهم لعزلتهم القومية .

(٢) الشرق والتراث اليوناني هامش ص ٣٢ ترجمة د . عبد الرحمن بدوي .

المصطنعة قوت الاخلاص الدينى وأوجدت سموا خلقيا يناقض الانحلال
السائد فى العادات الاغريقية الرومانية ، والاغريقية الشرقية ، وكلها أبعدت
الأمم عن أى نصيب فى الميراث الروحى . هذا من جانب ، ومن جانب آخر :
أن سياسة العزلة جعلتهم يرون :

ان الالتزام بتبشير الأميمين بعقيدة موسى لا يعتبره مبدأ من مبادئ
ناموسهم كما أنهم لم يميلوا الى فرضه على أنفسهم باعتباره واجبا يتطوعون
لادائه .

واليهودية بعزوفها عن التبشير لتتفق تماما مع تعاليمها النى نقضى
بأنها دين للعبرانيين فقط ، غير أنها : راحت تبشر بنوع غريب كالسحر ،
وعلم التنجيم ، وكان لديهم كتبهم الخاصة فى السحر ، وتعاويذه ورقاه (١) .

هذا الموقف الصارم ، أو التطرف اليهودى ، أفسح مكانا لوجهة نظر
نقدية عامة معاصرة ، تصف الدعوة بالتطرف حين قيامها تقول : (٢)
: إن الثقافة اليهودية لا تعدو أن تكون منقولة عن الغير وأنهم لا يشاطرون
من حولهم أى شعور بالأخوة البشرية ، بل ينطون على أنفسهم ، وأنهم فى
الحقيقة : ملحدون ؟ لأنهم يقولون : بأن لا وجود فى الحقيقة لأى اله
الا « يهوه » ، وهى تهمة كانوا هم أنفسهم السبب فى اثارها ، باصرارهم
على أن ما تعبدوه الشعوب الأخرى هو الصورة والتمثال الفعلى ، وليس
(كما هو الواقع) الله الذى لم يكن التمثال الا رمزا له (٣) .

على أى حال كافحت اليهودية كثيرا ضد وجهة نظر « أنطيوخوس »

(١) يراجع علوم اليونان ص ٥٨ .

(٢) الحضارة الهلينية ص ٢٤٨ .

(٣) كانت العقيدة اليهودية فى القرن الأول ، ذات وضع عجيب : نهى من ناحية
ونظام يرفض تقبل الإنكار الاثريكية ، فى حين أنه يفتح الباب على مصراعيه لتقبل مؤثرات
انشرق — كعلم التنجيم ، وعلم مس الشياطين ، والسحر ، ذلك أنها كانت تأمل أن تحصل
يفضل هذه الأمور على خدام يخدمون روحها : الحضارة الهلينية ص ٢٤٩ .

غير أنها وقعت - وهي اذ تحاؤل الاحتفاظ بمفهوم المقدس الحقيقي - تحت تأثيرات تصوراتها الذاتية عن سمو جنسها : فضيقت معناه تضييقا جنسيا .

اليهودية وانتشارها في بعض القبائل العربية :

ان اليهود يرغبون عن الدعوة الى دينهم ، على أساس : أن اليهودية للعبرانيين اولاد يهوذا بن يعقوب جنسا ، وأتباع موسى ديننا ، وليست ديننا لغيرهم من الأجناس ، وأن الهمم وهو : « يهوه » ، هو الاله الحقيقي ، وغيره من الآلهة انما هو مثل له ، وأن كل نداءات التوراة خاصة « بيهود » فهي ليست ديننا تبشيريا ، لذلك لم يقم الأحبار بالدعوة اليها ، وجانب آخر : هو أن عدم استقرارهم السياسي : ساعدهم على عدم التبشير ، وزادهم تمسكا بدينهم .

من هنا : كانت الديانة اليهودية ، التي دخلت في بلاد العرب ، لم تكن للتبشير ، انما كانت عندما انتقلت بجماعات اليهود الذين فروا من اضطهاد الرومان في القرن الأول قبيل الميلاد لمجرد الهجرة « ولا شك انه كانت هناك أسباب دعت اليهود الى ترك أوطانهم والنزوح منها الى البلاد العربية وأهم هذه الأسباب :

١ - زيادة عدد اليهود في فلسطين زيادة مطردة ، فقد قيل : انهم بلغوا أربعة ملايين(١) .

٢ - اضطهاد الرومان لليهود في القرن الأول قبل الميلاد ، ولجؤهم الى أرض الجزيرة العربية ، التي كانت أحب اليهم من غيرها : لأنظمتها البدوية الحرة ، ونظرا : لوجودها في أقاليم رملية بعيدة ، تموق سير القوات الرومانية المنظمة وتمنح توغلا(٢) .

(١) تاريخ الاسلام العام من ١٦٣ دكتور على ابراهيم حسن .

(٢) ج ١ ص ٢٤ .

٢ - بعد حرب اليهود والرومان سنة ٧٠ م التي انتهت بخراب بلاد فلسطين ودمار هيكل بيت المقدس وتشنتت اليهود في أصقاع العالم قصدت جموع كثيرة اخرى من اليهود بلاد العرب (١) .

فاليهودية وجدت في بلاد العرب نتيجة اضطهاد اليهود وترتب على ذلك ان العرب المجاورين لتلك الأتوام تهودوا ديناً أو ثقافة تبعاً لمجاورتهم تلك الجماعات اليهودية . وكان أصل اليهود باليمن - كما يذهب كتاب السيرة - يرجع الى الحبرين الذين رافقوا تبعاً في رحلته الى اليمن وهما البيت المسمى برثام . ومعنى هذا الرأي : أنه يذهب الى ان اليهودية دخلت وفق دعوة تبشيرية ، ولا مانع لدينا ان تكون اليهودية في عصرها الأول كان لها دعوة تبشيرية أو أنها أرادت أن ترد على الاضطهاد الوثني لها فبشرت لتهدم البيت الوثني المسمى « رثام » وهذا كله ان صحت الرواية .

يقول السهيلى صاحب الروض الأنف : غير أنه وجد في الاوس والخزرج من قد تهود وكان من نسلاتهم من تنذر اذا ولدت أو عاش ولدها أن تهوده لان اليهود عندهم كانوا أصل علم وكتاب .

ورأى يرى أن يهودية اليمن ترجع الى أجدادهم الذين ظنوا الى ذلك القطر منذ عهد سليمان .

ودع ذلك لم تتطبع اليهودية أن تتغلب على الوثنية في بلاد العرب لان كثيراً من أحكامها مبني على المشقة فضلاً عن الرفض اليهودى للاندماج الاممى ، ثم أخيراً انصراف العرب عن تحصيل واردتهم الثقافية وعدم ميلهم الى مثل هذا التخيير .

يقول اسراييل ولفنسون :

وهناك شهادات من يهود مدينة دمشق و حلب في القرن الثالث : ب . م أنهم كانوا يستنكرون وجود يهود في الجزيرة العربية . ويقولون : ان اليهود في جهات خيبر ليسوا يهوداً حقاً اذ هم يحافظوا على الديانة

الالهية التوحيدية ولم يخضعوا لقوانين التلمود خضوعا تاما » .

ويقول : كان العالم شير يعتقدان أن اليهود في بلاد العرب كانت لها صبغة خاصة وكانت يهودية في أساسها ولكنها غير خاضعة لكل ما يعرف بالقانون التلمودي ويقول معلقا : وبقيت هذه البطون العربية على أديان آباؤها القديمة ولم تعتنق اليهودية فعدت من موالى اليهود وإذا وقفنا الى أن نميز بين يهود الحجاز والعرب من وجه الدين والعقلية فإنه المتعذر أن نوفق الى انتدبير بين العنصرين من وجه الأخلاق والعادات والنظم والتقاليد الاجتماعية لأن اليهود الذين سكنوا في بلاد العرب لم يلبثوا أن تخلقوا بأخلاق العرب وتمسكوا بعاداتهم واتبعوا سبيلهم في النظم والتقاليد الاجتماعية حتى أصبحوا كأن لم يكونوا من جنس آخر غير الجنس العربى . . . ويقول ولا أعلم في تاريخ اليهود القديم اقليما تأثر فيه اليهود بأخلاق وعادات وتقاليد أبنائه الى هذا الحد سوى اقليم الجزيرة العربية (١) .

اليهودية في نظر القرآن :

يقول أحمد سوسة : وقد اقتبس هؤلاء قبيل السبى لهجتهم العربية المقتبسة من الآرامية ، وبها دونوا التوراة التي بين أيدينا في الأسر في بابل أى بعد زمن موسى بثمانمائة عام لذلك صارت تعرف هذه اللهجة « بأرامية التوراة » وهذه بلا شك غير الشريعة التي أنزلت على موسى . ويمكن أن نطلق عليها اسم « توراة اليهود » لتمييزها عن « توراة موسى » .

وهؤلاء هم اليهود الذين سماهم القرآن كفارا لكذبهم على موسى وتحريفهم التوراة فيقول فيهم : « ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا الا بحبل من الله وحبل من الناس وباعوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتنون » « آل عمران : ١١٢ » (٢) .

(١) تاريخ اليهودية في بلاد العرب في الجامعة و صدر الاسلام ص ١٣ لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩١٤ .

(٢) نعى رسوان . اليهودية وبنى اسرائيل الاهرام ١٧/١٠/١٩٧٢ وكتاب العرب وانيهود في التاريخ .

وهكذا فرق القرآن الكريم : بين بنى اسرائيل ، ذرية ابراهيم من جهة
وبين اليهود المتأخرين ، من جهة أخرى ، وذلك باستعمال اسمين لهما :
فأطلق اسم بنى اسرائيل : في مواضع الرضا ، وسموا باليهود : في حالات
السخط عليهم .

ومن صور المنهج الرفيع في القرآن ، استعمال اسمين عند التحدث
عن العبرانيين : فهم تارة « اليهود » ، وتارة أخرى « بنو اسرائيل » .
وتقوم عبارة (الذين هادوا) في بعض المواضع مقام لفظ « اليهود » .
والقرآن الكريم حينما يستعمل الاسم لا يفعل لأنهما مترادفان — كما يقول
متلا المسيح ، وعيسى بن مريم — بل يطلق عليهم : اليهود ، والذين « هادوا »
في موضع السخط أو التنديد بسوء أعمالهم ، أو عند حكاية ما أصابهم من
الذلة والعبودية لفساد طويتهم وسوء نيتهم .

أما اذا جاءت مواضع في القرآن الكريم تذكر بفضل الله على هؤلاء
القوم ذاتهم أو أصطفاء الله لهم واسناد الرسالة الى رجال منهم واسباغ
الحكمة والنبوءة عليهم . . الخ .

واستعمال هذين الاسمين مقصود ، لم يأت عفوا ، فاسرائيل : هو
يستقوب ، ويعقوب نبي من أنبياء الله ، ورث عن أبيه اسحاق وعن جده
ابراهيم رسالة الدين الحنيف .

ومن هنا لا يتحدث القرآن عن أولاد يعقوب أي بنى اسرائيل الا بالخير
والرضا فاذا صدر منهم ما يغضب ، فالقرآن يسميهم اليهود .

أما الشيء الذي لم يرد في القرآن : فهو مصطلح (عبري وعبراني)
لم يرد في القرآن مطلقا ، وهذا يدل في نظرنا : على أن العبري أو العبراني
ليس خاصا باليهود كجنس .

المسيحية الهلينية

مما لا شك فيه : أن نشأة الكنيسة المسيحية ترجع الى الكنيس اليهود (*) وأن كتابهما واحد ، وهو بعهديه : العهد القديم لليهودية ، والعهد الجديد للمسيحية - وهما معا يسميان : الكتاب المقدس ، غير أن نظام الكنيسة المسيحية من حيث الأسس في واقعها : تابعت في نظام الامبراطورية الرومانية ، وتخلت عن لغتها الأصلية الى اللغة اليونانية وبذلك أصبحت الكنيسة (الجامعة) الكاثوليكية : ينظمها أساقفة يونانيون .

وبهذا ساهمت الكنيسة بآبائها اليونانيين : في نشر الثقافة اليونانية من جانب ، واسباغ ثوب الثقافة اليونانية على المسيحية من جانب آخر ، وبلغ منها : أن بائت تفضل قراءة العهد القديم في ترجمته اليونانية .

ثم بدأت جهود فردية : تعكف على التوفيق ، بين العقيدة المسيحية والفلسفة اليونانية ، وظنوا انه بتضافرها مع الفلسفة : يعطيها قرة ، ولكن خيب ظنهم انشاقها العقيدى الذى ظهر فيما بعد .

وظهر الأثر الفلسفى على القديس بولس - وهو رائد التوفيق بين المسيحية ، وبين التراث الفكرى عند الشعوب الداخلة فيها في رسائله التى وفق فيها بين المسيحية ، والفلسفة اليونانية ، وظهر جليا : عندما نشبت الخصومات داخل الكنيسة : صيغت هذه الخصومات في مصطلحات فلسفية يونانية ، ودارت معاركها وفقا للأصول الفلسفية .

وقد استخدم القديس بولس - وهو من أهل طرسوس أحد مراكز الرواقية الاختارة - : لغة تلك المدرسة : للتعبير عن المجتمع الروحى الذى ينتظم كل

(*) لقد احتفظت المسيحية عندما امتزجت بالهلينية : بهدونة القوانين الخلقية العالية، التى ورثتها عن الدين العبرى ، ثم أن تاريخ نظام الكهنة ونظام المساواة المسيحيين : اثرت عليه الهدونة الكهنية اليهودية ، وتصور العبريين لوظيفة الكاهن فيز أن النظام الكهنوتى المسيحى يخفف عن النظام العبرى : فنى أنه ليس وراثيا ويغلب عليه التردية .

المسيحين أعضاء • وتتردد باستمرار في رسائله : فكرة رعوية سماوية ، وفي عظته في أثينا : اقتبس من أنشودة افلينثى الرواقى لذيوس ، وأعلن في الفاظ تردد صدق العقائد الأساسية في المذهب الرواقى : أن الله لا يسكن هياكل مصنوعة بالأيدي ، وأنه « صنع من دم واحد : جميع أمم الناس ليسكنوا كل وجه الأرض » (١) •

وهكذا منذ البدء : أتيح للكنيسة المسيحية : أن تكون مبشرة بالثقافة العقلية اليونانية ، وبالعقيدة الانجيلية معا •

ورأينا وجهة نظر يهودية معاصرة تقول : ان دخول المسيحية في الهلينية: انحراف منها الى اليسار ، وأنهم يدفعون بأنفسهم في استهانة متزايدة نحو التراخي ، ويدفعون من جانبهم : الحركة الهلينية في اطراد الى الأمام •

وبسبب هذه الانتقادات اليهودية : وقعت خصومة (٢) • بين اليهود والمسيحيين •

وكان في هذه الخصومة ما يفيد : ان المسيحية هي وريثة الهلينية ، وذلك عندما سايرت الى حد كبير تيار الفكر الهليني في الشرق •

وفي النهاية نقول : لقد حققت المسيحية توسعا دينيا ، فأصبحت الدولة الرومانية مسيحية بعد وثنيتها اليونانية ، وأصبح من المعالم البارزة التي طبعها الشرق على الغرب : أن دان الغرب بدين شرقي ، غير أن الغرب أخذما بعد أن طبعها اليونان بطابعه الفلسفي ، مما جعلها فيما بعد ، ابان عصور النهضة الأوروبية : محل انتقاد من بعض ، ورفض وانكار من البعض الآخر •

(١) (الأعمال ١٧ ، ٢٨) هو « لاتنا أيضا ذريته » يراجع تراث العالم القديم

ج ١ ص ٢٢٨ •

(٢) قد سجلت الخصومة بين هاتين الطائفتين في (اعمال الرسل الحواريين) •

واشار القرآن الى نتائج هذه الخصومة بينهما قال : « وتالت اليهود ليست النصرى على شيء ، وتالت النصرى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب • كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فا لله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » البقرة : ١١٣ •

وفي هذا ما يميز الاسلام عنهما : فهو قد انتشر بلغته ، وكتابه ، وشمل
 امما ، وشعوبا ، فضلوا لغته على لغتهم • كذلك يتميز : بأنه دين دعوة منذ
 أن نشأ ، وفي حياة الرسول نفسه : أرسلت سفراء ، وكتب لغسر الدعوة
 الاسلامية • وكان له من القوة التي كفلت له حمل السيف ، على من نافره
 العداء ، أو في سبيل تأمين دعوته ، اذا تعرضت لمناورات الخصوم المعارضين •

وكان من أكبر الأثر الفلسفي على المسيحية : أن صرفت النصراني عن
 التوحيد دين المسيح ، الى عبادة الصليب وفي هذا التحول : تغير مفهوم المقدس
 الحقيقي لديها ، لأن الصلب والصليب لم يكن تشريعا منه ، على أي حال
 لقد توسعت في مفهوم المقدس : حين أدخلت قضايا فلسفية الى صميم دينها
 بل الى صميم عقيدتها •

يقول جيبون :

وخلط الغنوصيون ، بالايمان بالمسيح : كثيرا من العقائد ، والمذاهب
 الناضية ، تلك التي اشتقوها من الفلسفة الشرقية ، بل حتى من ديانة
 زرادشت التي تتعلق بخلود المادة ووجود عنصرين والتسلل الغامض للعالم
 غير المرئي •

واستطاع هؤلاء الهرطقة الغنوصيون أن يخرجوا بدلا من الأنجيل
 الأربعة التي قررتها الكنيسة بمجموعة كبيرة من التواريخ ، التي تلتئم
 فيها مناقشات المسيح ، وحوارييه ، وأعمالهم ، مع أفكار كل شيعة بعينها •

المسيحية في المنطقة العربية :

كيف دخلت المسيحية مكة والجزيرة العربية :

كانت هناك روافد حملت المسيحية الى الجزيرة العربية بل ومكة
 ذاتها هي :

١ - الاضطهاد الذي وقع على المسيحية منذ المسيح ذاته جعل أتباعها
 يبحثون عن أماكن في كهوف الجبال وبطون الصحراء ليقواروا عن أعين
 الرقباء من الرومان •

٢ - رحلات قريش التجارية ونظرية تقسيم الناس الى أحرار وعبيد
ساعمت بدورها في ادخال المسيحية في مكة .

٣ - دخلت المسيحية الجزيرة العربية دخولا رسميا على يد « الحارث
الغساني » .

٤ - دخلت المسيحية قلب مكة مع الغزو الحبشى لها .

٥ - ظهور جماعة يدعون بالحنفاء يرمون من وراء تحنفهم الى سحب
الثقة الدينية من الأوثان ، ثم طلبوا أديانا شتى فبعضهم طلب الحنفية
وبعضهم طلب الأوثان وبعضهم طلب المسيحية .

وإذا كانت المسيحية قد دخلت مكة فالى أى حد انتشرت ؟

بقيت المسيحية رهينة لغتها السريانية أو الرومانية فلم تنتشر انتشارا
ملحوظا لا من قريب ولا من بعيد ، وكل الذين اعتنقوها من العرب هم الذين
كانوا على صلة باللسان الأعجمى .

فلم ينتشر كتابها المقدس لأنه لم يترجم الى اللغة العربية . كذلك
شعائر صلاتها (القداس) لم تترجم .

ليس معنى وجود المسيحية وانتشارها بين العرب تعلم الرسول منها
وأنها كانت مصدره في تأليفه للقرآن لأن الرسول ادعى النبوة وجعل الوحي
مصدره فيما قال وفيما فعل ، وقامت شواهد الواقع والتاريخ على صدق دعوته
ثم كان القرآن من أكبر شواهد الأدلة بيننا عليه .

وأما ما بينهما من عناصر متشابهة ومثلها اليهودية فان القرآن نفسه،
حين ذلك حين قال ان ما نزل على محمد ليس بدعا عما نزل على غيره من
الرسول « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا » (١) والآية ٠٠٠ ويصبح كل بحث
يحاول أن يبرز عناصر التشابه بين ما نزل من وحي السماء فهو من غير أن
يدرى يدور في فلك الآية السابقة حين أكدت وحدة وحي السماء وفي نفس
الوقت يؤكد دعوى نبوة الرسول وصدق ما قاله ودفع لنوازع النفوس
البشرية حين تريد أن تخلق من المتجانسات تنافرا .

(١) سورة الشورى الآية ١٣ .

الشقاقت المسيحية

أولا : النماط : :

ترجع نزعة التبشير في المسيحية : الى الاضطهاد الذي تعرضت له من الدولة الرومانية ، لأننا نلاحظ : أن هذه النزعة تظهر للمرة الاولى بعد استشهاد القديس اسطفانوس ، وما تلاه من اضطهاد ولم يكن الاضطهاد هو السبب الوحيد في انتشار المسيحية ، ولكنه كان سببا من أسباب انتشارها ولعله كان من أهم الأسباب :

نتيجة هذا الاضطهاد لجا على أثرها بعض المسيحيين الى بلاد ما بين النهرين خارج نطاق الامبراطورية الرومانية ، واستطاعوا : أن يفتشوا كنيسة ما بين النهرين ، وخصوصا فيما حول الرها ، وفي هذه الكنيسة ظهرت المسيحية : بأدائها وبلغتها السريانية ، والترجمة للكتاب المقدس الى السريانية كانت عن النص العبري ، وليست عن النص اليوناني .

وأصبحت الرها بتمايزها السرياني : كنيسة ، ومدرسة ، مركزا مشعا ودايد الأركان ، ذات شهرة واسعة : بين سكان ما بين النهرين ، وفارس ومن يتكلمون السريانية . وباعتبارها مركز كنيسة الشعوب المتكلمة بالسريانية : فانها مثلت الجانب السرياني من الحياة العقلية ، وضارعت به الاسكندرية . وانتشرت اللغة السريانية : تدريسا وتعليقا ، في الرها ، ونصيبين ، وحران .

وهنا ظهر تمايز بين كنيسةين في الشرق من حيث الوسائل التعليمية :

– كنيسة الاسكندرية : وهي يونانية ذات شكل مسيحي .

– كنيسة سريانية : مسيحية في تقاليدها (١) .

أدى هذا التمايز في الأسلوب الى حساسية مفرطة ، وأخذت تزداد بفضل النعرة العنصرية ، بين السريان ، والهليينيين : ثقافة أو جنسا ، أدى الى تأليب الاسكندرية (الكنيسة الجامعة) : السياسة الامبراطورية على الكنيسة السريانية ، ورأت الامبراطورية – من وجهتها السياسية – بأن في

(١) راجع : ما كتبناه عن انطاكية في هذا الكتاب .

هذا تمردا على السلطان : سلطانها السياسى من جهة ، وعلى الكنيسة الجامعة من جهة أخرى ، فمن هنا : راحت تقضى بعنف على تلك الكنائس المحلية ، ذات الصبغة القومية ، أو المنزع الاستقلالى : لغة ودينا . هذا من حيث الموقف السياسى .

وأما من الناحية الدينية : وهو الذى يكمن وراء هذا الاختلاف بين انطاكية والاسكندرية وما بينهما من منافسة وميول متعارضة فان الكنيسة السريانية كانت تنزع الى تناول اللاهوت بما يمكن أن نسميه تناولا عقليا - مشوبا بحذر - بقدر ما يحتاج اليه النص المقدس : من حيث الفهم ، أو التأويل .

وأما الاسكندرية : فكانت تميل الى تناوله تناولا فلسفيا ، يوافق القواعد اليونانية ، أو تناولا رمزيا ، وفق رمزية الهند ، وفارس ، وتعدى الخلاف الشكلى : الى انقسام حقيقى فى العقيدة .

فأصبحت الكنيسة السريانية : تذهب الى انكار امكان اطلاق لقب والدة الاله على العذراء مريم ، ذاهبة الى أنها لم تكن الا أما لعيسى ، باعتباره بشرا آدميا . وطرد فى سبيل ذلك نسطورس ، بقرار من مجمع أفسوس سنة ٤٣١ بزعامة كرلس ، بطريك الاسكندرية ، ولكن السريان لم يقبلوا هذا القرار ، ورفضوا معه قرارات المجمع ، وانفصلوا ، وعرفوا باسم النساطرة ، وانبرت الرها تعضد نسطوريوس(١) بوجه عام . واقترن النساطرة بالرها والمنطقة العربية عموما .

ومنذ أن أصبح المذهب النسطورى مضطهدا ، ونحن نلاحظ سرعة فى انتشاره ، واشرافا ، وتوجيها ، وسيطرة على الكنائس ، والمدارس فى المنطقة العربية . وانتشر نشاط النساطرة بين العرب فى الجنوب الغربى ، ثم اتجه نحو الشرق عبر آسيا الوسطى ، الى أن بلغ الشرق الأقصى .

(١) رجع نسطوريوس الى الدير الذى جاء منه بالقرب من انطاكية ثم نفى الى البترا فى بلاد العرب وتوفي بعد عام ٤٣٩ بقليل .

ولعل معلومات الشهر ستانى عن نسطورا غير دقيقة يقول : النسطورية أصحاب : نسطور الحكيم ، الذى ظهر زمان المأمون وتصرف لى الاناجيل بحكم راية .

من المدن العربية الكبرى التي تنصرت : الحيرة ، وذلك حوالى نهاية القرن السادس ، وذلك حين تنصر النعمان ملك الحيرة وتبع هذا تحول كثير من الأعراب الى المسيحية ، وهم من قبيلة اللخمين يؤلفون الاستقرابية الحاكمة في الحيرة .

يقول ابن هشام : وبنجران بقايا من أهل دين عيسى على الإنجيل ، أهل فضل واستقامة من أهل دينهم لهم رأس يقال له : عبد الله بن تامر .

يقول :ديلاسى أوليرى : ويبدو ان هؤلاء الذين اعتنقوا المسيحية قد أخذوا المذهب النسطورى ، وارتضوا : أن يقوم بخدمة القداس رجال الدين النساطرة ، الذين يتكلمون السريانية .

ورغم هذا كله نشلت المسيحية في أن تمد جذورها بين العرب فلم يتأثر وسط الجزيرة العربية بالمسيحية . وخلاصة القول كما يقول دوزى : لم تستطع المسيحية بما فيها من تقاليد وعقيدة التثليث وعقيدة صلب المسيح أن تجذب انتباه العرب او أفكارهم (١) .

ومن وجهة النظر العامة : عجزت المسيحية أن تنتشر في الشرق مثل انتشارها في الغرب . وذلك لنفس السبب الذى يقوله « رينان » لأنها الوارثة بلا واسطة آثار الآرميين من مدرسة الاسكندرية .

ثانيا - أصحاب الطبيعة الواحدة :

يرجع نشر عقيدة أصحاب الطبيعة الواحدة في المنطقة العربية الى يعقوب البرادعى . ولم يذهب اليها مضطهدا ، شأن نسطورس ، انما جاء به الى المنطقة العربية ، الحارث بن جبلة ملك قبيلة غسان العربية ، وكان قد قدم في ٥٤٣ ق.م الى بلاط ثيودورا وكانت الحكومة البيزنطية تمده بالمال لقاء حمايتها للحدود السورية وكانت تسبغ عليه لقب ملك بصفة رسمية

(١) حضارة الاسلام : ص ٢٨ صلاح الدين خودابخش ترجمة د . / على حسنى

- وحدث في هذه الزيارة أن طلب الاذن لبعض الأساتفة فأجيب الى طلبه .
فأعطى لبصرى : يعقوب البرادعى •

وللرها : ثيودور

- وأصبح أصحاب الطبيعة الواحدة مجتهدين ، ومونقين في نشاطهم
التبشيري ، وكانوا يجوبون الصحارى في حمى قبيلة غسان العربية •

قال الفايغة الذبياني في وصف آل غسان :

محلثهم ذات الاله ودينهم قويم فما يرجون غير العواقب
رقاق النعال طيب حجاتهم يحيون بالريحان يوم السباسب (١)
يقول فيليت حتى :

- « وفي أيام البعثة المحمدية : كان معظم هذه القبائل من المسيحيين ،
وكانت الأديرة ، والصوامع ، منتشرة في الوادى كله ، وقد كان رهبان
النساطرة : ينتشرون من هذا المركز العام ، فيجوبون خلال بلاد العرب كلها ،
ويزورون الاسواق الكبرى ، ويعظون من يصيخون اليهم السمع ، وقد جاء
في السيرة : أن النبي قد ذهب الى سوريا في شبابه ، والتقى بالقرب من
بصرى ، براهب يدعى نسطورا •

ثم يقول فيليب حتى :

- وأصبحت بصرى التي بنيت كاتدرائيتها في عام ٥١٢ العاصمة الدينية
في المنطقة كما اشتهرت كمركز تجارى ، وتقول المرويات الاسلامية : أن النبي
محمد مر بها هو وقافلته •

ويضيف « حتى » قائلا :

- وهناك اطلع على كثير مما عرفه عن المسيحية •

(١) محلثهم : مسكنهم — ذات الاله : بيت المقدس •

ويروى مجلثهم : قال القتيبي : تقديره كتابهم وكانوا نساى وكتابهم الانجيل •
يوم السباسب • يوم الشعابين الأحد السابق لأحد النصح عند النصارى •

ديوان المنبغة الدبياني ص ١٢ دار صادر •

ويقول حتى :

وقبل أن يزول الغساسنة نقلوا بعض الأفكار المسيحية التي كانت لها تأثير مع بعض أفكار أخرى على الإسلام .

وهكذا زودت الحضارة السورية الإسلام ، ببعض العناصر المبدعة ، كما فعلت بالنسبة لليهودية والنصرانية من قبل (١) .

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز :

وسوف لا نعول كثيرا على قصة بحيرا الراهب الواردة في الأثر والتي تذكر أن محمدا قابله وهو في الثانية عشرة من عمره عندما صاحب عمه أبا طالب في سفره الى سوريا . فالصواب يمنعنا من الأخذ بهذه المقابلة العارضة واعتبارها مصدرا لتعليم محمد ، لأن الحادثة : إما أنها أسطورية ، أو انه يتعين علينا أخذ كل الوقائع التي تذكرها في الحسينان ، وحينئذ : نجد أن القصة تذكر أن هذه المقابلة كانت في حضور جميع أفراد القافلة ، وأن محمدا كان في دوره « مسثولا » لا مستمعا ، وبانتهاء الاستجواب : خلص الراهب الى نبوءة مضمونها توقع بعثة هذا الشاب رسولا في المستقبل . ان الفكرة اذن تفند نفسها (٢) .

ونحب أن نعرض للرواية التاريخية التي ذكرت مقابلة الرسول لبحيرا الراهب ، والرواية التي ذكرت مقابلة ثمانية في مرحلة أخرى من العمر لنسطورا الراهب . أول رواية بحيرا :

قال ابن اسحاق : التقى بحيرا برسول الله وهو ابن تسع سنين .

وفي الطبري : ابن اثنتي عشرة سنة .

(١) تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ج ١ ص .

(٢) مدخل الى القرآن : عرض تاريخي مقارن ص ١٣٤ الدكتور محمد عبد الله

دراز ترجمة محمد عبد العظيم على ومراجعة د / السيد محمدا بدوي .

اقرأ مقال هوارب : بالجريدة الآسيوية عدد يوليو أغسطس ١٩٠٤ بعنوان مصدر

جديد للقرآن حيث ورد ما يلي : في الخاتمة .

لا تسبح النصوص العربية ، التي عثر عليها ونشرت وبحثت منذ ذلك الوقت

بان ترى في الدور المسند الى هذا الراهب السوري الا مجرد قصة من نسج الخيال .

وكان الرسول قد خرج مع ركب أبي طالب وهو في تجارته إلى الشام
 فمر على راهب في صومعته في بصرى : هو بحيرا ، من هو بحيرا ؟
 قال ابن اسحاق : بحيرا كان إليه علم أهل النصرانية .
 ووقع في سيرة الزهري : بحيرا كان حبرا من يهود تيمان .
 وفي المسعودي : أنه كان من عبد القيس واسمه سرجيس ، تلك رواية
 بحيرا .

ثانيا - رواية نسطورا الراهب .

رآه الراهب تحت ظل شجرة ، وهو في رحلته بتجارة خديجة إلى الشام .
 وتذكر الرواية : أنه ليس بحيرا الراهب لأن هذه الرواية كانت بعد
 العشر .

الروايتان يفيدان معا :

التقاءهما بالرسول : وهو في رحلة تجارية مع قبائل قريش ، وأن
 الرسول لم يجالسهما ، وإنما تكلم في شأنه وشأن مستقبله مع شيخ الراكب .
 وأنهما نصحا بعودته خوفا عليه : من الروم أو اليهود ، ولم يقترحا استبقاءه
 معهما حتى عودة القافلة من رحلتها ، فالمسيحية الأولى : قامت بالدور
 التبشيري لمستقبل رسالة الإسلام ونبيه . وهذا ما تقرره الروايتان :
 أنهما لم يتحدثا إليه ، لا من قريب ولا من بعيد : في شأن تعلمه .
 وعلى احتمال : أنه تعلم منهما واستمع إليهما ، فيأثرى أى شىء تعلمه
 منهما ؟

وعقيدة أى مذهب تعلم ؟

هل العقيدة النسطورية ؟

أو عقيدة مذهب الطبيعة الواحدة ، وكلاهما كان منتشرا في تلك
 المنطقة ؟

ثم ما هى المدة الزمنية التى تكفى لاحاطته بالمسيحية ؟

بعض المستشرقين يرى : أن وراء هذه الروايات دورا تاريخيا فى صلة

الرسول بالمسيحية ، ومثل هذه الآراء ، وجدت من أبحاث المستشرقين :
ما ناهضها ، وناقضها ، ووفق مناهج أبحاثهم اثبتوا تفاهتها من عدة أمور
منها :

— عدم تعرض القرآن لمشكلات المسيحية .

— تناقض ما جاء في القرآن عنها مع شعراء العرب المعاصرين للنبي ،
والذى ثبت من تحرير شعرهم أنهم كانوا على صلة بالمسيحية : كإعشى
شاعر الغساسنة . وكامية بن أبي الصلت الذى بات أسفا على نفسه وخيبة
رجائه في فشل قيادته الدينية ، وهم على ذلك الحال لم يتقولوا على محمد
بأنه أفاك .

— الحاجز اللغوى : الذى أشار اليه القرآن — بين الرهبان ومحمد
يمنع ما ينتج من هذه الروايات .
— يقرر هوارت : Huart

مهما كان اغراء الفكرة التى تقول : بأن تفكير المصلح الشاب (محمد)
قد تأثر بقوة عندما شاهد الديانة المسيحية بسوريا ، فإنه يتحتم استبعادها ،
نظرا لضعف الأسس التاريخية للوثائق التى كانت أمامنا ، وعدم وجود
روايات صحيحة غيرها .

وسوف نرى رأيا لمستشرق قدم بحثا مفصلا ودقيقا في هذه الموضوعات (١)
يقول : ومن البهتان ما شاع من القول أن النبي سمع من هؤلاء قصص
التوراة التى تحتل مكانا بارزا من القرآن .
وقد قال أعداؤه : « ثم تولوا عنه وقالوا مجنون » .

وقال : ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون اليه
أعجمى وهذا لسان عربى مبين .

(١) علوم البيان وسبل انتقالها الى العرب : د / لاسى او ليرى ترجمة
دكتور / وهيب كامل مراجعة زكى على ص ٨٩ ، ٩٠ ، ١٢٤ .
Voir it Arapie a ccidutal avant l'Hegie La mance.

وقال أيضا : وقال الذين كفروا ان هذا الا افك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلما وزورا » .

وهؤلاء المسيحيون المستضعفون في مكة : لم يكونوا هيئة منظمة ، ولم تكن لهم كنيسة ، ولم يكن لهم أسقف .

ويقول عن أصحاب الطبيعة الواحدة :

وكانت مدينة نجران ، في بلاد العرب ، غير بعيدة من مكة وهي الأخرى مسيحية تدين بمذهب الطبيعة الواحدة . ولا نستطيع أن نحدد مركزا لأصحاب الطبيعة الواحدة يدعى نقل الثقافة اليونانية الى العرب بنفس الثقة التي حددنا بها مركز النساطرة في جند يسابور .

ومع ذلك لا يمكن اغفال هذه الصلة ، لأن مراكز أصحاب الطبيعة الواحدة كانت في الحق أديرة ، ولم تكن الجامعات ، كما كان الأمر في جند يسابور ، ولذلك لم تكن مراكزهم وثيقة الصلة بالعرب ، كما كانت مدرسة النساطرة .

ويقول عن مدرسة نصيبين :

وكانت مدرسة نصيبين مزدهرة ابان الفتح الاسلامي ، ولكنها لم تكن فيما يبدو ذات أثر مباشر على العرب ، ولعل السبب في ذلك أنها كانت لاهوتية صرفة .

ثم يقول : لم تكن (في المنطقة العربية) كتب بالعربية ، ولم تكن في العربية : ترجمة للكتاب المقدس ، ولم يكن هناك اداس باللغة العربية .

ثم قال : ان الثقافة اليونانية لم تنتقل الى العرب عن طريق الاتصالات الأولى ، ولقد تحقق انتقال العلوم اليونانية الى العرب : عندما استقرت الخلافة العربية في مدينة بغداد .

ثم يقول : « ان الفتح العربي في سنة ٦٣٢ لم يوقف الحياة الدينية او الفكرية لطائفة النساطرة او أصحاب الطبيعة الواحدة » .

ويتكلم صاحب تاريخ سورية عن علاقة المسلمين بالمسيحيين فيقول :

« لقد فرض العرب الجزية وتركت الطوائف التي تدفع الجزية حرة
تتبع قوانينها وديانتها وتقاليدها وتحيا حياتها الفكرية الخاصة (١) .
ولقد كتب أحد بطاركة الكنيسة الشرقية :

ان العرب الذين اولاهم الله السلطة على العالم في هذا العهد هم كما
تعلمون يقيمون بيننا ولا يتخفون من النصرانية هوقف عدا بل هم على
عكس ذلك يمتحنون ديننا ويجلون الكهنة والقديسين ويجودون بالتقدمات
للكنائس والمناسك (٢) » .

بعد ذلك نقول عن المسيحية في المنطقة العربية :

أ - عجزت المسيحية - قبيل الاسلام - رغم تعدد مراكزها وانتشار
رجالها في المنطقة العربية أن تكون دينا للمنطقة العربية - سوى بعض قبائل
اعتنقوها تزلفا سياسيا ، ولعل عدم انتشارها يرجع الى عدة عوامل كامنة
في المسيحية ذاتها :

- التنافس بين مذاهبها .
- انشغاقاتها العقائدية حول : طبيعة المسيح والموضوعات المتعلقة بها .
- الاضطهاد السياسي للمذاهب التي تسربت - من اضطهاد القيصر
لها - ثم اعتنقها الناس .
- عدم رضا بعض رجال الكنائس على عملية التوفيق بين المسيحية
والنراث الفلاسفي اليوناني التي اظهرت المسيحية من حيث معارفها الفلسفية
كانها منظمة مزيجها يوناني وروماني ، ومخلطة البنيان من حيث بذورها
الديني .

هذا وغيره ساعد الناس أن يرغبوا عنها لان الوجه الهليني الذي ظهرت
به اصبغ عليها أخص خصائصه : وهو الوثنية ، اذ الفلسفة اليونانية لا تحب
الا أن تكون وثنية في جوهرها .

(١) - ابريق سورية ص ١٤٣ .

(٢) - مدخ الى القرآن الكريم - عرض تاريخي وتحليل مقارن - الدكتور

محمد عبد الله دراز ص ١٣٧ .

وبات عجز المسيحية واضحا عن الانتشار في المنطقة العربية ، وبلغ من عجزها : أن ظهرت عبادات قريبة الشبه كالزرادشيتة والبوذية بين الجماعات المسيحية نفسها .

وظهرت المانوية وهي من أخطر العبادات الجديدة ، وقد أسسها مانى حوالى ٢٤٦ م وقد مات مانى في السجن بسبب معتقداته . هذا وغيره أدى الى انصراف الناس عنها الى اعتناق هذه المذاهب ، فكانت هذه المذاهب على خطورتها - كانت في نظرهم - أقل تعقيدا في قضاياها ، وأجمع للقلوب لقلة اختلاف نواياها ، ولا تناظر المسيحية من حيث جفاف روحها الدينى . يقول تايلور في كتابه « المسيحية القديمة » : أما ما تأبله محمد وأتباعه في كل اتجاه : فلم يكن الا خرافات منفرة ، ووثنية منحطة ، ومخجلة ، ومذاهب كنسية مغرورة ، وطقوسا دينية منحطة ، وصبيانىة ، بحيث شعر العرب ذور العقول النيرة : بأنهم رسل من قبل الله ومكلفون باصلاح ما ألم بالعالم من الفساد (١) .

يقول الدكتور شوقى ضيف : على أن هناك آفات كانت تشيع في هذا المجتمع الجاهلى لعل أهمها الخمر واستباحة النساء والقمار . ثم يقول وأكثر من كان يتجر بها (أى الخمر) اليهود والنصارى وكانوا يجلبونها لهم من بصرى وبلاد الشام ومن الحيرة وبلاد العراق .

ويقول : أنهم كانوا يضربون خيامهم في بعض الأحياء أو في بعض القرى ، ويضعون فوقها راية تعلن عنهم : فيأتيهم الشباب ليشربوا ، وليسمعوا بعض القيان ممن يصاحبهم « (٢) .

ومن جانب المقابلة بين التراث الشرقى والتراث الغربى نقول :

استطاع الشرق بعد أن هزم سياسيا : أن يرفض بعنف سيطرة التراث اليونانى الرومانى ، وحاول حصره داخل مدرسة الاسكندرية وأن يصر بعنف بالغ - كما رأينا موقف اليهودية - على رفض الوثنية الدينية ، وتعرض

(١) مدخل الى القرآن - عرض تاريخى معارن د . محمد عبد الله دراز ص ١٢٧ .

(٢) العصر الجاهلى ص ٧٠ .

اليهود من أجل ذلك : الى شتات وذلك في سبيل عقيدتهم • وذلك موقف يصم السياسة : بأنها لا تستطيع أن تغير من عقائد الناس • هذا من ناحية الموقف الرفض للتراث الهليني من قبل اليهود •

أما المسيحية بعد ما بينا موقفها فانذا نلاحظ في النهاية - وهي دين شرقي - أنها سيطرت من جانبها على الوثنية الرومانية وتشكلت الدولة الرومانية بالمسيحية وحملت - ضمن أعبائها - عبء مشاكلها وتبعتها نشرها • وليس في الأهر - كما رأينا عجز في طبيعة العقل الشرقي أو انحطاط الشرق عن الغرب كما يزعمون • انما كل ما في الأمر أن الرومان تبني - والغرب بعده - الثقافة الهلينية وهي ما كانت تعنيهم •

أما حضارة الشرق فان الاسكندر ما استطاع - ولا خلفاؤه من بعده - أن يقهرها وان هزمه سياسياً وحربياً غير أنه لم يقهره ثقافياً ، لأنه لا يجب أن يكون هنتهيا الا الى نفسه من خلال تراثه السماوي أو الوضعي ، وليس لعة مرضية كما يزعمون حين يعلنون رفض الشرق التراث اليوناني ووثنيته ، واذا كان كذلك فكيف يكون مريضاً وعنده من الوعي الحضاري الذي به فرض رسالته الدينية عليه ، وهذا أعقد ما في المسألة ؟

وفي ذلك ما يفيد - من وجه آخر للمسألة : أن رسالة الشرق الدينية ضرورية للانسانية ، وذلك يفسر فيما بعد ظهور الاسلام : والا فلماذا أخذ الغرب بالدين الشرقي ؟

السنا امام مشكلة فيها نقابل الاستفهام وهو : لماذا رفض الشرق التراث الهليني ؟ ولماذا قبل الغرب الدين الشرقي ؟

وفي النهاية نقول : وحقيقة دور المسيحية واليهودية من خلال مصادر تاريخية، أنهم كانوا وفق نصوصهم يعتقدون في « مسيا » (١) جديد - اي : المسوح بالطيب أو الذي مسحه يهوه بالطيب - وكانوا يذهبون الى تفسير اضطهادهم بأن التاريخ - وفق تصورهم - يدور ليحقق عودة مجتمعهم الذي تتحقق فيه الارادة الالهية واستفاضت نبوءتهم • يقول ابن سعد :

(١) تراث العالم القديم ص ٩٤ •

كان في بني تميم : محمد بن شعبان بن مجاشع وكان أسقفا يذكر بسبب تسميته محمدا : قيل لأبيه : انه يكون للعرب نبي اسمه محمد ، فسماه محمدا (١) .

يقول ابن اسحق عن عاصم بن عمر بن قتادة عن رجال من فوقه قالوا :

ان مما دعانا الى الاسلام مع رحمة الله تعالى وهداه مما كنا نسمع من رجال يهود - كنا أهل شرك : أصحاب أوثان ، وكانوا أهل كتاب ، عندهم علم ليس لنا ، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور ، فاذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا : انه تقارب زمان نبي يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وارم . فكنا كثيرا ما نسمع ذلك منهم (٢) .

كان اليهود دائما يبشرون بمسيا يخلصهم من وطأة ما وقع عليهم من شدائد حتى بعد مجيء المسيح (٣) .

فهذه النصوص التاريخية تفيدنا : أن المسيحية أو اليهودية على حد سواء قامتاً بدور تبشيري بنبي قرب مبعثه فكيف بعد مجيء محمد رسولا ينكرون عليه رسالته ؟ لا أرى باعنا على ذلك على سوى أنهم يحاولون تزييف التاريخ الديني للرسالات الالهية وتلك قضية أثبتتها القرآن حين أثارها عليهم .

مناقشة العرب الرسول في مصدر القرآن

نسوق هذا النموذج ، بعدما قدمنا ما تعرضت له المنطقة من اتجاهات : فكرية ، ودينية ، يتميز هذا النموذج : بأنه جمع لجنة تمثل اتجاه المثقف ثقافة عقلية في مدرسة « جنديسابور » : وهو النضر ، واتجاه رجال الدين اليهودي وذلك عندما أفلست الوثنية العربية اتجه رجالها الى يهود يثرب ليسألوهم عن مسائل يختبرون بها الرسول وذلك كان بعد أن اتخذ الاسلام

(١) الطبقات الكبرى ج١ ص ١٦٩ .

(٢) نفس المرجع ص ١٦٩ ج ١

(٣) نرات العاصم القديم ص ٩٤ .

طريقه في قبائل قريش : من الرجال والنساء ، وقريش تحبس من قدرت على حبسه ، وتفتن من استطاعت فتنته من المسلمين ، دعا رجال من أشرف قريش من كل قبيلة الى اجتماع بينهم فاجتمع :

- عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة .
- وأبو سفيان بن حرب .
- والنضر بن الحارث ، أخو : بنى عبد الدار .
- وأبو البختري بن هشام .
- والأسود بن عبد المطلب بن أسد .
- وزمعة بن الأسود .
- والوليد بن المغيرة .
- وأبو جهل بن هشام .
- وعبد الله بن أبي أمية .
- والعاصم بن وائل .
- ونبيه ومنبه ، ابنا : الحجاج السهميان .
- وأميه بن خلف .
- اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهور الكعبة .

قال بعضهم لبعض : ابعثوا الى محمد ، فكلموه ، وخاصموه حتى تعذروا فيه ، فبعثوا اليه : أن أشرف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك : فأتهم فجاءهم رسول الله سريعا - فهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بداء وكان عليهم حريصا يحب رشدهم ويعز عليه عنتهم - ودار ذلك في نفسه حديثا نفسيا . حتى جلس اليهم .

فقالوا له : يا محمد : انا قد بعثنا لنكلمك - وانا والله ، ما نعلم رجلا من العرب ، أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك : لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين ، وشتمت الآلهة ، وسفهت الأحلام ، وفرقت الجماعة ، فما بقى أمر قبيلنا الا قد جئت فيما بيننا وبينك ، فان كنت انما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا : جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا .

• وان كنت انما تطلب به الشرف فينا : فنحن نسودك علينا •

• وان كنت تريد به ملكا : ملكناك علينا •

وان كان هذا الذى يأتيك رثيا نراه قد غلب عليك - وكانوا يسمون التابع من الجن رثيا - فربما كان ذلك : بذلنا لك أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك •

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما بى ما تقولون ؟

ما جئت بما جئتم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ،

ولكن الله بعثنى اليكم : رسولا ، وأنزل على كتابا ، وأمرنى : أن أكون لكم بشيرا ونذيرا •

فبلغتكم رسالات ربي ، ونصحت لكم ، فان تقبلوا منى ما جئتم به : فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وان تردوه على : أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم •

قالوا يا محمد : فان كنت غير قابل منا شيئا مما عرضناه عليك فانك قد علمت : أنه ليس من الناس أحد أضيق بلدا ، ولا أقل ماء ولا اشد عيشا منا • فسل لنا ربك الذى بعثك بما بعثك به : فليسير عنا هذه الجبال التى قد ضيقت علينا ، وليبسط لنا بلادنا ، وليفجر لنا فيها أنهارا كأنهار الشام ، والعراق ، حكى القرآن ذلك فقال : (١)

فقال لهم رسول الله : ما بهذا بعثت اليكم ، انما جئتم من الله بما بعثنى به ، وقد بلغتكم ما أرسلت به اليكم ، فان تقبلوه : فهو حظكم في الدنيا

(١) وأنزل الله علينا نبيسا سألته قومه لانفسهم من تسيير الجبال وتطبيع الارض وبعث الموتى قال : ولر ان قرآنا سبوت بسه الجبال أو قطعت به الارض أو كلم به الموتى بل لله الأمر جميعا .

والآخرة ، وأن تردوه على : أصبر لأمر الله حتى يحكم بيني وبينكم ، حكى
القرآن فقال : (١)

قالوا : فإذا لم تفعل هذا لنا : فخذ لنفسك (٢) سل ربك أن يبعث معك
ملكا يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك .

وسله فليجعل لك جنانا وقصورا وكنوزا من ذهب وفضة ، يغنيك
بها عما نراك تبتغي ، فانك تقوم بالأسواق كما تقوم وتعلمس من المعاش ،
كما نلتمسه ، حتى نعرف فضلك ، ومنزلتك من ربك ان كنت رسولا -
كما تزعم - .

فقال لهم رسول الله : ما أنا بفاعل ، وما أنا بالذى يسأل ربه هذا ،
وما بعثت اليكم بهذا ، ولكن الله بعثني بشيرا ونذيرا ، فإن تقبلوا ما جئتكم
به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وان تردوه على أصبر لأمر الله ، حتى يحكم
الله بيني وبينكم . قال القرآن حاكيا ذلك منهم (٢) :

(١) وانزل عليه في قولهم : خذ لنفسك ما سألوه ان يأخذ لنفسه ان يجعل له
جنانا وقصورا وكنوزا ويبعث معه ملكا يصدقه عما يقول ويرد عنه :
وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل عليه ملك ليكون
معه نذيرا ، او يلقي اليه كنز او تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون ان تتبعون
الا رجلا مسحورا ، انظر كيف ضربوا لك الامثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا ، تبارك
الذى ان شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجري من تحتها الانهار ويجعل لك قصورا .
وقا : وما ارسلنا قبلك من المرسلين الا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق
وجعلنا بكم لبعض آتينا وكان ربك بصيرا . . .

(٢) وانزل عليه فيما قال عبد الله بن أمية .
وقالوا ان نؤمن بك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا . او تكون لك جنة من نخيل وعنب
تفجر الانهار خلالها تخرج اياها ، او تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا او تأتي بالملك
تنبأنا ، او يكون لك بيت من زخرف او ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا
كتابا نقرؤه قل . سبحان ربي هل كنت الا بشرا رسولا .
ورد عليهم فيما عرضوا عليه من اموال : قل ما سألتكم من اجر فهو لكم ان

اجرى الا على الله وهو على كل شيء شهيد .

قالوا : فأسقط علينا كسفا كما زعمت أن ربك لو شاء فعل فإنا لا نؤمن لك
إلا أن تفعل .

فقال رسول الله : ذلك إلى الله إن شاء أن يفعل بكم فعل .

قالوا : يا محمد : أفما علم ربك : أنا سنجلس معك ونسألك عما سألتناك
عنه ، ونطلب منك ما نطلب ، فيتقدم إليك : فيعلمك ما تراجعنا به ويخبرك
ما هو صانع بنا إذا لم نقبل منك : ما جئتنا به .

ثم يقولون : أنه قد بلغنا ، أنك : إنما يعلمك هذا : رجل باليمامة .

فقد أعزنا إليك يا محمد ، وأنا والله لا نتركك وما بلغت هنا ، حتى
نهلك أو تهلكنا .

وقال قائلهم ، فمن نعبد ؟ الملائكة أو بنات الله ؟

وقال قائلهم : لن نؤمن لك : حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلا .

فلما قالوا ذلك لرسول الله : قام عندهم ، وقام معه : عبيد الله بن أبي
أمية بن المغيرة ، بن عبد الله ، بن عمر ، بن مخزوم ، وهو ابن عمته : فهو
لعائكة بنت عبد المطلب .

فقال له : يا محمد : عرض عليك قومك ما عرضوا : فلم تقبله منهم .

ثم سألوكم لأنفسهم أمورا ، ليعرفوا بها منزلتك من الله ، كما تقول ،
ويصحقوك ، ويتبعوك ، فلم تفعل ، ثم سألوكم : أن تأخذ لنفسك ما يعرفون
به فضلك عليهم ، ومنزلتك من الله : فلم تفعل . ثم سألوكم : أن تعجل
لهم بعض ما تخوفهم به من العذاب : فلم تفعل .

* قال الله تعالى : انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون .
فقال عبد الله بن الزبيرى : أكل ما يعبد من دون الله حصب جهنم . قال : فنحن
نعبد الملائكة واليهود تعبد عزيرا ، والنصارى تعبد عيسى ، فعجب الوليد ومن كان معه
فى المجلس من مولد عهد الله بن الزبيرى وراوا أنه قد احتج وخاضم فذكر ذلك لرسول
الله من قول ابن الزبيرى فقال رسول الله : كل من أحب أن يعبد من دون الله مع من
عبده ، أنهم يعبدون الشياطين .

فوالله لا أومن بك أبدا ، حتى تتخذ الى السماء سلما ثم ترقى فيه ،
وأنا أنظر اليك ، حتى تأتيها ، ثم تأتي معك : بصك أربعة من الملائكة ،
يشهدون لك أنك كما تقول ، وإيم الله : أنك لو فعلت ذلك ، ما ظننت أني
أصدقك ، ثم انصرف عن رسول الله .

وانصرف رسول الله الى أهله : حزينا آسفا مما كان من قومه حين
دعوه . ولما رأى من مبعدهم إياه .

فلما قام عنهم رسول الله ، قال أبو جهل : يا معشر قريش : ان محمدا
قد أبى ، الا ما ترون منه من عيب ديننا ، وشتم آباؤنا ، وتسفيه أحلامنا ،
وشتم آلهتنا .

وانى أعاهد الله : لأجلسن له غدا بحجر ، ما أطيق حمله ، فاذا سجد
لرسول الله ، لأهوى بسخرة على رأسه ، فأسلمونى عند ذلك ، أو امنعونى فليصنع
بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم .

قالوا : والله لا نسلمك لشيء أبدا فامض لما تريد .

فلما أصبح أبو جهل : أخذ حجرا - كما وصف - ثم جلس لرسول الله
بينتظرد : وغدا رسول الله كما كان يغدو ، وكان رسول الله بمكة وقبلته
الشام ، فكان اذا صلى بين الركنين : البرانى ، والأسود ، جعل الكعبة
بينه ، وبين الشام فقام رسول الله يصلى : وقد غدت قريش .

فقالوا له : مالك يا أبا الحكم ؟

قال : قمت اليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة ، فلما دنوت منه ، عرض
لى دونه فحل من الابل ، ما رأيت مثل هامته ، ولا أنيابه : لفحل قط ، فهم
بى ان يأكلنى . فلما قال لهم ذلك أبو جهل : قام النضر بن الحرث بن كعدة
فقال : يا معشر قريش : انه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم بحيلة بعد .
قد كان محمد فيكم : غلاما حدثا ، أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثا ، وأعظمكم
أمانة ، حتى اذا رأيتم فى صدغيه الشيب وجاعكم بما جاعكم به قلتم :
ساحر ، لا والله ما هو بساحر ، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم .

وقلتم كاهن : لا والله ما هو بكاهن ، قد رأينا الكهنة وتخالجهم وسمعنا
سجعهم •

وقلتم شاعر : لا والله ما هو بشاعر ، قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه
كلها هزجه ورجزه •

وقلتم مجنون : لقد رأينا الجنون ، فما هو بخنقه ولا وسوسته ولا
تخليطه •

يا معشر قريش : فانظروا في شأنكم ، فانه والله قد نزل بكم امر
عظيم •

وكان النضر بن الحرث من شياطين قريش ، ومن كان يؤذى رسول
الله وينصب له العداوة ، وكان قد قدم الحيرة : وتعلم فيها أحاديث ملوك
الفرس وأحاديث رستم واسفنديباز فكان اذا جلس رسول الله مجلسا :
يذكر فيه بالله ، وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من نقمة الله ، خلفه في
مجلسه اذا قام ثم قال :

انا والله يا معشر قريش : أحسن حديثا منه ، فهلم الى : فأنا أحدثكم
أحسن من حديثه ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسفندياز ، وكان
قد تعلم في فارس :

ثم يقول : بماذا محمد أحسن حديثا مني ؟

قال ابن هشام : وهو الذى قال فما بلغنى : سأنزل مثل ما أنزل الله •

وكان ابن عباس يقول : نزل فيه ثمانى آيات من القرآن •

قول الله عز وجل : اذا تقلى عليه آياتنا ، قال أساطير الاولين •

وكل ما نكر عن الأساطير في القرآن : وردت فيه •

فلما قال لهم النضر بن الحرث بعثوه وبعثوا معه : عقبة بن أبى معيط
الى أحبار يهود بالمدينة ، وقالوا لهما : سلامهم عنه ، وصفا لهم صفته ،
وأخبراهم بقوله ، فانهم أهل الكتاب وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء ،
فخرجوا حتى قدما المدينة •

فسألا أحبار اليهود : عن رسول الله ، ووصفا لهم أمره ، وأخبراهم
ببعض قوله .

وقالا ، لهم : انكم أهل التوراة ، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا
هذا .

فقلت: لهما أحبارا يهود : سلوه عن ثلاث نأمركم بهن : فان أخبركم بهن
فهو نبي مرسل ، وان لم يفعل : فالرجل متقول ، فروا فيه رأيكم .

١ - سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول : ما كان أمرهم ؟ فأنه كان
لهم حديث عجيب .

٢ - وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها : ما كان
نبأه ؟ .

٣ - وسلوه عن الروح : ما هي ؟

فان أخبركم بذلك فاتبعوه فانه نبي ، وان لم يفعل فهو رجل متقول
فاصنعوا في أمره ما بدا لكم .

فأقبل النضر بن الحرث وعقبة بن ابي معيط حتى قدما مكة على قريش ،
فقالا يا معشر قريش : قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد . قد أخبر
أحبار يهود : ان نسأله عن أشياء أمرونا بها ، فان أخبركم عنها ، فهو نبي ،
وان لم يفعل فالرجل متقول فروا فيه رأيكم .

فجاءوا رسول الله .

فقالوا : يا محمد أخبرنا :

عن فتية ذهبوا في الدهر الأول : قد كانت لهم قصة عجب ؟

وعن رجل كان طوافا : قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ؟

وأخبرنا عن الروح : ما هي ؟

فقال لهم رسول الله : أخبركم بما سألتكم عنه غدا ، ولم يستثن ، فانصرفوا

عنه . فمكث رسول الله - فيما يذكرون - خمس عشرة ليلة ، لا يحدث

الله في ذلك وحيا ، ولا يأتيه جبريل ، حتى أرجف أهل مكة فقالوا :

وعدنا محمد غدا ، واليوم خمس عشرة ليلة قد أصبحنا منها لا نخبرنا بشيء مما سألناه عنه ، أحزن رسول الله مكث الوحي عنه وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة . ثم جاءه جبريل من الله : بسورة أصحاب الكهف ، فيها معاتبته آياء على حزنه عليهم ، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية ، والرجل الطواف والروح في سورة الاسراء .

رواية علاقة الرسول بحكمة لقمان :

دعا رسول الله سويد بن صامت الى الاسلام .
فقال له سويد : فلعل الذى معك مثل الذى معى .
فقال له رسول الله : وما الذى معك ؟
قال : مجلة لقمان (يعنى حكمة لقمان) .
فقال له رسول الله : اعرضها على : فعرضها عليه .
فقال له : ان هذا الكلام حسن ، والذى معى - افضل من هذا - قرآن أنزله الله على هو هدى ونور ، فتلا عليه رسول الله القرآن ودعاه الى الاسلام فلم يبعد منه .

وقال : ان هذا القول حسن ، ثم انصرف عنه .
فقدم المدينة على قومه فلم يلبث أن قتله الخزرج ، وقيل أسلم .
يظهر من المحاوره : يعنى مناقشة الرسول فى مصدر القرآن :

- أن محمدا : أعلن اعلانا ذاع بين قومه ومسجلا فى القرآن . انه لم يتلق علما من انسان ، وسمع ذلك النضر بنفسه ، وغيره ممن شك فيهم العرب : أنهم يعلمون الرسول . لم يعلن أى انسان منهم ، أو من اليهود ، أو من المسيحيين : أنه هو الذى يعلم الرسول فضلا عن أنه لم يدع أحد منهم ذلك .

- وكما تفيد الرواية أن النضر بن الحارث على ما كان يدعيه من علم تلقاه من مدرسة جنديسابور كان يعلمهم أخبار الفرس فقط .

- وسويد بن الصامت صاحب مجلة لقمان : سمع منه الرسول وقال له : هذا كلام حسن ، ثم أسمعه الرسول فقال له : ان هذا القول حسن . ولم يدع سويد أنه علم الرسول أو أن الرسول أخذ منه شيئا .

وأن اختيار اليهود له ، كان يعنى : اظهار علامات النبوة وهم اعلم الناس بها وبدلائلها ، وقالوا للنضر ان افئذكم فهو نبي مرسل . واليهودية وهى دائما ضد الوثنية الرومانية امتد الوثنية العربية بعد أن افلست فى جدلها مع الرسول بأسلحة ماضية لتختبره بها ، ثم تشاء ارادة الله أن تنتهى الوثنية ومعها اليهودية بأسلحتها ويصير سفراء العرب الى دعاة رغم أنفسهم فيظهرون علامات النبوة .

علاقة القرآن بهما :

خلاصة القول : أن القرآن حدد موقفه من اليهودية والنصرانية على حد سواء .

أولا : من حيث المبدأ :

- اعترف بهما : دينا سماويا ، وموسى وعيسى رسولين أوحى اليهما (١)
- حض على الايمان بهما : وأن ايمان المسلم لا يصح الا بهما وغيرهما من الرسل (٢) .
- وضح علاقة الاسلام بهما : أنهما تكميل وتتميم وتصحيح (٣)
- قام القرآن بما اشتمل عليه من التاريخ الدينى للرسالات السابقة

(١) قال تعالى . « آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله » . (البقرة ٢٨٥) .

(٢) قال تعالى . « قل آمننا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » . « آل عمران ٨٤ » .

(٣) قال تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » الشورى ١٣) .

(م . ٨ — الفكر الدينى)

عليه : بنشر مضمون الكتب السابقة عليه ، مظهرا بذلك وحدة السلسلة
الدينية (١) .

ثانيا : من حيث التفصيل :

— أبدى ملاحظات أساسية عليهما منها :

— **تنازعهم بعضهم بعضا :**

قال تعالى : « وقالت اليهود : ليست النصرارى على شيء ، وقالت
النصارى : ليست اليهود على شيء ، وهم يتلون الكتاب » (٢) .

— **ففرقتهم في العقيدة الى فرق لكل شريعة كتابها :**

قال تعالى : « ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في
شيء » (٣) .

(١) قال تعالى : « قل يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد
الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا اربابا من دون الله فان تولوا فقولوا
اشهدوا باننا مسلمون » (آل عمران ٦٤)
وقال : « وقولوا آمنا بالذى انزل الينا وانزل اليكم والهناء والهناء واحد ونحن له
مسلمون » . (العنكبوت ٤٦)
وقال : « ان هذا لى الصحف الاولى : صحف ابراهيم وموسى »
وقال : « قل للذين اتوا الكتاب والاميين اسلمتم فان اسلموا فقد اهتدوا ،
وان تولوا فانما عليك البلاغ » . (آل عمران ٢٠)
ونسوق قولاً لفيليب حتى يشهد على حسن معاملة الرسول لأهل الكتاب .
« وكانت الطبقة الثالثة تتألف من أهل الذمة وهم الذين قيل منهم على أنه دين
منزل ، والمراد بين النصرارى واليهود والصابئة ذلك أن الاسلام شملهم بالامان وصانهم
بالعهود والمواثيق » .
وقد أتاح النبى نفسه « انظر آيات سورة التوبة : ٢٩ والبقرة ، ٩٩ ، ١٠٣
وآل عمران ، ٦٢ — ٦٥ . الخ » . للنصارى واليهود هذا الوضع المسموح على اعتبار
انهم أهل الكتاب ، ومرد ذلك انما هو اجلال النبى للكتاب المقدس . انظر تاريخ سورية
ص ٩٨ ج ٢ .

(٢) البقرة : ١١٣

(٣) الانعام : ١٥٩

— اهمالهم للتوراة :

قال تعالى : « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار
يجعل أسفارا » (١) .

— تحريفهم لكتبهم المقدسة :

تحريف في العقيدة : « كقولهم المسيح ابن الله . وعزير ابن الله » (٢) .
تحريفهم مفهوم علاقة البشرية بالله الى بنوة له : قال تعالى « وقالت
اليهود والنصارى : نحن أبناء الله واخباؤه » (٣) .

— تحريفهم في شريعتهم :

قال تعالى : « وأخذهم الربا : وقد نهوا عنه ، وأكلهم أموال الناس
بالباطل » (٤) . وفي القرآن الكثير عن قضية التحريف منها :
قال تعالى :

(أ) وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد
ما عتلوه وهم يعلمون (٥) .
(ب) يحرفون الكلم عن مواضعه .
(ج) وان فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون (٦) .
(د) ان الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا
قليلاً (٧) .

ثم بعد ذلك رسم القرآن للرسول الغاية النهائية من بيان ذلك قائلاً :
« واستقم كما أمرت ، ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت : بما أنزل الله
من كتاب وأمرت : لأعدل بينكم » (٨) .

(٢) من الانجيل
(٤) النساء : ١٦١
(٦) البقرة : ٤٦
(٨) الشورى : ١٥

(١) الجمعة : ٥
(٣) المائدة : ١٨
(٥) البقرة : ٧٥
(٧) البقرة : ١٧٤

لهذه الغاية النبيلة : « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد
 ايمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق » (١) .
 نعد كان موقف أهل الكتاب من القرآن عجيبا :
 فان وجدوا بعض ما في القرآن يتفق معهم قالوا : أخذه محمد من
 الكتاب (٢) .

وان وجدوا روايات لا تنتمى الى كتبهم مع أنها خاصة بتاريخهم
 قالوا هذا حديث مفترى (٢) .

(١) البقرة : ١٠٩

وفي عصرنا هذا أخرج يوسف الياس الحداد سلسلة دروس قرآنية :
 (١) الانجيل والقرآن (ب) القرآن والكتاب ج ١
 قال الأستاذ محمد عزه دروزه عنها في كتابه (القرآن والمبشرون) وقد كتب
 الخورى لكل من كتبه الاربعة مقدمة برأيه الظاهر وفيها دعوة الى التفاهم وتبادل الثقة بين =
 المسلمين والنصارى لانهم يدينون بدين كتابي متحد المصدر والمبادئ والاهداف . غير أنه
 حشا كتبه بأقوال وبيانات وروايات وتحليلات عن القرآن ومحتوياته ونظمه ولفته
 وترتيبه وعن شخصية النبي وسيرته ورسالاته وصلتها بأهل الكتاب وتجديد أكثر باليهودية
 والنصرانية وكتبها فيها الغريب العجيب المذهل من التخرص والتعسف والتجنى والمجازفة
 وتحريف الكلام واللعب بالألفاظ وعدم التورع عن أقوال فيها افتراء وسوء أدب نحو القرآن
 ورسوله وكتاب وحيه واصحابه الاولين وتابعيهم ونسبة الدس والزيادة في القرآن ص ٧٢٦ .
 (٢) يقول فيليب حتى في كتابه تاريخ سورية ج ٢ ص ١٤٤ : ولقد كانت عقيدة
 التوحيد ويوم الحساب من أروج المواضيع في الادب القرآني وفي الانجيل المرفوضة والرسائل
 الصوفية على السواء ثم يقول : حتى أنهم جعلوا الاسلام من وجوه عديدة وريثا للنصرانية
 والسريانية .

(٣) يقول الاستاذ محمد عزه دروزه في كتابه القرآن والمبشرون ص ٣٩ : على أن
 هناك أشياء كثيرة وردت في القرآن من هذه القصص ولم ترد في الاسفار المتدولة . ومنها
 ماورد في القرآن والاسفار متغيرا في الجزئيات بل وفي الصور المهمة معا فليس في سفر
 التكوين مثلا ما ورد في القرآن من أمر الله الملائكة بالسجود لادم وعصيان ابليس والموسوس
 لادم وحواء في الجنة هو الحية في حين أنه في القرآن ابليس . وليس في هذا السفر ما في
 القرآن من قصص ابراهيم مع قومه وتخريب لاصنامهم ونظرتهم في النجوم وحجابه مع قومه
 ومحاولتهم احراقه في النار واسكانه بعض ذريته عند بيت الله المحرم أي مكة واشتراك
 ابراهيم واسماعيل في بناء الكعبة .

وليس في هذا السفر ما في القرآن من محاوره بين نوح وابنه الكافر وعدم ركوب
 هذا في السفينة وغرقه ومحاوره نوح مع الله تعالى في ذلك . وليس في السفر ما في تمزيق
 امرأة العزيز قميص يوسف ولا كلام النسوة ودعوة امرأة العزيز اياهن وتقطيعهن أيديهن .
 وليس في أسفار الخروج والعدد وتثنية الاشتراع التي فيها موسى وفرعون وبنى اسرائيل

وإذا تقدمت الأبحاث وعلم الحفائر وأظهرت دلائل تؤيد روايات القرآن وتثبت لهم ما حرفوا في كتبهم بالزيادة أو الحذف ، وهذا ما قاله القرآن عنهم ، دعوا الى التقائهم وتبادل الثقة ما دما ندين بدين واحد ، من حيث المصدر والغاية (١) .

وحقيقة أن الدعوى الى التفاهم اشتدت في عصرنا ، ولكنها دعوى مغلوطة ، لأننا نوّمن بالمسيحية واليهودية وبالاديان السماوية مع الاسلام على حد سواء . فليس بين الاسلام وبين القوراة والانجيل : أزمة ثقة ، أما هم : فاننا نراهم يعانون أزمة الثقة بينهم كطوائف وبين اليهودية كدين ، وهذا قديم تاريخيا ثم أخيرا بينهم جميعا وبين الاسلام أما نحن المسلمين فبراء منها لماذا؟

لأن الدعوة طرحها القرآن - وما زالت مطروحة - وعليهم الاستجابة لها وبالتالي : فالمشكلة التي بيننا وبينهم هي في مدى قدرتهم على الاستجابة نحو الكلمة سواء (٢) .

بعد خروجهم من مصر وحياتهم في سيناء ما في القرآن من خبر سحرة فرعون والتفاف الثعبان لحبالهم وعصيمهم وسجودهم وإيمانهم ومحاورتهم مع فرعون وغرق فرعون وجنوده حينما خرجوا لمطاردة بنى اسرائيل . والقرآن يذكر أن الشخص الثاني الذي أراد موسى أن يبطش به هو عدو في حين أن سفر الخروج يذكر أنه عبراني . قال الاستاذ دروزه : ونحن نعتقد أن ما ورد في القرآن ولم يرد في الأسفار المتداولة أو ورد فيها مبينا لما ورد فيه قد ورد في أسفار أخرى كانت متداولة بين أيدي اليهود لم يصل إلينا وهذه ظاهرة تثبتها الأسفار المتداولة التي ورد فيها أسماء عديدة ليست بين الأسفار المتداولة « . (١) وعجبنا عندما وقف البابا شنودة : ونادى بدعوة التعاون بين الأديان السماوية

ثم ذكر شخصيات اسلامية تاريخية ولم يذكر الرسول فهل بذلك صدق مع نفسه أو صدق مع دعواته ؟ أو نقض بنفسه وفي نفس دعواته مسا دعسا اليه ؟ (٢) أما من موائق التفاهم فهي كما ذكرها الامام عبد الحلیم محمود ردا على رسالة كان قد بعث بها اليه د . ميغل دي ايبالنا تسكرتر عام الصداقة الاسلامية المسحية - مدريد - أسبانيا والرسالتان كما يلي :

السيد المحترم صاحب الفضيلة الاستاذ الاكبر شيخ الجامع الازهر .
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وبعداً :

نيسر جمعية الصداقة الاسلامية المسيحية في مدريد أن تتوجه الى فضيلتكم لتشرى باخباركم بما استقر عليه الرأي من انعقاد مؤتمر قرطبة العالی النسيحي الثالث خلال عام ١٩٧٩ . ان شاء الله وقد رأت ادارة الجمعية اختيار موضوع محمد وعيسى ملهمين للقيم =

.....

== الاجتماعية المعاصرة ليكون محور اللقاء الاسلامى المسيحى المقبل . والمقصود ان يشرح المسلمون كيف يعبر النبي صلى الله عليه وسلم عن هذه القيم المعاصرة بالنسبة لاسلمى اليوم سواء برسائله وعقيدته ودعوته . او بشخصيته وسلوكه ونفسيته المثالية . بينما يشرح المسيحيون كيف يعبر عيسى عليه السلام عن القيم الاجتماعية نفسها عند مسيحي اليوم . . ورغبتنا ان يدرس هذا الموضوع مجموعة ممن يعيشون في مجتمع متكامل يلبض بالموءة والوفاق . وان اختلفت عقائد مواطنيه وتنوعت اديانهم .

وسوف يتولى عملية تنظيم واعداد المؤتمر من الجانب المسيحى الكليات المتخصصة في علوم اللاهوت نذكر منها بصفة خاصة كلية اللاهوت بهدريد . والجامعة البابوية في روما . . ويعد الموضوع - بمشية الله - من الجانب الاسلامى الجامعات المتخصصة في بعض البلدان الاسلامية . ومؤسسات اسلاية وشخصيات مسلمة ، يستوى في ذلك من يعيشون داخل اسبانيا ومن يقيمون خارجها .

ونعتقد انه من الممكن دراسة رؤوس الموضوعات التالية في نطاق الموضوع العام للملتقى وهى : الحربة والعدالة والمساواة في مختلف مظاهرها وجوانبها المتعددة في هذا الدين او ذاك . ولا يعنى هذا - بطبيعة الحال - ان هذه هى الكلمة النهائية ، على العكس نحن نتوجه اليكم منذ الان وفي لحظة نشأة الفكرة آمليين ان تثروا الموضوع بما تقترحونه وان تفضلوا باضافة ما ترونه مفيدا ونافعا ، ولسنا نشك انكم ستزودونا بسدد الراى وصائبه - باذن الله . فأنتم ادرى بهذا الحقل منا ، ولكم في هذا الميدان خبرة قد لا تتواثر للكثيرين بحكم احتكاكم بالمجتمعات ، وجمهوركم في القارات المختلفة . وقد سبق ان شرفتمونا حين تفضلتم بايفاد وفد مثل بلادكم في مؤتمر قرطبة الاسلامى المسيحى الاول الذى عقد في عام ١٩٧٤ م .

وما نبغيه في هذه الرحلة - مرحلة الاعداد والدراسة - هو النصيحة وتبادل الراى ، والاستفادة بالمشورة دون الزام او التزام بحضور المؤتمر . وسوف نتصل بكم في مرحلة اخرى ان شاء الله من اجل توجيه الدعوة لحضور جلسات الملقى نفسه اذا رغبتم في ذلك .

في انتظار كريم ردكم نرجو ان تتقبلوا خالص تحياتنا وأطيب امثياتنا بالصحة والسعادة .

وسلام الله عليكم وتحياته ورحمته وبركاته . .

سكرتير عام جمعية الصداقة الاسلامية المسيحية

(امضاء)

دكتور : ميغيل دى ايبالنا مدريد ابريل ١٩٧٨ م

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد المحترم ه . ميغيل دى ايبالنا

تحية طيبة وبعد :

فقد وصلتني خطابكم المؤرخ : ابريل ١٩٧٨ م

= وانى أشكر لكم هذه الرغبة في التفاهم بين المسلمين والمسيحيين واثراء الفكر المعاصر بالحلول التي أوحاها الله تعالى الى محمد وعيسى صلى الله عليهما وسلم . وذلك فيما يتعلق بالمشاكل المعاصرة .

وقد وصلنى أخبار المؤتمرين السابقين .

واحب ان انبه ، في مودة ، ومن أجل تفاهم عميق الى بعض الامور :

١ - ان الاسلام - منذ أن بدأ - خالف الجو العالى : اليهودى الوثى . . . في أمر عيسى عليه السلام . لقد أعلن الاسلام مباشرة تقديره واحترامه لعيسى وأمه . وأما عيسى عليه السلام فهو وجيه في الدنيا والاخرة وأما أمه فهي صديقه . نبوة عيسى عليه السلام جزء من ايمان المسلم . وبراءة أمه وطهرها جزء من ايمان المسلم ولم يقف الاسلام من عيسى عليه السلام ومن أمه موقف اليهود الذين ما زالوا على موقفهم الى الان من عيسى وأمه . لقد افتروا - وما زالوا - على عيسى وعلى أمه ورهوما ببهتان شنيع . . أما الاسلام فانه مجدهما وما زال مستمرا في تمجيده لهما .

فماذا لقي المسلمون من المسيحيين في مقابل ذلك ؟

٢ - انه لا بد من الاعتراف بالدين الاسلامى وبرسوله حتى ينال المسلمون في أوروبا ما يناله اليهود من الاعتراف بأعيادهم وبشعائهم . . . وانه لا يتأتى التفاهم بين أتباع رسول يحترمه المسلمون هو عيسى عليه السلام وأتباع رسول لا يعترف به المسيحيون وهو محمد صلى الله عليه وسلم .

٣ - ان المسلمين والمسيحيين يعملون على مقاومة الانحراف والانحلال والمادية والالحاد وكان يجب أن يسيرا في خط متعاون متساند ضد التيارات المنحرفة . . ولكن للأسف - يسير المسيحيون في طريق تنصير المسلمين بقوة : فهم يعملون ليل نهار على أن ينصروا المسلمين في كل مكان في العالم . وكل الدول الغربية وأمريكا ترسل ارساليات لتنصير المسلمين بأسلوب مكشوف واضح أو بأسلوب خفى مستور ، ويضيق المسلمون بذلك ضيقا شديدا . ورغم ذلك نان ملايين الجنيهات تنفق في سعة للتنصير بكل الطرق .

ومما هو ملاحظ أن الدول الاسلامية ليس لها ارساليات تشرية . . وقد أرسل المسيح عليه السلام لهداية خراف بنى اسرائيل الضالة . ومع ذلك فان المسيحيين تركوا بنى اسرائيل الضالة وأخذوا يعملون على تنصير المسلمين . . تساعدهم الثروة . وتساعدهم وسائل الحضارة الحديثة .

ولو حرصوا نشاطهم على تنصير الوثنيين لما اثار ذلك ضيق المسلمين الشديد وكراهيتهم للأسلوب ولوضوع التنصير نفسه .

٤ - والمسلمون اقلية في بعض الاقطار المسيحية مثل الفلبين . وهذه الاقلية المسلمة ينكل بها باسم المسيحية : تؤخذ أرضها وتسلم أطفالها وتترمل نساؤها . ولا تجد الا ارضاحا في نفوس الاغلبية المسيحية . . ونحب أن ينتهى التنكيل بالمسلمين في الاقطار التي بها الاقلية المسيحية : نحن نحب أن ينتهى ذلك : انسانيا ونحب أن ينتهى ذلك دينا : وغيرها هناك أسلوبان للحديث :

٥ - وفي المؤتمرات التي تعقد في اسبانيا وغيرها هناك أسلوبان للحديث .

(١) التزام العقل . وهنا يحلل المسلمون من مبادئ دينهم ليتناولون المسيح عليه السلام وأمه بالاسلوب العقلى فيكون موقفهم منها موقف اليهود : يقولون على مريم وعلى ابنها ما يضيق به المسيحيون ضيقا شديدا . ويقولون على المسيحية نفسها ما يضيق به المسيحيون ضيقا شديدا .

ولكن المسلمين في هذه المؤتمرات يتبعون مبادئ دينهم فيحترمون المسيح عليه السلام =

بيد أن موقفهم السيكولوجي ما زال كما قرره القرآن في قوله :
 « ود كثير من أهل الكتاب : لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً ،
 من عند أنفسهم » .

فالحرب الصليبية - وهي تعتبر أول غزو مسلح ذي شكل ديني قامت
 به أوروبا لغزو الإسلام في داره - وضعت هدفها الظاهر الدعوة التبشيرية
 للمسيحية كما هو واضح في اسمها - وفي حقيقة الأمر : كانت أطماعاً في
 لبز الشرق وعسله - والدعوة التبشيرية لمن ؟ للإسلام . وتلك دعوة في ظاهرها
 مغلوطة فضلاً عن رفضها من حيث المبدأ من عدة جوانب : لأن الإسلام كدين
 يعترف بالأديان السماوية ويعتبر الإسلام نفسه أنه مكمل لها ، وعلى هذه
 الأديان أن تعاود دراسة تلك العلاقة التي قررها الإسلام . ومن حيث
 الإسلام ، كدولة ذات سيادة ، فإنها تعترف بالدين المسيحي وتحترم المسيحية ،
 فغزو أوروبا لحمل دولة الإسلام على الاعتراف بالدين السماوي غير وارد .

== و أمه .. أما المسيحيون فإن البعض منهم لا يبالي فيتحدث عن رسول الإسلام بما يضيق به
 المسلمون : فلا تكون هذه المؤتمرات وسائل تفاهم ، وإنما تكون وسائل تناثر ، وذلك كما
 حدث في المؤتمرين السابقين من بعض المسيحيين .

(ب) التزام ما تمليه روح التفاهم : فلا يساء إلى المسلمين في مقدساتهم .
 ٦ - وأجب أن أقول أن الإسلام هو العامل الأكبر في تثبيت المسيحية حين اعترف
 السلام ، احترام أمه عليها السلام ...
 فماذا قدم المسيحيون ؟ لا شيء !
 بل على العكس من ذلك لقد هاجموا وما زالوا يهاجمون رسول الإسلام ومبادئ الإسلام
 فهل يمكن مع ذلك التفاهم ؟

٧ - وأحب أن أقول أن الإسلام هو العامل الأكبر في تثبيت المسيحية حين اعترف
 بوجود المسيح عليه السلام وحين برأ أمه . ومع ذلك فقد قوبل بجحود لا مثل له وبما زال
 يقابل بهذا الجحود من المسيحيين على أكبر خدمة أدب للمسيح عليه السلام .
 وبعد فإني أحب صادقاً أن نتعاون في صد كل انحراف .. وأحب أن أقول أنه لولا
 تقديري لكم لما كتبت لكم هذا . وأنتى يسرنى أن أقرأ لكم .
 سأحدث اليكم عن رأيي في موضوع المؤتمر في المستقبل إن شاء الله .
 ولكم تحيتى وتقديري ...

(د . عبد الحلیم محمود « شيخ الأزهر »)

نشر في مجلة الأزهر - الجزء الثالث - السنة الخمسون .

رجب ١٣٩٨ هـ الموافق يونيو ١٩٧٨ م .

وأما من ناحية علاقة الاسلام - من كونه ديناً ودولة - بالأقليات الدينية فان حقوقهم قد كفلها لهم الاسلام وباتوا اخوة مع المسلمين فغزوهم لتأمين هذه الأقليات غير وارد أيضاً كاسباب لغزو مسلح .

لذلك قلنا أن الصليبية حملت الصليب رمزا للتعذيب ، ولم ترفع الكتاب رمزا للحب والسلام .

وفي النهاية يقول كارلو نلينو(١) : التشريع عند النصارى عمل بشري ليس له ارتباط متين بأقوال الانجيل ، أما التشريع في الاسلام فلا يتصور الا كفرع من العلوم النقلية الدينية ، أصوله في القرآن ، والسنة ، والاجماع .

فلهذا السبب أيضاً تنطوى كتب الفقه الاسلامية على العبادات التي لا مكان لها في فقه الأمم النصرانية وكفى ذلك برهاناً على عظيم شأن القرآن في الهيئة الاجتماعية الاسلامية ودخول أحكامه في أمور دنيوية فقط عند النصارى — ص ٩٩ .

ومما ذكرته كتب التاريخ الاسلامي عن علاقة المسلمين بالمسيحيين - وفق التوجيه النبوي .

ما ذكره ابن سعد في طبقاته عن كتبه ورسائله الى الأساقفة وديار المسيحية في العرب وما أوصى به سفراءه : يذكر ابن سعد فيروى :

وكتب رسول الله لأسقف بني الحارث بن كعب وأساقفة نجران وكهنتهم ومن تبعهم ورهبانهم أن لهم على ما تحت أيديهم من قليل وكثير من بيعهم وصلواتهم ورهبانيتهم وجوار الله ورسوله لا يغير أسقف عن أسقفيته ولا راهب عن رهبانيته ولا كاهن عن كهنوته ولا يغير حق من حقوقهم ولا سلطانهم ولا شيء مما كانوا عليه ما نصحوا أو أصلحوا فيما عليهم غير مثقلين بظلم ولا ظالمين (٢) .

(١) تاريخ الاداب العربية - كارلوا نلينو ط ٢ - دار المعارف .

(٢) طبقات بن سعد ج ١ ص ٢٦٦

وكتب الى ضغاطر الأسقف :

سلام على من آمن أما على أثر ذلك فان عيسى بن مريم روح الله وكلامته
 ألقاها الى مريم الزكية واني أومن بالله وما أنزلنا اليها وما أنزل الى ابراهيم
 واسماعيل ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من
 ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون والسلام على من اتبع الهدى . .
 وفي بعض كتبه لأهل نجران يقول صلى الله عليه وسلم : وانجران
 وحاشيتهم جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على انفسهم وملتهم
 وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وبيعتهم وصلواتهم لا يغير أسقفا عن
 أسقفيته ولا راهبا عن رهبانيته ولا واقفا عن وقفانيته وكل ما تحت أيديهم
 من قبايل أو كثير وليس ربا ولا دم جاهلية وهن سأل منهم حقا فبينهم النصف
 غير ظالمين ولا مظلومين . .

الى ان قال : وعلى ما في هذه الصحيفة جوار الله وذمة النبي أبدا حتى
 يأتي الله بأمر ان نصحوا وأصاحوا فيما عليهم غير مثقلين بظلم . . (١)

الباب الثالث

الصابئة والجوسية

* تاريخ الصابئة

* الصابئة في جزيرة العرب

* أقسامها

* أصول فكرها

تاريخ الصابئة وجغرافيتها الفكرية :

من الملل والنحل التي تحدث عنها القرآن - وهو يذكر الأديان والملل :
الصابئة ، والصابئة من الملل التي أثار القرآن بعض قضاياها ، وعرض لها
بالنقاش والجدل في أكثر من موضع ، وكان من أهمها : « بشرية الرسول » .
كذلك عرض لها : حين عرض لمقابلها وهو الحنيفية ملة إبراهيم الكبرى
كما وصفها القرآن ، فالصبوة - كما يذكرها المؤرخون للأديان - في مقابلة
الحنيفية (١) .

فمن الناحية التاريخية : الصابئة سابقة على الحنيفية التي جاءت
مجادلة ومناقضة لها ، يقول الشهرستاني :
وكانت الفرق في زمان إبراهيم راجعة إلى صنفين اثنين :

- - الصابئة .
- - الحنفاء .

فإن كان هذا النص يفيد : أن الفرقتين متساويتان في النشأة التاريخية
فنرى أن هناك من النصوص التي ذكرها الشهرستان : ما تصرح بأسبقية
الفكر الصباي على الدين الحنفي ، وذلك حينما : رد فكرهم - بتصريحهم -
إلى « عاذيمون » و « هرمس » ورد الحنيفية إلى رأس الحنفاء « إبراهيم » (٢) .
والصابئة كذلك : أقدم من المجوسية ، التي تردت في نشاطها إلى
« زرادشت » (٣) الذي ظهر في ملك « بختنصر » الذي جاء بعد « الفيروز » بكثير
وهو الذي أرسل إليه نبي الله إبراهيم على بعض الروايات التاريخية .
من هنا كانت الصابئة من أقدم المذاهب فكرا .

(١) الملل والنحل ص ٦ ج ١ للشهرستاني المتوفى ٥٤٨ هـ تخريج د / محمد بن فتح الله
بدران ، الاتجلو ج ١ ، ٢ ، ٣ . وفتح الباري لابن حجر المتوفى سنة ١٨١ ج ١٠ عن أبي بكر
الرازي قال : وهم الذين بعث إليهم إبراهيم . والنيسابوري في تفسيره على هامش الطبري
المسمى غرائب القرآن ورغائب الفرقان ص ٢٠١ قال : الذين جاءهم إبراهيم .

(٢) الشهرستاني ص ١٠ ج ١ .

(٣) مروج الذهب للمسعودي ص ١٧١ ج ١ - دار الشعب المتوفى سنة ٣٤٦ .

يروى الطبرى : أنهم كانوا بجزيرة « الموصل » (١) ويؤكد هذا النقل المسعودى فيقول : وديارهم بين : بلاد واسط ، والبصرة من أرض العراق (٢) .
وينقل ابن حجر : كان أهل بابل قوما صابئين (٣) .

ويقول النيسابورى : وينسب هذا المذهب الى الكلدانيين (٤) . ويتوسع الشهرستاني فيجعلها تشمل : النبط — الفرس — الروم — الهند (٥) .
فهذا المذهب كان واسع الانتشار الجغرافى ، وأمه من الأمم الكبار .
وقد اختلف فيه اختلافا كثيرا بحسب ما وصل اليهم من معرفة هذا المذهب .
ويفيد نقل الشهرستاني : أنه شمل دولا من الشرق ، ودولا من الغرب .
والنقول السابقة — عدا توسع الشهرستاني — تفيد : أن هذا المذهب نشأ فى بلاد شرقية ، وكانت الدول التى تميزت وتفرقت بالسيادة فى الشرق هى دولة الفرس .

ودولة الفرس : هى التى حكمت تلك المناطق الجغرافية التى ذكرها الرواه والدولة الرومانية تارة أخرى .
فالفرس أخذت الملك من البابليين ، كذلك العراق كانت تحكم تحت حكم ملوك الفرس الأولى ، والثانية .

ويقول المسعودى : وان أنهار العراق احتفرت فى عهدهم آخذة من الفرات (٦) فيكون أول الصابئة ظهر فى إحدى ولايات دولة الفرس .

يتابع ويقول : ظهر فى ملك « ظهمورث » — من ملوك الفرس الأولى — رجل وفد من الهند ، يقال له : « بوداسف » أحدث مذاهب الصابئة (٧) .

(١) تفسير جامع البيان فى تفسير القرآن للطبرى المتوفى سنة ٣١٠ ص ٢٥٢ ج ١ ط الامرية .

(٢) مروج الذهب نفس الصفحة .
(٣) فتح البارى ص ١٨١ ج ١٠ .
(٤) تفسيره السابق ج ١ ص ٤٠٣ .
(٥) الملل والنحل ص ٢١٠ ج ١ .
(٦) مروج الذهب ص ١٦٥ ج ١ .
(٧) نفس المرجع ص ١٨٨ ج ١ .

ويقال أن هذا الرجل : أول من أظهر آراء الصابئة من الحرائيين والكيمايين .

وهذا النوع من الصابئة مباين للحرائيين في نحلتهم القديمة .

وقول المسعودي يفيد : أن نشأتها الأولى في حران ، وما ينسب لبوداسف هو أنه أظهر آراءهم القديمة ، ونرجح ظهور نشاطها بين ملوك فارس الأولى لميولهم الدينية ، فورد في وصايا أردشير لابن سابور :

يا بنى : ان الدين والملك : أخوان ، لا غنى لواحد منهما عن صاحبه ، فالدين أس الملك ، والملك حارسه ، وما لم يكن له أس : فمهدوم ، وما لم يكن له حارس : فضائع .

كذلك من ينظر في موضوعات عبادتها : يجد بينها وبين اهتمامات الدولة الفارسية شبيها كبيرا ، فالمسعودي تحدث عن أعمال ملوك فارس الأولى قائلا :
وتكلم هؤلاء القوم في مراتب الألوان : من الحمرة ، والسواد ، ومراتب الأنوار : وما وراء ذلك من أسرار الطبيعة .

ثم قال : وتخلغل القوم في هذه المعانى : الى ما علا من الأجسام السماوية من النيرين والأفلاك واختلافها في ألوانها والى غير ذلك من الأشخاص الصلوية .

هذا التسطيح الفكرى : قابل لأن يجعل منه « بوداسف » مظاهر العبادة ميتول : ان معالى الشرف الكامل ، والصلاح الشامل ، ومعنى الحياة في هذا السقف المرفوع ، وفي النجوم السيارة ، وفي أفلاكها : التسدير الأكبر (١) .

وفي المناظرة التي أوردها الشهرستاني في كتاب الملل والنحل : ما يفيد أن صاحبها الأول « هرمس » ، « وعازيمون » لكن بعد انتهاء المناظرة استبعد (٢) الشهرستاني : أن يكون « هرمس من الصابئة » .

(١) نفس المرجع ص ٦٩ ج ١ .

(٢) يقول : وكان في خاطر بعد : زوايا ، نريد نملئها ، وفي القلم خفايا : أكاد أخفيها ، تعدلت عنها : الى ذكر « حكم هرمس العظيم ، لا على أنه من جملة نرق الصابئة ، حاشاه ، على أن حكمته تدل على تقرير مذهب الحنفاء » ص ٤٦ ج ٢ .

وربما يقصد الشهرستاني من فنيه عن « هرمس » : أن يكون من الصابئة ، يقصد ذلك النوع الذي نص عليه المسعودي — وهو متقدم على الشهرستاني — : الذي ينسبه الى « بوداسف » الهندي الذي أظهر نوعا معيناً من « الصابئة » هذا النوع من الكيماريين .

ويبدو أن « بوداسف » الهندي أظهر نوعاً معيناً من الصابئة « هذا النوع من الصابئة مباين للحرانيين في نحلتهن » كما يروى المسعودي .

وفي نظرنا : يمكن أن ينصرف استبعاد الشهرستاني لـ « هرمس » أن يكون من الصابئة أي هذا النوع الذي أظهره « بوداسف » وهذا النوع الذي أظهره . هو الخاص بعبادة الكواكب .

ويؤكد احتمالنا ما رواه ابن النديم عن الكندي أنه قال : انه نظر في كتاب يقربه هؤلاء القوم : وهو مقالات « لهرمس » في التوحيد كتبها لابنه على غاية من التقانة في التوحيد ، لا يجد الفيلسوف اذا أتعب نفسه مندوحة عنها والقول بها (١) .

فهرمس يعتبر مؤسس مذهب التوحيد : في الصابئة و « بوداسف » أحدث الوثنية : في التوحيد .

وعلى ذلك يكون « هرمس » و « عاذيمون » أوجدا الصابئة الأولى : التي تدعو الى الروحانية ، و « بوداسف » أحدث مذاهب عبادة الكواكب وذلك ما تقرره مصادر الاسلاميين (٢) .

وسواء أكانت الصابئة الأولى — تعبير الشهرستاني — أم صابئة بوداسف تعبير المسعودي : فانهما معا نبت فكرهما في الشرق في بعض المناطق العربية في بلاد الرافدين .

يقول صاحب بلوغ الأرب (٣) : والصابئة قوم ابراهيم : كانوا بحران، فهي دار الصابئة الأولى وكانوا قسمين :

(١) الفهرست لابن النديم المتوفي ٣٨٥ هـ ص ٤٤٥ المكتب التجاري .

(٢) يقول ابن حجر في فتح الباري ج ١ ص ٣٧ رواية عن غيره : هم منسوبون الى

صابي بن متوشلخ عم نوح وهذا رأى ثالث يذهب بها بعيد الى نوح .

(٣) بلوغ الأرب في معرفة احوال العرب ص ٢٤ ج ٢ السيد محمود شكري اللوسى

البغدادى سنة ١٢٧ هـ بنشره محمد بهجة الاثرى ج ٢١ سنة ١٩٤٢ .

— صابئة حنفاء .

— صابئة مشركون(١) .

قال ابن حزم : وكان الذى ينتحله الصابئون أقدم الأديان على وجه الأرض والغالب على الدنيا ويقول : وهم المكذبون بنبوذة ابراهيم(٢) .

انتقالها الى جزيرة العرب :

ولما كانت صلة جزيرة العرب بالفرس قديمة ، من حيث متاخمة الحدود والعلاقات السياسية ، فانه لمن المنتظر : أن نرى انتقالا فكريا ، يتناسب مع طبيعة عقل البحوى ، وهذه العلاقات قديمة ، حتى قبيل : أن من ملوك الفرس الأولى من عرب الضحاك (اسمه : بيوراسب) ، وزعموا أنه من اليمن قال الشاعر العربى :

وكان منا الضحاك تعبده الـ جامل والوحش فى مساربها(٣)

ويذكر المسعودى : أن الناس تنازعوا فى ملوك الطوائف أمن الفرس كانوا ، أم من الغبط ؟ أم من العرب ؟

وكانت ملوك العرب من مضر بن نزار بن معد من اليمن .

وقد قيل أن أول من نزل من الملوك ببلخ وانتقل عن العراق « يكادوس » وقد كان سار نحو اليمن بعد أن كان له بالعراق — تمرد على الله — ببنيان بناه لحرب السماء .

وملك اليمن الذى سار اليه « كيكاووس » فى ذلك الوقت « شموين

فريقس » .

(١) يقول مبر بن الخطاب عندما سألته نعيم بن عبد الله : أين تريد يا عمر ؟ فقال : أريد محمدا : هذا الصابئ الذى نرقى أمر قريش .
قال جميل : يا معشر قريش قد صبا عمر ؟
رد عليه عمر : كذبت ولكنى أسلمت وشهدت أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله . يراجع بن هشام ص ٢١٦ .
(٢) الفصل لابن حزم ج ١ ص ١٠٢ .
(٣) الجامل : جماعة الجمال .

قال المسعودى :

« وقد كانت أسلاف الفرس تقصد البيت الحرام وتطوف به تعظيماً له » .

وكان آخر من حج منهم — الفرس الأولى — « ساسان » و « ساسان ابن بك » أهدى غزالتين من ذهب وجواهر قذفها في زمزم .

قال المسعودى : وقد ذهب قوم من مصنفى الكتب فى التواريخ وغيرها من السير أن ذلك كان لجرهم حين كانت بمكة (١) .

قال معلقاً : وجرهم لم تكن ذات مال فيضاف لها .

فمناخمة الجزيرة لتخوم الفرس ، وعلاقتها بها من الناحية الاقتصادية والسياسية ورحلات العرب التجارية : صيفا وشتاء ، تحدث عنها القرآن فقال :

لايلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف . . . السورة .

يفيد أنه كما تبولت السلع التجارية بين العرب وجيرانهم ، تبادلوا معهم افرازات العقول والآراء على قدر ما لهم من حظ العقل ونصيب من الفكر والرأى .

وهذا طريق طبيعى لروافد انتقال الآراء الفكرية لآى أمة من الأمم ، وأمة العرب ليست بدعا فى ذلك .

فاتصالات العرب التجارية بالعراق والشام زودت فى العرب خبرة النفل التجارى والفكرى . بيد أن الشهور الطوال التى كان يضربها بابله عبر الصحراء ظلت من اهتماماته الفكرية فكان حظه من النقل الثقافى يبدو متواضعا. بل وسانجا ، لا يتكافأ مع نقله التجارى . كذلك ميلهم الى الشعر يجعلهم يناون عن استبطن الأمور . ومع ذلك يمكن أن نقول : من عذا الاهتمام الضئيل بالمعرفة انتقلت ألوان شاحبة من الصائبة الى الجزيرة العربية .

(١) المسعودى : مروج الذهب ص ١٦٦ — ١ عن كتاب « المسكين » ترجمة : عبدالله بن المقفع من الفارسية الأولى ذكره المسعودى واخذ منه النص السابق وقال منه : الكتاب تعظمه الفرس لما قد تضمنه من خبر أسلافهم .

فلم يتفرغ دارس من العرب لدراستها انما نقل منها شوائب الم بها
العربي : من تاجر عامله معاملة الصائبة ، فاذا أعجبته نقلها ، وان عافها
نبذها من غير سؤال عنها في الحالين . ينقل الشهرستاني « ان لهم حدودا
وأحكاما » أي ان للصائبة شريعة عملية وذات كيان فكري وان صح ما قلناه
تكون انتقلت الى جزيرة العرب اسما من غير مضمون فكري لان استعمالها
في اللسان العربي جعلها بمعنى : مال أو خرج ، أو طلع ، وليست اسما لمذهب
فهو لفظ أطلقه العرب على خوارج الجاهلية ، أي الذين خرجوا عن دين
الجاهلية ، وعلى كل من استحدث دينا غير دينه . وهم الذين أطلق عليهم
صائبة الحنفاء . هذا الاطلاق في حد ذاته يرشح رأينا أنها انتقلت إليهم
من غير مضمون فكري .

أو يكون المذهب الصبأى انتقل بمضمونه الفكري منذ رحلة ابراهيم
واسماعيل . ونحن نعلم : أن ابراهيم واسماعيل استوطننا الجزيرة العربية .
هذا الفرض له من آيات القرآن ما يؤيده .

منها ما ورد في سورة ابراهيم : قال تعالى : « واذ قال ابراهيم رب
اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبني أن نعبد الأصنام . رب انهن أضللن
كثيرا من الناس فمن اتبعني فانه مني ومن عصاني فانك غفور رحيم .
ربنا انى أسكنت من ذريتي بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم : ربنا
ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات
لعلهم يشكرون » (١) .

ومنها ما ورد في سورة البقرة في قوله تعالى : واذ يرفع ابراهيم القواعد
من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا . . . الآية .
كذلك ذكر القرآن الكثير من مجادلات ابراهيم للصائبة .

وهناك جانب آخر ذكره أنتوني نتنج (٢) ، أنه خلال فترة قصيرة حكم
الكلدانيون الشام وبلاد شبه جزيرة العرب وجنوب تركيا خلفا للأشوريين .

(١) سورة ابراهيم ٤٩١ ٣٧ .

(٢) يراجع : العرب ص ٦ ترجمة : د . راشد البراوى ، الناشر الانطو المصرية .

ومع هذا تكون الصابئة دخلت الجزيرة العربية منذ نبى الله ابراهيم واسماعيل بمضمون فكرى غير أنها على هذا الفرض ، دخلت مقابلة للحنيفية وبناء على هذا جعل القرآن - والعرب قبله - كل من يقابل الحنيفية صابئا .

فمن يوم أن دخل مذهب الصابئة العقدى شبه الجزيرة العربية دخل مضطهدا تحذوه لعنات نبى الله ابراهيم أبى الأنبياء . وبهذا نستطيع أن نفسر عدم انتشاره فى الجزيرة العربية . كذلك نستطيع أن نفسر اضطهاد الذين اعتنقوه لأنهم كانوا فى عرف الجاهلية : خارجين عن دين الجماعة .

وعندما جاء الاسلام : أكد نبذ هذا المذهب ، ولما لم يكن له كتاب يحمل مكوناته الفكرية ، فقد ضاع ولم يبق منه سوى : مسائل وقضايا عرض لها القرآن .

بسبب كل ذلك تعرض المذهب الصابئ لوسائل الضياع المتعددة الكفيلة بمحوه : من عدم كتاب له ومن اضطهاد ومكافحة الى نبذ معتنقيه ، كل ذلك لازم المذهب الصابئ منذ دعوة نبى الله ابراهيم . والاسلام عندما عرض لها مناقشا كان ذلك منه لخطورة قضاياها الدينية وأهمها :

منعهم : أن يكون النبى وسيطا يبلغ عن الله لأنه بشر وأحلوا دحله فى الوساطة « النيرات » ثم عبدوها .

والاسلام اذ يعرض لها بالنقد الجدلى ، لا يستقى معلوماته من صحف ابراهيم ، فانها لم تكن موجودة لدى العرب ، ولا يستقيها من مصادر أصحابها ، لأنهم لم يكونوا على علم كامل بها ، انما ذكرها له الوحي من حديث قضاياها الفكرية التى قد يثيرها العقل الانسانى ، ويحجب له الجدل فيها . فما أثار القرآن من قضايا حولها كانت تهم الصابئة الأولى والصابئة الأخرى وذلك ما لم يتح للعربى الاضطلاع به أو الاطلاع عليه . ففكر القرآن عن الصابئة كان وحيا لكونه أوسع مما كان يعرفه العرب عنها بل وأوسع مما يعرفه الصابئ العربى وغيره عن مذهبهم ، وفى هذا ما يؤكد : أن فكر القرآن عن

الأدبان كان فكرا عالميا ، أى يهتم النوع الانسانى المفكر ، دون نظر منه الى مكونات العرب الفكرية خاصة .

وفي القرآن آيات تدل على أن عبادة الكواكب دخلت اليمن كما قصتها علينا سورة النمل :

قال تعالى : وتفقد الطير :

فتال مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ؟

لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتنى بسلطان مبين .

فمكث غير بعيد فقال : أحطت بما لم تحط به وجئتكم من سبأ بنبا يقين .

انى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم .

وجئتها وقومها : يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان

أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون .

ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون

وما تظنون ٠٠٠ آيات ٢٠ - ٢٥ .

وفي هذا يقول البلخى فى كتاب البدء والتاريخ : من قبائل الصابئة :

سبأ الحميرية أول من دان بها من العرب : يعبدون الشمس .

• وكنانة : تعبد القمر .

• وجرهم : المشتري .

• قريش : عبدوا الشعري « الشعري اليمانية » .

فقد ساد فى جنوب الجزيرة العربية ثلوث من الكواكب — وفى أرض

الرافدين منشأ الصابئة :

— اله نجمة الصباح :

• هو عشتار : لدى البابليين والأشوريين .

• وعشتارت : لدى الكنعانيين .

— اله القر : هو ود : عند المعينيين .

• والمقد : عند السبئيين .

• وعم : فى قنيسان .

• وسين : فى حضرموت .

— اله الشمس : اسمه في قتيبان ، وحضرموت : شمس • وشمش : في رصى
الرافدين •

فهذه الصلات تؤيد أن كثيرا من العناصر الدينية في الشعوب السامية
كان يتوقف بعضها على بعض (١) •

ولعل في تسميتهم : بعبد شمس ، وعبد اللات ، وعبد الشعرى ، ما يفيد
عبادتهم للكواكب •

أنبثت مظاهر الصابئية في الوثنية العربية فارتفعت من مظاهر مادية
في الأرض الى عبادة النيرات أو أفلاكها في السماء ، فالذهب الصبأى أثر كثيرا
في الوثنية العربية . ورضى العربى أن يأخذ منه ما يعدل به وثنيته • ففي
وثنيته الكثير من العناصر الصبئية مثل عبادة الأفلاك ، والحنيفية مثل
الكعبة ، والوثنية اليونانية مثل عبادة التماثيل ، فخلطوا بينها وبين وثنيتهم
وبينها وبين الحنيفية ، لذلك قلنا : أن ما لديهم من مذاهب الصابئية يعتبر
الوانا شاحبة •

وينقل الرواة — كما نقلوا من قبل أن عمرو بن لحي أول من نصب
الاصنام — ينقلون أيضا : أن أبا كبشة هو أول من أتى بعبادة النجوم
اليهم ويصبح مفاد الروايتين أن الوثنية العربية قد وفدت الى العرب من
بلاد خارج الجزيرة العربية •

معنى الصابئية :

رابنا فيما سبق من القول : أن الصابئية نشأت أول ما نشأت في العراق ،
سواء أكانت الصابئية الأولى التي أنشأها « هرمس » ، أو الصابئية الأخرى
التي نسبت الى « بوداسف » ، فان النشأة كانت في العراق وبعض من
بلاد فارس •

فهل يا ترى عندما نقلت الكلمة الى الجزيرة العربية نقلت من مصدرها
الى العربية كما هي ؟ أم ترجمها العرب عن أصلها الفارسي أو الارامى ؟

(١) الحضارة السامية القديمة .

تأليف سبتينو موسكاني

ترجمة : د . السيد يعقوب بدر •

لا نجد لدينا ما يرجح الاحتمال الثاني ، لأن الكلمة مجهول نسبها الى لغة معينة فيبقى الاحتمال الاول : وهو انها نقلت الى الجزيرة العربية : واصبحت من الكلمات المشتركة بين اللغتين واللسانين العربي أو غير العربي وذلك جائز .

وهناك احتمال ثالث : وهو أن الكلمة وضع عربي ، وأصبحت علما على مذهب غير عربي ، وهذا ما نراه قريبا : الى الصواب .

وفيما وصل اليه بحثنا عن أصل الكلمة هو اننا لم نجد لها أو حولها بيتا من الشعر :تناول معتنق هذا المذهب ، مدحا ، أو قححا — قوى النسبة لشاعر* أو منحول اليه — وهذا يجعلنا نميل الى أن هذا اللفظ : أطلقه القرآن اصطلاحا على مقابل الحنيفية وعلى من خالف وثنية الجاهية الأولى وليس من أهل الكتاب .

يقول الألوسى : اختلف في اللفظ .

— فقيل : غير عربي .

— وقيل : عربي (١) .

ثم يترك الألوسى نقله « غير عربي » على عمومه من غير تعقيب يبين فيه أصل هذه الكلمة : أفارسي أم هندی أو سرياني ، أعرض عن هذا ثم راح يبين اشتقاقها العربي (٢) فقال :

— صار معتلا : بمعنى مال/قال الشاعر :

— صار معتلا : بمعنى مال/قال الشاعر :

الى هند صبا قلبي وهند مثلها يصبي

— وصنأت النجوم : اذا طلعت .

يقول ابن منظور : عنوا : انه خرج من دين الى دين ، ونقل عن ابن

اسحاق الزجاج قوله في الصابئين : فمعناه : الخارجين عن دين الى دين .

(١) روح المعاني ج ١ ص ٢٣١ — المتوفي سنة ١٢٧٠ .

(٢) لسان العرب ابن منظور ج ١ ص ١٠٨ يقول ابن منظور يزعمون انهم على دين

نوح وهم كاذبون .

- وفي حديث بنى جذيمة : كانوا يقولون لما أسلموا : صباننا صباننا .
- وكانت العرب تسمى النبي الصابىء (١) *
في اللسان العبرى :
- نرى كذلك الكلمة في اللسان العبرى تفيد ما يفيدده الوضع العربى :
- ففى الأسفار :
- فصبأوا على مدين (٢) .
- هصبئتم على أريئيل : (٢) .
- أى الصابئون على بيت المقدس .
- وردت (أريا) (٤) بمعنى : سد ، وال فى العبرية بمعنى : الله ، يعنى :
- ان الصابئين على بيت المقدس أسد الله (٥) .
- وورد بمعنى : الحفد (٦) .
- بمعنى : الجهاد أو القتال والحرب (٧) .

(١) نفس المرجع ، كذلك يراجع كتاب تهذيب اصلاح المنطق شرح ابن الخيب التبريزى
لنص اصلاح المنطق لابن السكيت قال : صبا — صبا — خرج من دين الى دين .

* لم نجد فيما رجعنا اليه من مصادر اللغة العربية المختلفة بيتا واحدا من الشعر الجاهلى
يفيد مدح مذهب الصابئة ، أو ذمه ، وذلك — ربما — يرجع — فى نظرنا — الى
انه كان مضطهدا ، ولا يستبعد هذا الاحتمال ، لان العربى وان اشتهر بالصلابة والاحتمال ،
مان التاريخ لا يروى فى عصره الجاهلى : موقفا يشهد لعرب الجاهلية بحبهم للاستشهاد فى
سبيل عقيدتهم الدينية ، وانما تواتر اليها التاريخ ماثورا عندما هبوا لمانزلة أبرهة ، انصرفوا
عنه عندما عرفوا وجهته : انه يقصد البيت ، قائلين له على لسان سفيرهم المفاوض : أما
الابل فهى لى ، وأما البيت فله رب يحببه . فالعربى لا ياتيه لدينه ، وائر تاريخيا أنه
استشهد فى سبيل الحب : مجائين الهوى ، وبلغت شجاعتهم : انهم كانوا لا يتهيبون من
وعيد قومهم وانذارهم بالبطش .

(٢) سفر العدد ٣١ — ٧ .

(٣) أشعيا ٢٩ — ٧ .

(٤) أيوب — ١٨ — ١٠ .

(٥) ملئى اللغتين العربية ص ٦٢ ج ١ مراد نرج سنة ١٩٣١ .

(٦) الرجس المخرب كما جاء فى دانيال ١١ : ٣١ وتجعل الرجس المخرب .

(٧) سفر العدد ٣١ — ٣ .

— وأطلق على ما بالسموات من كواكب ونجوم (١) .

فالفعل في اللسان العبري يشمل : المعنى العربي وزيادة ، فيفيد معنى :
تقدموا ، وتجمعوا ، أعدوا أنفسهم للجهاد لله والعمل لما يقضى به
أمر الله (٢) .

« وصبا » الأعداء زحفوا وهجموا ، فيها ما يحتمل أنها أطلقت لغويا
وليس فيها ما يحتمل أنها أطلقت على نطة ، أو دين ، أو مذهب معين .
وتقول دائرة المعارف الإسلامية : أن اسم الصابئة مشتق من الأصل
العبري (ص . ب . ع) أى غطس . ثم أسقطت العين وهو يدل بلا ريب :
على المنديا ، أو الصبوء وهى فرقة يهودية نصرانية تمارس شعيرة التعميد
في العراق (نصارى يوحنا المعمدان) (٣) .

ويبدو أن اصطلاح صابئة : أطلق على جماعتين من اليهود :

الجماعة الاولى : هم اليهود الذين خرجوا على المسيح : فهؤلاء صابئة
مؤمنون .

الجماعة الثانية : هم اليهود الذين وافقوا . . أبو للونيوس « عندما
فتح اورشليم ١٦٧ ، وهو أحد قواد أنطونيوس ، هدم السور ، وبنى في
مدينة داوود قلعة جديدة ، وملأها بالجند ، وجاء في أعقابه هندوب يحمله
أمرا بتحريم الديانة اليهودية ووضع هيكل اغريقي : هو الرجس المخرب(٤)
فوق المذبح اليهودى بفضاء المعبد . ليحل الوثنية محل اليهودية ، أو كما يقول
المؤرخون(٥) ليوحد الديانة بالبلاد ، وافق كثير من اليهود على الدخول في تلك
العقيدة الوثنية — واليهودى لا يصنع تماثيل للأرباب — وانضموا للحزب

(١) سفر العدد ٤ — ١٩ — ٢٧ .

(٢) تكوين ٢ — ١ ثنية ٤ — ١٩ وأشعيا ٣٤ — ٤ .

(٣) دائرة المعارف الإسلامية ج ١٤ ص ٨٩ .

(٤) جاء في سفر دانيال ١١ : ٣١ وتجعل الرجس المخرب .

(٥) الحضارة الهلينستية : ثارن ص ٢٢٩ .

المشايخ للهليستنية ، المناصر لأنطيوخوس ، فهؤلاء صابئة وثنيون من اليهود . *

فالمعنى في الوضع اللغوي لكلمة صابيء لا ينبىء ، من قريب أو من بعيد ، عن معنى مقدس ، أرادته العربى منها :

فالصابيء عند العربى — مع العبرى — كلمة وصفية تعطى معنى « زنديق » فى العهد العباسى أو فى عصرنا .

فالعرف الجاهلى استعملها وأطلقها : على كل من خرج عن دين الجماعة أو القبيلة ، وعبر بها عن سخطه عندما أراد أن يسخط على كل من جانب دينه الرسمى أو مألوف وثنيته .

وعلى ذلك يكون معناها عند العربى واسعا : يتسع لمن استحدث ديناً غير دين قومه ، ووسعت أيضا كل من خرج من دينه الى غير دين . يقول الطبرى : والصابئون : جمع صابيء ، وهو : المستحدث بمسوى دينه دينا ، كالمرتد من الاسلام عن دينه ، وكل خارج من دين كان عليه الى آخر غيره تسميه العرب : صابئا .

ثم قال : اختلف أهل التأويل فيمن يلزمه هذا الاسم من أهل الملل :

— فقال بعضهم : يلزم ذلك : كل من خرج من دين الى دين .

— وقالوا : الذين عنى الله بهذا الاسم : قوم لا دين لهم (١) .

وهذا يذهب اليه الشهرستاني : عندما عدها نحلة ولم يجعلها ديناً (٢) *

* بروى ابن حجر فى فتح البارى ج ١ ص ٣١٠ رواية عن أبى العالىة تقول : الصابئون فرق من أهل الكتاب : يقرعون الزبور ، هذا يؤيد ما ذهبنا اليه أن فى اليهود صابئة .

* وتقول دائرة المعارف الاسلامية ج ٨٩ ص ٨٦ : ومن الواضح أن الصابئة الذين ذكرهم القرآن وجعلهم فى ثلاثة مواضع : هم من اليهود والنصارى : يعدون من المنديا ، تلاحظ أن النص يحتوى على خطاين .

الخطا الاول : أن القرآن ذكر الصابئة والنصارى من أهل الكتاب فى ثلاثة مواضع ومعها اليهود والنصارى .

الخطا الثانى : قوله أن اليهود والنصارى يعدون من المنديا . فان القرآن لا يستنتج منه هذه النتيجة وأن ما فى القرآن يفيد : أنه مذهب يفاير لما عليه اليهود والنصارى لان القرآن ذكر الصابئة معهما كما فى سورة البقرة أو بينهما كما فى سورتى الحج والمائدة .

(١) تفسيره ص ٢٥٢ ج (جامع البيان فى تفسير القرآن المتوفى ٣١٠ .

(٢) روح المعانى للالوسى ص ٢٣١ ج ١ .

* يذكر صاحب فتح البارى : رواية عن ابن مردويه باسناد حسن عن ابن عباس قال : الصابئون ليس لهم كتاب .

فعندما يستعملها العربى فانه يستعملها بمعناها اللغوى : الخروج أو الميل ، أو طلع • قال المشركون للرسول : قد صبأ •

لذلك لم يؤمن بعض العرب : برسول الله لأنهم وضعوا فى اعتبارهم : أن الرسول وأصحابه من الصابئة ، أى الخارجين على دين الجماعة • فلم يستعمله العربى بمعنى : مذهب معين ، أو نحلة معينة ، لجماعة معينة أو يكون قد استعمله لكننا لم نر لذلك نصا انما اطلاقه كان على الخارج مطلقا •

أما الاسلام : فأطلقها على صنف ذى عقيدة ، أخطأت تنزيه الله ، فوسطت الكواكب بينها وبينه ، اذ الكواكب فى عرفهم : تحتوى على النور الالهى •

وبعضهم عبد الملائكة لخاصتها الروحانية ، وكان ذلك اجتهادا منهم أو توجيها من بعض حكمائهم •

يقول أبو حنيفة : انهم ليسوا بعبدة أوثان ، وانما يعظمون النجوم كما تعظم الكعبة (١) •

وقيل : هم قوم موحدون يعتقدون تأثير النجوم ويقرون ببعض الأنبياء كىحيى (٢) •

لعل هذا النص ظاهر الوضع والانتحال لأنهم يقولون بالوسائط الروحانية ولا يقولون : بوسيط بشرى مثل وساطة الأنبياء وهذا من أهم عقائدهم التى صادتهم فيها القرآن ، ويمكن حمله على صنف معين : صابئة المنديا أى الذين اتبعوا يوحنا المعمدان وخرجوا على تعاليم اليهود وهذا ما ذهبت اليه دوائر المعارف الأجنبية واختارته لكن المصادر الاسلامية عدتها فرقة من فرقهم • أما نص أبى حنيفة فان القرآن يؤيده لأنه عدنا وسطا بين اليهود والنصارى • ويورد الطبرى : نصا عن ابن وهب يؤكد ما ورد عن أبى حنيفة فيقول :

(١) نفس المرجع •

(٢) تفسيره ص ٢٥٢ ج ١ •

- الصابئون ليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبي الا قول : لا اله الا الله (١) .
 فهم قوم يعظمون الكواكب بناء على تفسيرين :
- الاول : أن خالق العالم : الله الا أنه أمر بتعظيم هذه الأجرام .
 — الثاني : أنه خلق الأفلاك والكواكب وفوض التدبير اليها فيجب على
 البشر تعظيمها لأنها هي المدبرة لهذا العالم .
 يتول الأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرزاق (٢) :

« ومذهب الصابئة — على ما يحيط بتاريخه من غموض — يكاد يتم
 الاتفاق على أنه يقر بالالوهية ويرى أننا نحتاج في معرفة الله ومعرفة أوامره
 وأحكامه الى متوسط يكون روحانيا لا جسمانيا ففزعوا الى هياكل الارواح
 وهي الكواكب فهم عبدة الكواكب » .

بعد ما سبق نقول : ان الكلمة في الاستعمال العربى الجاهلى أطلقت
 على من خرج من دينه سواء الى دين او الى غير دين . يقول ابو حيان
 المفسر : الصابئون : قيل هم الخارجون من دين مشهور الى غيره .

وفي الاستعمال الاسلامى تطلق على جماعة بعينها معتنقة مذهباً معيناً
 غير الحنيفية . لأن القرآن عندما يذكر الصابئة يذكرها مقترنة بدعوةها الى
 الاسلام أما الحنيفية فان الاسلام يصف بها نفسه .

وتبقى كلمة ذكرها المستشرق الألماني يوليوس فلهوزن يقول فيها :

« واذا كانت أقدم تسمية أطلقها على المسلمين من لم يدخل في زمريتهم
 هي تسميتهم بالصابئين فلا يمكن أن يكون لها سبب غير ذلك » (٣) .

يعلق الدكتور أبو ريده على هذا الهامش فيقول :

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ص ٣٠١ ج ١ للنيسابورى .
 (٢) تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية الأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرزاق ص ١٠٢ .
 (٣) تاريخ الدولة العربية . نقله من الألمانية وعلق عليه دكتورا محمد عبد الهادى
 أبو ريده ص ٣ راجعه د . حسين مؤنس — الالف كتاب ١٣٦ .

ربما يكون قصد المؤلف ما لوحظ من شبه بين بعض عبادات الصابئة وبعض العبادات الاسلامية (١) .

نقول : ربما هذا ما قصده المؤلف ، أى أن الشبه بين المسلمين والصابئين هو الذى سوغ للمشركين أن يطلقوا على المسلمين صابئة بينما لو لاحظ — المؤلف — الآيات الثلاث التى تناولت الصابئين لم تعفهم من الدعوة الى الايمان والعمل الصالح وفى الاخرى تناولتهم بالانذار الشديد من الله فلم يهادنهم الرسول ، ولم يصطنع معهم دون غيرهم لينا فى القول ، انما كان موقفه يتسم بالوضوح والحسم مع سائر الأديان ولم يؤثر أن ادعى عليه أنه افتراه من الصابئة أو ادعت عليه الصابئة هذه الفرية .

أما من جهة اطلاق المشركين على المسلمين : صابئة ، فان هذا كما بينا كان من باب وصفهم بأنهم خرجوا على دين الجماعة الرسمى ومألوف عقائدها . يقول الألوسى : وأهل دين هؤلاء فيما زعموا أنهم يأخذون محاسن ديانات العالم ومذاهبهم ويخرجون من قبائح ما هم عليه : قولا وعملا : فقد خرجوا عن تقييدهم بجملة كل دين وتفصيله الا ما رأوه فيه من الحق (٢) .

قال ابن كثير : وأظهر الأقوال : قول مجاهد ومتابعيه ووهب بن منبه : أنهم قوم ليسوا على دين اليهود ولا النصارى ولا المجوس ولا المشركين انما هم قوم باقون على فطرتهم ولا دين مقرر لهم يتبعونه ويتفهمونه . ولهذا كان المشركون ينبذون من اسلم : بالصابيء ، أى : أنه قد خرج من سائر الأديان ، أديان أهل الأرض اذ ذاك (٣) .

(١) سألت امرأة عربية : صحابين من صحابة رسول الله : الى أين ؟ قال : الى رسول الله ، قالت : الذى يقال له الصبالي ؟ ، قال : هو الذى تعنين . ثم لما رجعت الى قومها قالت : العجب ، لقينى رجلان : فذهبا بى الى هذا الذى يقال له الصابيء : الى آخر الحديث . يقول ابن حجر فى فتح البارى ج ١ ص ٢١٠ هناك فرق بين الصابيء : المراد فى هذا الحديث ، والصابيء المنسوب للطائفة المذكورة .

(٢) بلوغ الارب ص ٢٥٢ ج ٢ : الألوسى .

(٣) تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٠٣ (٥)

أقسام الأصابئة(*)

أولا - الصابئة الأولى أو صابئة الحنفاء :

أصل فكر الصابئة الأولى من وجهة نظرنا : القول باحتياجها في معرفة الله ، ومعرفة طاعته وأوامره وأحكامه : الى متوسط . والتي يقال عنها : انها تنسب الي « هرمس » و « أنماثاذيمون » على ما تذهب اليه مصادر الاسلاميين .

(*) ولعل احسن من توسع في هذا البحث وبين الفرق الصابئية مستندا الى العقل والنقل هو بن الامام أبو الحسن علي بن محمد المكي بأبي علي بن سالم التغلبي الفقيه الاصول الملقب سيف الدين الامدى المتوفي عام ٦٣١ هـ . فقد ذكر في كتاب خطى له يدعى (كتاب ابيكار الانكار) حقق بعضه د . أحمد المهدي . ان أشهر فرق هذه الة أربع وهي :

الفرقة الأولى

أصحاب الروحانيات : وقد يقال ذلك بالرفع أخذاً من الروح وهو جوهرٌ ، وقد يقال بالنصب وهو حالة خاصة به . وقد زعم هؤلاء أن أصل وجود العالم يتقدس عن سمات الحدث وهو أجل وأعلى من أن يتوصل الى جلاله بالعبودية له والخضعة من السلفيات وذوات الانفس المنفصلة في عالم الرذائل والشهوات وانما يتقرب اليه بالمتوسطات بينه وبين السلفيات وهي أمور روحانية مقدسة عن المواد الجرمانية (نسبة الى الجرم) والقوى الجسمانية والحركات المكانية والتغيرات الزمانية في جوار رب العالمين . مجبولون على تقديسه وتمجيده وتعظيمه دائما وسرمدا . قالوا . وهم آلهتنا وأربابنا ورسائلنا الى حاجتنا وبهم يتقرب الى الله تعالى . وهي المدبرة للكواكب الفلكية والمدبرة لها على التناسب المخصوص حيث يتبعها انفعالات في العناصر السفلية . وحركات بعضها الى بعض وانفعال بعضها عن بعض عند الاختلاط والامتزاج المفضى الى التركيب الموجب لتنوع المركبات الى انواع المعادن والنباتات والحيوانات وتصريف موجودات الاعيان من حال الى حال ومن شأن الى شأن الى غير ذلك من الآثار العلوية والسفلية .

وزعموا أن الكواكب الفلكية هي هياكل هذه الروحانيات وأن نسبة الروحانيات اليها في التقدير لها والتدوير ، نسبة الانفس الانسانية الى أبدانها وأن لكل روحاني هيكلا يخصه ولكل هيكلا فلكا يكون فيه . وزعموا أن المعرف لهم (غارميون وهرمس) اللذان هما أصل علم الهيئة وصناعة النجامة . وهرمس هو أول من قسم البروج ووضع أسماءها وأسماء الكواكب السيارة ورتبها في بيوتها وبين الشرف والوبال والأوج والحضيض والمنظر والتثليث والتسدیس والتربيع والمقابلة والمقارنة والرجوع والاستقامة والليل والتعديل . واستقل باستخراج أكثر الكواكب وأحوالها . وقيل أن غارميون هو شيت وهرمس هو ادريس (ع) .

الفرقة الثانية

أصحاب الهياكل : فانهم قالوا اذا كان لا بد للانسان من متوسط فلا بد من أن يكون ذلك المتوسط كما نشاهده ونراه حتى نتقرب اليه . والروحانيات ليست كذلك فلا بد من متوسط بينها وبين الانسان ، وأقرب ما اليها هياكلها فهي الالهة والأرباب المعبودة والله تعالى

رب الارباب واليه التوسل والتقرب . فان التقرب اليها ، تقرب الى الروحانيات التي هي كالارواح بالنسبة اليها . ولا جرم أنهم دعوا الى عبادة الكواكب السبعة السيارة ثم اخذوا في تعريفها وتعريف احوالها بالنسبة الى طبائعها وبيوتها ومنازلها ومطالعها ومغاريها واتصالاتها ونسبتها الى الاماكن والازمان والليالي والساعات وما دونها الى غير ذلك . ثم تقربوا الى كل هيكل وسألوه بما يناسبه من الدعوات فيما يناسبه من الاماكن والازمان واللباس الخاص به والتختم بالخاتم المطبوع على صورته . والهيكل عندهم احياء ناطقة بحياة الروحانيات التي هي ارواحها ومتصرفه فيها . ومنهم جعل هيكل الشمس رب الهيكل والارباب . وهذه الهيكل هي المدبرة لكل ما في عالم الكون والفساد على ما سلف في تعريف مذهب الفریق الاول . وربما احتجوا على وجود هذه المدبرات وانها احياء ناطقة بان حدوث اذ الكلام فيه اما ان يكون مستندا الى حادث او قديم ولا جائز ان يكون مستندا الى حادث اذ الكلام فيه كالكلام في الاول والتسلسل والدور محالان فلم يبق الا ان يكون مستندا الى ما هو في نفسه قديم وذلك القديم اما ان يكون موجبا بذاته او بالاختيار . فان كان الاول ، فلما ان يكون كل ما لا بد منه في ايجاد الحوادث متحققا معه ، او انه متوقف على تجدد . فان كان الاول فيلزم قدم المعلوم والقدم علقه وشرطه مجاح . وان كان الثاني ، فالكلام في تحديد ذلك الامر . كالكلام في الاول وهو تسلسل . فلم يبق الا ان يكون فاعلا مختارا وليس في عالم الكون والفساد فاعل قديم مختار الا الاملاك والكواكب ولذلك حكموا بكونها احياء ناطقة .

الفرقة الثالثة

اصحاب الاشخاص : وهؤلاء زعموا انه اذا كان لا بد من متوسط مرئى فالكواكب وان كانت مرئية ، الا انها قد ترى في وقت دون وقت لظلوها وانولها وظهورها وصفاتها نهارا فدعت الحاجة الى وجود اشخاص مشاهدة نصب اعيننا تكون لنا وسيلة الى الهيكل التي هي وسيلة الى الروحانيات التي هي وسيلة الى الله تعالى . فاتخذوا لذلك اصناما وصورة على صور الهيكل السبعة . كل صنم من جسم مشارك في طبيعته لطبيعة ذلك الكوكب ودعوه وسألوه بما يناسب ذلك الكوكب في الوقت والمكان واللبس والتختم بما يناسبه والتحيز المناسب له فلى حسب ما يفعله ارباب الهيكل الا انها هي المعبودة على الحقيقة . وهذا هو الاشبه بسبب اتخاذ الاصنام . ويحتمل ان يكون اتخاذ الاصنام بالنسبة الى غير هذه الفرقة وتعمليها لاتخاذها قبلة لعبادتهم او لانها على صورة بعض من كان يعتقد فيه النبوة والولاية تعظيما له . او لان قدام ارباب الهيكل والاصنام وعلماءهم ، ركبوا فراغ طلاسهم ووضعوها فيها وامروهم بتعمليها لتبقى محفوظة بها . والا فاعتقاد الالهية فيما اتخذوه صورا من الاخشاب والاحجار وكونه خالقا لمن صوره ومبدعا لها وجوده قبل وجوده من العالم العلوى والسفلى ، مما لا يستجيزه عقل عاقل . بل البداهة شاهدة برده وابطله وان وقع ذلك معتقدا لبعض الرقاع (كذا) ومن لا خلاق له من العوام منهم ، فلا يلتفت اليه ولا معول عليه .

الفرقة الرابعة

الهلوية . (وقد سماها ابن بطوطة وغيره من ثقات المؤرخين بالحرانية وهو الاصح عندنا) وهؤلاء زعموا ان الاله المعبود واحد في ذاته وانه ابدع اجرام الاملاك وما فيها من الكواكب وجعل الكواكب مدبرة لما في العالم السفلى فالكواكب آباء احياء ناطقة والعناصر

والحنفاء : هم الذين اتبعوا ملة ابراهيم . وعندما يرتبط الاصطلاحان ببعضهما يصبح المعنى الاصطلاحى مغايرا لكل من الاصطلاحين على حدة وينفرد بمعنى جديد وسوف نتتبع معاله : فالصائبة كانوا يرون فى الوسيط : وجوب روحانيته ، وذلك لزكاء الروحانيات وطهارتها ، وقربها ، من رب الأرباب . وروحانية الوسيط — يرون فيها — أنها تتنافى مع الجسمانى ، فجسمانية الوسيط تجعله بشرا مثلنا ، يحتاج مثل ما نحتاج اليه : من أكل وشرب ، ويمثلنا ، فى المادة ، والصورة ، عبر ، عن هذا المعنى الفكرى التران فقال عنهم حاكيا :

« ولئن أطعتم بشرا مثلكم انكم اذا لخاسرون » .

فهم يرون : أن بشرية الوسيط تتنافى مع وساطته وعدم الجمع بينها وبين النبوة ، فبشريته تحجبه عن الاتصال بالله ، يبنون ذلك على أصل فكرى لديهم يقول : أن أصل وجود العالم يتقدس أن يتوسط بينه وبين عالم الأرض بشر من الأرض أو النفس الانسانية لتغلبها فى عالم الرذائل والشهوات وانما يقترب اليه وسيط من القوى الروحانية المفارقة للمادية قالوا عنها : هى آلهتنا وأربابنا ورسائلنا الى حاجتنا وبهم يقترب الى الله وهى المدبرة للكواكب .

ثم قالوا — من وجهة نظرهم — : أن الكواكب الفلكية هى هياكل هذه الروحانيات وأن نسبة الروحانيات اليها فى التدبير لها نسبة الأنفس

امهات وما تؤديه الآباء الى الامهات ، تقبلها بأرحامها فتحمل من ذلك المواليد وهى المركبات والاله تعالى يظهر فى الكواكب السبعة ويتشخص بأشخاصها من غير تعدد فى ذاته وقد يظهر أيضا فى الأشخاص الارضية الخيرة الفاضلة وهى ما كان من المواليد وقد يتركب من صفات العناصر دون كدرها واختص بالمزاج القابل لظهور الرب تعالى فيه ، اما بذاته واما بصفة من صفات ذاته على قدر استعداد مزاج ذلك الشخص . وزعموا أن الله يتعالى عن خلق الشرور والقبائح والاشياء الخسيسة الدنيئة كالحشرات الارضية ونحوها بل هى واقعة ضرورة اتصالات الكواكب سعادة ونحوسة واجتماعات العناصر صفوة وكدورة . وزعموا أيضا أنه على رأس ستة وثلاثين ألف سنة وأربعمائة وخمس وعشرين سنة يحدث روحانى على رأس الدور الآخر وكذا الى ما يتناهى ، وأن الثواب والعقاب على أعمال الخير والشر كل دور واتع لئن فى الدور الذى بعده فى هذه الدار لا فى غيرها . من كتاب السيد عبد الرازق الحسينى : الصابئة قديما وحديثا .

أعطانا نسخه منه زميلنا الدكتور مصلح بيومى

الانسانية الى ابدانها ، وأن لكل روحاني هيكل يخصه ولكل هيكل فلكا
يكون فيه (١) :

— فهم يؤمنون بالله •

— يؤمنون بالوسيط من العالم العلوي مثل : النيرات لشفافية نورها
وروحانيتها ، فهم يقصدونها دون العبادة •

— ينكرون : أن النبوة تجامع البشرية •

وهؤلاء هم الذين قال فيهم أبو حنيفة : أنهم ليسوا بعبدة أوثان إنما
يعظمون النجوم كما تعظم الكعبة • وقول أبي حنيفة : يلقي مزيدا من الفهم
للوسيط حيث يجعل تعظيمهم للنجوم ليس تعظيم عبادة إنما تعظيم تقديس
كما تعظم الكعبة •

لكن ابن كثير قال : اختار الرازي أن الصابئين قوم يعبدون الكواكب
بمعنى أن الله جعلها قبلة للعبادة والدعاء ، أو بمعنى أن الله فوض لها تدبير
أمر هذا العالم •

ثم قال : وهذا القول هو المنسوب الى الحرانيين الذين جاءهم ابراهيم
ردا عليهم ومبطلا لقولهم •

قال ابن كثير : قال القرطبي والذي تحصل من مذهبهم فيما ذكر بعض
العلماء : أنهم موحدون ويعتقدون تأثير النجوم وأنها فاعلة • يبدو أن
ما اختاره الرازي وما حصله القرطبي متعلق بنوع معين هم الكلدانيين (٢) •
وما قاله أبو حنيفة يصدق على اتباع « هرمس » •

ويرجع تقديسهم الكواكب لما يقررونه عن « روحانية الوسيط » فلما

(١) يراجع الصابئة : قديما وحديثا ص ١٧ السيد عبد الرازق الحسنى تقديم أحمد
زكى باشا ط ١ ١٩٢٥ المطبعة الرحمانية — مصر •

(٢) يطلق على أنصار العادات التنجيمية اسم عام وهو الكلدانيون ويشمل المذهب
الكلداني مجموعة من المعارف المختلطة نوعا ما •

وأولها وأهمها كشف الغيب بواسطة النجوم وخاصة التنبؤ على أسس تاريخ الميلاد
للكلدانيون مجرد قراء طوالع واطلق عليهم هذا الاسم بحكم وظيقتهم لا بحكم أصلهم •
(م ١٠ — الفكر الديني)

وجدوا في النيرات ونورها شفافية الروحانيات : قدسوها — كما نقس الكعبة
أو كما نقس الرسل تقديسا دون العبادة (١) .

يقول الألوسى : انهم قوم موحدون يعتقدون تأثير النجوم .

فهؤلاء هم الصابئة الأولى أو صابئة الحنفاء قال فيهم الألوسى : صابئة
الحنفاء شاركوا أهل الاسلام في الحنيفية .

منهم هلال بن محسن الصابىء صاحب الديوان الانشائى والرسائل .

وأبو اسحاق الصابىء كان صابئًا وعرض عليه عز الدولة أن يسلم فامتنع
وقيل بذل له ألف دينار على أن يأكل الفول فلم يفعل . والصابئون يحرمون
الفول والحمام .

يقول الدكتور زكى مبارك : ولكن حرصه على دينه لم يحل بينه وبين
التحلى بأكرم الخصال في رعاية الاسلام . فقد كان يصوم رمضان مساعدة
وموافقة للمسلمين وحسن عشرة منه لهم ويحفظ القرآن حفظا يدور على طرف
لسانه وسن قلمه .

حتى لما مات بكاه الشريف الرضى في قصيدة واستكثر الناس عليه
في دينه وجاهه ، أن يبكى رجلا صابئًا : بمثل هذا الشعر الحزين ولكنه
أجاب بأنه انما بكاه لفضله (٢) .

نأخذ على الدكتور زكى مبارك قوله : مساعدة وموافقة للمسلمين وحسن
عشرة منه لهم . قد يكون هذا التعليل راجعا الى حفظه للقرآن وقد يكون

(١) قال أبو حبان في تفسيره البحر المحيط ج ١ ص ٥٣٦ .

وقيل : قوم يعبدون الكواكب ثم لهم قولان :

أحدهما : إنه خالق العالم وهو الله الا أنه أمر تعظيم الكواكب واتخاذها قبلة للصلاة
والتعظيم والدعاء . والثانى : أنه تعالى خالق الاملاك والكواكب ثم ان الكواكب هي المدبرة لما في
هذا العالم من الخير والشر والصحة والمرض : فيجب على البشر : تعظيمها لأنها هي الالهة
المدبرة لهذا العالم ثم انها تعبد الله وهذا المذهب هو المنسوب للذين جاءهم ابراهيم عليه
السلام رادا عليهم : البحر المحيط : أثر الدين عبدالله محمد ابن على بن يوسف بن حبان
الاندلسى الفرناطى الجيائى الشهير بابى حبان المولود في ٦٥٤ المتوفى بالقاهرة ٧٥٤ .
(٢) الفخر العنى في القرن الرابع الهجرى ج ٢ ص ٢٩٠ دكتور زكى مبارك

حفظ القرآن راجعا الى حرصه على الأدب لا على الدين الاسلامى أما صومه رمضان فهذا يرجع الى شريعة الصابئة الحنيفية .

وأما تحليه بأكرم الخصال فهم قوم يخرجون على رذائل الخصال ودفاء الطبع الى كريم السجايا وظهارة الطوايا : راجع قول الأوسى السابق في تسميتهم صابئين ، فاسحاق الصابىء كان صابئا مخلصا فما ظنه الدكتور زكى مبارك فيه وحمله على محمل حسن عشرة منه للاسلام والمسلمين هو في واقع الأمر شريعة صابئية كما قدمنا وأما بكاء الشريف عليه انما هو كما قال بكاه لفضله .

ونرجع فنقول : أما تسميتهم صابئة حنفاء فمرد ذلك في نظرنا الى أنهم وافقوا الحنيفية من حيث العقيدة : في التوحيد ومن حيث الشريعة : في بعض مبادئها ، لذلك صح تسميتهم بحنفاء .

وفارقوا الحنيفية في انكارهم أن يكون الوسيط — النبى — بشريا .

وقولهم : بوسائط الكواكب لروحانيتها ونورانيتها .

فيقول الأوسى : ولهذا لم تكن الصابئة من الأمم المستقلة التى لها كتاب ونبى ، وان كانوا من أهل دعوة الرسل فما من أمة الا وقد أقام حججه وقطع عنه حجتها لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وتكون حجته عليهم (١) .

فلكونهم من قوم ابراهيم وأخذوا ببعض دينه وأعرضوا عن جانب منه أطلق عليهم « صابئة حنفاء » أى فيها جانب من الفكر الصبائى ، وجانب من الدين الحنيفى .

فالصابئة الاولى : كان منهم الصابئة الحنفاء ، بيد أننا بعد التعرض لشرح تسميتهم نضيف بعض تمايز رأينا تمايزا مهما هو :

أن الصابئة الاولى : هى التى نشأت بعيدة عن الجزيرة العربية .

ويذكر عن بعض الباحثين :

« ان الصابئة الذين ورد ذكرهم في القرآن سكنوا بلاد العرب ومصر

(١) بلوغ الارب ص ٢٢٥ ج ٢ .

قبل الاسلام ، وقبل النصرانية ، واليهودية ، وقد انقضوا وعفت أخبارهم
شأنهم من المتعذر علينا بيان معتقدتهم بالتفصيل « (١) » .

وصابئة الحنفاء يكونون هم الذين خرجوا من الحنفية العربية الى تعاليم
الصابئة التي وفدت الى الجزيرة العربية واعتنقتها « سبأ الحميرية » من هنا
أصبحت صابئة الحنفاء مذهباً عربياً له مكوناته الفكرية من أهمها انكار
بشرية الرسول مع بقائهم على روحانياتهم وبقايا من دين ابراهيم . كذلك
ينيد واقع تسميتهم أنهم جوزوا بفكرهم العقلي : الجمع بين دينهم ، ومذهبهم
« سماوية » . أى الأخذ ببعض مبادئ الوحي — مذهبهم الحنيفي — مع بعض
« باديهم الوضعية » — فحلتهم البشرية يذكر البيروني أنه كانت لهم أصنام
وحياكل كما يذكر حكاية أن الكعبة وأصنامها كانت لهم (٢) .

ثانياً — صابئة بوداسف : أو صابئة مشركون :

التراث الهندي :

ظهر « بوداسف » بأرض الهند ، وكان هندياً ، وتنبأ وزعم أنه رسول
الله وأنه واسطة بين الله وخلقه .

ويفيدنا التراث الهندي : أن دعوة « ابراهما » من الدعوات الدينية
(الوضعية) التي ليس لله فيها وجود ، واعتبرها الباحثون الاجتماعيون
نموجاً قويا على أن الأديان ليس جميعها تدعو الى الله .

يصدر معتقد هذه الطائفة عن فكرة تقول : « ان أول من هبط من العالم
الأسفل الى العالم السفلي (عقل سماوي) اكتسى بكسوة بشرية لكي يتناسل
في الأرض ويسعى في عمارها واسمه (برهما) (٣) » .

فالهنود — حسب دينهم — يعتقدون أن الله جسم ، وأن الملائكة أجسام ،
ويرون : أن عليهم تقديس علمائهم ، وحكمائهم ، ورفع صورهم في معابدهم

(١) الصابئة : تديماً وحديثاً : السيد عبد الرزاق الحسيني تقديم أحمد زكي بالله —
ط ١ المطبعة الرحمانية بمصر ١٩٢٥ .

(٢) الآثار الباقية من ٢٠٤ للبيروني المتوفى سنة ٤٤٠ هـ .

(٣) مفتاح الابواب من ١٠ هـ / ميرزا محمد مهدي خان رئيس الحكماء ط ١٢١ .

تقديسا لهم دون عبادتهم فهؤلاء — حسب دينهم — مجسمة ومشبهة .
قال المسعودي : وظلوا على هذا حتى نبههم بعض حكمائهم على أن
الانفلاك والكواكب أقرب الأجسام المرئية له ، وأنها حية ناطقة ، وأن كل
ما يجرى في هذا العالم : فانما هو على قدر ما تجرى به الكواكب من أمر الله .
فعضموها وقربوا لها القرابين (١) .

ومن هنا يظهر لنا أن دعوة « بوداسف » الهندي أخذت منابعا من
التراث الهندي ، الحافل بألوان من الوثنية والشرك والزندقة ، واتخذ
(بوداسف) روافد لدعوته عبر السند ، وسجستان ، الى أن بلغ فارس وذلك
في أوائل ملك « ظهمورث » .

يقول المسعودي : وهو — بوداسف — أول من أظهر مذاهب الصائبة .
وجدد « بوداسف » عند الناس عبادة الأصنام والسجود لها ، لشبهه
ذكرها ، وقرب لعقولهم عبادتها بضروب من الحيل والخدع .
فصائبة « بوداسف » : صائبة مشركون ، جانبوا الصائبة الأولى :
في توحيدها ، وانزال الوسيط معبودا غاية ، وليس وسيلة وزلفى ، وفارتوا
الحنيفية : في وحيها السماوي ، واتبعوا وثنية « بوداسف » الهندية ،
ويرى المؤرخون أنها أصناف :

- صائبة النبط والفرس والروم : مفزعا السيارات
- صائبة الهند : مفزعا الثوابت
- صائبة فزعت الى الأشخاص التي لا تسمع ولا تبصر ولا تغنى عنهم
- شيئا
- صائبة الحرائية
- صائبة الفلاسفة
- صائبة البطائح

هؤلاء الاصناف من الصائبة يمكن ردهم الى مسمى واحد أطلقه القرآن
ويدخلون تحته هو : « الذين أشركوا » .

(١) مروج الذهب ص ٤١٤ ج ١ .

وذلك عندما صيروا مفهوم الوسيط في الصائبة الأولى — وكان عندهم له صفة التقديس والوسيلة — الى غاية ومعبود ، كذلك حولوا مفهوم الوسيط الروحاني : الى أشكال مختلفة من الصور المادية ، فأدى هذا التحول الى دراسة الفلك وتكوين علم له ، فالذين فزعوا الى الهياكل ، التي هي السيارات السبع ، درسوا : بيوتها ومنازلها ، ومطالعها ، ومغاربها ، واتصالاتها على أشكال الموافقة والمخالفة ، مرتبة على طبائعها ، وتقسيم الأيام والليالي والساعات عليها ، ثم تقدير الصور والأشخاص والأقاليم ، والأمصاير عليها واستطاعوا من خلال رصدهم لها : أن يعينوا اليوم «زحل» أو غيره مثلا ليوم السبت ، وراعوا فيه ساعته الأولى ، وتختموا بخاتمه ، والمعمول على صورته ، وهيئته ، وصفته ، ولبسوا اللباس الخاص به ، وتبخروا ببخوره الخاص ، ودعوا بدعواته الخاصة به ، وسألوا حاجاتهم منه ، وترتب على هذا الاتجاه الديني نحو الكواكب : أن تسرب الى الدين نوع من الوثنية وأخلاق من الشرك هذا من جانب ، ومن جانب آخر ، نتجت دراسة طيبة تكون منها علم الفلك ، ثم النهاية : خلطوا الطلسمات المذكورة في كتب السحر ، والكهانة ، والتنجيم ، والتعزيم ، والخواتيم ، خلطوها كلها بعلم الفلك .

يقول ابن حجر معللا :

وكانت علومهم أحكام النجوم ، مع ذلك فكان السحرة منهم : يستعملون سائر وجوه السحر ، وينسبونونها الى فعل الكواكب ، لئلا يبحث عنها وينكشف تمويههم (١) .

وهؤلاء هم صائبة الفرس ، والنبط ، والروم ، والهند .

صائبة الأشخاص :

أما الصائبة الذين فزعوا الى الأشخاص ، فقالوا : اذا كان لابد من متوسط يتوسل به اذا كان من الروحانيات ، فاننا لا نستطيع رؤيته ، ولا مخاطبته ، واذا أخذنا هياكلها وسائط ، فان الهياكل قد ترى في وقت ، ولا ترى في آخر ، لأن لها أفولا وظلوعا .

(١) فتح الباري ص ١٨١ ج ١٠ .

لذلك كان لا بد لنا من صور أشخاص موجودة قائمة منصوبة نصب
اعيننا نعكف عليها فاتخذوا : أصناما (أشخاصا) على مثال الهياكل السبعة
صوروها بصورتها وراعوا في ذلك : الزمان ، والوقت والساعة والدرجة
الحقيقة ، فان أرادوا حاجة : تبخروا بالبخور ، وتجنبوا الساعة وراحوا
يسألونه حاجاتهم .

فأصحاب الهياكل : هم عبدة الكواكب اذ قالوا بالهيتها .

وأصحاب الأشخاص : هم عبدة الأوثان وهذا النوع من الصابئة : انتقل
الى الجزيرة العربية على يد عمرو بن لحي ، وسوف نعرض له .

وصابئة الحرنانية(١) قالوا : « ان الصانع المعبود واحد وكثير ، .

أما واحد : ففي الذات ، والاول ، والأصل ، والأزل .

وأما كثير : فلانه يتكرر بالأشخاص في رأى العين وهى المدبرات السبعة .

والأشخاص الأرضية ونماذجها : الخير ، والعلم ، والفضيلة ، فانه يظهر

بها ويتشخص بأشخاصها ولا تبطل وحدته في ذاته (٢) .

وواضح أن صابئة الحرنانية : أخلاط : من فلسفة اليونان ، وفلسفة

هندية ، ففيها : مثل أفلاطون ، وفيها : تجسيد « برهما » الديانة الهندية .

وهؤلاء هم من قال فيهم دييور :

وقد أخذوا عن حسن نية بحكم وبأراء موضوعة ترجع للعصر الاغريقي

المتأخر وربما يكون بعض هذه الحكم قد وضع بين ظهرانيهم (٣) .

ويذهب ابن الفديم الى أن الصابئة ليست مذهباً للحرنانيين انما هى

منحولة لهم :

(١) مدينة حران ظلت مركزاً دائماً للثقافة اليونانية وكانت الى جانب هذا نقلاً مهمة
للتبادل والاتصال وكان جيرانهم من النصارى ينظرون شزراً الى الحرنانيين وكانوا يسمون
مدينتهم (هليبوليس) مدينة اليونانيين احتقاراً لهم وتهكماً عليها وكانت الدراسات : رياضية
سحرية فلسفية طبية وعند الصابئة كانت للملك المكانة الاولى وكانت حران مشهورة بوثانيتها
في منطقة مسيحية ، ووثانيتها : مزيج من الديانة البابلية ومن الوثنية الافريقية والانلاطونية
المحدثة .

(٢) الملل والنحل ص ٥٣ ج ٢ الشهر ستانى تحقيق د / محمد بن فتح الله بدران .

(٣) تاريخ الفلسفة في الاسلام ص ٢٥ نقله د / محمد عبد الهادى أبو ريدة .

فيقول :

قال أبو يوسف أيشع القطيعي النصراني في كتابه في الكشف عن مذاهب
الحرثانيين المعروفين في عصرنا بالصابئة : أن المأمون اجتاز في آخر أيامه
بديار مصر ، يريد بلاد الروم للغزو ، فتلقاء الناس يدعون له ، وفيهم جماعة
من الحرثانيين ، وكان زيهم اذ ذاك لبس الأقبية ، وشعورهم طويلة بوفرات(١)
كوفرة قررة جد سنان بن ثابت ، فأنكر المأمون زيهم ، وقال لهم : من انتم
من الذمة ؟

فقالوا : نحن الحرثانيون .

فقال : أنصاري أنتم ؟

قالوا : لا .

قال : أمجوس أنتم ؟

قالوا : لا .

قال لهم : أفلكم كتاب أو نبي ؟

فمجمجوا في القول .

فقال لهم : فأنتم اذا الزنادقة ، عبدة الأوثان ، وأصحاب الرأس في أيام

الرشيد والدي ؟ وأنتم حلال دماؤكم لا ذمة لكم ؟

فقالوا : نحن نوّدي الجزية . فقال لهم : انما تؤخذ الجزية لمن خالف

الاسلام من أهل الأديان ، الذين ذكرهم الله في كتابه ، ولهم كتاب ، وصالحهم

المسلمون عن ذلك .

فأنتم لستو من هؤلاء ولا من هؤلاء فاختراروا الان أحد أمرين :

أما أن تنتحلوا دين الاسلام ، أو ديناً من الأديان التي ذكرها الله في

كتابه .

والا قتلناكم عن آخركم ؟ فاني قد أنظرتكم الى ان أرجع من سفرتي

هذه فان أنتم دخلتم في الاسلام ، أو في دين من هذه الأديان التي ذكرها

(١) قال أبو حبان في البحر المحيط ج ١ ص ٢٣٩ : قال قتادة والكلبي هم بين اليهود
والنصارى يطلقون أوساط رؤوسهم ويحبون مذاكيرهم ثم قال انه رأى غريب قرأه وذكرته
ولم يتحقق لدي .

الله في كتابه ، والا أمرت بقتلكم واستئصال شأفتكم ، ورحل المأمون يريد بلد الروم فغيروا زيهم وحلقوا شعورهم وتركوا لبس الأقبية وقد قصر كثير منهم شعورهم ولبسوا زنانير ، وأسلم منهم طائفة وبقى منهم شذمة بحالهم ، وجعلوا يحتالون ويضطربون حتى انتدب لهم شيخ من أهل حرابة فقيه ، فقال لهم : قد وجدت لكم شيئا تنجون به وتسلمون من القتل فحملوا اليه مالا عظيما من بيت ما لهم أحدثوه منذ أيام الرشيد الى هذه الغاية وأعدوه للنواذب .

فقال لهم : اذا رجع المأمون من سفره فقولوا له : نحن الصائبون فهذا اسم دين قد ذكره الله جل اسمه في القرآن فانتطوه فأنتم تنجون به ، واتفق أن المأمون توفي في سفرته تلك عام ١٢٨ هـ .

انتحلوا هذا الاسم منذ ذلك الوقت ، لأنه لم يكن بحران ونواحيها قوم يسمون بالصابئة ، فلما اتصل بهم وفاة المأمون : ارتد كثير ممن كان تنصر منهم ورجع الى الحرمانية ، وطولوا شعورهم ، حسب ما كانوا عليه قبل مرور المأمون بهم على أنهم صابئون ، ومنعهم المسلمون من لبس الأقبية ومن أسلم منهم لم يمكنه الارتداد خوفا من أن يقتل فأقاموا متسترين بالاسلام فكانوا يتزوجون بنساء حرانيات ويجعلون الولد الذكر مسلما والانثى حرمانية وهذه كانت سبيل كل أهل « ترعوز » « سلمسين » القريتين المشهورتين العظيمتين بالقرب من حران الى منذ نحو عشرين سنة هـ . .

فان الشيخين المعروفين : بأبى زرارة ، وأبى عروبة علماء أهل حران : بالفقه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وسائر مشايخ أهل حران وفقهائهم : احتسبوا عليهم ومنعوهم من أن يتزوجوا بنساء حرانيات أعنى مسابئات وقالوا : لا يحل للمسلمين نكاحهم لأنهم لسن من أهل الكتاب .
وبحران أيضا منازل كثيرة الى هذه الغاية بعض أهلها حرمانية ممن كان أقام على دينه في أيام المأمون وبعضهم مسلمون وبعضهم نصارى ممن كان يدخل في الاسلام وتنصر في ذلك الوقت مثل : قوم يقال لهم : بنو ايلوط ، وبنو قبطران وغيرهم مشهورون بحران (١) .

(١) النهريست لابن النديم ص ٤٤٥ ، ٤٤٦ .

فما ذكره ابن النديم المتوفى ٣٧٨ هـ يفيد من ظاهر نصه أن نحلة الصابئة انتحلت لهم في عصر المأمون وهو قابل للطعن وغير قابل للرفض .

أما قابليته للطعن : فان ما ذكره الشهرستاني عند الحرانانيين « بأنهم جماعة من الصابئة (١) هذه العبارة : تتيح مجالاً للطعن فيما قاله ابن النديم فضلاً عن كتب التاريخ الفكرى التى تجعل حران مركزاً مهماً للتبادل الثقافى فى تلك المنطقة ، وتجعل أهلها وثنيين يعبدون الكواكب مما دفعهم الى ملاحظة السماء والتعمق فى الدراسات الفلكية ، هذه الدراسات لها عند الصابئة مكانتها الأولى العلمية والتقديسية ، ومما يضاف الى الطعون السابقة قول الألوسى : وهؤلاء أى الصابئة كانوا قوم ابراهيم وهم أهل دعوته وكانوا بحران (٢) .

ونرى أنفسنا أمام روايات متعددة تسند لحران مذهب الصابئة حيناً وتجعلها مركزها القديم سوى نص ابن النديم الذى يقرر : أن الصابئة منحولة للحرانانيين .

لذلك قلنا أن النص قابل للطعن وتيار الطعن قوى .
 فالشهرستاني : يجعل الحرانانيين جماعة من الصابئة .
 والألوسى : يقول أن الحرانانيين أصل الصابئة .
 المسعودى : ينسب الى بوداسف أول من أظهر آراء الصابئة من الحرانانيين والكيمايين وهذا النوع من الصابئة مباين للحرانيين فى نحلتهم .
 هذه أقوال يمكن أن تتيح مجالاً للطعن فى رواية دون أخرى .

فاذا اعتبرنا قول ابن النديم منصرفاً الى هذه الجماعة بذاتها فانا نصدم بتعقيب داخل النص نفسه يقول : « وانتحلوا هذا الاسم منذ ذلك الوقت لأنه لم يكن بحران ونواحيها قوم يسمون بالصابئة » فنص ابن النديم هو رواية عن كتاب ذكره على أنه حكاية فى أمرهم من غير استقصاء تاريخى وعلى

(١) الملل والنحل ص ٥٨ ج ٢ .

(٢) بلوغ الأرب ص ٢٢٤ ج ٢ يذكر أحمد أمين رواية ابن النديم ويأخذ بها يقول : وهم الذين تسموا بعد ذلك — فى مصر المأمون وبعده بالصابئين وكان منهم كثيرون من المؤلفين ومن تولوا الترجمة : فجر الإسلام ص ١٢٠ ج ١١١ .

ذلك فقد نقبلها ونصرفها الى هذه الجماعة بذاتها وأنها غير الصابئة ، ونرفض ما فيها من تعليقات ، ولا سيما أن ابن النديم نقلها من غير تعليق وأسندها الى غيره ، وبذلك تتعاون النصوص على اثبات الصابئة للحرثانيين .
وسواء قوى نص ابن النديم أو ضعف أمام نسبة الصابئة الى حران فان هناك شيئا جوهريا ينبغي التعقيب عليه وهو أن الصابئة المذكورة في القرآن ليست هي صابئة حران (١) .

ثالثا : صابئة الهند :

صابئة الهند مفزعها الثوابت من حيث انهم ربطوا عبادتهم بزحل وزحل من شأنه البقاء والثبوت وهم الذين قالوا : بالتناسخ والحلول .
١ - التناسخ : يعنى لديهم أن تتكرر الأدوار والأكوار الى ما لا نهاية به له ويحدث في كل دور مثل ما حدث في الأول .
والثواب والعقاب في هذه الدار لا في دار أخرى لا عمل فيها .
٢ - الحلول : يعنى لديهم الشخص ربما يكون ذلك بحلول ذاته وربما يكون بحلول جزء من ذاته على قدر استعداد مزاج الشخص .
والهياكل تحل فيه فينطلق بلسانها ويبصر بعينها ويسمع باذانها ويقبض ويبسط بها. (٢) . وفي هذا يقول مجاهد : هم قوم لا دين لهم ليسوا بيهود ولا نصارى .

(١) يقول السيد عبد الرزاق الحسيني في كتابه : الصابئة قديما وحديثا ص ٢١ . من المتعذر جدا أن يتونق الباحث الى معرفة ما بين هذه الفرق من الرابطة . فقد ذكر القرآن قسما من الصابئة وسرها المسرون بعد أن نسبوا لها أصولا وتقاليد تختلف كثيرا عن الصابئة الحرائية ، كما ان هذين التسمين من الصابئة يختلفان كثيرا عن صابئة البطائح المبتوثين الآن في مدن العراق النهرية .

والحق أن كل فرقة من هذه الفرق تختلف في أصول معتقداتها عن الأخرى اختلافا واسعا فقد سكن الصابئة الذين ورد ذكرهم في القرآن بلاد العرب ومصر قبل الاسلام وقبل النصرانية واليهودية وقد انقروا وعفت أخبارهم فأصبح من المتعذر علينا بيان معتقدتهم بالتفصيل .

(٢) الملل والنحل ص ٥٠١ ج ٢ تحقيق د / محمد بن فتح الله بدران .

رابعاً : صابئة الفلاسفة :

وهم الذين بدعوا عبادة الكواكب وأبراجها ، وصفهم المسعودى بقوله :
« ألا أنهم من حشوية الفلاسفة » ويقول : انما أضفناهم الى الفلاسفة
اضافة سبب لا اضافة حكمة .

يقول الالوسى : والفلاسفة يأخذون بزعمهم بمحاسن ما دلت عليه العقول
وعقلاؤهم يوجبون اتباع الأنبياء وشرائعهم ، وبعضهم لا يوجب ذلك ولا
يحرمه ، وسفهاؤهم وسفلتهم يمنعون ذلك (١) .

ويبدو أن فلاسفتهم اتصلوا باليونان وكان بينهم وبين اليونانيين
محاورات مما سوغ اطلاق فلاسفة على حكمائهم ، وآية ما ينسبه ابن النديم
للكندى أن له «رسالة في ماجرى بين سقراط والحرانيين» بذا لا يجانبنا الصواب
ان اعتبرنا لهم ففلاسفة بمعناها اليونانى على خلاف ما يرى المسعودى .

يقول الالوسى :

فهؤلاء الصابئة كفروا بالأصلين اللذين جاءت بهما جميع الرسل والأنبياء
من أولهم الى آخرهم .

أحدهما : عبادة الله وحده لا شريك له ، والكفر بما يعبد من دونه من اله .
والثانى : الايمان برسله وما جاءوا به من عند الله تصديقا واطراراً
وانقيادا وامتنالاً .

وليس هذا مختصاً بمشركى الصابئة كما غلط فيه كثير من أرباب المقالات
بل هذا مذهب المشركين من سائر الأمم ، لكن شرك الصابئة كان من جهة
الكواكب والعلويات (٢) .

(١) نفس المرجع ص ٢٢٦ ج ٢ .

* لابن تيمية بعض الاطلاقات خاصة بالصابئة غير دقيقة مثل قوله : وهكذا تكون
مناظرة الصابئة الفلاسفة والمشركين ونحوهم وقوله : الصابئة الفليسوف ، وقوله : وهى الغالب
على الصابئة المبدين مثل أرسطو واتباعه .

ثم يقول : وعريت طائفة من كتب الاعاجم من الجوس والفرس والصائين الروم ،
والمشركين العند براجع الفتاوى ج ١ ص ٦٥ ، ٧٧ ، ١٢٠ ، ٢٩٧ و ج ٤ ص ١١٣ ، ١١٥

والمعتمد عند علماء الاسلام أنهم ليسوا أهل كتاب ولا نبي أى هؤلاء
 الفلاسفة الصابئة .

خامسا صابئة أهل الكتاب :

(أ) صابئة اليهود :

وهم نوعان :

النوع الأول : هم الذين اتبعوا المسيح من اليهود فهم فى عرف اليهود
 صابئة .

النوع الثانى : وهم الذين وافقوا أبر للوثيوس عندما أعلن الوثنية
 فى معبدهم ووضع تمثالا لهيكل اغريقى .

(ب) صابئة : مسيحيون :

وهم الذين اتبعوا القديس يوحنا المعمدان فى شعيرة التعميد (وهؤلاء
 هم المنديون) ولا يزال قوم منهم يسكنون الى الآن الأغوار المحاذية لمصب
 الفرات (١) .

لهذه الأصناف الكتابية يمكن أن تحمل عليها ما نذكره من آثار :

قال ابن أبى نجيح قوم تركب دينهم بين اليهودية والمجوسية لا تؤكل
 ذبائحهم .

— قال ابن عباس هم قوم من اليهود والنصارى لا تحل مناكحتهم ولا
 تؤكل ذبائحهم .

— وقال أبو العالية : قوم من أهل الكتاب ذبائحهم كذبائح أهل الكتاب
 يقرءون الزبور ويخالفونهم فى بقية أفعالهم .

— وقال الخليلي هم أشباه النصارى قبلتهم مهب الجنوب ويقرءون الزبور
 ويعبدون الملائكة (٢) .

(١) تاريخ سورية ص ١٨ ج ٢ .

(٢) تفسير البحر المحيط لأبى حبان ج ١ ص ٢٢٦ .

سادسا : صائبة البطائح :

« يعيش بين ظهرانينا في العراق قسم من الناس لهم تقاليدهم ، وعاداتهم ولغتهم • ويكادون أن يكونوا ممتازين بكل مظاهر حياتهم وحتى بأشكالهم وسحنة وجوههم ، ويطلق عليهم اسم (الصابئة) وقد يكون هؤلاء هم الصابئة الأصليون وقد لا يكونون • الا أن الشيء المحقق هو أن قسما كبيرا من عبادة الصابئة القديمة وطقوس دينهم ، بارزة بين معتقدات وطقوس هؤلاء القوم • فعبادة النجوم واستقبال نجم القطب وتأليه الكواكب وغير ذلك من أصول الدين الصابئي مما يتدين به هذا المجموع الممتاز •

وقد يتعرف الباحث من اللغة التي يتكلم بها هؤلاء ومن اسباليهم شعور لحاهم ورؤوسهم ، أنهم شعب غريب نزع الى هذه البلاد واستوطنها واحتفظ بما له من تقاليد وعادات والتزم بالسكنى على ضفاف الأنهر وبقرب المياه الجارية نظرا لما يقيمه من الطقوس التي لا تتم الا بالارتماس في الماء الجارى لذا عرف هذا القسم من الناس بصابئة البطائح نسبة الى بطائح العراق المشهورة •

اما هذا الشعب قد انحدر من الصابئة الحرائية أو أنه من بقية الصابئة الأقدمين ، فأمر مشكوك فيه وموكول الى فحص التاريخ الدقيق •

ونظن أن احسن رواية — وقد تكون أقربها الى الحقيقة — هي التي أثبتتها الهنرى يونيون في كتابه الفرنسى الموسوم بـ (الرقم المنذائبة) المطبوع في عام ١٨٩٨ فقد جاء في ص ٢٢٤ منه تحت عنوان (الفرقة الدستائية) وهي المنذائية التي اشتهر بها الصابئة الحاليون ما مضمونه : ان صاحبها (أى صاحب هذه الفرقة) كان متسولا وقد جاء من بلاد ما بين الزابين الى ميسان (أى جنوب العراق) للتسول وكان مسيحيا اسمه (دبدا) واسم أمه (أم كسطا) ثم توطن ضفاف نهر قارون وأسس ديانة جديدة وعقائد مأخوذة معظمها من المرقيونيين والمناويين والكنثيين وغيرها من الفرق الصائبة ، ثم توسعت هذه الطائفة على ممر السنين وسموا بالصابئة المغتسلة لأن جميع طقوسهم الدينية لا تتم الا بالاغتسال في الماء الجارى ا ه •

والذي يؤسفنا كثيرا ويجعل تاريخ الصابئة مفصولا وغير مرتبط
الحلقات ، خلو هذا التلخيص من الزمن الذي يعين قدوم (حبدا) الى جنوبي
العراق (ميسان) الامر الذي يوقفنا على تاريخ منشأ صابئة البطائح
والصلة بينهم وبين الصابئة الحرائية . ومع ذلك فهو لا يخلو من فائدة
تاريخية تكشف لنا عن تاريخ غامض من تاريخ الصابئة (١) .

حول نسبة مذهب الصابئة

هرمس وعازيمون :

نسب الشهرستاني مذهب الصابئة الأولى الى هرمس قائلا :
قالت الحنفاء : بم عرفتم — معاشر الصابئة وجود هذه الروحانيات ؟
والحس ما دلکم عليه ، والليل ما أرشدکم اليه ؟
وقالوا ، أي الصابئة : عرفنا وجودها وتعرفنا أحوالها من : «عازيمون»
و «هرمس» و «ثبيت» و «ادرس» عليهما السلام .

هذا النص يعطى الباحث ارتياحا نفسيا لما يفيد ويكشفه عن واضح
هذا المذهب ، ولكن عندما يأتي الباحث على آخر المحاور التي عقدها
الشهرستاني بين الحنفاء والصابئة يرى نصا يقول فيه الشهرستاني : وكان
في خاطر بعض زوايا : نريد نمليها ، وفي القلم خفايا أكاد أخفيها فعدلت
عنها الى ذكر «حكم هرمس العظيم» لا على أنه من جملة فرق الصابئة ،
حاشاه ، بل على أن حكمه مما يدل على تقرير مذهب الحنفاء في اثبات الكمال
في الأشخاص البشرية وايجاب القول باتباع النواميس الالهية على خلاف
مذاهب الصابئة .

يفيد النص استبعاد «هرمس» أن يكون واضعا لمذهب الصابئة وحاشاه
كما يقول : الشهرستاني ، فوقع في النفس سؤالان :

من هو هرمس العظيم ؟

ومن يكون اذا واضع مذهب الصابئة اذا لم يكن واضعه ؟

(١) يراجع الصابئة تنديها وحديثا ص ٢٥ ، ٢٦ .

فانتقلنا معه في كتابه لنعرف من هو هرمس العظيم ونتعرف على سر عظمته فالفيثاغ يقول : عندما أراد أن يحقق شخصية « هرمس » وشخصية « عازيمون » : يقال : أن عازيمون ، وهرمس ، هما : شيث ، وادريس عليهما السلام .

وأسند الشهرستاني لعازيمون وضع المبادئ الأولى وهي خمسة (١) :
البارى — والعقل — النفس — المكان — والخلاء . وبعدها وجود المركبات ولم ينقل هذا عن « هرمس » .

ثم أسند أيضا لهرمس طائفة من الحكم وهو — في نظر الشهرستاني — الذي وضع أسامي البروج والكواكب السيارة ورتبها في بيوتها وأثبت لها : الشرف ، والوبال ، والأوج ، والحضيض ، والمنظر : بالتثليث والتسديس ، والتربيع ، والمقابلة ، والمقارنة ، والمراجع ، والاستقامة ، ويبين : تعديل الكواكب وتقويمها . وأما الأحكام المنسوبة الى هذه الاتصالات فغير مبرهن عليها عند الجميع .

وللهند والعرب طريقة أخرى في الأحكام أخذوها من خواص الكواكب لا من طبائعها ورتبوها على الثوابت لا على السيارات .

فهرمس عند الشهرستاني غير واضح في تاريخه وفي نسبه وفي موطنه وكل ما يعرفه به قول جاء على صيغة المجهول لا يلتمس من ورائه شيء سوى دفع الى مزيد من البحث يقول فيه : يقال هو ادريس النبي عليه السلام . فالعبارة فيها احتياطها العلمي للمتشكك في أمره أو الذي يحاول على وجه من التاريخ اثباته .

وأورد الشهرستاني نصا يفيد : أنه عايش الصابئة وحمل معهم مسئولية فكرهم وهو قوله : « انظروا — معاشر الصابئة — كيف عظم الرسالة حتى قرن طلعة الرسول — الذي عبر عنه بالناموس — بمعرفة الله تعالى » .

على أي حال فإن الشهرستاني لم يحقق شخصية هرمس لا لنفسه ولا للتاريخ وإن كان أسبغ عليه لقب العظيم ربما كان ذلك منه لكي يخفي قلقه

(١) يقول ابن تيمية : مذهب اليونانيين يقول أن القدماء خمسة : الرب . النفس — المادة الدهر — الفضاء . الفتاوى ج ١ ص ٦٥ تفصيل الخمسة فيه خلاف بين ابن تيمية والشهرستاني .

من عدم معرفته وأن ما ذكره عنه من حكم : يبدو عليها التكلف ، وطابع
التأليف الشهرستاني .

وأما قوله : يقال هو ادريس النجبي .

فإن المقارنات الحقيقية بين نصوص الشهرستاني فقط لتستبعد هذا
القول وربما هذا ما جعل الشهرستاني يقف عند قوله « يقال » مرتين دون
تعقيب مريح أو غير مريح ، وناخذ على الشهرستاني عبارات تجعل هرمس
في فترة تاريخية بعد الحنفاء منها : « أن حكمه تدل على تقرير مذهب
الحنفاء » . فلو كان هرمس معاشيا للحنفاء لكانت حكمه مؤسسة لمذهبهم
أو واضحة له فوصف حكمه بأنها مقربة لمذهب الحنفاء فيها ما يفيد بأنه
وجد في فترة تالية لهم .

وعبارة هو ادريس ، تفيد : أنه مقدم على نوح أو هو جده ، والحنفاء
يرجع نسبتها إلى ابراهيم .

وصاحب كتاب فقر الحكماء ونوادير القدماء والعلماء (١) : اختار مجموعة
من الفلاسفة ، وذكر عنهم بعضا من حكمهم ، ونواديرهم ، ذكر من بينهم :
« هرمس الفيلسوف » فذكر حكمه ونواديره ، دون ذكر شيء عنه ، وعند
مطالعتنا تلك الحكم تبينا منها : أنها هي الأخرى مجموعة تأليفات أخذت
من حكم « لقمان » في القرآن ، يقول الدكتور : عبد الرحمن بدوي : ويلوح
أن المؤلف كان أديبا في غالب أمره ولم يكن من المشغولين بالفلسفة أو علوم
الأوائل إلا على سجل الثقافة العامة . وتقبل ذلك قال : على أن نقد المصنف
لا يستطيع أيضا أن يعتمد على النقد الباطن لمضمون الكتاب وإنما تنهجم
المشاكل حين يتعرض الباحث لما فيه :

وأولها مشكلة الأسماء التي نسب إليها حكما نادرة فبعضها لا نعرف

(١) هذا الكتاب نشر للدكتور عبد الرحمن بدوي ضمن رسائل فلسفية للكندي والفرابي
وابن باجة وابن عدي من منشورات الجامعة الليبية - بنغازي ج ١ ١٩٧٣ ص ٢٧٧ .
يراجع الشهرستاني لان النديم ص ٥٦ ذكر فيها كتبه ومدتها ثلاثة عشر كتابا أو رسالة
في صفحة ٩٧ ذكر أسما الفلاسفة الذين تكلموا في الصنعة .

بالدقة من هم ؟ وهذا ينطبق على : زيمون الشاعر — أرطيوبوس — زيموس •
 وعند مراجعتنا ابن النديم وجدناه يقول : قد اختلف في أمره •

فقيل : أنه كان أحد السبعة السدنة الذين رتبوا لحفظ البيوت السبعة •

وقيل : أنه كان إليه بيت عطارذ وباسمه يسمى ، فان عطارذ باللغة
 الكلدانية (هرمس) •

وقيل : أنه انتقل الى ارض مصر لأسباب وانه ملكها وكان له اولاد
 عدة منهم : طاطا وصا ، وأشمن ، وأثريب ، وقفت ، وانه كان حكيم زمانه
 ولما توفي : دفن في البناء الذي يعرف بمدينة مصر بأبي هرمس ، ويغرفه
 العجامة بالهرميت ، فان أحدهما : قبره ، والاخر قبر زوجته ، وقيل : قبر
 ابنه ، الذي خلفه بعد موته • وذكر لهرمس كتباً منها : كتب في النجوم ،
 والفرنجيات ، والروحانيات ، وكتاب قيلادس ، تلميذ هرمس ، في رأى
 هرمس • وعده ابن النديم من بين أسماء الفلاسفة الذين تكلموا في الصنعة
 فقال : وهم : هرمس وأغانيمون •

والآراء : والأقوال ، التي ذكرها ابن النديم : نراها لا تذكر ما رواه
 الشهرستاني بأنه : قيل ادريس ، فاذا أضفنا ما قاله الشهرستاني وهو ، لم
 يذكره ابن النديم فانه يعتبر قولاً رابعاً لانه لا يلتقى مع ما ذكره ابن النديم
 وينبغي أن يذكر : أن ابن النديم ذكر أقوالاً هي في مجموعها لها علاقة
 باسم « هرمس » ، ومن جانب آخر أن ابن النديم يجزم أنه اسم لشخص
 وذكر مؤلفاته وأبناءه ، فالمؤلفات العربية ترى في هرمس انساناً له دوره
 التاريخي •

ونحن في سبيل التحقيق رجعنا الى معجم اللغة الفارسية واستعرضنا

المادة فوجدناها تطلق على الاتي : هرماس : شيطان • أهريمن •

هرمز : اسم كوكب المشتري • اليوم الأول من كل شهر شمسي •

واسم يوم الخميس ورب النوع لدى الزردشتيين •

وتلفظ : أرمزد • أورمز • أهرامزدا •

هرمس • هومزة : عطارذ : رب النوع الة المصريين (١) •

فقواميس اللغة الفارسية لم تذكر آته: أطلق على شخص ما انما، كل ما ذكرته أنه أسما لاله أو لكواكب أى يحمل معنى من معانى المقصسات •

ويذكر اميل برييه عن كرنوس

في كتابه : نسا يقول فيه :

آز هرمس . « هو اللغوس الذى أرسلته الالهة من السماء نحونا » ثم يقول : كلمة هرمس تزجع الى أن اللغوس، هو، وسيلة، دفاعنا، وأنه كقلغة لنا • ثم يقول : وهرمس هو ريميس النعم •

واللغوس : غند فيلون : هو رسول الالهة :

وهرمس : قائد الأرواح •

وهرمس ولد عن زوس •

فاتخذ زوس ومايا (ابنه أطفلس ومه عطارذ) هذا الاتحاد

كان منه هرمس •

فهرمس كانسان غير واضح تاريخيا ونسبا وموطنا وزمنا ، والمصادر التى تكلمت عنه يناقض بعضها فضلا عن ضعف روايتها الكائن فيها •

ويقرتب على ذلك ضرورة ظهور السؤال الثانى وهو أن ينتسب مذهب الصابئة؟ نغلى فرض عدم تبينتها. (لهرمس ، وهذا ما ذكره الشهرستانى ضمنا، فى مخاورة الخنفاء للصابئة عندما نفاها. عنه . مع أنه نفسه لا يعرف من هو « هرمس » حين تكلم عنه فى كتابه الذى حصصه لثل تلك البحوث التاريخية الدينية وهو الملل والنحل : وصنعتة فيه تحقيق التاريخ الدينى وسوف يظل السؤال : أن تنتسب الصابئة؟

أما ابن النديم وهو الذى توسع فيه توسعا يغلب عليه الاحاطة فاننا نراه

(١) يراجع المعجم المعجم الذهبى فارسى - عربى الدكتور محمد التونجى فرهنك طلائى

ص ٦٠٢، دار العلم للملايين - بيروت

خدم منهجه . وهو جميع المعلومات عن المؤلف ومؤلفاته — فهو كوراق —
ليس مطلوباً منه أكثر مما قدم وهو فهرسته . ومن العناصر التاريخية —
من خلال ما ذكره ما يؤكد أن هناك ارتباطاً بين هرمس وبين عناصر مقدسة
ويطعن في نحلة الاسم لشخص .

يقول الدكتور : أبو العلا عفيفي :

من بين الوثائق اليونانية الهامة : مجموعة من المقالات الفلسفية الدينية
كتبها متأخروا العصر اليوناني بالاسكندرية فيما بين القرن الأول والثالث
المسيحيين على وجه التقريب وتعرف هذه للمجموعة باسم :

أى الكتابات الهرمسية نسبة إلى هرميس الإله اليوناني المصري (١)
المعروف باسم : هرميس المثلث الحكمة أو « المثلث العظمة :

(٢) وقد كان لهذه الكتابات أثر بالغ في تشكيل

الحياة الروحية المسيحية وتشكيل العقيدة الإسلامية والفلسفة والصوفية .
وهذه الكتابات الهرمسية هي الحلقة المفقودة في تاريخ التراث اليوناني
والفلسفة الإسلامية .

ثم يقول : لا عبزة لما ذهب إليه المؤرخون القدماء وتابعهم في القول
مؤرخو العرب من أن الكتابات الهرمسية منسوبة بحقا إلى هرميس المثلث
الحكمة الذي عاش في زمن موسى أو قبله ، وأنه كان مصدر علوم اللاهوت
والأسرار التي اقتص بها كهنة مصر منذ عصور سحيقة فقد أظهر التحليل
التاريخي النقدي بظلال هذه الأسطورة منذ أواخر القرن السادس عشر وبرهن
على أن هذه المقالات صدرت عن أقلام كتاب عديدين لا كاتب واحد وأن

(١) الآراء الدينية والفلسفية (ميلون الاسكندري) قاله الاستاذ أميل برونه قريظة
الدكتور محمد يوسف موسى ، ومبد التحريم للتجارح من ١٩٣٠ .

(٢) بينما جوره اليهود محتمة بينهم وبين السلطات الرومانية تكلم « يودايموس »
إلى ابنها أبو اللونيوس في ٢٠ يونيو من عام ١١٦٠ مؤكدة له أنه بتعينة الإله وخاصة هرميس
(الإله هرمس بوليس) الذي لا يتجزأ .
لعله هو الذي لا يتجزأ . من ١٩٤٥ .

يراجع مصر والامبراطورية الرومانية في ضوء الأوراق « البردية » - مبد المثلث العظمة

الفلسفة اليونانية ، الأفلاطونية والفيثاغورية بوجه خاص — كانت أصلا لها ومصدرا على عكس ما كان يعتقد من أن فلسفة هرميس كانت الأصل الذي استقى منه الفيلسوفان اليونانيان فلسفتها ويختلف شرح هذه الرسائل باختلاف كتابها ، فأحيانا ترى الحديث : يدور بين هرميس وابنه طاط ، أو بينه وبين اله الطب اسقليبوس ، أو بينه وبين الملك آمون : وأحيانا يصور هرميس بصورة التلميذ الذي يتلقى الوحي أو عن الاله بويمذريس كما هو الحال في الرسالة الاولى أو عن الاله اغاثا فيمون .

وتدبر الشواهد التاريخية : على أن كتابات هرميس قد وصلت الى المسلمين لا عن طريق الاسكندرية التي هي منبعها الأصلي ، بل عن طريق « حران » التي ورثت ثقافة الاسكندرية وحافظت عليها قرونا عديدة قبل الاسلام وبعده . ولكننا لا ندري على وجه التحقيق كيف بدأ وصول هذه الكتابات الى حران ولا في أي زمن بدأ ولا الرجال الذين تم على أيديهم نقل هذه الثقافة .

ويحدثنا التاريخ أيضا : أن جماعة الحرانيين الذين كانوا يعرفون باسم الصابئة . قد اتخذوا فلسفة هرمس : دينا لهم ، واعتبروا هرميس واغاثا فيمون وغيرهما من الحكماء الذين وردت أسماؤهم في الرسائل الهرميسية : أنبياءهم ، كما اعتبروا هذه الرسائل : كتابهم المقدس ، وأن وثيبي حران عندما آمنوا جانب المسلمين ونال بعضهم الحظوة عند خلفاء بني العباس تدفق سيلهم على بغداد وأسسوا المدرسة الأفلاطونية الحديثة أشبه بالمدرسة الأفلاطونية الحديثة التي كانت قائمة في أثينا حتى أغلقها الامبراطور جوستينيان حوالي سنة ٥٢٩ م غير أن مدرسة بغداد الحرانية جعلت من أول افواضها نشر تعاليم هرميس واذاعها بينما أغفلت أختها الأثينية هذه التعاليم وأهملتها. (١) .

(١) الاثر الفلسفي الاسكندري في قصة حى بن يعقوب ابو الملا عتيق لجنة التاليف والترجمة والنشر ، بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب
الآن الجلد الثاني ١٩٦٤ م

منذ ذلك الوقت اشتهر اسم هرمبس في الأوساط الإسلامية وقبيل استحدث عنه ومن عجائب حكمته وعلمه وظل موضع اجلال المسلمين واحترامهم حتى نهاية القرن السادس الهجرى ورفعته المسلمون لا الى مصاف الآلهة كما فعل اليونان والمصريون بل الى مصاف الأنبياء مما ثبت قطعا ان الفلسفة الهرميسية لم تصل الى المسلمين في صورتها اليونانية الخالصة بل وصلتهم بعد ان امتزجت ببعض الأفكار والعقائد الاسرائيلية . ومما يثبت تأثر الفلسفة الهرميسية التي وصلت المسلمين بالأفكار اليهودية أن تعدد الهرامسبة عندهم وأصبحوا ثلاثة :

الأول : هرميس الهرامسة الذى قالوا : أنه ادريس النبى أو اخنوخ .
ذكروا : انه ولد بمنف ، وعاش قبل الطوفان ، وعنه ظهرت كل العلوم التى عرفها الانسان فى ذلك العهد .

الثانى : هرميس البابلى ، الذى اعتبروه من تلاميذ فيثاغورث ، ذكروا : أنه عاش بعد الطوفان ، وأنه كان عالما بالطب والفلسفة وطبائيع الأعداد والكيمياء . ونسبوا اليه : ثيرا من الروحانيات والطمسات بل قالوا انه انتقل الى مصر وحكمها كان له اولاد منهم طاط وأشنن وقفظ وغيرهم
الثالث . هرميس المثلث الحكمة : قالوا سمي كذلك لأنه ثالث الهرامسة الحكماء ومثلث العظمة .

وليس من شك فى أن هرمبس الأول من خلف الخيال اليهودى وان هرميس الثانى اسم اخترعه العرب لمؤلف المقالات الهرميسية التى تدور حول العالم علوم الأسرار من السحر والطمسة والكيمياء وما إليها .

أما هرمس الثالث : المثلث الحكمة فلم يعرفه للعرب بالاسم فقط بل عرفوا الرسائل المنسوبة اليه ، يقول القفطى فى تاريخه ونقلت من صحف هرمس المثلث بالحكمة : نبذا ، هى من مقالاته الى تلميذه طاطى على سبيل سؤال وجواب بينهما وهى على غير نظام وولاء ، لأن الأصل كان باليبا مرقا ، وتغير القفطى كتاب كثيرين يشيرون الى رسائل هرميسن ووجنودها فى أصل عربى ، أو ترجمة سريانية والى اقتباسهم منها مما لا يدع مجالاً للشك .

في أن العرب عرفوا هذه الرسائل في صورتها الأصلية • نرد على ذلك أن كتبنا عربية وضعت برمتها ملخصة الفلسفة الهرميسية مما ساعد كثيرا على ذبوع هذه انفسفة وشيوعها بين المسلمين • من هذه الكتب : كتابان اشار اليهما العلامة الأستاذ « سانقلانا » في محاضراته في الفلسفة الاسلامية بالجامعة المصرية القديمة وهما :

« كتاب « سر الخليفة » المنسوب لبليقتوس (وهو ابن (لونيوس

الطياني من أهل طيانة) الفيثاغوري من حكماء القرن الاول المسيحي :

وهذا الكتاب مخطوط بمكتبة باريس وهو يحمل طابعا هرميسيا لا يشك

فيه الأستاذ سانقلانا •

✳ والثاني : رسالة « هرميس المثلث بالحكمة في معاتبة النفس أو

معاذلة أوزجر النفس » •

وقد تعرف أيضا باسم (رسالة المعاني) وتنسب خطأ الى سقراط

وأحيانا الى أفلاطون أو أرسطو •

وقد طبع الأبواب السبعة الأولى منها الأستاذ « فلايشر » سنة ١٨٧٠

وطبع الباقي منها الأستاذ (باردنهافر) سنة ١٨٧٣ •

ونشر الرسالة برمتها في العصر الحديث الراهب الخوري « فليمون »

الكاتب احد رهبان دير المخلص سنة ١٩٠٣ ببيروت (١) •

من كل هذا يتبين الى أي حد انتشرت تعاليم هرميس في الشرق القديم

قبل الاسلام ويعده •

بوداسف :

ذكر المسعودي صاحب كتاب مروج الذهب : أن الذي جدد مذاهب الصابئة

« بوداسف » وفد من الهند الى فارس في حكم طهمورث من ملوك الفرس

الأولى : وما ذكره المسعودي لم نره لغيره •

(١) اعتمدنا في الكتابة الخاصة عن هرميس بصفة أساسية على البحث السابق ، دكتور

أبو العلا مهيبي •

فرايت أن أقتبج تاريخه في المعاجم الفارسية ولا سيما بعد ما انتهينا من البحث عن تاريخ «هرمس» الذي ذكره الشهرستاني في المحاوراة التي وقعت بين الحنفاء والصابئين ورأينا ما وصل إليه البحث من نتائج .

فقتبعت في المعاجم الفارسية فلم اعثر له على ذكر فيها غير أنه غلب على ظني أن «بوداسف» الذي أورده المسعودي محدثا لمذاهب الصابئة ولا سيما أنه نشأ في الهند - كما ذكر أيضا - هو : «بوذا» واضع الديانة البوذية .

و «بوذا» «ينطق بالفارسية» بوذا ويبدو أن المسعودي - وهو الذي انفرد بذكره ، نقله محرفا ، أو نقله ترجمة عن الفارسية ، بتلك الزيادة من بعض الرسائل القديمة . وإذا كان «بوداسف» هو بوذا ، فهناك علاقة بين ما ذكره المسعودي - وبين تعاليم «بوذا» ؟

يقول الدكتور محمد غلاب .

ليس عندنا من المصادر عن الديانة الفارسية السابقة على (زرادشت) القدر الكافي لاعطائنا عنها صورة واضحة تمكفنا من تحليلها على الطريقة العلمية القيمة . وإنما كل ما نعرفه في هذا الصدد : هو أن نقوشا أثرية ، يرجع تاريخها الى القرن الرابع عشر قبل المسيح وجدت في الشمال الغربي من بلاد فارس ووجدت فيها : أسماء آلهة هندية وهي و

- * ميتهرا .
- * ادرا .
- * فارنا .

ولما كان من غير الممكن أن تصل هذه الآلهة الهندية الى ذلك المكان دون أن تخترق البلاد الفارسية استفتج بعض الباحثين ونخص منهم بالذكر الأستاذ «دينيس سوريه» : أن للديانة الهندية أثرا عظيما على الفارسية الأولى . ثم يقول الدكتور غلاب : ومهما يكن من الأمر فإن تآثر الفارسية بالهندية أمر مقطوع به إذ أننا نجد مثلا في الكتاب الفارسي المقدس أسطورة. تحثنا «بيما» أول انسان أطمع أبناءه لحما محرما ولعله «لحم ثور» ليصيرهم خالدين .

ويلاحظ : أن بيما الذي هو أول. انسان عند الفرس هو نفس (باما) أول انسان في الديانة الهندية. (١) .

هذا من وجهة النظر العامة ولا يبعد عما يفهم من كلام المسعودي وهذا نصه : ويقال أن هذا الرجل أول من أظهر آراء الصابئة من الحرائين والكيمايين . وهذا النوع من الصابئة مبين للحرائين في نطتهم .

لفهم هذا النص ينبغي توضيح بصفة عامة : آراء الحرائين والكيمايين .

حران مدينة من مدن العراق وعرفت مدرستها في التاريخ الفكري بأنها مدرسة وثنية . كانت ذا أهمية كبرى لمور طرق القوافل وأن اشتقاق اسم المدينة في البابلية «خراثو» أو «حراثو» تعنى الطريق .

كما اشتهرت في التوراة. في سفر التكوين : ٢٤ : ٤ ، ٢٩ : ٢١ ، وأنها كانت الموطن الأصلي للابناء العبرانيين الأوائل قبل ذهابهم الى فلسطين ، والمرجح كثيرا أن ابراهيم وأحفاده من أراضى هذه المنطقة كما تشير الى ذلك التوراة نفسها (٢) في هذا المركز عاشت الصابئة وهي كما يقول الشهرستاني : الحرائية هم جماعة من الصابئة .

ثم يقول : عن مذهبها الحلوى :

« ثم من المواليد قد يتفق شخص مركب من صفوها — أى العناصر — دون كدرها — ويحصل له مزج كامل الاستعداد..فيتشخص الاله به في العالم .

هذا فضلا عن فصل آخر للشهرستاني عنهم عنوانه بقوله : « مزاعم

الحرائية(٣) » .

(١) يراجع الفلسفة الفخرية : بحوث تحليلية — الدكتور محمد فلاب مقالات نشرت بمجلة الرسالة سنة ١٩٢٧ السنة الخامسة .

(٢) يراجع : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ص ٢٢٣ . د . طه باقر .

(٣) الملل والنحل الشهرستان ص ٥٨ ج ٢ .

ويصفها « أوليري » بصفة عامة فيقول :

هذا وكان هناك بعض مصادر ثانوية متفرقة للعلوم اليونانية مثل مدينة حران التي كانت مستعمرة يونانية ظلت متشبثة بوثنيتها في منطقة مسيحية ويغلب على الظن أنه كان لها نصيب في نقل العلوم اليونانية الى العرب ولو في أضيق نطاق ، فمدرسة حران عرفت وتخصصت في الوثنية ولا نرى مؤلفا أو باحثا في تاريخ الفكر العربي يذكرها دون أن يصفها بالوثنية .

فمدينة «حران» ظلت مركزا مهما دائما للثقافة اليونانية في المنطقة التي يتكلم أهلها اللغة الآرامية الشرقية ، وكانت الى جانب هذا نقطة مهمة للتبادل والاتصال ، أما أهلها فكانت الغالبة منهم وثنيين يعبدون الكواكب مما دفعهم الى ملاحظة السماء والتعمق في الدراسات الفلكية. (١) .

فالآراء التي حملها «بوداسف» تتميز بالوثنية كوثنية حران وليست هي آراء حران انما تتفق في الوثنية فقط مع الحرانيين . وديانة (بودا) من الديانات التي تتميز بالاحاد ومن أقدمها التي لا تعترف باله خارج عن عناصره .

ففتساءل : ما هو الاله ؟

هل هو نفس العناصر ، اذا كان ذلك فلا يكون في الأمر جديد سوى وضع اسم مكان آخر ، واذا كان وغيرها ولها هذه الخواص التي نشاهدها فقد ثبت خلوه هو من بعض الخواص الثابتة للعناصر ، وهو نقص فيه واذا كان له كل خواصها فلم يكن في حاجة اليها ، لاتخاذها وسيلة لايجاد العالم ، واذا فنحن أمام خلاء من الالهية يؤيده منطقها (٢) .

أخذت هذه الآراء عدة تحويرات حتى تطورت الى « حلولية » على يد « سانكرا » الذي قرر : أن هذا العالم الظاهر ، ليس هو حقيقة الاله انما هو كائن أدنى محدث ، ولكن كل جزئية منه ، تشتمل على طرف من تلك الحقيقة الالهية . غير أن « سانكرا » لم يكذب يعلن هذه الآراء حتى وصفه الجراهمة

(١) علوم اليونان وسبل انتقالها الى العرب . دلاسى أوليري ترجمة د. وهيب كامل

(٢) الفلسفة الشرقية : بحوث تحليلية دكتور محمد غلاب .

بأنه بوذى ، يتقمص : جسم « براهمي » ، أو زنديق يرتدى . ثوب متدين ، وكان ذلك موافقا بالمصادفة لأوان الفتح الاسلامي وعلى بدء تاريخ جديد ببرز الباحثين اثر الاسلام في تلك الأصقاع على صورته الحقيقية فالاحاد الوثني يتغلغل في البوذية وتعاليمها وذلك أول ديانة — كما تزعم لنفسها — تتخلي عن الله ولا تخرجه عن العناصر الكونية .

يقول الدكتور ميرزا مهدي

وأهل هذا الدين ، يعتقدون أن (بوذا) : هو أول من ظهر في الأرض على صورة البشر ويجبر هذا الدين تابعيه : بأن ينزهوا ملوكهم عن الغلطات ويقدمونهم عن الهفوات ، فلذا نرى معابذهم : مزيئة بصور سلاطينهم ، وأكابر رجال كهنوتهم ، وأعاضم ملتهم ، وهؤلاء القوم ليس عندهم خبر نصي ، أو أثري رمزي عن ظهور مجدد أو مصلح جديد في المستقبل ليقوم ما اعوج من دعائم دين (بوذا) الا أنهم يزعمون : أن بوذا سوف يظهر مرة أخرى بنفسه عندما يرى عودته (١)

لاحظ « ميغاشنيس » وهو عامل يوناني في بلاط مجازا وقد وضع كتابا وصف فيه الهند : أن بعض الهنود كانوا يرفعون بوذا الى مرتبة الاله يقول أوليري معلقا : ملاحظة لها طرافتها لأنها ترينا أن البوذية في عهده كانت قد جاوزت فعلاً طورها البدائي الذي كان فيه بوذا يعتبر مجرد معلم ديني وأنها كانت في هذا الحين تنتقل الى طورها الثاني الذي آله فيه بوذا والتي ادت الى تصوير بوذا في صورة انسانية (٢) .

إذا هذه الديانة البوذية كانت ترى في الاحاد والوثنية عقيدة لها غير أن وثنياتها ليست عبادة الكواكب كما كان يرى أهل جران فمن هنا حصل التباين بين عقيدتين وثنيتين كما ذكر المسعودي .

(١) مفتاح الأبواب : زعيم الدولة الدكتور ميرزا محمد مهدي خان رئيس الحكماء الايراني والأذربيجاني التبريزي نزيل مصر ص ٨ - ١٥ الطبعة الأولى بمطبعة المنار الاسلامية بشارع درب الجمايز بمصر في شرة رجب ١٣٢١ .
(٢) علوم اليونان ص ١٧٢ .

هل البوذية خرجت من الهند ؟

يرى المؤرخون أنها خرجت من هناك بيد. أنهم يختلفون حول أسباب خروجها فبعضهم يرى ذلك عندما اغتال برهمي متعصب اسمه سنجأ آخر ملوك أسرة (ماوريا) وهو بوشيا. ميترأ سنة ١٨٤ ثم اغتصب العرش وأخذ يضطهد البوذيين ، أى أن الاضطهاد السياسى كان وراء خروجها .

وبعضهم يرى أن الديانة البوذية كانت في بدايتها طائفة زهدية صغيرة ولكنها فيما بعد نمت وانتشرت حتى صارت إحدى ديانات العالم الكبرى ويرجع أصل هذا الدين — في نظر أوليرى — إلى نظام السانخيا الفلسفى الذى كان قائما من قبل الذى بداه كابيلا .

أما الدكتور غلاب فيرى : أن « كامبيلا » وبوذا متعاصران ، إذ قد أثر في هذا المذهب ، وفي المذهب البوذى : على تأثيرات قوية متبادلة بين المذميين مما يدل على أنهما متعاصران تقريبا .
ثم يقول الدكتور محمد غلاب : ولكن هذه الديانة حينما أجلتها البراهمية في القرون الأولى للميلاد المسيحى لم تكن قد انعدمت من الوجود وإنما كانت قد تفرقت شه مالا وجنوبا إلى الصين : واليابان وجاوه وسومطره (١) .

أما إلى أى حد انتشرت البوذية فعلا في العالم القديم فمسألة مستعصية . لكن يمكن القول أن الديانة البوذية في عهد « سوچا » : ASOQS ثالث ملوك أسرة « ماوريا » التى اعتبرها الهندوك أسرة نجسة لأنها لا تنتمى لطبقة الكهنة ، أو طبقة الجنده ، هذا الملك اعتنق البوذية لأنها لا تعمر نظام الطبقات أى أهمية ، فالديانة البوذية لقيت تعصيذا قويا من هذا الملك ودعا إلى عقد مجمع بوذى ثالث في (الأسو كاراما) في ياتالى بوترا ، وتلك تربية كان بوذا قد زارها في سالف الزمان ، ونوقشت في هذا المجمع ثمانى عشرة مشكلة مذهبية وتم التصالح بشأنها . ولكن الأهم من كل هذا أنه قد تقرر فيه : أن البوذية ينبغى أن تنهج سياسة تبشيرية تدعو فيها شعوب العالم كلها .

(١) الفلسفة الشرقية نفس المرجع .

الى اعتناق ما يقضى به (قانون التقوى) وطبقا لهذا القرار أوقدت الى الجنوب والى الغرب (١) . فالقرار الذى اتخذه أسوكا : جعل الدعوة الى الديانة البوذية دعوة عالمية وعلى الداعين أن يحملوا عبء الدعوة اليها ما انتشروا في أفناء الأرض ثم أخيرا زاد من انتشار أتباعها اضطهاد البرهمن ولاتباعها .
فالعنصر البوذى الذى ظهر في شرق فارس يرجع الى مدينة « باميان » جنوبى بلخ وكان فيها مركز بوذى عام .

وفي القرن الثالث عشر يصف ياقوت : صنمين كبيرين لبوذا في هذه المدينة ويقعان في بهو واسع محفور في جانب الجبل . وهما صنمان يعرفان باسمه :

* سشق بد : أى بوذا الأحمر .

* وخنج بد : أى بوذا الأشهب .

وكانا قائمين في أيامه :

وذكرهما القزوينى كذلك .

وقد دمر (جنكيز خان) مدينة باميان هذه (٢) .

فالبوذية خرجت من الهند واختلطت بتراث فارس هربوا من الاضطهاد الذى لاحقها من البراهمة ، كذلك من ناحية انتهاجها الدعوة التبشيرية التى قررتها لنفسها أخيرا .

وأصبحت مدرسة (جند يسابور) التى انشئت في النصف الثانى من القرن الثامن أيام الملك خسرو وأنو شروان وبفضل العلماء الذين طردوا من الرها آنذاك تقوم بعبء المزج بين التراث اليونانى والشرقى وفي هذه المدرسة أيضا اتصل العلماء اليونانيون والسريان والفارس بعلماء الهند وتأثر بعضهم ببعض وزاد ازدهارها حين أقفل « جوستينيا » مدارس أثينا

(١) مراجع علوم اليونان وسبل انتقالها الى العرب ص ١٦٦ .

(٢) المعجم الذهبى : فارسي - عربي د - محمد النويخى لرهك ثلاثى ص ٥٢٦ . ٥٦٢

وتولى الفلاسفة عنها الى جند يسابور ، وجلبوا معهم كتباً في الفلسفة والعلوم الهند . ومن بين تلاميذ « جنديسابور » الحارث بن كلدة وابنه النضر .

ثم لما ظهر ماني (١) أو « ماتيس » مؤسس الديانة المانوية (ولد في بابل ٢١٥) من أم فارسية من نسل الملوك الأشكانيين وأبته من (رجالات همدان) هاجر إلى بابل في تلك البلاد وادعى ماني التبوة وسمى نفسه «مارقليط» الذي أخبر عنه المسيح وقتله أحد الملوك الفرس سنة ٢٧٥ بعد المسيح كانت عقائده مزجاً من الهندية ، والزرادشتية ، واليهودية ، والمسيحية قبل وضع قواعد الكنيسة ثم تبغى مزدك من الطرف الشرقي من نهر دجلة في بلدة اسمها (مازاريا) في عهد الملك « قباد » الذي حكمه سنة ٤٨٨ م ليقتل اشتراكية في الأموال والنساء وقتل هو الآخر مع ثمانين ألفاً من أتباعه

ويقول ابن قتيبة أن قباد بنى فارس والأهواز مدينة « أريجان » فأسكن فيها سبى (همدان) فوثب فيها « مردق » وقال بدعوته (٢) .

فبوداسف الذي أظهر مبادئ الصابئة في ملك طهمورث ربما يكون هو « بوذا » .

اصول فكر الصابئة الأولى :

- مدار مذهبهم . التعصب للروحانيين .
- والصابئة ترى : أن مذهبها الاكتساب . .
- هذا من جهة الصفة العامة الغالبة على المذهب أما تفصيلاته فهي

أولاً : الاقرار بالقوة الالهية :

يعتد أن، للعالم صانعاً فأطرا حكما مقدسا عن سمات الخدشان

(١) ينقل صاحب حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ج ٢ ص ١٧٢ أن الصابئة تبل من المانوية .

(٢) المعارف لابن قتيبة تحقيق د ثروت عكاشة ص ٦١٢ .

ثانيا : الاقرار بالمعجز الانساني :

في الانسان عجز عن ادراكه ، أى لئله وعلينا الاقرار بهذا العجز ، وفي نفس الوقت علينا التقرب اليه لحاجتنا اليه ، فاتخذوا سبيلهم اليه بالتوسّطات المقربين لديه .

ثالثا : الاقرار بإمكانية الاتصال به :

أدى شعورهم بالحاجة اليه الى اعمال الفكر لكيفية تصور إمكانية العلاقة بينهم وبين القوة الالهية ، بيد ان هذه العلاقات كما تصورها انها لا يمكن ان تكون مباشرة. لما عليه الانسان من دنس النفس واطلامها بالشهوات الطبيعية، لذلك رأوا أن الوسيط يجب أن يكون روحانيا .

والروحاني — في نظرهم — هو : المقدس من المواد الجسمانية المبرء عن القوى الجسمانية المنزهون عن الحركات والتغيرات الزمانية .

فلاتصال به علينا أن نطهر أنفسنا من علائق القوى الشهوانية حتى تحصل مناسبة ما بيننا وبين « الروحانيات » فحينئذ نسأل حاجتنا منهم ونعرض احوالنا عليهم .

وهذا التطهير والتهديب لا يحصل الا باكتسابنا ورضتنا وفظامنا عن دنيا الشهوات .

والاستعداد هو : التضرع واقامة الصلوات وبذل الزكاة والصيام وتقريب القرابين وتبخير البخور . وفي هذه الحالة قد لا يحتاج الانسان الى وسيط .

لذلك رفضوا، كل وساطة من البشر فقالوا عن الأنبياء أنهم أمثالنا في النوع واشكالنا في الصورة يشاركوننا في المادة يأكلون مما تأكل ويشربون مما نشرب ويساهموننا في الصورة .

اناس بشر مثلنا فمن أين طاعتهم ؟

وبأية مزية لهم لزمنا متابعتهم ؟

قال تعالى : حاكيا ذلك عنهم : « ولئن اطعتم بشرا مثلكم انكم اذا
لخسرون » .

انواع المتوسطات :

والوساطة قد تكون عبادة العناصر الطبيعية وقد تكون عبادات تنجيمية
ظهرت على أنها عبادة واحدة ثم انقسمت الى نجوم وسماء .

١ - منها مديرات الكواكب السبعة السيارة في افلاكها وهي : هيكلها
فلك روحاني : (هيكل) ، وليكل « هيكل » : « فلك » ، ونسبة الروحاني
الى ذلك الهيكل الذي اختص به نسبة الروح الى الجسد فهو ربه ومدبره
ومريده .

وكانوا يسمون العناصر : أمهات .

وفعل الروحانيات فيها هو : تحريكها على قدر مخصوص ليحصل من
حركاتها انفعالات في الطبائع والعناصر لمزج المركبات فتتكون القوى
الجسمانية وتركب عليها نقوش روحانية مثل :

* أنواع النبات .

* أنواع الحيوان .

٢ - والتاثير قد يكون ليا صادرا عن روحاني كل : فمع جنس المطرملك
هو هذا الكلى .

والتاثير قد يكون : جزئيا صادرا عن « روحاني » جزئي اي مع كل قطرة
ملك : هذا هو الجزئي .

٣ - ومنها مديرات الآثار العلوية :

* الظاهرة في الجو مثل : الأمطار والثلوج والبرق والبرق .

* الظاهرة في الأرض مثل : الزلازل والابخرة .

٤ - ومنها متوسطات القوى مثل : قوى الحس .

- ومنها : مدبرات الهداية مثل : العقل .
- وهذه الروحانيات لها طعامها الذي يتناسب معها وهو :
- التسبيح والتقديس والتهليل والتمجيد وأنسهم يذكر الله وطاعته .

اعمال الصابئة كلهم :

- يصلون ثلاث صلوات ، ويغتسلون من الجنابة ومن مس الميت وخرموا
 - أكل الجزور والخنزير والكلب .
 - ومن الطير ما له مخلب ، والحمام .
 - ونهوا عن السكر في الشراب وعن الاختتان .
 - وأمروا : بالتزويج بولي وشهود .
 - ولا يجوزون الطلاق إلا بحكم حاكم ولا يجمعون بين امرأتين .
- ### هياكلهم :

بنى : الصابئة هياكلهم على أسماء الجواهر العقلية الروحانية وأشكال
الرواكب السماوية فمنها : هيكل الخلة الأولى : وتونها : هيكل العقل وهيكل
السياسة وهيكل الصورة وهيكل النفس — مدورات الشكل .

- وهيكل زحل : مسدس .
- وهيكل المشتري : مثلث .
- وهيكل المريخ : مربع مستطيل .
- وهيكل الشمس : مربع .
- وهيكل الزهرة : مثلث في جوف مربع .
- وهيكل عطارد : مثلث في جوف مربع مستطيل .
- وهيكل القمر : مئمن .

يقول المسعودي : والذي بقى من هياكلهم المعظمة في هذا الوقت وهو
(سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة) ٣٣٢ بيت لهم بمدينة حران في باب الرقة
يعرف بمغليقتيا هو هيكل أبي ابراهيم غدهم .

رؤسائهم : ذكرهم ابن النديم في فهرسته من أراد الوقوف عليهم فليرجع

لها (*) .

تعقيب حول فكر الصابئة :

ثم أخيرا ، ولقد خلفت الصابئة أثرا شاهدا على تاريخها : وهو عبادة النجوم التي تولد منها التنجيم .

ذلك أن النجوم وفوق كل شيء الكواكب كانت قيما يبدو وفق قوانين ثابتة . تقول بالتقابل والتوافق : أي أن السموات من فوق والأرض من تحت شقيقتان متكاملتان ، فما كان يحدث في العالم النجمي كان يعاد إخراجها على الأرض ، وهذا هو الأمر الحيوي في الموضوع .

بيد أن حركات العالم النجمي ثابتة فإذا كان هناك إذن تقابيل فكل ما يحدث على الأرض كان ثابتا ، ذلك والحال بالمثل بالنسبة لأفعال الناس أيضا فهي ثابتة وذلك لأن الانسان هو كون مصغر فهو الشقيق المكمل للعالم الكبير ، وروحه شرارة من تلك النار السماوية التي تتوهج في صفحة النجوم . من هنا نشأ مذهب من أفضح المذاهب التي عذبت الانسانية على مر الزمان وهو المذهب البابلي المسمى (انقضاء المحتوم) الذي كان يتحكم على السواء في النجوم والأرض والناس .

فحركات هذه الكائنات جميعا ثابتة بفضل قوة باقية لا تقبل وهي قوة لا علاقة لها بالأخلاق . قوة لا تحب ولا تكره ولكنها تواظب على مسارها بطريقة لا هوادة فيها مواظبة النجوم في مسارها عبر القبة الزرقاء .

وقد استطاع التنجيم في النهاية أن يتغلغل في كثير من الديانات ويصبغها بلونه . وكان هناك أكثر من نظام للتنجيم .

* عبادة الكواكب .

* أبراج القلك وعلاماتها الاثنتا عشرة .

بيد أن التنجيم القائم على الكواكب كانت له قوة أعظم . فالكواكب

(١) الملل والنحل للشهرستاني ص ٦٠ ، ١١٦ كذلك برآجع السمودي ص ٤١٧ - ج ١
مروج الذهب .

السبع هي : الشمس والقمر وعطارد والزهرة والمريخ والمشتري وزحل
كانت في عبادتها الميسرات للقضاء والقدر وفي النهاية هي مستقر عروش
« حكام هذا العالم » الذين أصبحوا فيما بعد معادين لروح الانسان وشرا
عليها بصورة قاطعة لانهم أصبحوا يجرون المقادير عليها بلا هوادة .

كذلك خصص للكواكب السبعة ألوانها الخاصة المقابلة للطوايق السبعة
للمعبد البابلي

كما خصص لها معادنها الخاصة ونباتاتها وحيواناتها

✳ أما أبراج الفلك فقد كانت تحكم في مصائر الشعوب ومدتها المنوعبة
وتشهد العملة بأن أنطاكية ونصيبين كانتا تحت سيطرة برج الحمل
والرها تحت سيطرة برج الدلو .

وإن سنجار أو « ريساينا » تحت برج القوس (١) .

ولئن الذي كان يهيم الناس هو أن مصائرهم كانت ثابتة منذ الولادة
بفضل نجومهم كما أن النجم المقتدر كان يستطيع أن يتنبأ لهم بالمستقبل عن
طريق حساباته لطوالهم وساهم التنجيم في انخزال عناصر كثيرة غير منطقية
مثل

الحظ

الفرص

ثم تحدد مسار الكفاح الانساني ضد سيطرة النجوم عليه بثلاثة خطوط
رئيسية حاول بها الانسان الفرار من تأثير نجومه عليه وكلها تعتمد على الاعتقاد
في اللذة الاقوى من كل شيء أغظى الانسان كثيرا من الحرية والارادة ، والعقل
البشرى سيادته من خلال توجيهات البوحى الذى استغل به ان يثور ضد
ثقل : « الجبرية » - للقاهر بسبب الاعتقاد في تأثير النجوم بأفلاجه عليه
وعلى مصدره .

(١) الحضارة الهيلينية ن.ن. تارن ترجمة عبد العزيز جاويد ص ١٤١ - ١٤٢ .

• والخطوط الثلاثة هي •

• الدين •

• المعرفة الروحية •

• السحر •

• وكفاح الدين ضد سيطرة التجوم على الانسان سوف تعرض له من خلال محاورة نبي الله ابراهيم معهم •

اما المعرفة الروحانية : فهي العلم بكنه الاشياء وليست هي المعرفة التي تتوافر للفيلسوف •

فالمعرفة الروحانية الحقيقية تجعل الانسان يأمن من قضاء وقدر التجوم على أساس اعتقاده أن روحه بعيدة عن مخالها ، وهذا من المبادئ الرفيعة للمعرفة الروحانية التي تساعد الانسان الا يذل لغير الله وهذا ما يفق مع للعقل •

السحر :

لما للسحر فالفكرة الأساسية فيه : هي أنه باستخدام للوسائل الصحيحة يمكن إجبار القوى الخفية على العمل فمن أهداف السحر التي يراها الانسان القديم أن يعود بالحرية اليه من سيطرة الكواكب عليه ، ويعطى الانسان مزيدا من السيادة على القوى الخفية وتصبح كل عبادة للتجوم التي تعطى لنفسها السيادة على الانسان في نظر السحر والسحرة مرفوضة •

فالسحر طريق اتخذه الانسان للحصول على رغائبه المادية والروحية ، وفلسفته قائمة على منح الانسان قدرته على تغيير ما قضت النجوم عليه •
• وأوشك السحر ان يصبح نظاما دينيا •

وكانت للسحر صلات بأشكال المعرفة الروحانية السفلى فانت تستطيع أن تجبر القوى الروحية ان يطلع الانسان على ما لديها من خفايا واسرار ، بيد أن المعرفة الروحية في أسمى مراتبها تنبذ السحر كذلك الدين ينبذه ، لأن

السحر اذا كان يغير من قضاء المقدر من لحن الأرواح ، فان الدين يرفعك فوق
قضاء التنجيم اذ الهدف العام للدين هو ان يجعلك يرتبطا بالله مؤثرا كل
قضاء خارج عنه .

من قضايا الصابئة وموقف القرآن منها :

من مشاكلهم التي اثارها القرآن :

- ١ — ابطال عبادة الكواكب . وعبادة الاصنام كما في محاوره ابراهيم .
- ٢ — ابطال القول بان بشرية النبي تمنعه من الاتصال بالله ولا تتفق معه
ليكون وسيطا .

المشكلة الاولى : ابطال عبادتهم للكواكب والاصنام .

ابراهيم والصابئة :

ساق القرآن محاوره من الأدب الراقى بين نبي الله ابراهيم وعبادة
الكواكب تعتبر تاسيسا لعلم الكلام الدينى وبياننا مقارن بين علم الكلام
الدينى وعلم الكلام الوثنى .

ونلاحظ من تحاور ابراهيم مع قوميه ان علم الكلام الوثنى قد نشأ
بجانب علم التوحيد . وابراهيم نبي الله اذ يهدم العبادات الطبيعية التي
انتشرت ابان بعثته — وهي التي آلهت العالم الطبيعي — كان بعضها من النيرات
مثل الكواكب ، والبعض الآخر له شكله الأدنى من حيث الاثراك ايضا
مثل عبادة الاصنام وعرض لها نبي الله ابراهيم وهو اذ يهدم هذه المظاهر
يبين لهم في النهاية ان الآلهة التي تحتوى عليها وثنيقتهم ليست الا أسماء كاذبة
اطلقت على بعض اجزاء من العالم المادى .

يقول الله تعالى :

« واذ قال ابراهيم لأبيه آزر : اتخذ اصناما آلهة انى اراك وتومك فى

ضلال مبين » .

« وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض، وليكون من الثقلين... »

« فلما جن عليه الليل رأى كوكبا، »

• قال : هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين »

« فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي

• لآكونن من القوم الضالين »

« فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم

• انى برئىء مما تشركون »

« انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من

• المشركين »

« وحاجة قومه قال اتحاجونى فى الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون

• به إلا أن يشاء ربي شيئا وسم ربي كل شيء علما أفلا تتذكرون »

« وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به

• عليكم سلطانا فإى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون »

« الذين آمنوا ولم يلجسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون »

« وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن

• ربك حكيم عليم » ٧٣ : ٨٣ الأنعام

الواضح : أن نبي الله إبراهيم قدم سعيا تدريجيا مصحوبا بنقد حقيقى

لهذا اللون من العبادة ، والسعى واضح من محاورة نبي الله إبراهيم لأبيه -

وليس لذات أبيه - وإنما هو لكل عباد هذا اللون من العبادة - عبادة مظاهر

الطبيعة - ونقدا حقيقيا للتنجيم وللعبادات الكونية وذلك ليس نقدا جدليا

بل هو وصف تدريجى لنحى النفس الداخلى آخذا نقطة بدئه من المحسنات

• منتهيا به الى اللامعقول

والشك الذى أراد نبي الله لحدائه في نفوسهم حول هذه العقائد فانه ليس الا طريقة تمهيدية لحكمة ارفع شأننا وهي معرفة الانسان لنفسه . هذه المعرفة هي التي تميز فينا ثنائيتنا وهي .

* الروح وهي غير مرئية غير ان لها قدرة السيطرة على الجسم .

* والجسم وهو مرئى وخاضع للروح .

كذلك معرفة الانسان لنفسه الذى أراد نبي الله ابراهيم ثقت النظر اليها هي التي تحملنا على تأمل المعقول واللامعقول كذلك تتيح للانسان الانتقال من الكون الى الانسان ثم من الانسان الى الكون انتقالا عن علم وبصيرة نافذة وسبيل ذلك كله : هو الوحي الالهى أساس علم التوحيد .
 . وأفادت المحاوره أن هذه الكواكب ليست شيئا من حيث عبادتها او الاعتقاد في أنها مدبرة انما كما قررها القرآن آيات كونية فقط .

.. قال تعالى: «..ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن ان كنتم اياه تعبدون »
 (٣٧ فصلت) .:

ويقول الرسول : « ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينفكسان ولا ينفكسان لموت احد » ، كذلك درأ القرآن انحرافهم بعلم الفلك الى علم تنجيم ليستطيع الانسان من خلاله التنبؤ بمصير الانسان ، فربطوا مثلا : بين الدب الأكبر ، وبين الاتجاد بين الناس ، وبين انضاج الثمار والقمر كذلك مبدأ قراءة المستقبل بالتنجيم : موجود لدى عبادها . ويمكن التنبؤ بالحوادث : من شروقها ، وغروبها ، وكسوفها ، وخسوفها وفي نظرهم اذا كانت النبوة لها قدرة التنبؤ بالمستقبل ، فوسائلهم لها أيضا : قدرة التنبؤ ، وهي في نظرهم ارفع شفافية ، لذلك عرض الاسلام هذاالاتجاه فقرر : انها ليست محلا للعبادة وليس لها علاقة بمشيئة الانسان .

فالاسلام : لا يقرر ما يقول به علم التنجيم ، لأنه يسند كل شيء الى غير مشيئة الله فلا يمكن أن تجرى الحوادث طبقا لسلطان الكواكب كما يعتقد الصابئة .

وأصبح هذا الرأي : هو السائد بين المسلمين وعقيدتهم ، فلم يعد ينظر الى الكواكب علي أنها هي المسيطرة والموجهة للحوادث كما كانت في علم التنجيم الوثني بل أصبحت تعد مظاهر كونية وآيات من آيات الله .
وهذه النظرة التي قررها الاسلام تخالف ما عليه الصابئة وما كانت عليه اليهودية والمسيحية .

فاليهود يمتدقون صراحة بالكواكب علي أنها (حكام) . استنادا علي ما جاء في سفر التكوين ١ ، ١٤ ، ١٦ : ان الله وضع أنوار السماء ليحكم الأرض .

وقد جرى المسيحيون علي نهجهم في هذا الصدد :

وفي هذا الصدد نعرض لكلمة قالها : ديلاسي أولبرى في مقدمة كتابه الفكر العربي ومكانه في التاريخ .

قال فيها : والحق ان هذه الثقافة الاسلامية في اساسها وفي جوهرها جزء من المادة الهلينية الرومانية . بل انه حتى علم التوحيد الاسلامي قد تحدد وتطور بواسطة منابع هلينية .

ثم يقول : وتظهر أعظم قوة لها في أنه قد عرض المادة القديمة في شكل جديد جدة تامة ، فهنا مثلا أي تشبه : بين اليهودية والاسلام ، أو المسيحية والاسلام في هذا المقام الذي عرضناه .

ثم أخيرا نقول : أي تشابه بينه وبين الهلينية ، التي قررت الوثنية منذ ان بدأ الاتساق اليوناني يفكر من خلال مدارسه الطبيعية عندما أجاب علي سؤال: ممن تكون العالم ؟

أبالماء أم التراب أو النار ؟ وحصر فكره فيها ، من هنا تأسست الوثنية التي قررت ان مظاهر الطبيعة صالحة للعبادة حينما اسندت لها قدرة الكون والفساد أو التدبير .

المشكلة الثانية : ان الاتصال بالله لا يحتاج الى وساطة الوحي :

الوساطة بين الانسان والله :

ان اتخاذ وسيط بين الله والروح الانسانية ، سمة كل الأديان والمذاهب الروحية القديمة من صابئة ومجوسية ووثنية وشرك . والوساطة قد تتنوع بثقوع المذاهب المختلفة :

* ففي الدين السماوي : تظهر في الوحي الالهي في الاسلام ، او «الكلمة» في المسيحية ، او اليهودية ، هذه الوساطة لا شرك معها ولا تائيم ، لأنها توجه صاحبها الى عبادة الله وتوحيده . فالوساطة هنا ليست معبودة ، وإنما لها مظهر من مظاهر العبادة : وهو التقديس .

* وفي الفلسفة : تظهر في العقل الفعال ، وبواسطته كان الفيض الالهي ، وهذه فكرة فلسفية ترجع الى التراث اليوناني ، وهذا أول ميل فكري نحو الشرك المنزه عن المادة .

* والديانات الوضعية في الشرق : تميل الى فكرة الوساطة الجسدة ، اما في شكل نار ، أو حيوان ، أو جمادات ، ويشترك مع فزعة الشرق الفلاسفة الطبيعيين الأول في اليونان وذلك حينما اعتبروا العناصر من ماء وهواء ونار وقراب أصل العالم .

فالمظاهر المادية التي رافقت الانسان في تفسيره لله وشابت علاقته به كانت أصلا لفشاة الوثنية لأنها اعتبرت مبادئ متبصرة والهيبة لا مادة للعالم .

فالوساطة : اما أن تكون موجهة الى التوحيد ، والى السلوك الطبيعي للعبادة ، وذلك : كالوحي أو الكلمة فلا شرك فيها ولا ميل فيها الى الشرك .

واما أن تكون الوساطة شركا ، أو داعية الى الشرك ، وذلك اذا كان الوسيط يقوم مقام الله أو يشترك مع الله ويقوم الانسان بعبادته أو يعتقد فيه انه في حاجة الى وسيط .

واضح : ان فكرة الوساطة (الشريك) نشأت بعيدا من الدين السماوي وليس ذلك وحسب بل ان الدين السماوي نبذها وحاربها بمختلف وسائل المحاربة .

فالوساطة التي انشأها الانسان ليعبدها تجدها نشأت اما في مجتمع خال من الدين فابتدعها الانسان تعبيرا عن ميله الفطري للعبادة ، أو نشأت في مجتمع حافل بالفكر الذي يكثر القول عن السبب الأسمى ، فان استطاع الفيلسوف تصور قيمة هذه الفكرة ، فان عوام المجتمع لسوف

يهربون من تلك التصورات المفطية الجافة ثم يقعون وهم يفرون من فكرة العقل الفعال في نظر الفلاسفة في حوزة الوسيط المتجسد لأن الوضوح اليه عسير .

واضح : ان فكرة الوساطة (الشريك) نشأت تبعيدا من الدين السماوي وليس ذلك وحسب ، بل ان الدين السماوي نبذها وحاربها بمختلف وسائل المحاربة .

والكائنات التي رشحها الانسان للعبادة ليست وسطاء بين الله والعالم فقط بل وبين الله والنفس الإنسانية المتعطشة للدين حتى — لاستحالة صعودها الى أعلى وانبهار بصرها من التأمل — لا يسمعها الا الوقوف عند درجة أدنى .

فذهب الوسطاء ليس مؤداه استحالة خلق الله للعالم بل استحالة وصول النفس مباشرة الى الله .

وما نستخلصه من وراء مذاهب عبادة الوسطاء وجود الروح الدينية العميقة المتغلغلة في النفس الإنسانية ، وانها سلكت بالانسان طريق العبادة وطريق الفكر الميتافيزيقي .

واذا كان فراغ المجتمع الاغريقي من الدين فانه لم يستطع أن يلغى الاحساس بضرورة الحاجة الى العبادة ، وذلك باستحداثه أنماطا من الوساطات الدينية ليدين لها . واذا كان الفكر الفلسفي لم يستطع أن يقدم للانسان شيئا عن الله وعن علاقته به سوى الدعوة الى التأمل فقط ، وكان في ذلك توسعه لمعنى المقدس ، فان الدين السماوي — الاسلام وهو المقدس الحقيقي — هو الدعوة الطبيعية والأمنة من فراغ المجتمعات من الدين ولنجد وثنية الوساطة والشرك التي يحوم حولها عندما ينعدم الدين الالهي منها .

ملاحظات على ما أورده الشهرستاني في المناظرة بين الصابئة والحنفاء :

أورد الشهرستاني مناظرة بين الحنفاء والصابئة وكان لنا عليها ملاحظات:

أولا : انها خائية من تاريخ زمنها ومكانها فهل كانت ايام بعثة ابراهيم

رأس الحنفاء ؟

هذا الفرض لا نجد له في المناظرة ما يؤيده لأن الشهرستاني ضمنها

بيتين من الشعر لزهير :

اخر المرء لم يذنب من اللؤم عرضه فكل . رداء يرتديه جميل
وان هو لم يخمل على النفس ضيمها فليس الى حسن الثناء . سبيل
كذلك ضمنها آيات من القرآن .

كذلك ضمنها اصطلاحات فلسفية منها ما يرجع الى الفكر اليوناني
وبعضه الى افلاطون كقوله : ان النفوس كانت في البدء في عالم الذكر ثم
هبطت الى عالم النسيان .

وبعضه الى ارسطو مثل : الهيولى والصورة والحيوانية الناطقة .
ومنها ما هو منسوب الى مدرسة الاسكندر أو التراث الهليني مثل :
العقل الفعال : ماهيات مجردة من المادة ، العقل المستفاد ، العقول
المسارقة ،

ومنها ما هو منسوب الى اصطلاحات ضوفية اسلامية مثل : وما اشرق
عليه من الانوار القدسية : وخيا والهاما ومناجاة وكراما .

ومنها ما هو تأليفات شهرستانية مثل : النفس النبوية — الحيوان الناطق
المائت ، المتكلم الخفيف ، المتكلم الصابئ .

فالمناظرة حوت الكثير من المصطلحات المختلفة من حيث الزمن والمكان ومن
حيث الألوان الكفرية ففيها الفلسفي القديم والوسيط والديني الاسلامي وغيره
والعربي وغير العربي .

وهذا مما يجعلنا نميل الى انها ثقافة شهرستانية — صياغة ، وفكرا ،
ويصبح الاعتماد عليها لبيان اصولها الفكرية مقدوحا . قينه لتصرف
الشهرستاني فيها ، ولقد ضرح بهذا التصرف فقال :

وقد جرت مناظراته ومحاوراته بين الصابئة والحنفاء في المفاضلة بين
الروحاني المحض وبين البشرية النبوية .

« ونحن أردنا أن نوردنا على شكل سؤال وجواب » .

هذا فضلا عما يظهر فيها من التكلف المنطقي الذي يجانب الفكر الشرقي

القديم .

ثانيا : ومما يلاحظ — وهو شيء غريب — أن المناظرة خالية من النصوص
القديمة التي تمثل صحف ابراهيم . . انما اعتمدت على الجدل المنطقي .
فاستوفاما الشهرستاني من كل شيء عدا نصوص من صحف ابراهيم .

ثالثا : لم يذكر الشهرستاني من صاحبها ولا تاريخ نشأتها ولا مكانها
وفي المناظرة ما ينبغي - من خلال كلام الصابئة أنفسهم، ويتصريحهم - أنها
تنسب إلى «هرمس» و «عازيمون» .

غير أن الشهرستاني فقط - أي على لسانه هو دون لسان الحنفاء -
استبعد أن يكون هرمس من الصابئة ، وهذا تصرف جرى لا يقدر عليه
إلا إذا كانت المحاوره من تأليفاته .

رابعا : وفي المناظرة فكر يخدم الفكر الانساني من حيث النظرة العامة ،
وفيها :

ما لا ينفع الحنفاء - حيث افهم ورثة ابراهيم بل ويناقض مذهبهم .
وهذا وقع فيه الشهرستاني وهو يصوغ فكره معتمدا على أسلوبه الفلسفي
دون الرجوع إلى مستندهم الحقيقي .

خامسا : وما ينبغي لفت النظر إليه أن الشهرستاني حاول - وهو غير
مسبق إليها - أن يضع تمييزا بين الحنفاء والصابئة .

ملاحظات على ما ذكره المسعودي عن الصابئة في كتابه مروج الذهب :

ذكر المسعودي أخبارا عن الصابئة في موضوعين :

الموضوع الأول :

ذكر فيه تاريخا عن أحدث مذاهب الصابئة واسم الملك الحاكم . وذلك
في صفحة ١٦٨ .

الموضوع الثاني :

عاود القول عنهم فذكر البيوت المعظمة والهيكل المشرفة للصابئة .
وغيرها ، وغير ذلك مما لحق بهذا الباب واتصل بذلك المعنى وذلك في صفحة
٤٦٧ - ٤٧٠ .

ومما نلاحظ عليه :

أنه قدم معلومات محددة ودقيقة فيها استقصاء لبعض استنهادات، يحاول
المسعودي وهو مؤرخ أن يثيرها مثل قولهم « هيكل العقل » .

يقول المسعودي متسائلا : وما أدري أشاروا إلى العقل الأول أم الثاني ؟
حول هذا الاستفهام الذي يدل على نزعة المسعودي الفلسفية - وهو

مؤرخ - يقدم اجابات مسندة إلى مراجعها القديمة .

وعندما أخذ في شرح الهياكل قدم لنا شواهد كثيرة تؤيد ما يسوقه لنا منها :

- حكاية رجل من ملكانية النصارى من أهل حران يذكر اسمه فيقول : يعرف بالحارث بن سنباط للصابئة الحرانيين حكى للمسعودى أشياء قال عنها : امتنعنا عن ذكرها مخافة التطويل .
- وقدم ما شهدته من هياكلهم وحدد السنة التي شاهد فيها هيكل آزر .
- وذكر لابن عيشون الحرانى القاضى — المتوفى بعد الثلاثمائة — قصيدة طويلة يذكر فيها مذاهب الحرانيين المعروفين بالصابئة .
- وروى شيئاً مما رآه في وصفه : ورأيت على باب مجمع الصابئة بمدينة حران مكتوباً على مدفنه بالسريانية قولاً لأفلاطون فسره مالك ابن عقبون وغيره : من عرف ذاته تاله .
- وما ذكره المسعودى من مشاهدة العيان يفيد بوضوح الأثر الأفلاطونى في مبادئ هذا المذهب .

ثم تكلم عن مراجع الصابئة قرأ فيها أخباراً عن مذاهب الصابئة الحرانية . فمن ذلك كتاب رآه لأبى بكر محمد بن زكريا الرازى الفيلسوف صاحب كتاب المنصورى فى الطب وغيره : ذكر فيه مذاهب الصابئة الحرانيين دون فيه مذهب الصابئة الحرانيين منهم دون من خالفهم من الصابئة الكيماريين . ثم قال وقد خاطب مالك بن عقبون وغيره منهم بشيء مما ذكرناه وغيره مما عنه كتبنا . . ثم قال ممتحناً ما دونه عنهم :

فمنهم من اعترف ببعض وأنكر بعضاً من ذكر القرايين وغيره من الآراء مثل : فعلهم بالثور الأسود .
ومن ذلك أيضاً ما قدم من روايات تاريخية مسندة الى روايات سمعها بنفسه أو شاهدها لآثارهم كل ذلك وفق منهجه التاريخى .

وما قدمه عن الصابئة من الناحية التاريخية فيه جديد لم يذكره الشهرستانى — أكبر مؤرخ دينى كتب الكثير عن الصابئة . مثل : بوداسف الذى أحدث مذاهب الصابئة فى فارس وفى الهند : كذا . أقباله صلالة حران بالصابئة من تقديم على خلاف ما ذكره ابن النديم .

وفي كلامه ما يفيد : صلة المذهب الصابئي بالأفلاطونية ،
 كذلك ذكر أن للصابئة فلاسفة بيد أنهم حشوية يقول فيهم اقمنا
 أضفناهم الى الفلاسفة اضافة سبب لا اضافة حكمة .
 وخالصة القول : أن ما ذكره المسعودي ليغتنب مصدرا مفيذا عن الصابئة
 وهو بتقديمه الزمنى والتاريخى على الشهرستانى قدم مادة تاريخية فيها كثير
 من الالتزام العلمى ، كما قدم مراجع وشخصيات تاريخية تخدم الباحث في
 تكوين تصور ما عن الصابئة وهذا ما لم يتوافر للشهرستانى .
 وللمسعودي : كتب في الدين المقارن ، هذا الفن الدينى نراه كثيرا ما كان
 يفتنه اليها ويحيل القارىء عليها منها :

- * المقالات في أصول الديانات .
- * الاستبصار .
- * الصفوة .
- * سر الحياة .
- * الدجاوى .

في هذه الكتب ما يشير الى عنايته بهذه القضايا رغم أن هذه الكتب
 مفقودة الى الآن ، غير أننا كنا نلاحظ من خلال النصوص التى كان يذكرها
 المسعودي في كتبه منها أنه كان متخصصا في تاريخ المذاهب والديانات ،
 واللمحات التى ذكرها لتنبىء عن أصالة ثقافته في هذا المجال .
الزندقة عند عرب الجاهلية :

ملاحظات على ما ذكره ابن قتيبة عن اديان العرب وزندقتهم :

ذكر ابن قتيبة اديان العرب في الجاهلية فقال (١)

- * كانت النصرانية في « ربيعة » و « غسان » وبعض قضاة .
- * وكانت اليهودية في « جمير » و « بنى كنانة » و « بنى الحارث بن
 كعب » و « كندة » .
- * وكانت المجوسية في بنى « تميم » .

منهم زراة بن عدس التميمي وابن حاجب بن زراة وكان تزوج ابنته

(١) المعارف ، ابن قتيبة ، تحقيق د . ثروت عكاشة ٢٧ دار المعارف . وابن قتيبة حر :

ابن محمد عبدالله بن مسعود ٢١٣ هـ .

ثم قدم . ومنهم الأقرع بن حابس - وكان مجوسيا ، وأبو سودة جسد
وكيع بن حسان - وكان مجوسيا .
* وكانت الزندقة في قريش أخذوها من « الحيرة » وكان « بنو حنيفة »
أخذوها في الجاهلية الها من « حيس » فعبدوه دهرا طويلا ثم أصابتهم
مجاعة فأكلوه فقال رجل من « بنى تميم » شعرا :

أكلت ربها حنيفة من جو ع قديم ومن أعواز

نلاحظ أن المادة العلمية التي قدمها ابن قتيبة غير دقيقة. لا من جهة
الموضوع ولا من جهة الحصر ولا من جهة تحديد القبائل التي تدين بالدين
الذي نسبهم اليه .

فهو أولا لم يعد الصابئة ضمن أديان العرب .

وثانيا : أنه ذكر الزندقة من أديان العرب .

فأخرج الصابئة وهي داخلة في أديانهم وأدخل الزندقة وهي خارجة
عنهم .

وفي نظرنا يعتبر الوحيد الذي ذكر الزندقة والوحيد أيضا الذي لم يعد
الصابئة .

يقول الألويسي : (١) .

والذي يظهر أن مراد ابن قتيبة من الزندقة التي نسبها الى بعض العرب
الذين اعتنقوا الثنوية أو القائلين بالنور والظلمة بمقتضى قوله : أخذوها
من الحيرة فإنها من بلاد الفرس .
وان كان سكانها وملوكها العرب المتدينون بدين الفرس . أو دين المسيحية
لو كان مراده . من لا يؤمن بالآخرة وبالربوبية لما كان لقوله (أخذوها
من الحيرة) وجه فان كثيرا من قبائل العرب كانوا كذلك فتعين أن مراده
ما فكرنا .

(١) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ، النسخة : محمود شكرى الألويسي ، ٢ ص

ثم يقول في لفظ زندقة : وهو أى الزندقة اصطلاح جديد ولا مشاحة فيه
والزندقة اصطلاح فارسى يرجع الى العصر العباسى اتهم به البرامكة .
يقول ابن مقببية :

وكذا البرامكة يرمون بالزندقة وفيهم قال الأصمعى :

إذا ذكر الشرك في مجلس أضاعت وجوه بنى يرمك
وإن قلت عندهم آية أتوا بالأحاديث عن مزدك

يقول صاحب لسان العرب : (٢) .

الزندق القائل ببقاء الدهر فارسى معرب .

وليس في كلام العرب زندق .

وانما تقول العرب : زندق وزندقى إذا كان شديد البخل .

فاذا أرادت العرب معنى ما تقوله العامة قالوا ملحد ودهرى بفتح الدال .

أما معناه في المسموع : دهرى بضمها .

ويرجع اصطلاح الزندقة الى (ماني) وذلك أن الفرس حين اتاهم

(زرادشت) اتاهم بكتابه المعروف : « بالبستاه » باللغة الأولى من الفارسية

وعمل له التفسير وهو : « الزند » وعمل لهذا التفسير شرحا سماه « البازند »

وكان الزند بياناً لتاويل المنزل .

ومن أورد في شريعتهم شيئاً بخلاف المنزل الذى هو البستاق وعدل الى

التاويل الذى هو الزند قالوا : هذا زندقى فأضافوه الى التاويل وإنه منحرف

عن الظواهر من المنزل الى التاويل وهو بخلاف التنزيل .

فلما أن جاءت العرب أخذت هذا المعنى من القرس وقالوا : زندقى

وعربوه ، والثنوية : هم الزنادقة .

قال المسعودى : وألحق بهؤلاء : سائر من اعتقد القدم وأبى حدوث

العالم (١) .

يقول الشهرستاني : ومما اتفقت نحوه الأديان والملة : أن للعالم قوة

(١) لسان العرب لابن منظور .

(٢) مروج الذهب ص ١٧٢ .

الهيئة مدبرة له ، بيد أنها لها أسماء شتى :

- * تسمى عند : « زرادشت » : « مشاسيد »
- * وعند الصابئة : المدبر الأقرب
- * وعند الفلاسفة : العقل الفعال ومنه الفيض الالهي
- * وعند المانوية : الأرواح الطيبة
- * وعند العرب : الملائكة
- * وفي الاسلام : الله

ولعل ما لاحظته الشهرستاني كان موضع تقدير لدى الذين حاولوا توحيد الأديان ، وذلك على أساس أن الشعوب المختلفة إنما تعبد في الحقيقة : الاله نفسه ، تحت أسماء مختلفة ، وأنه يمكن بناء على ذلك توحيد الأسماء والنحل وهذا الاعتقاد هو ما جعل أنطيوخوس الرابع يعتقد أنه لن تكون هناك صعوبة شديدة تستعصى على ادخال عبادة « زيوس » حتى في بلاد اليهودية نفسها .

على هامش لصابئة

المجوسية أقدم من زرادشت :

ترتد الديانة المجوسية من حيث تشابه عناصرها الى التراث الهندي وتناقضها مع ديانة جيرانهم الساميين . . يقول دى بورج :

في ازمان ما قبل التاريخ ترك فرع من الأسرة الهندية — الأوربية موطنهم الأصلي في اراضى السهوب شمال قزوين ، وهاجر في اتجاه جنوبى شرقى . ولقد سار بعضه عبر ممر خيبر الى البنجاب بينما استقر البعض الآخر في شرق الهضبة الايرانية العظيمة . وفي بواكير السنوات الالف الثانية ، يمت هذه القبائل الايرانية (سمت نفسها آرية ومن هذه التسمية اشتق الاسمان المحليان آريا وايران) صوب الغرب الى المرتفعات التى تحف سهول ما بين النهرين وكلدنيا ، وبعد ذلك بألف سنة ، نجد الميديين الى الجنوب من بحر قزوين والبرتيين في خراسان والبكتريين في منحدرات الهندوكوش الشمالية والفرس في الجبال التى تشرف على الخليج الفارسى الى الشمال الشرقى . وكانت سلاسل جبال الهندوكوش وسليمان تقوم حاجزا من جهة الهند . ولقد أحضر هؤلاء الآريون معهم الحصان وهو من نتاج سهول السهوب ولم يكن للبابليين أيام حمورابى عهد به ولكن استخدمه الآشوريون كعدة حرب (١) . ولقد حملوا معهم كذلك دينا متميزا ، يتناقض تناقضا يسترعى البال مع دين جيرانهم الساميين المستوطنين السهل ، وكان يختلف أيضا — على الرغم من أساس مشترك داب على المحافظة على نفسه بين الفرس الى الى يومنا — عن دين الآريين ذوى قرابتهم في الهند (٢) . وبينما أخضعت العقيدة الهندية كل الآلهة الأخرى الى اله أعظم اوجد فان الدين الايرانى

(١) كما يدل على هذا الاسم البابلى للحمان « جحش الشرق » .

(٢) بين العناصر المشتركة عبادة ميترأ وهو اله الشمس وذابح المارد (اندرا الهندى)

وعيادة النار والاعتقاد بشرمة تدر يتفوق على الآلهة والاشنان . انظر ب . كيمون (F. Cumont)

ص ١ — ٢ (Les mysteres de) وكان وارونا أعظم اله خلقى في مجمع الآلهة

الفيدية تطورا موازيا لاهور مزدا ومن اصل أرى مشترك .

كان له مظاهر ثنائية (١) وكان مجمع آلهتهم يأتلف حول قوتين لهما السيادة، الواجدة قوة الخير وهي ايجابية خالقة ومصدر النور والحياة والأخرى قوة الشر وهي الظلمة والموت، وهي سبالية، وكانت القوتان تسميان على التوالي، أهور أمزدا (أورمزد) وأهريمن. والصراع خارق العادة، بين هاتين القوتين الإلهيتين غدا ينعكس في مجرى تاريخ البشر. وبين الاثنتين، يقف الانسان وقد وهب الحرية الخلقية التي يتوقف على استخدامها مصيره في العالم الذي يقبع فيما يلي اللحد. وكان الدين الايراني يفرغ الى آداب السلوك، ولم تكن آلهته كالهة الآريين الهنود. معان مجردة تصويرية ولكنهم كانوا شخوصا خلقيين ولم يكن هدف الجهد الانساني الاندماج التام في مطلق وحدة الوجود ولكن سعادة أبدية في السماء حيث يحكم أهوزا مزدا وما كانت الحياة الانسانية وما يلازمها من فروض اجتماعية وأفراح وأحزان بخدعة ولكنها المجال للغفل في همة والقيام بالواجب الخلقى. وفي اعترافه بقيمة الثقافة الدنيوية واتجاهه الى غاية يكون فيها الخلاص الفردي وليس الخلاص القومي، فان دين ايران كان يختلف عن دين العبريين وان تشابهه معه في تعليمه الخلقى الرفيع. وكان الفرس يتسامحون مع الديانات المحلية عندما لا تناصب دينها العدا، ومع هذا فان عقيدتهم انتشرت صوب الغرب بتوسع امبراطوريتهم. وفي نقاوته كما نهض به النبي زرداشت، كان دون ريب، عقيدة القلة أكثر من أن يكون عقيدة الكثرة، وكان من شأنه، بين أيدي المجوس (وهم طبقة من الكهنة) أن يتدهور الى فرائض رسمية بينما أصبحت الجماهير تفسر تعليمه في صبح ديانة ما قبل زرداشت القديمة (٢). وكان مرجع قوته الحقيقية الى اصراره على المسئولية الخلفية.

(١) ولكن براهما الاعلى في دين التوحيد الهندي كان لا سبيلا للوصول اليه وكان الناس مشتاقين الى استرضاء الهين اقل شأنها سيوا ووشنو.

(٢) هاتين زرداشت على الراجح حوالي عام ٦٥٠ ق.م وتحتوي الأسفار الفارسية المقدسة التي يطلق على مجموعها لفظ أوبتا، الجانات وهي ترانيم ربما كتبها النبي نفسه. ويقرب المذهب الزرداشتي أن يكون توحيدا. وكانت عبادة النار لها شأن عظيم اذ كانت النار انقى مظهر لأهوزا أمزدا، ويظهر أن المجوس الاوائل كانوا معادين لمذهب زرداشت ولم يحفل

زراشت :

يرجع تطور الجوسية في نشأتها إلى رجل فارسي يدعى « زارشت » ،
ظهر في عهد سلطنة (كشتاسب) أو (هيستاسب) ملك الملوك الفارسي
(شاهنشاه) وأتى بكتاب - قال أنه سماوى - وأوستوزند .

وهذه الديانة لا تجيز عبادة الأصنام أو احترام الأوثان مطلقا ولا يقرون
إلا باله واحد أزلى سرمدى أبدي ليس له شريك في الملك ومنه الأمر واليه
يرجع ويسمون الله : (أورمزد . أو . هرمز . أو هرمس) والاله (ايزد)
ويعتقدون بخلود النفس وبالعالم آخر بعد الموت يكون فيه العقاب والثواب .
ولكن يعتقدون بأن الله خلق مع الخلق قوتين عظيمتين :

اسم أولاهما : بزدان مصدر الخير .

واسم الثانية : أهرمن أى مصدر الشر .

فجميع الخيرات والشر في هذه الدنيا ينسب إلى هاتين القوتين ويفسرهما

حكماؤهم : بالعقل والنفس .

وهم يبجلون ويعظمون كل الأعمار والكواكب والنجوم وجميع المنيرات
المضيئات بقولهم : انها مظاهر الأنوار الأحدثية ، لا سيما الشمس فانهم
يتعاونون في تعظيمها . لاعتقادهم فيها أنها مصدر النور والحرارة وهما أصل
مادة الحياة وأعظم واسطة عند الله وأكبر مظهر من مظاهر الله ولولاها
لمسا وجد كائن حي في العوالم التي تحت نظامها .

ويوجد في كتبهم أخبار متعددة عن ظهور مجدد ومصلح جديد يوجد

مخبرين همودوت بهم كثيرا . ولقد اثرت عبادات فارس ، كمبادات مصر ويابل في الدين القبري
أول ما اثرت في العهد الذي أعقب غزوات الاسكندر . وفي العهد الروماني ، كما سنرى فيما
بعد ، كانت عبادة ميترا أجد شائعة في عالم البحر المتوسط واثرت اللثائية الفارسية على
المنبجية في الشرق أنها أصل الاعتقاد في شيطان شخصي . انظر كيون **Cumoni** في
الكتاب السابق الاشارة اليه ، المقدمة ص ٦ - ٨ ، وفصل الله (عند الإيرانيين) تاموس
التوراة لبيستنج .

Hastings' Dictionary of the Bible

يراجع : ترات العالم القديم ج ١ ص ٥٢ ، ٥٤ .

لهذا المصلح علامات في تلك الكتب ينطبق البعض فيها صراحة على أحوال

حضرة صاحب الرسالة (الرسول) • والبعض تلميحا وتأويلا (١) •

والمجوس إنما يعظمون النار لعمان فيها منها : أنها جوهر شريف علوى •

ومنها : أنها ما أحرقت إبراهيم •

ومنها : ظنهم أن التعظيم لها ينجيهم في « المعاد » من عذاب النار •

وبالجملة : هي قبلة لهم : ووسيلة وانارة •

ومن عجيب الأمر أن نار فارس المقدسة لو كانت في عصرنا لدلت العلماء

على آبار البترول التي تغذيها ، فالنار كان وراءها سر عجيب وهو البترول

كم أفنت تلك النار آبارا •

يقول الشهرستاني : ولقد كان في كل أمة من الأمم قوم مثل الأباحية

والمزدوكية والزنادقة والقرامطة وكان تشويش ذلك الدين منهم وفتنة الناس

مقصورة عليهم (٢) • •

ويقول فيليب حتى : عبدة النار (المجوس) من أتباع زادت (٣) •

هي أصفى وأطهر العناصر المخلوقة لاعلى أنها هي الخلاق المعبود •

وقال مشيرا الى أن المجوسية سابقة على أن زادت قد استخلص

من اخلط المجوسية وسطا بين العقيدة الوثنية الأولى والعقيدة الالهية

الحديثة (٤) •

ويقول الشهرستاني : فارقا بين المجوسية والحنيفية :

ان الحنيفية هي ائمة الكبرى والشريعة العظمى وذلك هو الدين القيم •

والتوحيد من أخص أركان الحنيفية ولهذا : يقتزن نفى الشرك بكل

(١) يراجع : مفتاح باب الأبواب زعيم للدولة الفكتورية ميرزا محمد مهدي خان رئيس

الحكام الإيراني والأذربيجاني التبريزي نزيل مصر ط ١ مطبعة مجلة المشرق سنة ١٣٢٩ •

(٢) راجع الملل والنحل ج ١ ص ٢١٦ ، كذلك يراجع المسعودي مروج الذهب ج ١

ص ١٧٣ •

(٣) تاريخ سورية ج ٢ ص ٦٦ •

(٤) الله ص ١٠٦ ، ١١٠ •

موضع ذكر فيه الحثيفية « حنيفا » وما كان من المشركين .

ويقول :

« حنفاء لله غير المشركين » .

ثم ان التنية اختصت بالمجوس اثبتوا. اصلين اثنين مدبرين قديمين :

يقتسمان الخير والشر والنفع والضر والصلاح والفساد . يسبون أحدهما :

النور والآخر الظلمة ، وبالفارسية : يزدان وأترامان .

ومسائل المجوسية كلها تدور على قاعدتين اثنتين :

أحدهما : بيان سبب امتزاج النور بالظلمة .

والثانية ، بيان سبب خلاص النور من الظلمة .

وجعلوا الامتزاج مبدأ والخلاص معادا (١) .

وقد أصاب الشهرستاني حين قال : ان هذه الثنوية هي انزم سمات

المذاهب المجوسية لأنها تتراءى في كل مذهب منها بلا استثناء . وهي كذلك

أبقى منها في مجال التفكير ومجال الاعتقاد على السواء لاننا نرى منها ملامح

اليونان (١) .

المجوسية والعرب :

يقول ابن قتيبة : وكانت المجوسية في تميم :

منهم : زرياء بن عدس التميمي وابن حاجب بن زرارة وكان تزوج ابنته

ثم ندم .

ومنهم الأقرع بن حابس . وكان مجوسيا .

وأبو سودة جد وكيع بن حسان . وكان مجوسيا (٢) .

قال أبو حاتم : ان المجوسية لم تكن فيهم (العرب) على ما ذكره

الرواة .

(١) الشهرستاني — الملل والنحل ج ١ ص ٢١٢ .

(٢) الله — للمعاد ص ١١٩ .

(٣) كتاب المعارف ، حقه وقدمه د . ثروت عكاشة دار المعارف ص ٣١ وهو أبو محمد

عبدالله بن مسلم ٢١٣ هـ .

وقالوا : سمى ابنته (دقنوس) باسم ابنة كسرى وتزوجها فغيره بذلك
أهل بيته .

فقال : أليست لى حالا فى دينى ؟ ثم ندم على ذلك وأنشأ يقول :

لحا الله دينك من أغلف تحل البنات لفا والخوات
أحشت على أسرتى سوءة وطوقت جيلى بالمخزيات
وأبقيت فى عقبى سنة مشاتم تحيا بعييد المات(١)

ثم قال : ولم يتمجس منهم أحد قبل .

ويقول : ويقال : ان المجوسية كانت فى بنى تميم .

ويقول : وروى عن أبى عمرو بن العلاء أن نسرا كان صنما لبعض
حمير وكانوا فيما يزعمون مجوسا .

وهم الذين ذكروا فى كتاب الله .. وجدتها وقومها يسجدون للشمس
من دون الله .

النمل ٢١ ، ٢٤

ويقال أن بقايا المجوس الذين كانوا باليمن والبحرين منهم .

علاقة الاسلام بهم :

سنن ابن داود :

قال رجل من الاسبغنديين من أهل البحرين (١) — وهم مجوس — هاجر

الى رسول الله فمكث عنده ثم خرج .

(١) وقال أبو حاتم الرازى وهو الشيخ أبو حاتم أحمد بن حمدان الرازى المتوفى سنة
٣٢٢ هـ . وفى كتابه الزينة فى المصطلحات الاسلامية ماضيه وعلق عليه حسين بن نيفس الله
المهدانى البعيرى سنة ١٩٥٦ .

وذكر مراجعة : المعارف لابن قتيبة ٢٢٩ .

الشعر والشعراء : ٤٤٦ .

المعقد الفريد : ج ١ ص ١٧٤ .

اعلام النبوة للماوردى .

١٦٨ سنن أبى داود فى الخراج عن محمد بن المنكدر بن ساوى العبدى وهو بالبحرين

.. ٣١٢

١ يمك رسول الله العلاء بن الجضرمى الى المنذر بن ساوى العبدى وهو بالبحرين
يدعوه الى الاسلام وكتب اليه كتابا .

نكتب الى رسول الله يقول : وانى قد قرأت كتابك على أهل هجر فمنهم من أحبب الاسلام .

وبارضى مجوس ويهود .. (طبقات ابن سعد) .

فسألته ما قضى الله ورسوله فيكم؟

قال : بشر .

قلت : مه .

قال : الاسلام او القتل .

قال : وقال عبد الرحمن بن عوف قبل منهم الجزية .

قال ابن عباس : فآخذ الناس بقول عبد الرحمن وتركوا ما سمعت أنا

من الأسبندی ، (الأسبندیون منسوبون الى أسبند بلدة بهجر بالبحرين) .

وقيل الكلمة فارسية ومعناها في : عبدة الفرس وكانوا يعبدون فرسا

والفرس في لغة الفرس : أسب .

وفي حديث آخر عن عمر بن أوس :

فرقوا بين كل ذي محرم من المجوس .

ثم قال : وفرقنا بين كل رجل من المجوس وحرمة في كتاب الله .

مرويات لم تحقق :

عن ابن عباس قال : ان أهل فارس لما مات نبيهم كتب لهم ابليس

كتابا .

القدرية والمجوس :

قال ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث والأثر (ج ٤ ص ٨٥)

من حديث أبي هريرة .

القدرية مجوس هذه الأمة .

قيل : انما جعلهم مجوسا لمضاهاة مذهبهم المجوس في قولهم بالأصلين

وهما : النور والظلمة .

يزعمون أن الخير من فعل النور والشر من فعل الظلمة .

وكذا القدرية : يضيفون الخير الى الله ، والشر : الى الانسان والشيطان ،

والله تعالى خالقهما معا لا يكون شيء منهما الا بمشيئة الله فهما مضافان اليه

خلقا وایجادا والى الفاعلية لهما : عملا وكتابا .

المشركون والمجوس :

• الذين أشركوا

قال : الألوسى : هم المجوس : ووصفوا بالاشراك لانهم يقولون بالنور والظلمة (روح المعانى ج ١ ص ٢٧٠)

• النيسابورى على هامش الطبرى يقول : ج ١ ص ٩٧

• ومن الذين أشركوا عبدة النار وهم المجوس

لماذا حاجب بن زرارة هو الذى تمجس ؟

• يقول صاحب السيرة الحلبية ص ١٠

لما أجدبت أرض تميم « بدعاء » النبی عليهم ذهب سيدهم حاجب بن زرارة والد عطارى رضی الله عنه الى كسرى ليأخذ منه أمانا لقومه لينزلوا ريف العراق لأجل المرعى

فقال له كسرى : أنتم قوم غدر وأخاف على الرعايا منكم

فقال له حاجب أنا ضامن أن لا نفعل شيئاً من ذلك

فقال له كسرى ومن لى بوفائك ؟

قال : هذه فرسى رهينة

فحمقه كسرى وجلساؤه وضحكوا منه

فقال له : العرب لو رهن أحدهم شيئاً لا بد أن يفى به

فكانت بنو تميم تعد ذلك القول من مفاخرها

أورد البلاذرى فى فتوح البلدان • حيث قال : أخذ رسول الله الجزية من مجوس هجر • ومجوس أهل اليمن وفرض على كل من بلغ اللحم من مجوس اليمن من رجل وامرأة دينارا • هذه روايات تفيد ان المجوسية هى دين زارديشت فى المفهوم العربى

وأما الروايات التاريخية الخاصة بتمجس حاجب بن زرارة فهى من وجهة نظرى غير صحيحة لأننا نتبعنا كلمة وفد بنى تميم بين يدي الرسول فما وجدنا فيها ما يشير من قريب أو من بعيد الى نسبة المجوسية اليهم أو نسبتهم اليها سواء أكان قول خطيبهم أم كان القول قول حسان بن ثابت

واذا كان رفضنا الرواية الخاصة بحاجب بن زرارة فاننا لا نمنع أن يكون
بينهم من تمجس ولا سيما أنهم كانوا من غسان وهم ملوك الشام وهم وسط
الأعاجم ، يقول حسان :

فلا تجعلوا لله ندا وأسلموا ولا تلبسوا زيا كزي الأعاجم
وجاء في كلمة وفد بني تميم ما يفيد على لسان الزبرقان (من أسماء
القمر) :

نحن الكرام فلا حي يعادلنا منا الملوك وفينا تنصب البيع
يقال عن الزبرقان يرفع بيتا من عمائم وثياب وينضح بأزعران والطيب ،
وكانت بنو تميم تجح ذلك البيت ، قال الشاعر وهو المخيل السعدى واسمه
كعب بن ربيعة :

وأشهر من عوف جلولا كثيرة

الباب الرابع

الكعبة مركز العرب الدينى

- * بناء البيت والدعوة الى التوحيد *
- * المرحلة العبثية *
- * الاتجاه التوفيقى بين المظهر القبلى والدينى *
- * مذهب قريش الدينى ومحتواه الفكرى *
- * التشكك فى الأوثان وسحب الثقة منها *

مكة وبناء البيت

رأينا من عرضنا السابق لتاريخ المنطقة العربية وخاصة شبه الجزيرة العربية أنها لم تكن معزولة عما حولها : سياسيا ، أو اقتصاديا ، أو ثقافيا ، أو دينيا ، فرأينا قامت هنا أو هناك تحت اشراف الكنيسة التي انشأتها وساعدت على قيامها مدارس وليول مذهبية تنظم المدرسة ويشتت أبنائها . وهكذا كنا نرى : أنها ما تكاد توجد الا ويعطل رثتها الهواء . وهذه المدارس الوليدة كانت ذات صبغة دينية ولسانها لا يرطن غير السريانية لغتها القومية . ومع هذا الاضطهاد وجدت قبائل عربية ذات مظهر حضارى اعتزلت الأونان الى المسيحية وكنا نلاحظ أن الدافع الى هذا التغيير ليس دينيا خالصا انما بعضه كان سياسيا .

ووجدت قبائل يهودية الأصل ، أو يهودية الدين ، غير الجنس ، اى قبائل عربية في يثرب ، يختلف المؤرخون : حول تاريخ نزولهم ، وأصلهم ، في هذه المنطقة ، وهل هى قبائل يهودية الأصل ؟ أو قبائل عربية تهودت ؟ والاحتمال الثانى له من أسمائهم العربية ما يبرره هذا فضلا عن التيارات الأخرى .

كانت هذه التيارات حول مكة ، مركز المنطقة العربية ، فهل تجاوزت مكة مع هذه التغيرات ؟ أو بمعنى آخر هل مكة أحست بهذه التغيرات وما هى دلائل هذا الاحساس ؟ لا شك أن هذه الأشياء بددت سكون المنطقة العربية ، وأحلت فيها تغيرات شاهدها محصورة على مستوى أفراد من القبائل ولم يبلغ مستوى عمقها الى الشعور الاجتماعى .

- فوجنا من تمرد على الوثنية ، وأطلقوا على أنفسهم : « المحنثين » .
- ومن اعتنق المسيحية .
- ومن اعتنق الحنيفية وأتى بها من الشام .
- ووجدنا من تثقف ثقافة عامة تلقاها فى مدرسة جنديسابور مثل :
النضر بن الحارث ووالده الحارث بن كلدة .

- ومن كان عنده مجلة لقمان مثل سويد بن صامت .
- والداعون الى توحيد الله بفطرتهم مثل : قس بن ساعدة .
- وطبقات من الحكماء : مثل أكثم بن صيفي .
- والاباحيون الذين يسعون أصنامهم : مثل امرئ القيس .
- ورواية تاريخية تسند الى عمرو بن لحي : انه أتى بصنم من بلاد
البلقاء بعد غزو الاسكندر للشرق .
- ووجدنا فيها الصابئين والمجوس .

ونلاحظ أن هذه التغييرات كان منها ما هو شرقي وما أكثره ومنها ما هو هيليني ، وذلك يظهر في الأصنام . كذلك لم تبق الجزيرة العربية بمنأى عن ديني التوحيد الكبيرين اللذين قاما على حدودها فقد نفذت اليهودية والمسيحية الى الصحراء .

لكن السؤال هو : إذا كانت الاتجاهات الدينية وجدت في مكة وكلها أو أكثرها وفد إليها فما هو الاتجاه الديني لمكة ؟

نبي الله ابراهيم والجزيرة العربية (١) :

عصر ابراهيم الخليل يرجع تاريخه الى القرن التاسع عشر قبل الميلاد وهو عصر عربي بحت قائم بذاته بلغته وهي مرتبطة بالجزيرة العربية وبلغتها وبقبايلها التي سميت فيما بعد بالعرب البائدة لانقراضها .

وقد كانت القبائل العربية المعروفة بالقبائل البائدة آنئذ على قيد الحياة في جزيرتهم في هذا العهد وقد لعبت دورا مهما في تنمية الحضارة العربية السامية .

وقد نبه القرآن الكريم على ذلك بربط صلة ابراهيم الخليل بالجزيرة العربية وبيت الله العتيق وليس بفلسطين .

ان الأثريين ميزوه عن الأذوار التالية واطلقوا عليه تسمية (عصر الحوالمين) .

(١) من كتاب الدكتور احمد سومة .

ومن المهم ذكره في هذا الصدد أن القرآن الكريم كان أول من كشف لنا عن هذه الحقيقة ، وقد جاءت المكتشفات الأثرية حول الهجرات السامية ودراسة علم المقارنة بين اللغات مؤيدة لهذه الحقيقة نفسها التي تربط صلة ابراهيم بجزيرة العرب .

والتوراة ترى أن أرض فلسطين باعتراف التوراة ذاتها كانت أرض غربة بالنسبة الى آل ابراهيم وآل اسحاق وآل يعقوب ، اذ كانوا مغتربين في أرض فلسطين بين الكنعانيين سكانها الأصليين ، والتوراة تتحدث عنها بصفتهم غرباء وافدين طارئین على فلسطين (١) .

أما وطنهم الأصلي فهو (أرام النهريين) أي منطقة حران (حران الحالية) حيث كانت العشائر الآرامية المنتقمون اليها قد استقرت عند منابع نهر البليخ بعد هجرتها من الجزيرة العربية (٢) .

ثم نزلت فروع من هذه القبائل الى جنوبى العراق (منطقة بابل) فكان ابراهيم الخليل من ذريتها . وقد وردت كلمة (اغتراب) كلما ذكر تنقل ابراهيم الخليل في فلسطين وفي مصر ، فقيل : (تغرب ابراهيم في أرض الفلسطينيين) (٣) .

(١) وقال ابراهيم لعبده كبير بيته المستولى على ما كان له . ضع يدك تحت فخذي لاستحلفك بالرب اله السماء وآله الأرض لا تأخذ زوجة لابنى من بنات الكنعانيين اللذين أنا ساكن الذين أنا ساكن بينهم . بل الى أرضى والى عشيرتى تذهب وتأخذ زوجة لابنى اسحاق (تلك . ٢٤ : ٣ - ٤) « ثم أخذ العبد عشرة جمال من خمال موله ومضى وجميع خيرات موله في يده فقام وذهب الى آرام النهريين الى مدينة ناحور » (تك . ٤٠ : ٢ - ١٠) راجع أيضا (تك ٢٤ : ٣٣ - ٢٨) .

(٢) ليست هذه عادة أصيلة لا علاقة لها بالتقاليد اليهودية ؛ ثم الا يستشف منه أن سيدنا ابراهيم الخليل (ع) كان غريبا وفردا في أرض كنعان ؛ او لم يكن بإمكانه نيا لو كان هناك يهود من عشيرته تزويج ولده من احدى بناتهم بدلا من ارسال عبده الى آرام النهريين لجلبه مروسا لابنه من هناك فلا يفرح بزواج ولده الوحيد : راجع أيضا : ٢٨ : ١ - ٢ . (تك ٤٧ : ٦) .

(٣) يجب التمييز هنا بين بنى اسرائيل عند هجرتهم الى مصر في القرن السابع عشر قبل الميلاد وهم أسرة واحدة لم يتجاوز عدد أفرادها السبعين شخصا ، وبين قوم موسى عندما نزحوا الى فلسطين في القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، لأن أسرة اسرائيل انصهرت وذابت في المجتمع المصرى على مر الزمن بحيث لم يبق لها أى اثر عندنا فزاد النبي موسى عليه السلام واتباعه أرض فلسطين بعد خروجهم من مصر بعد مرور حوالى ستمائة عام على زمن دخول أسرة يعقوب الى =

و « انحدر ابرام مصر للتغرب هناك » (١) وانتقل ابراهيم الى ارض الجنوب وسكن بين قادش وشور في جرار (٢) . . . ولما اشترى ابراهيم مغارة المكفيلة من الحيشيين في حبرون قال لهم : « انا غريب ونزير عندكم اعطوني ملك قبر معكم لأدفن ميتي (٣) ومثل ذلك ورد في التوراة فيما يخص اسحاق ويعقوب : « وسكن يعقوب في ارض غربة ابيه كنعان (٤) » وجاء يعقوب الى اسحاق ابيه الى حبرون . حيث تغرب ابراهيم واسحاق (٥) » تصرح وتقول امام الرب الهك : اراميا تائها كان ابي فانحدر الى مصر وتغرب هناك » وهكذا فلا يمكن أن تكون كلمة « تغرب » بمعنى اتجه نحو الغرب لأن ورود كلمة (ارض الغربة) تنفي هذا الاحتمال .

ثانيا : أن ابناء اسرائيل الاثني عشر ولدوا كلهم باعتراف التوراة في فران آرام منطقة حران (٦) حيث مكث يعقوب. المسمى اسرائيل عشرين سنة (٧) ويعنى ذلك أن مولدهم ونشأتهم كانوا خارج فلسطين وهؤلاء هم بنو اسرائيل الذين ورد ذكرهم في التوراة .

« ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا » (قرآن كريم)

يتضح مما تقدم أن تسمية ابراهيم (ابراهيم الخليل) بالعبراني كما في

= مصر . لقد كان هؤلاء يؤمنون بحملة مصرية بحتة اكثرها من بقايا الهكسوس ومن الجنود المصريين النارين كما سنوضح ذلك فيما بعد .

(١) ٢٢ : ١ : ١٠ .

(٢) تك : ٢٠ : ١

(٣) تك : ٢٣ : ٤

(٤) تك : ٢٧ : ١

(٥) راجع ايضا (وظهر الرب لاسحاق وقال لا تنزل الى مصر اسكن في الارض التي

اقول لك تغرب في هذه الارض) تك ٢٦ : ١ - ٣ .

(٦) تك ٢٧ : ٢٧ راجع ايضا ثم اخذ عيسو نساءه وبنيه وبناته وجميع نفوس بيته من

وجه اخيه يعقوب لان املكهما كانت كثيرة على السكن معا ولم تستطع ارض غربتهما أن

تحملهما من اجل مواشيهما . « تك ٢٦ : ٦ - ٧ » .

(٧) وكان بنو يعقوب اثني عشر اخا : بنو ابنة : روبين وشمعون ولاوى ويهوذا

وعساكر وزبولون وابنا راحيل : يوسف وبنيامين ، وابنا بلهة جارية راحيل : دان وبنغالي

وابنا زلفة جارية ليثة جاد واسير وهؤلاء بنو يعقوب للذين ولدوا في فران آرام (تك ١٥ : ٢٣-٢٦)

التوراة كان يراد بها معنى (العبريين) القبائل البدوية العربية ، والقبائل الآرامية التي ينتمى إليها الخليل نفسه ، وبهذا المعنى جاءت كلمة (عبيرو) التي عثر عليها في النصوص المصرية والتي تعود الى القرنين الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد ، ويعترف جورج بوست في مصنفه « قاموس الكتاب المقدس » بأن لقب ابرام بالعبراني لم يقصد به الاسرائيلي وإنما يمكن تأويله على تعبيره بابرام السائح أو المهاجر (١) فقد عثر في تسل العمارنة بمصر على ست رسائل من أحد ملوك منطقة اورشليم الكنعانية اسمه « عبد خيبا » موجهة الى فرعون مصر أمنوفيس الرابع « العبيرو » الذين اجتاحوا بلاده . ولما كانت أرض فلسطين في هذا الدور محمية مصرية فان « عبد خيبا » يقول في رسائله : لم يبق في أرض مولاى الملك شيء . . . نهب (العبيرو) كل البلاد من سيدى الملك . . . البلاد وقعت في أيدي (العبيرو) ومن الواضح هنا انه يمكن أن يكون (العبيرو) الذين ورد ذكرهم في هذه الرسائل هم اليهود . وهكذا فان التوراة حين تصف ابراهيم الخليل بالعبراني تسائر واقع الحال باعتباره من قبائل الخبيرو (العبيرو) التي ينتمى إليها ، أى القبائل الآرامية ، قبل أن يكون لليهود وجود بعد . ويؤيد ذلك المستشرق توردارسون ، استاذ اللاهوت في جامعة أيسلندا ، فيرى أن ابراهيم شبه بدوى ينتمى الى القبائل القديمة المسماة بالعبيرو ولعله ينحدر من هذا العرق القبائلى نفسه (٢) فقد عاش ابراهيم في القرن التاسع عشر قبل

(١) يلاحظ أن هذه العبارة قد حذفت من الطبعة الجديدة لقاموس الكلمات المقدس لعام ١٩٧١ بل وأكثر من ذلك حذفت جميع الدراسات العلمية التي قام بها العلامة جورج بوست ليوضح مكانها ، خلافا لما جاء في المقدمة ما يؤكد ربط اليهود بمصر ابراهيم الخليل واعتبار كلمة عبرانيين أو عبرانيين شاملة لكل ادوار اليهود التاريخية التي تبدأ بابراهيم الخليل وتعا للتقاليد اليهودية التي تعتبره جد اليهود ، ويلاحظ أيضا أن هذا القاموس الجديد يدمج النظرية المسيحية الحديثة التي تعتبر جميع الاسماء الواردة في التوراة من أسماء أشخاص وأماكن عبرية أى يهودية بقصد ارجامها الى عهد العبريين (العبيرو) عن طريق الاستغلال في ذلك الخلط بين العبرى واليهودية الذى تثار عليه في وقت متأخر للتصويه . أن العبرية القديمة هي في الحقيقة لغة عهد (العبيرو) أى الكنعانيين لان العبرية بمعنى اليهودية متأخرة ولم يكن عدد وجدت في ذلك العهد القديم من ملاحظات — د . . سوسة في كتابة السابق .

(٢) انظر ما تقدم عن الاخلامو والخبيرو في بحث الارانيين في الفصل الاول .

الميلاد ، أى فى زمن يسبق عهد موسى بسبعمائة عام . وقد ظلت هذه التسمية أى تسمية عبرى وعبرانى ، تطلق على الجماعات من القبائل النازحة من البادية ومن جهة فلسطين الى مصر وعلى هذا الأساس صارت المصريون يسمون الاسرائيليين بالعبرانيين باعتبارهم من تلك الجماعات البدوية (١) . وأما ما أورده الباحثون من أن كلمة « عبرى » مشتقة من عبر أى قطع نهرا أو غيره أو من « عابر » أحد أسلاف ابراهيم (٢) فغير مستند. الى أى دليل أو أساس وهى من قبيل الحدس والاجتهاد وقد نبه القرآن الكريم الى هذه الناحية حيث قال تعالى : (يا أهل الكتاب لم تحتاجون فى ابراهيم وما أنزنت التوراة والانجيل الا من بعده أفلا تعلقون ... ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانياً ولكن كان حنيفيا مسلما وما كان من المشركين (٣) .

ولهذه الآية الشريفة معنيان : المعنى الأولى : هو أن ابراهيم ما كان على دين (يهود — اله اليهود — بل كان حنيفا مسلما) كما تقدم . والمعنى الثانى : هو أن نور ابراهيم الخليل هو غير نور اليهود ولا يتصل بنور اليهود الأخير .

يتضح من التنبية الذى ورد فى القرآن الكريم أن هناك من وقع فى نفس الخطأ الذى وقع فيه الكتاب العرب بربطهم عهد ابراهيم الخليل باليهود ، وأن هذا التنبية الى أن ابراهيم الخليل ظهر قبل وجود اليهود وأنه لا يمكن أن يكون يهوديا ثم الاشارة الى اتصاله بالجزيرة العربية (بيت الله العتيق) يتفق تماما مع ما توصل اليه العلماء فى ضوء الاكتشافات الأخيرة وعلى الباحثين أن يتبعوا ما نبه اليه القرآن الكريم فى هذا الموضوع ، لأن استعمال كلمة عبرى بمعنى يهودى عندما يبحث عن تلك الأزمان القديمة

(١) دائرة المعارف البريطانية ١٩٢٥ ، م ١ ، ص ٤٥ .

(٢) تك : (٢٩ ، ١٤ ، ١٧ ، ٤٠ ، ١٥ ، ٤١ ، ١٢) خر ١ — ١٥ ، ١٦ ، ١٥ — ٢ ، ٧ ، ١١ و ١٢) .

(٣) تك : (١٠ ، ٢٤ ، ١١ : ١٤) .

(٤) فتحى رضوان : « اليهود وبنو اسرائيل » الاطرام (١٧٪ ١٠٪ ١٩٧٢ ص ٧) .

(٥) سورة ل عبران : الإيتان . : ٦٤ ، ٦٦ .

لا يتفق مع المستند العلمى التاريخى فضلا عما يحدثه من ارتباك اذ يربط اليهود بأدوار تاريخية قديمة .

اله ابراهيم الخليل غير اله اليهود :

ان الاله الذى كان ابراهيم الخليل يدعو لعبادته هو غير اله اليهود الذى تصفه التوراة ، لان دعوة براهيم الخليل لعبادة الاله الواحد كانت دعوة عامة موجهة الى جميع السكان الوثنيين فى عصره بلا استثناء . الاله الاوحد خالق السموات والارض وجميع البشر ، رب جميع المخلوقات بدون تمييز بين الأتوام (١) ومما يؤيد ذلك ان ابراهيم الخليل لما استدعى عبده وأمره بأن يذهب (٢) الى « حاران » لياخذ زوجة لابنه اسحاق من عشيرته هناك قال له : فأستحلفك بالرب اله السماء واله الارض ان تأخذ زوجة لابنى من بتات الكنعانيين الذين انا ساكن معهم (٣) وقد ورد ذكر هذا الاله الذى دعا ابراهيم الى عبادته باسم (ايل) فى التوراة (٤) وهو مفرد لكلمة (اباهييم) الكنعانية المراد بها الجمع والتعدد ، اى الآلهة ، ومنه جاءت تسمية « بيت » (٥) و « ايل » هو الاله تكلم مع هاجر (٦) وقد ورد هذا المصطلح نفسه فى النصوص الكنعانيين والآرامية ثم فى النصوص المصرية التى ترجع الى عهد الهكسوس بهذا المعنى فقيل (يعقوب ايل) و (يوسف ايل) اى يعقوب الاله او يوسف (٧) عملا بالطريقة التى كانت متبعة باضافة اسم الى اسم الشخص تبركا به كما هو متبع الآن بتسمية الأشخاص بعبد الله وعبد الاله الخ . . . وذلك مما يدل على أن كلمة (ايل) بمعنى الاله الواحد كانت معروفة فى كنعان فى عهد ابراهيم الخليل وفى عصر الهكسوس

(١) فتحى رضوان : « اليهود دينو اسرائيل » الاهرام (١٧ ٪ ١٠ ٪ ١٩٧٢ ص ٧) .

(٢) تك ١٤ : ١٩ .

(٣) تك ٣٤ : ٣ .

(٤) تك ١٢ : ١٢ ، ٨ : ٧٣٥ - ٨ .

(٥) تك ١٢ : ٨ ، ١٣ : ٣ .

(٦) تك ١٦ : ١٣ - ١٤ .

(٧) انظر ما تقدم عن الهكسوس فى الفصل الاول وما تقدم عن عصر ابراهيم واسحق،

ويعقوب فى هذا الفصل ١٥.

الذى يليه اى قبل ان يظهر موسى واليهود . بعدة قرون ، ولما ظهر اليهود عبدوا الاله الخاص بهم الذى سمي باسم (يهوه) الاله الذى لا يهيمه من العالم والخلق سوى اليهود و شعبه المختار ، وذلك على غرار مبدأ التفريد وهو المبدأ الذى اعتنقه الأتوام القديمة عندما كانت كل مدينة تختص باله واحد من بين مجموعة الآلهة بدون نبذها عبادة الآلهة الأخرى والقضاء عليها (١) . وهو حاكمها وهو قائدها على صورة البشر والبشر على صورة الاله ، مسكنه فى السماء وينزل أحيانا الى الأرض ، فيتفحص الأشكال البشرية ، ويكلم البشر بصوت ولفظ ويأكل ويشرب الخ (٢) . وهكذا كان الاله الذى تصوره اليهود الها قبلياً خاصاً بهم ويناقش آلهة الأتوام الأخرى ويحارب معهم كما كانت الحال عليه فى عصر دويلات المدن فى العراق القديم ولا يخفى أن دعوة ابراهيم الخليل للوحدانية الخالصة بدأت من العراق وليس من فلسطين وهى موجهة الى جميع الوثنيين فى عصره ولم تخطر على بال ابراهيم الخليل فكرة الشعب المختار ، وهى البدعة التى اختلقها مدونو التوراة وأدخلوها فى الكتاب المقدس بعد ربطها بابراهيم الخليل ، اذ لا يمكن ان تكون هذه الادعاءات منزلة من الاله خالق السموات والأرض الذى دعا ابراهيم الخليل الى عبادته قبل ان يكون ظهر اليهود بعدة قرون . لذلك كله تعتبر دعوة ابراهيم الخليل الى الوحدانية الخالصة اول دعوة عامة للتوحيد بالمعنى الدقيق لمصطلح التوحيد فى تاريخ البشرية ، وهى عربية لغة ووطنا ، كما جاءت بعدها رسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، النبى العظيم خاتم الأنبياء ، وقد نزلت عليه باللغة العربية أيضاً . لان اللغة التى كان يتكلم بها ابراهيم الخليل والآراميون معه فى تلك الأزمان هى اللغة العربية الأم التى يرجع وطنها الاصلى الى الجزيرة العربية ، وكانت لغة واحدة تتكلم بها جميع القبائل وذلك قبل ان تتفرق هذه اللغة الأصلية الى لهجات مختلفة ضمن كتلة اللغات السامية ، وما كان الاسلام الا ملة

(١) طه باقر ، (مقدمة ... ، ج ٢ ، ص ٣٠٣) .

(٢) تصور التوراة الاله كشمس يحارب بنفسه من أجل اسرائيل (خر ١٤ : ١٤) .

يش ١٠ : ٤٢ ، ٢٣ ، ٢٤) وله رجلان ويمشى كالانسان (خر ٢٤ : ١٠) ويكتب بأصبعه

(خر ٣١ : ١٨ ، ٢٢ : ١٥ - ١٦ ، ١٩ ، ٢٤ :) ويندم على بعض أعماله (ا سم ١٣ -

١٤ الخ ...) .

ابراهيم حنيفا فيقول الدكتور هوميل : « ومما لا شك فيه ان اللغة الآرامية في عصر ابرام (ابراهيم الخليل) كانت لهجة عربية ، ويقصد هنا اللغة الأصلية التي كان يتكلم بها الأراميون في الجزيرة العربية قبل هجرتهم منها ، لان التي كان يتكلم بها الأراميون في الجزيرة العربية قبل هجرتهم منها ، لان ما نسميه بالآرامية لم يظهر الى حيز الوجود إلا بعد زمن متأخر جدا وأن ما يعرف بأرامية التوراة أرامية عصر المسيح يرجع الى زمن الفرس وفترة العصر المسيحي (١) .

وقد ورد اسم الاله (ايل) مضافا الى أسماء عدد من الملوك المعينيين في اليمن ومنهم : « وقه — ايل » ، « يصدق ايل » ، ملك حضرموت ومعين الذي كان حكمه حوالي سنة ٢٠١ ق.م و « يثع ايل » كما ورد اسم الاله ايل مضافا الى أسماء بعض ملوك سبأ والمعروف منهم « يدع ايل » « كرب ايل » و « وتر الأول والثاني والثالث والرابع والخامس » وهب ايل » ، ففي ذلك دليل واضح على ارتباط ابراهيم الخليل بالجزيرة العربية وأن الاله الواحد الذي كان يدعو الى عبادته ابراهيم الخليل كان معروفا في جزيرة العرب بصفته « الاله العلى » مثل ما كان معروفا عند الكنعانيين والآراميين بهذه الصفة ، وأن اضافة اسمه الى أسماء بعض ملوك اليمن دليل على ان اسم « ايل عربي الأصل أى الاله » .

ومما يدل على ان عبادة ابراهيم الخليل لاله « ايل » منفصلة تماما عن عبادة اليهودية لاله « يهوه » التي ابقدها كتبة التوراة بعد عهد ابراهيم الخليل بأربعمائة والفا سنة ، ان أسرة ابراهيم الخليل في ثلاثة أظهر كانت تضيف اسم الاله « ايل » الى أسماء زعمائها . فابراهيم الخليل نفسه هو النبي الوحيد الذي سمي « خليل الله » كما ورد في القرآن الكريم (واتخذ الله ابراهيم خليلا) (٢) .

ومن المرجح ان كلمة خليل عربية مركبة من (خل) وايل ، بمعنى

(١) Dr. F. Hommel «The Ancient Hedrew Tradition» p. 202

(٢) سورة النساء الآية ١٢٥ .

صديق الاله (ايل) • ومثلها اسم اسماعيل الذي معناه ليسمع الاله (ايل)
وكذلك اسم يعقوب (اسرائيل) الذي معناه عبد الاله « ايل » •

ويؤيد المستشرق ثورير ثوردارسون أستاذ اللاهوت في جامعة ايسلندا
كون ديانة التوحيد التي دعا ابراهيم الخليل الى عبادتها هي خاصة به
بعشيرته ولا صلة لها باليهودية فيقول في ذلك : « لقد أظهرت المدونات
الآشورية من القرن العشرين قبل الميلاد والكتابات التي تعود الى انعمصور
التي تلى ذلك العصر ان ديانة ابراهيم تستند الى الايمان بالاله العلي ، وهذا
يتفق مع الصورة التي نجدها في التوراة (أنا اله ابراهيم أبيك) (١) فابراهيم
اذن هو مؤسس وحامل لواء هذه الديانة التي تدعو الى عبادة الاله العلي
وأصبحت تقترن بصلة وثيقة بعشيرته (٢) •

ومما يذكر في هذا الصدد أن التوراة عندما تتحدث عن ابراهيم الخليل
وعن كلامه مع الاله تستعمل كلمتي « الله » و « ايل » وقال الله لابراهيم (٣) •
مع أنها تستعمل أحيانا كلمة « الرب » ومثل ذلك هي الحال بالنسبة ليعقوب
ثم قال « الله » ليعقوب قم واصعد الى بيت « ايل » وأقم هناك واصنع
هناك مذبحا لله ••• (٤) وظهر الله ليعقوب الخ (٥) •

أما الاله « يهوه » فإنه لم يبدأ استعماله الا في عهد النبي موسى (٦)
اله اليهود وحدهم (٦) •

النبوة الالهية عربية لفظا ومعنى :

ويؤكد المرحوم الأستاذ العقاد أن الاسرائيليين (اليهود) تعلموا النبوة
الالهية بلفظها ومعناها من شعوب العرب ، ولم تكن لهذه الكلمة عند

(١) تك ٢٦ : ٢٤ •

(٢) دائرة المعارف البريطانية طبعة ١٩٢٥ ، ج ص ٤٥ •

(٣) تك ١٧ : ١

(٤) تك ٣٥ : ١

(٥) تك ٣٠ : ١

(٦) خر ٦ : ٣ ، ٣٠ : ١٥ ، ٦ : ٦

الاسرائيليين (اليهود) لفظه تؤديها قبل وفودهم على أرض كنعان ومحاورتهم للعرب المقيمين في أرض مدين ، فيقول :- « ان كلمة نبي عربية لفظا ومعنى لأن المعنى الذى يؤديه لا تجمعه كلمة واحدة في اللغات الاخرى والعبريون قد استعاروها من العرب في شمال الجزيرة بعد اتصالهم بها ، لانهم كانوا يسمون الأنبياء القدماء بالآباء ولم يفهموا من كلمة النبوة في مبدأ الأمر الا معنى الانذار . . . فكانوا يسمون النبي بالرائى (١) أو الناظر أو رجل الله ، ولم يطلقوا عليه اسم النبي الا بعد معرفتهم بأربعة من أنبياء العرب المذكورين في التوراة ، وهم ملكى صادق وأيوب وبلعام وشعيب الذى يسمونه يثروب وهو معلم موسى الكليم « (٢) . وقد سمي ابراهيم الخليل برئيس الآباء (٣) ويستشهد العقاد ببعض علماء الأديان الغربيين الذين ذهبوا الى تأييد اقتباس اتباع موسى كلمة النبوة من العرب مثل الأستاذ هولسر والأستاذ شميدت اللذين يرجحان أن الكلمة دخلت اللغة العبرية بعد وفود القوم على فلسطين . فتشير التوراة الى ان عاموس اغتاض وغضب لما أطلق عليه اسم نبي وقال : « لست انا نبيا ولا انا ابن نبي بل اسرائيل (٤) .

انا راع وجانى جميز » .

فاخذنى الرب من وراء الضان وقال الرب اذهب تنبياً لشعبى

(١) ما ٧ : ١٢ .

(٢) العقاد ، « الثقافة العربية » . ص ٧١ .

(٣) عب ٧ : ٤ .

(٤) عا ٧ : ١٤ - ١٥ .

الكعبة بيت الله الحرام

الكعبة مركز ديني قديم عده المؤرخون من أحد البيوت السبعة المقدسة ووصفه القرآن بأنه أول بيت وضع للناس وهو الذى بمكة مباركاً فيه آيات بيئات ، ويسند القرآن تجديد بنائه الى ابراهيم واسماعيل فيقول .

« وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيئتي للطائفين والعاكفين والركع السجود » ويقول : واذا يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم .

وليس في القرآن ما يدل على أن ابراهيم دعا سكان البلد الحرام او جاورهم الى دعوته الحنيفية ، وكل ما أشار اليه القرآن أن ابراهيم كلف بأمرين :

الأمر الأول : ايداع اسماعيل وأمه في جوار البيت .

الأمر الثانى : بناؤه واسماعيل البيت الحرام .

كانت مكة وهى المدينة الرئيسية بالحجاز والتي اشتق اسمها من كلمة (محراب) بلغة أهل سبأ (١) تضم ما لا يقل عن ثلثمائة وثمن ترضى كل فوق . أى أوجدت كل قبيله وكل اسرة بل كل محراب مستقل طقوس دينه ومادة عبادته كما عمدت الى تغييرها ولكن الأمة العربية فى كل عصر خضعت لدين مكة كما أحنى الرأس أمام لهجتها .

ويرجع تاريخ الكعبة حقا الى ما قبل العصر المسيحى . وقد لاحظ المؤرخ اليونانى « ديودوروس » فى وصفه لشاطئ البحر الأحمر أن هناك معبدا شهيرا يقع بين رض ثمود وارض سبأ يبجله العرب لما له من قدسية سامية .

وجدير بالذكر ان الكسوة المصنوعة من التيل او الحرير كان اول من قدمها ملك تقى من ملوك حمير عاش قبل زمن محمد بسبعمائة سنة (٢) .

(١) العرب ص ٢٢ نلتج ترجمة د . راشد البراوى .

(٢) اضلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها تأليف : ادوارد جيبون .

ترجمة : د . محمد سليم سالم مراجعة محمد أبو ذرة .

تعتبر مكة من البلاد القديمة قدم بيتها . وكان اليونانيون يعرفون مكة ويطلقون عليها « ماكواريا » يقول جيبون : وهذا اللفظ يدل على عظمة هذه البلدة . (١)

ويبدو أن اسم مكة (٢) لم يكن معروفا قبله وذلك يظهر من قول ابراهيم حكاية عنه في قوله تعالى : ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم .

واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبني أن نعبد الأصنام . (ابراهيم)

واذ بو أنا لابراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئا . (الحج)
 وواضح من الآيات أن نبي الله ابراهيم لم يدعها مكة وإنما دعاها : بواد غير ذى زرع مرة ، وبلدا آمنا مرة أخرى ، والبلد الأمين الثالثة .
 ثم يذكره لله بقوله : واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت .

فلم تذكر مكة في الروايات التاريخية للقرآن — كما رأينا — وفي هذا مدخل لبعض مؤرخى اليهود أو المسيحية لينكروا رحلة ابراهيم الى مكة وبناءه البيت حيث لم يسمعوها ذكرا لمكة ، ويذكر المؤرخون المنصفون بعض الاسماء القديمة التى تشير الى ذلك : يقول الشهرستاني : نقلنا عنهم : وكما ورد في التوراة : أن الله تعالى : جاء من « طور سيناء » وظهر « بساعير » واستعلن « بفاران » .

(١) المرجع السابق ص ١٣ ج ٢ .

(٢) أسماء مكة : من تمككت العظم اذا اجتذبت ما ليه من الخ وتمكك الفصيل ما في ضرع الناقة . مكانها تجتذب الى نفسها ما في البلاد من الناس والافات التى تأبها من التواسم . وقيل لسا كانت في بطن واد لى تمك الماء من جبالها عند نزول المطر وتنجذب اليها السيول : قال الراجز :

اذا الشريب أخذته اكسه فخلقه حتى تبك بكه

ملاكه : الشدة . واکاك الدهر : شدائده .

بكة : من انها تبك الجبابة أى تكسهم وتقرمهم وقيل من التباك وهو الإرتحام .

قال أبو عبيدة . أن بكة اسم البطن لانهم يتباكون فيها أى يزدهمون .

وايضا يذكر من اسمائها : الراسى — وصلاح — وأم . زحم — وكونا .

ساعير : جبال بيت المقدس التي كانت مظهر عيسى عليه السلام : وفاران :
جبال مكة التي كانت مظهر المصطفى صلى الله عليه وسلم . فمن يتمعن
الآيات القرآنية نجدها لا تشير من خلال رواياتها التاريخية أن ابراهيم سماها
مكة .

ويغلب على وجهة نظري من خلال آيات القرآن : أن ابراهيم سار بهاجر
وابنه اسماعيل بوحي الهى وليس كما تزعم الروايات الأخرى أن سارة
طردتها ولطمتها فتلك نزعة عرقية من اليهود تراودهم في كل وقت : « وقالت
اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه » . هذه النزعة صورت لهم دائما
انهم سلالة واحدة وعنصر لا يزاوج العناصر الغريبة عنه وهذا الاسراف
في فهم الذات جعلهم مولعين بتزييف بعض الروايات التاريخية التي تخدم
فكرتهم . ولذلك فان نبي الله ابراهيم سار بهاجر واسماعيل وفق نداء
الله وحكمته في قوله « وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل » فكانت المسيرة
ذات هدف وظيفى وليس طردا او غضبا ولنا في ذلك حجة بالغة هي قوله
تعالى : أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود » ، واما تساؤل
أهل الكتاب عن مصدر معرفة الرسول من أين استقى أخباره عن ابراهيم
وبعضها غير موجود في التوراة والانجيل فان الله رد عليهم بقوله : « يا أهل
الكتاب لما تحاجون في ابراهيم وما أنزلت التوراة والانجيل الا من بعده
أفلاتعتلون . ها أنتم هؤلاء حاجتكم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس
لكم به علم والله يعلم ونتم لا تعلمون » .

« ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مبسلا وما كان
من المشركين . ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا
والله ولى المؤمنين » آلى عمران : فروايات التوراة والانجيل كانت من بعده
فلا تنهض حجة لوقف سارة من هاجر (١) . ومما نحب أن نقوله : أن

(١) يقول ابو حيان صاحب المسر ج ١ ص ٣١٧ أنهم ذكروا قصصا كثيرة واستطردوا
من ذلك للكلم فى البيت المعمور والحجر الأسود وطردوا في ذلك بإيشياء لم يضمنها القرآن
ولا الحديث الصحيح وبعضها يباغض بعضا وذلك على حرى ماداتهم في نقل ما رآه وما درج
ولا ينبى أن يعتمد الأ على ما صح في كتاب الله وسنة رسوله . قال ابن عطية .
والذى يصبح من هذا كله أن الله المر ابراهيم برفع القواعد من البيت .

الآيات القرآنية الخاصة باسماعيل وصفته بالفجوة والرسالة معا فهو نبي ورسول واشترك مع والده في بناء البيت واعداده مثابة للناس وامنا . غير أن القرآن لم يوضح أو لم يشر الى أي قوم كان مبعثه ، من العرب أو غيرهم ويبدو أن رسالته كما أشار القرآن كانت الى أهله .

قال تعالى : « واذكر في الكتاب اسماعيل انه كان نبي صادق الوعد وكان رسولا نبيا . وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا » « مريم » وأهله هم الذين حطوا بجوار زمزم وتزوج منهم . ومما أشار اليه القرآن انه كان من الصابرين . قال تعالى : « واسماعيل وادريس وذا الكفل كل من الصابرين » . (الأنبياء)

وبالرغم من أن دعوة اسماعيل كانت الى ذلك الرهط الذي نزل بجوار زمزم وتزوج منهم اسماعيل فانه كان من الصابرين ، ويبدو أن قريشاً خلفهم لم يكونوا بأحسن حال من سلفهم نسب أبيهم اسماعيل .

ومما يحسن الالتفات اليه أن رسالة اسماعيل كانت لا تخرج عن ملة ابراهيم لأن القرآن كثيرا ما كان يذكر العرب بأن الاسلام ملة ابراهيم حنيفا وهو الذي سماكم المسلمين من قبل . وفي هذا ما يشير الى ان ملة ابراهيم هي دعوة اسماعيل غير أنه أسند اليه أمر الدعوة في قومه العرب . فمنذ ان أقام ابراهيم واسماعيل قواعد البيت مثابة للناس وامنا ودين التوحيد اقيم معه لو لا ما طرا عاياه من عوامل التغيير ، وتصبح رحلة ابراهيم تعنى اقامة أهله حول البيت ثم رفع قواعده وتأسيس دين التوحيد ، وممن بقى من العرب ظلى بقية من دين اسماعيل : « معد وربيعه ومضر كانوا جميعا على بقية من دينه » (١) .

« والدين العربى القديم هو الخطوة السابقة للدين البابلى الآشورى المعقد ، كما أن ذلك الدين العربى القديم هو الذى مهد لهذا التطور التاريخى للدين العربى لليهودى مع حرصه على الاحتفاظ بدين الآباء دين الصحراء البدائى الذى دان به آباء الشعب واجداده الأولون كما أنه بقى زمنا طويلا موضوع نزاع وعراك شديدين بين العقيدتين الدينيتين : السامية الشمالية والسامية الجنوبية والذى تطور أخيرا الى الثالوث الالهى (أب وابن

(١) الاصنام ص ١٣ للكلبى تحقيق أحمد زكى باشا .

وروح قدس) ومن ثم خطأ خطوة الى التوحيد المسيحي في صورته القديمة التي نعرفها في الحضارة العربية القديمة * (١) .

ومن بين الباحثين المتخصصين الذين أكدوا الدور الفعال الذي لعبه الساميون العرب من شبه جزيرتهم العربية في التطور السياسي والحضاري لمنطقة الشرق الأدنى وعلاقته الوثيقة بالعنصر السامي الألماني نكتور أنطون موتكات اذ يقول : لا تعتبر بلدان الشرق الأدنى مركز الديانات وحسب بل مصدر الاشعاع الديني الذي أثار الأرض بكاملها (٢) .

ويؤيد هذا ما يشير اليه الكلبى في رواية أخرى غير رواية عمر وبن لحي الى أن الوثنية طارئة والأصل عندهم عبادة التوحيد التي كانت اثرا من دعوة ابراهيم واسماعيل فيقول : وكان الذى سلخ بهم الى عبادة الأوثان والحجارة انه كان لا يطعن من مكة طاعن الا احتمل حجرا من حجارة الحرم تعظيما للحرم وصبابة بمكة فحيثما حلوا وضعوا وطافوا به كطوافهم بالكعبة تيمنا منهم بها أو صبابة بالحرم وحبا له ففكرة الأحجار المقدسة نشأت من حبههم مكة .

وهم بعد يعظمون الكعبة ومكة ويحجون ويعتبرون على ارث ابراهيم واسماعيل ، ثم سلخ ذلك بهم الى أن عبدوا ما استحبوا ونسوا ما كانوا عليه واستبدلوا بدين ابراهيم واسماعيل غيره فبدوا الأوثان وصاروا الى ما كانت عليه الأمم من قبلهم (٣) . ويقول المقدسى : وكان في مشركيهم بقية من دين اسماعيل كالنكاح والختان والمناسك وتعظيم الأشهر الحرم وغير ذلك (٤) .

وذكر الشهرستاني من سلفهم التي وافقهم عليها القرآن الكريم فقال : قال محمد بن السائب الكلبى : كانت العرب في جاهليتها تحرم أشياء نزل القرآن بتحريمها : كانوا لا ينكحون الأمهات ، ولا البنات ، ولا الخالات ، ولا العمات .

(١) يراجع العرب واليهود في التاريخ ص ١٧٨ د . أحمد شوسة .

(٢) التاريخ العربى القديم ص ٥٣ د . دنلد نيلش ورفاته .

(٣) الاصنام ص ٦ .

(٤) البدء واى تاريخ ج ٤ ص ٢٣ .

وكانوا : يطلقون ثلاثا على التفرقة ، قال « عبد الله بن عباس » رضى الله عنهما : أول من طلق ثلاثا على التفرقة « اسماعيل بن ابراهيم » عليهما السلام . وكان العرب يفعلون ذلك ، فيطلقها واحدة وهو أحق الناس بها ، حتى اذا استوفى الثلاث : انقطع السبيل عنها ومنه قول « الأعشى » :
ميمون بن قيس « حين تزوج امرأة فرغب قومها عنه ، فأتاه قومها ، فهددوه بالضرب أو يطلقها ،

أيا جارتى بينى فانك طالقة كذلك أمور الناس غاد وطارقة
قالوا : ثنه ، فقال :

وبينى ، فان البين خير من العصا وأن لا ترى لى فوق رأسك بارقة
قالوا : ثلث ، فقال :

وبينى حصان الفرج غير ذميمة وموموقة قد كنت فينا ، ووامقة
قال : وكانوا يحجون البيت ويعتمرون ، ويحرمون ، قال « زهير » :
وكم بالقيان من محل ومحرم .. ويطوفون بالبيت سبعا ، ويمسحون بالحجر ، ويسعون بين الصفا والمروة ، قال أبو طالب :

وأشواط بين المروتين الى الصفا وما فيهما من صورة وتخايل
وكانوا يلبون ، الا أن بعضهم كان يشر كفى تلبيقته ، فى قوله : « الا
« الا شريك هو لك ، تملكه وما ملك » ، ويقفون المواقف كلها ، قال
« العدوى » :

فأقسم بالذى حجت قریش وموقف ذى الحجيج على اللالى
وكانوا يهدون الهدايا ، ويرمون الجمار ، ويحرمون الأشهر الحرم ،
فلا يغزون ويقاقلون فيها . . . الا « طى » وخنعم وبعض « بنى الحارث بن كعب » .
فانهم كانوا لا يحجون ، ولا يعتمرون ، ولا يحرمون الأشهر الحرم ولا البلد
الحرام وكانوا يكرهون الظلم فى « الحرم » ، وقالت امرأة منهم تنهى ابنها
عن الظلم :

أبنى ! لا تظلم بمكة
 أبنى ! من يظلم بمكة
 أبنى ! قد جربتتها
 لا الصغير ولا الكبير
 يلق أطراف الشرور
 فوجدت ظالمها يبور

قال صاحب الروض الأنف :

وينسبون الى الوليد بن المغيرة قوله : يا معشر قريش لا تدخلوا في
 بنائها من كسبكم الا طيبا لا يدخل فيه مهر بغى ولا بيع ربا ولا مظلمة
 احد من الناس .

ثم قال معلقا :

يدل على أن الربا كان محرما عليهم في الجاهلية كما كان الظلم والبغاء .
 يعلمون ذلك ببقيية من بقايا شرع ابراهيم ، كما كان بقى فيهم الحج
 والعمرة وشيء من أحكام الطلاق والعتق .

وفي هذا ما يفيد ويقوى ما نحن بصدده : وهو ان الدعوة الى التوحيد
 راغقت بناء البيت ، واذا كانت ملة ابراهيم الملة الكبرى ، فان رحلته في
 التاريخ الرحلة الكبرى ، فكان لها أثرها في فلسطين وكان لها أثرها في مكة
 وأن الاله « ايل » لفراه منتشرا من مكة الى فلسطين وما دعا الى الله الا بعد
 أن حارب الصابئة وأبطل عبادة التتجيم وحارب الوثنية وحمل مسئولية
 تحطيمها الى صنمهم الاكبره امعانا في الزراية بهم .

الكعبة والمرحلة العبتية :

ولقد كانت الكعبة حرم الله الآمن : موطننا لدعوة اسماعيل واهلها من
 نسله فكانت منذ أن عهد الله ببنائها الى ابراهيم واسماعيل هي محل تقديس
 وأرضا لدين سماوى أقامه اسماعيل فيها وحولها الى أن آلت مقاليدها الى
 جرهم — ظلما من ولد اسماعيل — ورأى ولد اسماعيل عدم منازعتهم لختولتهم
 من جهة واعظاما لحرمة البيت من جهة أخرى .

بيد أن جرهم بغوا بها واستحلوا حلالا من الحرمة : فظلموا من دخلها

من غير أهلها واكلوا مال الكعبة الذى يهدى لها فرق أمرهم فلما رات بنو بكر عبد مناة بن كنانة وغبشان من خزاعة ذلك أجمعوا على حربهم وإخراجهم من مكة فلأذنوهم بأحرب فاقتتلوا فغلبتهم بنو بكر وغبشان فنفؤهم من مكة وآل امر البيت الى رئيسهم عمرو بن لحي .

وكانت مكة فى الجاهلية : لا تقر فيها ظلما ولا بغيا ولا يبغى فيها أحد
الا أخرجته .

الاتجاه نحو الوثنية وكيف نشأت :

إمامنا روا يتين نتحدث عن نشاء الوثنية العربية الأولى نرى أنها وافده والثانية نرى أنها نشأت نشأة محلية أما عن الرواية الأولى فانها وفدت .
مع عمرو بن لحي حين غلبت خزاعة على البيت ونفيت جرهم عن مكة قد جعلته العرب رجا لا يبتدع لهم بدعة الا اتخذوها شرعة لأنه كان يطعم الناس ويكسو فى الموسم . . تذكر الرواية التاريخية أنه اول من أدخل الأصنام الحرم .

يقول الرازى المفسر : اعلم ان اليونانيين كانوا قبل خروج الاسكندر عمدوا الى بناء هياكل لهم معروفة بأسماء القوى الروحانية والأجرام النيرة واتخذوها معبدا لهم على حدة وقد كان هيكل العلة الأولى وهى عندهم :
الامر الالهى .

- وهيكل العقل الصريح .
- وهيكل العامة المطلقة .
- وهيكل النفس والصورة مدورات كلها .
- وكان هيكل زحل مسحسا .
- وهيكل المشترى مثلثا .
- وهيكل المريخ مستطيلا .
- وهيكل الشمس مربعا .
- وهيكل عطارد مثلثا فى جوفه مستطيل .
- وهيكل القمر مئنا .

فزعم التاريخ : أن عمرو بن لحي لما ساد قومه وترأس على طبقاتهم وولى أمر البيت الحرام اتفقت له سفرة الى البلقان فرأى قوما يعبدون الأصنام فسألهم عنها فقالوا هذه أربابنا نستنصر بها ننصر ونستسقى فيها فنسقى فالتمس اليهم أن يكرموه بواحد منها. فاعطوه الصنم المعروف « بهبل » فسار به الى مكة ووضعها في الكعبة ودعا الناس الى تعظيمه وذلك في أول ملك « ساجور ذي الاكتاف » .

واضح من الرواية أنها تسند أن أول من ادخل الأصنام الحرم : الى عمرو ابن لحي تى بها من اليونان ، فالوثنية اليونانية دخلت مكة ، وهذا من الآثار اليونانية ، وهذه الرواية يبدو انها أكيدة لان الأصنام غير « هبل » كانت حجارة خالية من الفن ، والذوق الجمالى ، فلو أنهم أبدعوا لأبسوها مسحة فنية جمالية ، وفي هذا ما يشير : الى أن العرب غير من دينه الحنيفى ، لكنه ظل محبا لرمزياته المقدسة ، ومن أهمها : الكعبة فحينما ابتدغ أصناما او حينما أتى بها من الخارج في بعض رحلاته فانا نراه يودعها في الكعبة ، فالرمزيات المقدسة عند العربى ، لا تخرج عن معنى : الالف ، والعادة ، والارث ، ولا تحمل لحيه : مضمونا. فكريا أو دينيا ، لذلك كنا نراه : لا يعنى بالدين فى شىء ، فالمعنى الدينى عنده : لا يخرج عن معنى العصبية القبلىة ، ولعل ما قاله لهم عمرو بن لحي : تستنصر فننصر ، وقرت عقيدة بينهم توارثوها ، ونراها : ظهرت فيما بعد على لسان عبد المطلب وهو يفاوض ابرهة حينما قال : أما الابل فهى لى وأما البيت فله رب يحميه . ، وتعنى هذه العبارة فى نظرنا : ان العربى يتميز بنظرته المادية ، هذا من ناحية وأما من ناحية الموقف العربى القبلى أمام ابرهة فلم يظهر بالمستوى اللائق به فانه كان قبلىا فى تشنته وليس عربيا ، فالوحدة العربىة ظهرت مع الدعوة الاسلامىة ، ولعل ذلك يرجع فى نظرنا : الى العربى نفسه ، حين أيد وجهة نظر العربى المفاوض : أن الأمان حين يأمن الاقتصاد ولو أودى الدين وليس

(١) راجع : تفسير النخز الراذى ج ١ ص ٢٢٢ وفتح البارى ص ٤٧٢ ج ٨ وسجده

ابن هشام ص ٦٢ ظ والروض الائف ص ٦٢ ج ١

الأمان في الدين حين يهدد الاقتصاد ، وكانت هذه النظرة من أهم ما كافحها الاسلام ، ونظرتة المادية هذه هي التي دفعتهم وفقاً لما يقول المؤرخون الاسلاميون أن فكرة الحجر المقدس نشأت أساساً من حبه الكعبة وأرتباطه الديني بها منذ أن بناها أبوه ابراهيم وربط بها ملته الحنيفية غير أن العربي أكثر من الرمزيات المحسوسة دون مضمون فكري وراءها فكانت وثنيته من غير مضمون فكري وأصنامة من غير مسحة فنية والوثنية العربية ساذجة .

وأما عن الرواية الثانية فإنها ذكرت في أكثر من مصدر يقول الألوسى :
وقد بلغ تعظيم العرب لمكة أنهم كانوا يحجون البيت ويعتَمرون ويطوفون فإذا أرادوا الانصراف أخذ الرجل منهم حجراً من حجارة الحرم فنحته على صورة أصنام البيت فيجعله في طريقه قبلة ويطوف ويصلي له تشبيهاً بأصنام البيت وأفضى بهم الأمر بعد طول المدة إلى أن كانوا يأخذون الحجر من الحرم فيعبدونه فلذلك أصل عبادة العرب للحجارة في منازلهم شغفاً منها بأصنام الحرم وليس تذوقاً للمعنى الديني القويم .

ثم نعود فنقول نحن بين روايتين :

رواية عمرو بن لحي تقرر أن الأصنام وافدة من اليونانيين ، أي نشأت عن مصادر خارجية .

والرواية السابقة : تقرر أنها ليست وافدة وإنما هي منهم ، أي نشأت نشأة محلية ولا مانع لدينا أن نأخذ بالروايتين معاً على أساس أن عمرو بن لحي استقدم التماثيل مما يوافق هوى قومه من حبهم للحجار وقصبيج رواية عمرو بن لحي مخصوصة بالحجار المصورة المنحوتة وليس بأصل عبادتها .

مظاهر معبوداتهم

- ثم انتشرت الاصنام والأوثان بعد دخول الوثنية بين العرب فرأينا :
- غمدان : الذى بناه الضحاك على اسم الزهرة بمدينة صنعاء — ضربه
 عثمان بن عفان .
- نوبهار وبلخ : الذى بناه « متوشهر الملك » على اسم القمر .
 ثم كان لقبائل العرب أوثان معروفة مثل :
- « ود » بدومة الجندل لكلب بن وبرة من قضاة .
 « وسبوع » لبني هذيل برهاط أرض ينبع .
 « ويغوث » لبني مذحج .
 « ويعوق » لهمدان بأرض اليمن .
 « ونسرا » بأرض حمير لذى الكلاع .
 « عميانس » بأرض خولان لخولان .
 « واللات » بالطائف لثقيف .
 « ومناة » بيثرب للخزرج .
 « والبزى » لكنانة بنواحي مكة .
 « وأساف ونائلة » على الصفا والمروة .
 « أوال » كان لبكر بن وائل وتغلب بن وائل من عرب اليمن .
 « سعد » لبني ملكان .
 صنم دوس : لدوس .
 هبل : لقريش .
- قال ابن هشام : يقال لكل صنم من حجر أو غيره صنم .
 ولا يقال وثن إلا لما كان من غير صخرة كالنحاس ونحوه .
- أورد ابن هشام نصا يفهم منه خلاف ذلك وهو رواية عن عمر بن الخطاب يقول فيه : اللهم غفرا ، لقد كنا في الجاهلية على شر من هذا نعبد الأصنام ونعتنق الأوثان .
- يفهم من قول عمر أن الأصنام تطلق على مظاهر عبادتهم والأوثان على

مفاتيحهم ، فهي على القولين نبينا من المتزادات فنقول مثلا ان آلهة الوثنيين
أصنام فالوثني يتزادف مع الشرك ويتقابل مع الموحد فالزواية التي ذكرها
ابن هشام وتشير الى التفريق بين الصنم والوثن نراها غير دقيقة فالوثنية
عقيدة والصنم مظهرها .

سدنتها

من هم السدنة ؟ هم الذين يقومون بأمر الكعبة أو بطواغيتها .
فكان لثلاث سدنتها وحجابها من بنى معتب من ثقيف وإنما سدنتها من
الأوس والخزرج وللعزى سدنتها من بنى شيبان خلفاء بنى هاشم .
يقول صاحب الروض الأنف :

وهذه أسماء سريانية (١) وقعت الى الهند فسموا بها أصنامهم التي
زعموا أنها الدراري السبعة ثم أدخلها عمرو بن لحي . ثم أصبحت عبادتها
تقليدا حتى خلفت الخوف وقالوا : ما عظيم هؤلاء أبائنا . الا لأنها ترزق
وتنفع وتضر واتخذوها آلهة . فاتخذت العرب مع الكعبة هذه الطواغيت .
وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة لها بندية وحجاب وتهدي إليها كما
تهدي للكعبة وتطوف بها كطوافها بها وتنحر عندها مع عرفانها بفضل
الكعبة . والطواغيت أطلقها القرآن على كل معبود من دون الله والحبث :
الكاهن .

قال الرازي : كلمتان وضعتا علمين علي من كان غاية الفساد (٢) .

٣٠٥١٦

(١) الروض لمس ٦٤ .

(٢) الرازي في تفسيره ص ٢٤١ ج ٣ .

قال عكرمة : الحبث بلسان الحبشة شيطان . الطاغوت الكاهن .

قال ابن عباس : الحبث الأصنام والطواغيت الذين كانوا يعبرون عن الأصنام بالكذب

أو يترجمون للناس عنها الكاذب .

(٣) يقول ابن جرير في فتح الباري ص ٤٧ ج ٨ هذه الأصنام كانت آلهة يعبدونها العرب
في عبادة الأصنام بعد نوح أم من الشيطان ؟

قال بعض الجراح : يحصل بها تلذذ في هذه الأصنام تولد : لجددها أنها كانت قوم

نوح الثاني الثاني : أنها كانت أسماء رجال صالحين ثم أرجع ابن جرير الرأيين الى رأي واحد

وأنها كانت في البداية أسماء رجال صالحين .

قال ابن الكلبي : وكان لاهل كل دار من مكة صنم في دارهم يعبدونه
 فاذا اراد احدهم السفر كان آخر ما يصنع في منزله ان يتمسح به واذا قدم
 من سفره كان اول ما يصنع اذا دخل منزله يتمسح به ايضا (١) .
 واستهترت العرب في عبادة الأصنيام :

فمنهم من اتخذ بيتا ومنهم من اتخذ صنما ، ومن لم يقدر عليه ولا على بناء
 بيت : نصب حجرا امام الحرم وامام غيره مما استحسن ، ثم طاف به كطوافه
 البيت ، وسموها : الأنصاب ، فاذا كانت تماثيل دعوا الأصنام ، والوثان ،
 وسموا طوافهم : الدوار ، وكان الرجل اذا سافر فنزل منزلا ، أخذ أربعة
 احجار فنظر الى احسنها ، فاتخذه ربا ، وجعل الثلاث : ائاق القدرة ، واذا
 ارتحل : تركه فاذا نزل منزلا آخر فعل مثل ذلك . فكانوا يفحرون ، ويذبحون
 عندهم كلها ويتقربون اليها ، وهم على ذلك : عارفون بفضل الكعبة عليها ،
 يحجونها ويعتصمون اليها ، وكان الذين يفعلون من ذلك في أسفارهم انما هو
 للاقتداء بما يفعلون عندها ولصيابة بها . وكانوا يسمون ذبائح الغنم التي
 يذبحون عند أصنامهم وأنصابهم تلك : المعتائر ، والعقيرة في كلام العرب :
 الذبيحة والمذبح الذي يذبحون فيه لها العتر .

ويقول الكلبي : وكانت للعرب حجارة غير منصوبة يطوفون بها ويعترون
 عندها يسمونها الأنصاب ويسمون الطواف بها الدوار (٢) .

ما زالت بداية ظهور الحاد العرب سرا غامضا ولكننا نعتقد ان الحادهم
 كان يختلف عن أي نوع من الالحاد عند الأمم الأخرى .

واذا نظرنا الى تقدمهم العقلي نجد افكارهم الدينية ساذجة وبسيطة
 واذا سلطنا عليهم أضواء التاريخ نجد لديهم نوعا من انحط انواع الوثنية .

ففي العصر الجاهلي : لا نجد اي تعاليم جوهرية ، ولكن رغم ذلك فان
 الأحداث كما يقول « كرهل » : لا تثبت اذا ما كان الشعب السامي الذي
 هاجر الى بلاد العرب من الشمال الشرقي قد اعتنق العبادة التي وجدها

(١) كتاب الأصنام لابن الكلبي ، المصدر : مصدر بن السائب الكلبي مطبوع في بيروت ١٩٦٤ م .

(٢) الأصنام ص ٣٢ م .

في البلاد ، أم دخل نوعا جديدا من العبادة التي انتشرت وتطورت تدريجيا بين العرب (١) .

فتحولهم من التوحيد الى الوثنية والاحاد ، لم يكن مباشرة وانما تم بعد مرحلة جرمهم العبثية ، فسد فيها الدين وشوه ، فلما ولي عمرو بن لحي : دفعه الى الوثنية لون من العصبية ، وليست قضايا عقلية شغلته ، فاراد لها حلا فتحول بسببها الى الاحاد ، انما كانت العصبية ، والتقليد ، وهجر ماكان عليه جرمهم من افساد وعبث .

وهذا التعدد في الأصنام والأوثان والانصاب واختلاف أسائها ليس نتيجة فكر شغل به العقل العربي انما كان ذلك ناشئا من مجاورتهم لأهل هذه الملل والنحل « ان أديان العرب كانت مختلفة بالمحاورات لأهل الملل والانتقال الى البلدان والانتجعات » (٢) .

ولم تأت هذه الآلهة جميعها من التراث القومي فبعضها وفد من الشعوب المجاورة طبقا لاستعداد عام بين العرب الجنوبيين يحدوهم الى النقل والاستيعاب استعداد يسر في مراحل متأخرة دخول عقائد اليهودية والمسيحية .

الاتجاه التوفيقى بين المظهر القبلى والدينى :

ولى قصى : البيت وأمر مكة ، وجمع قومه من منازلهم الى مكة ، وتملك على قومه وأهل مكة فملكوه ، فكان قصى : أول بنى كعب بن لؤى أصاب ملكا أطاع له به قومه ، ثم أعطوه مقاليد الامور فكان له امر :

- الحجابة
- والسقاية
- والرفادة
- والنحو
- واللواء
- وبها حاز شرف مكة كله .

(١) حضارة الاسلام صلاح الدين خودا بخش ص ٢٥ .

(٢) اليعقوبى في تاريخه ج ١ ص ٢١٠ .

فأعاد تخطيط مكة ، فمقطعها رفاعة بن قومه : فأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة التي أصبحوا عليها ، وأصبحت داره بيت ثوري لقريش والعرب فلا يقضى أمر من مورها إلا فيها تشريعاته .

أقر للعرب ما كانوا عليه ، وذلك إنه كان يراه ديناً في نفسه ، لا ينبغي تغييره ، فأقر : آل صفوان ، وعدوان ، والنسأة ، ومرة بن عوف : على ما كانوا عليه حتى جاء الإسلام .

على أي شيء أقرهم ؟

آل صفوان :

كان صفوان هو الذي يجيز للناس بالحج من عرفة ، ثم ينوه من بعده ، حتى كان آخرهم الذي قام عليه الإسلام كرب بن صفوان .

وعدوان :

كانت الأفاضة من المزدلفة ، في عدوان ، يتوارثون ذلك كإبراهيم عن كابر حتى كان آخرهم الذي قام عليه الإسلام : أبو مبيدة بن الأعزل .

والنسأة :

هي التي كانت تحرم صفراً أو غيره ، من الأشهر بدلاً من الشهر الحرام

ومرة بن عوف :

يلى للناس الإجازة بالحج من بعد عرفة

والغوثة :

وكان الغوثة إذا دفع بالناس يقول :

لا هو . انى تابع تباغاه ان كان اثم فعلى قضاة

وتقول بعض الأخبار أن ولاية الغوثة بن مر كانت من قبل ملوك كنده .

ثم بعد تقسيمهم على مكة ، فرض على قريش : رفادة الحاج وهي : وضع طعام لمن لا زاد له من الحجاج فقال :

يا معشر قريش : انكم جيران الله ، وأهل بيته ، وأهل الحرم ، وأن

الحجاج ضيف الله وزوار بيته ، وهم أحق الضيف بالكرامة ، فاجعلوا لهم

طعاماً وشراباً أيام الحج ، حتى بصدروا عنكم ، ففعلوا . وظلت سنة ،

حتى بعد الإسلام ولم تنقطع إلا في عصرنا هذا ، وأصبح قصى في قومه :

لا يخالف ولا يرد عليه شيء صنعه فكان أمرة في قومه من قريش في حياته
ومن مماته كالدين المتبع لا يعمل بغيره .

لاحظت تشريعات قصى هذه الاعتبارات فأعطت لقبيلة قريش : امكانية
السيطرة على من جاورهم من العرب ، فأصبح لها الزعامة السياسية ،
والدينية ، فزعامتها السياسية مكنتها من تخطيط مكة مرة ثانية ، وحفظت
عليها وضعها وقيادتها ، وزعامتها الدينية أعطتها سلطة تشريعية في الدين ،
فشرعت مذهبها الديني : وهو ما عرف بتشريع الحمس .

وهذا التشريع : حفظ عليها دينها ، وعصبيتها القبلية ، وساعد على انتشار
ما ورثوه من وثنية عمرو بن لحي ، وبقايا دين اسماعيل ، ويفضل هذا
أصبحت أسرة ذات كيان مقدس وذلك بمظهرها الطبقي الديني .

ولقريش محامد تنسب اليهم .

* فمنهم كعب بن لؤى : هو أول من جمع يوم العروبة ولم تسم العروبة
الجمعة الا منذ جاء الاسلام .

* والياس : أول من اهدى البجن للبيت .

* وعبد بن قصي : أول من أدخل الكتاب العربي أرض الحجاز قبل
تعلمه بالحيرة وتعلمه أهل الحيرة من أهل الأنباء .

* واسعد الحميري : قال الرسول لا تسبوا اسعد الحميري فانه أول من
كسى الكعبة .

* ودار قصي : دار الندوة جعل بابها الى مسجد الكعبة ففيها كان
قريش تقضى أمورها

* وهاشم : أول من سن الرحلتين لقريش : رحلة الشتاء ، والصيف ،
وأول من أطعم الثريد للحجاج وكان يسمى : الفيض لسماجته .
بجانب طبيعتها الدينية كانت ذا مظهر حضارى ايضا .

« ويبتدى يقضى التاريخ ، تاريخ جديد ليس لقريش ولكنه مكة
كلها . . . نظم أمور مكة على شكل مبتكر جمهورى - قبلى ، يمكن أن يشبه
بجمهوريتى : البندقية ، وقرطاجة ، لسيطرة المالىين من أرباب التجارة
ورؤوس الأموال عليها .

ولا يفترق قصي في وصفه هذا عن (الملك) في الملكية الرومانية الأولى ، الا بأنه لا يحمل لقب ملك ، والمؤرخون المسلمون منحوه فيما بعد هذا اللقب رمزا لهذه السلطة الواسعة (١) وكانت فوق ذلك تحوز أكبر الأصنام .

١ - العزى :

وكان الذين اتخذوا العزى : ظالم بن أسعد .

كان بواد من نخلة الشامية يقال له : حراض بازاء الغمير عن يمين المضعد الى العراق من مكة ، وذلك فوق ذات عرق الى البستان بتسعة أميال ، قبلى عليها بسا (يريد بيتا) وكانوا يسمعون فيه الصوت ، وكانت العرب وقريش تسمى بها عبد العزى . وكانت أعظم الأصنام عند قريش ، وكانوا يزورونها ويهدون لها ويتقربون عندها بالذبيح . وكانت قريش تطوف بالكعبة وتقبول (٢) :

والسالات والعزى ومناة الثانية الأخرى
قائهن الغرانيق العسلا وان شفاعتهن لترتجى

كانوا يقولون : انها بنات الله وهن يشفعن اليه

وكانت قريش قد جمعت لها شعبا من وادى حراض يقال له : سقام ، يضاهاون به حزم الكعبة ، وكان لها منحر : ينحرون فيه هداياهم ، يقال له : الغبغب ويقسمون لحوم هداياهم فيمن حضرها وكان عندها ، وتخصها بالأعظام ، وسدنة العزى : بنو شبان بن جابر بن مرة من بنى سليم وكان آخر من سدنها منهم دبية بن حرمى السلمى .

فلم تزل العزى كذلك حتى بعث الله نبيه فعابها وغيرها من الأصنام ونهاهم عن عبادتها ونزل القرآن فيها :

(١) الاسلام في حضارته ونظمه - ص ٥٢ الأستاذ أنوار الرفاعي - دار الفكر .
(٢) يقول ابن الكلبي : وقد بلغنا ان رسول الله ذكرها يوما فقال لقد أهديت للعزى ثناء مفراء وأنا على دين موسى ص ١٩ . يكذب هذه الرواية حديث لرسول الله ورد فيه انه ما عبد صنما قط .

« أفرايتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألكم الذكر له والانثى تلك اذا قسمة ضيزى أن هي الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما انزل الله بها من سلطان » . (سورة النجم)

فاشتمد ذلك على قريش ، ومرض أبو أحيحة مرضه الذى مات فيه ، فدخل عليه أبو لهب يعود فوجده يبكى ، فقال : ما يبكيك يا أبا أحيحة ؟ امن الموت تبكى ولا بد منه ؟

قال : لا : ولكنى أخاف ألا تعبد العزى بعدى .

قال أبو لهب : والله ما عبدت فى حياتك لأجلك ، ولا تترك عبادتها بعدك لموتك .

كانت للعزى شيطانة تأتي ثلاث سمرات ببطن نخلة فلما فتح النبي مكة بعث خالد بن الوليد فقال له :

أيت بطن نخلة . فانك تجد ثلاث سمرات ، فاعضد الأولى ، فأتاها فعضدها ، فلما جاء اليه ، قال : هل رأيت شيئاً ؟ قال : لا . قال : فاعضد الثانية ، فأتاها فعضدها ، ثم أتى النبي فقال : هل رأيت شيئاً ؟ قال لا : فاعضد الثالثة فأتاها فاذا هو بحبشية نافضة شعرها ، واضعة يديها على عاتقها تصرف بأثيابها وخلفها دبية وكان سادنها . فلما نظر الى خالد قال :

أعزاء : شدى لا تكذبى على خالد ألقى الخمار وشمرى

فانك الا تقتلى اليوم خالدا تبوئى بذل عاجلا وتنصرى

فقال خسالد :

يا عز كفرانك لاسبحانك انى رأيت الله قد أهانك

ثم ضربها ففلق رأسها ، فاذا هي حممه ثم عضد الشجرة وقتل دبية السادن ، ثم أتى النبي فأخبره فقال : تلك العزى ، ولا عزى بعدها للعرب؟ اما انها لن تعبد بعد اليوم . قال أبو النخرة ولم تكن قريش بمكة ومن اقام بها من العرب يعظمون شيئاً من الأصنام اعظامهم العزى ثم اللات ، ثم مناة ، فأما العزى فكانت قريش تخصصها دون غيرها بالزيارة والهدية ، وذلك فيما أظن كان لقربها منها .

وكانت لقريش أصنام في جوف الكعبة وحولها وكان أعظمها عندهم هبل (بعل) وكان فيما بلغنى : من عقيق أحمر على صورة الانسان مكسور اليد اليفنى أدركته قريش كذلك فجعلوا له يدا من ذهب ، وكان أول من نصبه خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضره وكان يقال له هبل خزيمة وكان في جوف الكعبة قدامه : سبعة أقداح مكتوب في أولها : صريح ، والآخر : ملصق .

فاذا شكوا في مولود أدوا له هدية ثم ضربوا بالقداح فان خرج صريح الحقوه وان خرج ملصق : دفعوه .

وقدح على الميت ، وقدح على النكاح ، وثلاثة (١) لم تفسر لى على ما كانت .

فاذا اختصموا في امر ، أو أرادوا سفرا ، أو عملا اتوه : فاستقسموا بالقداح عنده ، فما خرج عملوا به وانتهوا اليه ، وعنده ضرب عبد المطلب بالقداح على ابنه عبد الله ولد الرسول صلى الله عليه وسلم وهو الذى يقول له ابو سفيان بن حرب حين ظفر يوم احد : اعل هبل ؟ اى علا دينك . فقال رسول الله : الله اعلى وأجل (٢) .

٢ - هبل :

هو الصنم الذى أتى به عمرو بن لحي ونصبه على البئر الذى حفره ابراهيم

-
- (١) يقول بن هشام : وكان عند هبل قداح سبعة كل قدح فيها كتابا :
 (١) قدح فيه (العقل) اذا اختلفوا في العقل من يجمله منهم ضربوا بالقداح السبعة فان خرج العقل فعلى من خرج حملة .
 (٢) وقدح فيه (نعم) للامر اذا أرادوه يضرب به القداح فان خرج قدح نعم عملوا به .
 (٣) وقدح فيه (لا) اذا أرادوا أمرا ضربوا به في القداح فان خرج ذلك القدح لم يفعلوا ذلك الامر .
 (٤) وقدح فيه (منكه) .
 (٥) وقدح فيه (ملصق) .
 (٦) وقدح فيه (من فركم) .
 (٧) وقدح فيه (المياه) .
 اذا أرادوا ان يحفروا للماء ضربوا بالقدح وفيها ذلك القدح بحيثما خرج ضربوا به .
 (٢) - يراجع كتاب الأصنام ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ .

عليه السلام في بطن الكعبة وكان تمثالا من عقيق أحمر على صورة الانسان مكسور اليد اليمنى أدركته قريش كذلك، فجعلت له يدا من ذهب وكما هو واضح في الرواية أن الصنم واسمه مستعربان .

لذلك رأينا للمؤرخين خلافا حول أصل اشتقاق اسمه :

بعضهم يذهب الى أن أصل اشتقاقه من العربية يقول : هبل : اظنه من الهابل وهو الكثير اللحم والشحم ويستأنس بقول عائشة : والنساء يومئذ لم يهنلن اللحم أى : لم يسمن .

أو من الهبل والهباله : وهو الغنيمة أن يغتنم عبادته أو يغتنم من عبده (١) .

أو من الهبل والشكل يراد به ان لم يطعمه هبله : أى شكله .

نلاحظ ان هذا التحليل فيه تكلف التوجيه ومثبقة الرد الى أصل عربي وخروج باللفظ عن حد الاعتدال في تأويله

* وبعضهم يذهب الى أن لفظ هبل لا اشتقاق له في العربية من معناه . فهو غير مشتق من لفظ عربي . ويقول : انه عبرانى أصله هبل ومعنى بعل السيد .

وزاد على ذلك فقال : ان الهاء في العبرى أداة التعريف مثل :

ال العربية فبإضافة هذه الأداة الى بعل يريد الاكبر .

وقال أما العين الزائدة ، فسهل اهمالها بالتخفيف ، ثم ضياعها بالاستعمال وخصوصا في لفظ بعل ، لان الكلدانيين كانوا يلفظونه « بيل » باهمال العين وهو اسم هذا الاله عندهم . وقيل ان هبل القريشى هو بعل الاسرائيلى (٢) .

وعلى ذلك : اذا صح تعليل الأستاذ جورجى زيدان اللغوى فلا يبقى شك في أن هبل هو بعل والذى هو يؤكد صحة هذا الرأى أن الله اورده في التنزيل « أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين » .

(١) معجم البلدان لياقوت ج ٤ ص ٦٧ .

(٢) التاريخ الاسلامى العام ص ٢٤٤ د . على حسن ابراهيم

فقال الله : بعلا ولم يقل هبلا .

وفي هذا يدل على أنه كان يسمى بعلا عند الاسرائيليين (١) .

والأوفق عندي من خلال الأبحاث الحديثة : أن بعلا كان اله العبرانيين ولكن متى عرف العبرانيين وثنية بعل يرجع ذلك عندما استقر العبرانيون في كنعان تمت عملية امتزاج بطيئة تركت عرضا علامات في دين العبرانيين مثل عبادات آلهة الكنعانيين (بعليم : اسباد البلاد) . ولم يكن هؤلاء البعليم على غرار بهوه آلهة حرب ولكنهم كانوا آلهة طبيعة مسالمين تتمثل في شخوصهم قوى الخصب والحياة المنتجة ويتألفون أزواجا : ذكرا (بعلا) وأنثاه (عشتاروت) .

ولهم ديانات محلية متباينة تصحبها الشهوة المخزية فربما كان دين العبريين قد هبط في يسر الى مستوى الدين الكنعاني وكان بهوه قد اندمج في البعليم ولما ترك العبريون طابعا على تاريخ البشر الروحي . . وظل يهوه بين كل ما تمثله من العبادات الكنعانية كالمرتفعات والصور الخشبية لعشتاروت او العمدة المقدسة اله شعبه المختار . وهذا أثر كنعاني على العبريين .

وأما العبراني فهو أقدم من بني اسرائيل وان كان اسرائيل منهم غير ان العبراني اعم من جهة ثانية لأنه يشمل ابراهيم وقومه وهم غير اليهود « فكان بعل هذا هو اله قوم ابراهيم ويقارب أن يكون اسمه (هبعل = البعل) ولعله يقابل (مردوخ) البابليين وبعل الكلدانيين فأصلة لاشك دخيل « (٢) .

حاول عمرو بن لحي : بأن يجعله اله الجزيرة الأكبر . اذ بمقارنة وظائف هذه الآلهة مع ما روى عن هبل ، يتضح لنا : أنه كان اله الخصب . والرزق ، ومن ثم اله السعادة عند العرب ، وربما أيضا كان اله الحرب ، فلا يرحل الراحل ولا يؤوب الأيب المغترب ، الا ويطوف به ، وكانت عنده أقداح الازلام ولا يستقسم بها الا أمامه ، ومراسم الأفراح والأحزان عنده أيضا .

(١) نفس المرجع .

(٢) الاسلام في نظمه ص ٤١ الاستاذ انور الرماحي .

يقول : على حسن ابراهيم : وتشير اقامة هبل على البئر الكائن في بطن الكعبة الى انه كان ذا علاقة بالرزق والخصب في عقيدة العرب « (١) » .
يقول محمد عبد المعين خان : لا اتردد ان اتقول ان هبل كان اله الخصب والرزق ومن ثم اله السعادة وشبهه رب الأرباب في عقيدة العرب (٢) .

وفي الروايات ما يؤكد عدم تردد خان في أن هبل هو الاله الذى عناء عمرو بن لحي حينما قال : أن ربكم مصيف باللات لبرد الطائف ويشتو بالمزى لحر تهامة (٣) .

وبذلك يكون هبل أو بعل — رب الأرباب عند العرب وله جميع السطات وأهمها : الخصب والتجارة والرزق — ومنه اللات والعزى ومناة — هم بناته يتشفع بهن لديه — تكون عائلة وثنية مقدسة . ابطالها الله بقوله : « أفرأيتم اللات العزى ومناة الثالثة الأخرى الكم الذكر وله الأنثى تلك اذا قسمة ضيزى : ان هي الا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان » .

معاهداتهم التجارية :

• وكان لقريش معاهدات تجارية عرفت بالايلاف .

والايلاف كتاب امان : يعنى أن يأمنوا عندهم في أرضهم بغير حلف انما هو امان الطريق وكان في قريش يقول الهوى في الغربيين : الايلاف عهد بينهم وبين الملوك .

✳ تعاقد هاشم مع الروم على امان التجارة في طريق الشام ومات في احدى سفراته بغزة .

✳ وتعاقد المطلب بن عبد مناف الى اليمين واخذ من ملوكهم عهدا لمن تجر اليهم من قريش وهلك بردمان من اليمين .

✳ وتعاقد عبد شمس بن عبد مناف الى الجيش فاخذ ايلاف وهلك بمكة فقبره بالحجون .

(١) الاساطير العربية ص ١١٠ محمد عبد المعين خان .

(٢) نفس الموضع ص ١١٧ .

(٣) اخبار مكة ج ١ ص ٧٤ .

* وتعاقد نوفل بن عبد مناف فأخذ عهده من كسرى لتجار قريش
وايلافنا ممن مر به من العرب ثم خيم ورجع إلى العراق ومات بسلمان
بهذه الايلافات (الفهود الآمنة) لسالك التجارة اتسعت تجارة قريش
وكثر أموالها (١) :

المحتوى الفكرى لأذهب قريش الدينى : التحمس (٢) :

الحمس جمع الأحمس وهم : قريش ، ومن ولدت قريش ، وكنانة ،
وبجيلة ، وقيس ، سموا حمسا : لأنهم تحمسوا فى دينهم ، أى تشددوا
والحماسة الشجاعة ، بمعنى : أنهم كانوا يقفون بمزلفة ، ولا يقفون بعرفة ،
ويقولون : نحن أهل الله فلا نخرج من الحزم ، وكانوا لا يدخلون البيوت
من أبوابها وهم محرمون . وكانوا قد ذهبوا فى ذلك مذهب التزهيد والتأله ،
يقول ابن اسحق : لا أدري قبل الفيل . أو بعده ابتدعت رأى الحمس ،
ويغلب على ظنى أنهم ابتدعوا هذا المذهب قبل عام الفيل منذ أن استقر أمرهم
على البيت بعد قصى ووزعوا مقاليد الزعامة بينهم وأحسوا بعصبيتهم القبلية
وتميزهم ، فبيتهم : بيت العرب ، ورب قبيلتهم : رب العرب ، فنشأت :
فكرة الجمع بين فكرة الألوهية ، وفكرة الملكية للبيت ليصبح عليهم الصفة
المقدسة

(١) يراجع الامالى والنوادر ملحق بالامالى لابن على اسماعيل بن القاسم القالى البغدادى
ج ٢ ص ٢٠٤ .

دار الباز للنشر والتوزيع .

وحاشية الشهاب على البضاوى ج ١ ص ٣٩٦ .

(٢) ابن همام ج ١ ص ١٢٣ وكذا النهاية فى غريب الحديث والائر لابن الأثير ج ١
فى حديث : هذا من الضمى فما باله خرج من الحزم وكتاب مروج الذهب للمسعودى ج ١
ص ٢٠٧ قال النبى للانصار : أنا رجل أحمس :

عن قيس بن حازم قال دخل أبوا بكر على امرأة من أحمس يقال لها زينب بنت المهاجر
لا تكلم فقال ما لها لا تكلم قالوا : جمعت مصيئة ، قال لها تكلمى فان هذا لا يحل ، هذا
من عمل الجاهلية ، تكلمت .

قال جبير بن مطعم حين رآه واقفا بعرفة مع الناس - قبل الهجرة وقبل النبوة - قال :
هذا رجل أحمس : فما باله لا يقف مع الجبيل حيث يقفون ابن همام ص ١٣٥ ج ١ قال السهيلي :
وذكر وتوفى النبى بعرفة مع الناس قبل الهجرة وقبل النبوة توفيقا من الله .

فقالوا عن سبب تميزهم الطبقي والديني : نحن بنو ابراهيم ، وأهل
الحرمة ، وولاية البيت ، وقطان مكة وسكانها ، فليس لأحد من العرب :
مثل حقنا ، ولا مثل منزلتنا ، ولا تعرف له العرب : مثل ما تعزف لنا ،
فلا تعظموا شيئاً من الحل كما تعظمون الحرم ، فانكم ان فعلتم ذلك استخفت
العرب بجرمتكم وقالوا : قد عظموا من الحل مثل ما عظموا من الحرم .
فتركوا الوقوف على عرفة والافاضة منها — وهم يعرفون ويقرون انها من
المشاعر والحج ودين ابراهيم — ويرون لسائر العرب أن يفيضوا منها .

الا أنهم قالوا : نحن أهل الحرم فليس ينبغي أن نخرج من الحرمة
ولا نعظم غيرها كما نعظمها نحن الحمس . والحمس : أهل الحرم ، ثم
جعلوا لمن ولعوا من العرب من ساكن الحل والحرم : مثل الذي لهم
بولادتهم اياهم قد دخلوا معهم في ذلك ، ثم ابتدعوا في ذلك امورا لم تكن
لهم حتى قالوا : يحل لهم ما يحل لهم ويحرم عليهم ما يحرم عليهم ، وكانت كنفانة
وخزاعة ترى : أنه لا ينبغي للحمس : أن يأتقوا ، ويأكلوا السمن وهم
لا يدخلون بيتا من شعر ولا يستظلون الا في بيوت الأدم ما كانوا حرما .

ثم رفعوا في ذلك فقالوا : لا ينبغي لأهل الحل أن يأكلوا من طعام
جاء به معهم من الحل الى الحرم اذا جاءوا حجاجا أو عمارا ولا يطوفوا
بالبيت اذا قدموا أول طوافهم الا في ثياب الحمس فان لم يجدوا منها شيئاً
طاعوا بالبيت عراة .

فان تكرم منهم متكرم من رجل او امرأة ولم يجد ثياب الحمس فطاف
في ثيابه التي جاء بها من الحل لقاها اذا فرغ من طوافه ثم لم ينتفع بها ولم
يمسها هو ولا احد غيره ابدا . وكانت العرب تسمى تلك الثياب اللقى .

فحملوا على ذلك العرب فدانت به ووقفوا على عرفات وافاضوا منها
وطافوا بالبيت عراة أما الرجال فيطوفون عراة وأما النساء فتضع احدهن

ثيابها كلها الا درعا مفرجا ثم تطوف فيه (١) .

قال الشاعر يذكر شيئا تركه من ثيابه فلا يقربه — وهو يحبه :
كفى حزنا كرى عليها كأنها لقي بين أيدي الطائفين حريم
عليها : أي حرام لا تمس .

نلاحظ أن هذا المذهب الديني عندما وضعت قريش رمت به ربط قبيلتها
بقدسية البيت سواء أكانت اقبيلة قائمة في حرمة الأمن م كانت في الحل فكل من
ينتمي الى قريش توالدا : تشريعه الخاص في نسكه .

هكذا أصبح للعبادة في الكعبة مراسيم وثنية معينة : يحج الناس اليها
في التاسع من ذي الحجة : فيحرمون ، ويطوفون ، ويلبون ، ويرمون الحجارة ،
ويتمسحون بالأنصاب والأوثان التي فيها ، ويهدون ما هم مهدون ثم
ينصرفون . وكان أهل الحرم : يؤمون الناس في المناسك ، وسدانة البيت
عندهم : وراثية في آل (عبد الدار) « وهم يشبهون الأسر الدينية التي كان
بيدها تنظيم الأعياد الدينية لدى اليونان » (٢) .

ومن جانب آخر عززت قريش بكل قوتها مركزها المالي باستغلال
مركز مكة التجاري فنظمت القوافل فكان لها رحلتان : رحلة الشتاء : الى
اليمن ، ورحلة الصيف : الى الشام ، عدا الرحلات : الى الحيرة ، وتزيدت
في اليمن ، وبالغت في نشر قداسة البيت الحرام لحماية نفسها وحماية تجارتها
في الصحراء من غزو الفتاك .

وبهذا الايلاف ربطت علائقها مع الأمم المجاورة أي باتفاقاته .

عقد هاشم بن عبد مناف : أحدها مع أمراء الغساسنة والرومان ، فأذن
له ولقومه بالتجارة من الولاية العربية في بصرى ومع ولاية فلسطين في
غزة وعقد عبد الشمس أخوة : اذنا مع ملوك الحبشة بأكسوم ونال مثل

(١) والذين يطوفون بالبيت أصناف ثلاثة : هل الحمس : يطوفون في ثيابهم . وأهل
الحل : يطوفون همراة اذا لم يجدوا ثياب الحمس ، أو في ثيابهم ثم يلقونها محرمة عليهم .
وأهل الطلس : كانوا يأتون من أقصى اليمن من الغبار فيطوفون بالبيت في تلك الطلس . ولعلمهم
يعتمدون من طرح الثياب الذنوب التي اقترفوها .

(٢) الاسلام في حضارته ونظمه ص ٥٥ أنور الرغامي .

هذا الاذن اخوانه نوفل والمطلب من الحميريين في اليمن ومن فارس والناذرة في العراق ، وبذلك « نشأت في مكة بيوت تجارية « وكالات » للحبشة وللرومان ولعلها نتيجة لهذه الاتفاقات وبلغ من تغفل التجارة في قريش ان قيل من لم يكن من قريش تاجرا فليس بشيء » (١٦٠) .

عززت قريش ، وضعها الاقتصادي : برحلاتها التجارية ، وعززت أيضا وضعها القبلي : بتشريعاتها الوثنية ، وارتباطها بالبيت حتى أصبح كل من يتمرد على قريش : فهو يتمرد على مقدسية البيت ، وهن يتمرد على البيت : فهو يتمرد على قريش ، وبهذا أصلت الوثنية الوضع القبلي وأصبح هدم النظام القبلي يستدعي هدم النظام الوثني وهذه عقبات في سبيل الاصلاح

من نتائج التحمس القرش : الطواغيت

ولما رأت العرب ذلك طلبوا بيوتا يضاهاون بها الكعبة . قال ابن هشام وكانت العرب قد اتخذت من الكعبة طواغيت وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة لها سدنة وحجاب وتهدي اليها كما تهدي للكعبة وتطوق بها كطوافها .

بيت رضى : فأصبح هناك بيت لبنى ربيعة : يدعى بيت رضى : رضى مدمه المستوغر في الاسلام .

وذو الكعبات بسنداد : لبكر وتغلب ابني وائل : وكان لاياد كعبنة أخرى بسنداد من أرض الكوفة والبصرة في الظهر ، وهي : التي نكرها الأسود بن يعفر ، وقد سمعت ان هذا البيت لم يكن عبادة انما كان منزلا شريفا فذكره .

والقليس : وقد كان أبرهة الأشرم : قد بنى بيتا بصنعاء ، كنيسة ، سماها : القليس ، بالرخام وجيد الخشب المذهب وكتب التي ملك الحبشة . يقول : انى قد بنيت لك كنيسة لم يبن مثلها أحد قط ولنست تازكا العرب حتى أصرف حجمهم عن بيتهم الذى يحجون اليه فبلغ ذلك بعض نساء المشهور

(١) الاسلام في حضارته ونظمه ص ٥٢ .

فبعث رجلين من قومه وأمرهما أن يخرجوا حتى يتغوطا فيها . ففعلا . فلما بلغه ذلك غضب وقال من اجترأ على هذا ؟ (١) . فقيل بعض أهل الكعبة فغضب وخرج الى الحبشة فكان من أله ما كان .

اللات : بيت لثقيف بالطائف كانوا يعظمونه نحو تعظيم الكعبة .

كعبة نجران : وكان لبني الحارث كعبة بنجران يعظمونها وهي التي ذكرها الأعمش .

وكعبة نجران حتم عليـ

ك حتى تنسخ أبوابها

وقد زعموا أنها لم تكن كعبة عبادة إنما كانت غرفة لأولئك القوم الذين ذكرهم .

رثام : كان لحمير ، بصنعاء يعظمونه ويتقربون عنده : بالذبايح ، وكانوا فيما يذكرون : يكلمون منه ، فلما انصرف تبع من مسيره الذي سار فيه الى العراق قدم معه الحبران اللذان صحباه من المدينة فأمراه بهدم رثام .

قال : ما شأنكما به فهدماه وتهود : تبع وأهل اليمن ، ثم لم أسمع بذكر رثام ولا نسر في شيء من الأشعار ولا الأسماء .

بيت الحوراء : وكان رجل من جهينه يقال له : (عبد الدار بن حديب) قال لقومه : هلم نبني بيتا (بأرض بلادهم يقال لها الحوراء) نضاهى به الكعبة ونعظمه حتى نستميل به كثيرا من العرب فأعظموا ذلك وأبو عليه .

ولعل نشأة تلك البيوت المقدسة أو الطواغيت يرجع — في نظرنا — الى نشأة مذهب قريش الأحمس الذي صبغ البيت الحرام بصبغة قبلية قرشية اضطرت القبائل المجاورة أن تحاكيها بمثل بيتها .

(١) القليس : هي الكنيسة التي بناها أبرهة في صنعاء وهو لفظ أخذه العرب عن الروم ثم حرف فيما بعد الى كتيبة ويظن بعضهم أن القليس لفظ عويى مبنى ومعنى يقول عبد الرحمن بن محمد : سميت القليس لارتفاع بنياتها من القلائس لأنها أعلى الرؤس . معجم البلدان : مادة قليس تاريخ الاسلام العام ص ٥٥ هامش د . على حسن البراهيم .

تقويم التحمس القرشي :

ينازعنا القول في محاولتنا الادلاء برأى يحدد بوجه تقريبي تاريخ ابتداء قريش تحمسهم .

يغلب على ظني أن ابتداء الحمس القرشي كان قبل غزو أبرهة للبيت لان مذهب الحمس يؤكد على عصبية قريش القبلية وكانوا يرون في ذلك امتيازاً طبقياً « فليس لأحد من العرب مثل حقنا » فلا يساوى الحرم وساكنيه بالحل وساكنيه وقالوا لبعض : « ان فعلتم ذلك لاستخفت العرب بحرمتكم » واقتضاهم رأيهم في تحمسهم أن يخرجوا فيه عن بعض دين ابراهيم « فتركوا الوقوف على عرفة والافاضة منها وهم يعرفون ويقرون أنها من المشاعر والحج ودين ابراهيم » .

فقالهم العصبى « العرقية » جرفاهم عن الالتزام بدين ابراهيم .

وكما أنهم خرجوا بتحمسهم عن دين ابراهيم ليرفعوا عصبيتهم على دينهم فانهم فرضوا تحمسهم على العرب « فحملوا على ذلك العرب فدانت به » وكان من نتائج ذلك على العرب وقريش أن اعتبر العرب أن مسئولية البيت تقع بالدرجة الاولى على قريش وظهر ذلك عندما سأل أبرهة عن سيد أهل هذا البلد وشريفها فقيل له : عبد المطلب فلما جاء اليه عبد المطلب سأل ان يرد اليه البعير قال أبرهة لترجمانه قل له : قد كنت أعجبتني حين رأيتك ثم زهدت فيك حين كلمتني أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك وتترك بيتا هو دينك هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه ا قال له عبد المطلب : الابل لى والبيت له رب يحميه .

هذا يعنى ان قريشاً عزلت نفسها والبيت عن العرب كذلك . مر حينئذ أبرهة وغزوه للبيت لدى كتاب السير كما لو كان الأمر مكيدة لعبد المطلب وبينه فقط فلم يتحرك له العرب وهم أشعلوا الحروب القبلية أو بين القبيلة الواحدة لاتفه الأسباب وعلى ما نظمه أن الأمر في هذا لا يفهم الا من خلال رأى قريش في التحمس وهو أنهم عزلوا أنفسهم به من حيث أرادوا تسيدا ورفعاً قبلياً .

وكانت النتيجة أن ظهرت قريش وعليها طابع الذلة. عند مفاوضتها لأبرهه وتخلف العرب عنه يقول ابن هشام : ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهه وجنده .

ويبدو لنا أن حلف الفضول — وهو يحمل في طياته نزعة انسانية عالية حيث تعاقبوا وتعاهدوا على أن لا يحدوا بمكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس الا أقاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى تزد عليه مظلومه .

قلنا يبدو لنا — ولا سيما أنه كان معه حملة أبرهه — أنه رد فعل لموقف العرب من قريش وأبرهه وتطوير للجانب السياسي والاجتماعي. لذهب الحمس القرشي وصفه الرسول بقوله : لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا لو دعيت به الى الاسلام لأجبت - نحالفوا أن ترد الفضول على أهلها والا يعز ظالم مظلوما » .

بينما قريش وصفته بقولها (١) :

لقد دخل هؤلاء في فضل من الأمر فلم يكن الحلف واقعا من قريش. موقع الرضى انما اعتبرته قريش. تدخلوا في فضل من الأمر . ونلاحظ أن الدعوة اليه كانت في دار عبدالله بن جدعان ولو رضيت عنه قريش لدعوا اليه في دار نذوتهم .

على أي حال فان ما ابتدعته قريش من رأى الحمس فاننا نراه يرجع الى ما قبل أبرهه بكثيرة منذ نزع العرب الى تقليد الكعبة بطواغيتها . أورد ياقوت نصا فيه يؤيد ما وصلنا اليه. يقول فيه. كانت تحج اليها وفود حمير وكنده وغسان ونحن فيدينون للحمس من قريش ويرون تعظيمهم والافتداء بلأثارهم فرضا وشرفا عندهم .

وإذا صح ما ذهبنا اليه وهو أن مذهب الحمس ان قرشي بانته أصوله

(١) ملجم البلدان :

أما الأرزقي فانه يرى أن ظهور الحمس بعد محادثة النبي ج ١ ص ١١٨ أخبار مكة .

قبل حملة أبرهة الحبش وحملت قريش العرب عليه فتسكون مظاهر الوحدة العربية وأسياده القريشية بدأت تسبق العصر الاسلامي فدينهم الوثني دين الجزيرة وبيوتهم بات مركزا للأصنام الممثلة للقبائل — كما حكى الأزرق أنه وجد في مكة ما يربوا على ثلاث مائة صنم — أي لكل قبيلة صنمها في ربعا وصنم في بيت الأصنام .

كذلك يتبع المظهر العام للوحدة ، المظهر اللغوي ونعني أن لغة قريش أصبحت سائدة ولا سيما في المناسبات الرسمية التي تقتضيهم قرص الشعر والمفاخرة به واذاعته في منقدياتهم الرسمية : عكاظ ومجنة وذو المجاز . وهي في مجموعها ما يطلق عليه مؤرخوا الأدب « بالمعلقات » نقول اتجه العرب على اختلاف لهجات قبائلهم الى صياغة معلقاتهم بلغة قريش — وذلك واضحة من قراءتنا لها — حيث لا يبدو اختلاف لهجتهم عليها . وفي تعليقها على جدار الكعبة ما يؤيد ما نذهب اليه هو أن هذه المعلقات تكلف لها العرب لغة قريش لترفع على بيت قريش .

وتعتبر ظواهر الوحدة — أي «طابع قريش العام — لغة ودبنا ونسك الحج والاقتصاد — سيطرت على العرب قبل الاسلام عوامل ممهده لنزول القرآن بلغة قريش اذ ليس من المعقول أن ينزل القرآن بلغة قبيلة من قبائل العرب دون أن يكون وراءه تبريرا تاريخيا يشهد لسمو هذه اللغة القرشية على غيرها وفي رأينا — وله شواهد التاريخية — أن هذه اللغة القرشية تعدت نطاق قبيلة قريش فحملوها معهم — وهم رسل التجارة — في بطن الجزيرة ومشارقتها وخارجها فكتبت بها العهود التجارية التي أبرمتها مع الرومان — الفرس — اليمن — الحبشة وفي النقل التجاري عوامل حيوية الى سبيل التطور فعندما نزل القرآن بلغة قريش كان يتفق مع الروح العربية في اصطفاؤها لغة قريش : لغة ثقافة وحضارة وجين كتبت بها معلقاتها .

أما من ناحية المضمون الفكري فنرى أن القضايا الفكرية التي تناولتها لائحة قريش التنفيذية خالية من همق فكري فلا نرى فيها ما يشير من قريب

أو من بعيد إلى مشكلات المجهول : كقضايا البشرية ، والخلق ، ويبدو أنها كانت لا تراود عقل العربي .

فدينهم الوثني : لا حياة فيه ولا معنى له ، ولا يساعد أحدا منهم : على أن يحدد العلاقات التي تربط هذه الآلهة المتعددة بالبشر . وصرّفهم عن فهم ما لديهم من فكر غامضة عن قوة عالية فكانوا يقصدون الأوثان باعتبارها تمثل هذه القوة بواسطة طبقوس وثنية ورثوها عن أجدادهم .

وثنية العرب لم تستطع أن تجيب إجابات مقنعة على الأسئلة البديهية التي تتزدد في ذهن كل شخص مفكر :

من أين خلقت ؟ إلى أي نهاية مصيرى ؟ ما هدفى وغرضى من الحياة ؟

« لم يشغل العربي ذهنه بشيء من القضايا أو من قبيلها إنما كانت حياة العربي حياة حرية ومرح وسرور ومجون وكانت الخمر والنساء والحرب هي الأشياء الثلاثة التي يحبها العربي ويهتم بها » . فهو إما أن يستغرق في الخمر أو ينصرف إلى الفسق أو يستنفذ قوته وطاقته في الحروب القبلية أو سلب جاره . وكانت حياة مرح لا يعكر صفوها أفكار خطيرة أو تأملات دينية لم يكن هناك ميل للصدق أو رغبة في عمل الخير .

« كان كل هدفهم من الحياة أن يتمتعوا بحاضرهم وأن يحرزوا النصر في معاركهم ، وإلى يومنا هذا نجد البدوي محتفظا بهذه الصفات فهو في غالب حالاته لا يتقيد بالدين (١) .

« والدلائل تشير إلى أن الوثني في الجاهلية على العموم لم يكن يتمسك في دينه بعقيدة نابغة من شعور ديني عميق أو عاطفة روحية شديدة قائمة على عقل سديد أو تفكير سليم إنما هي عادات تأصلت في نفوسهم تقليدا بغيرهم أو تمسكا بسلوك آبائهم وأجدادهم السابقين » (٢) .

ويحل بلاشير (٣) : العاطفة الدينية عند الجاهلية فيقول :

ان العاطفة التي كانت تسيطر على النفوس في المحيط العربي قبل ظهور

(١) تاريخ الإسلام العام ص ١٨ .

(٢) تاريخ الأدب الجاهلي على الجندی ج ١ ص ١١٧ .

(٣) تاريخ الأدب العرب ص ١٦ .

الإسلام شبيهة بالعاطفة التي كانت تسيطر على النفوس عند العبرانيين في مرحلة البداوة وهي :

الاعتقاد بتعدد الشياطين وهذا نوع من المذهب النفسى ومن صفاته :
شعور الرجل بأنه محاط بقوى خفية يصعب عليه تحديد ما هيها وتسميتها
بأسماء خاصة الا أنه يعجز دوما عن تشخيصها .

فان عبادة الأوثان والإيمان بالحن والأغوال (وهي نفوس شريرة تهاجم
الإنسان في الوحدة) كل هذا يشكل ساس الدين ومذهبه الفكرى في علاقتهم
بالحياة .

وان تعد الآلهة في صلته الضيقة مع تعدد الشياطين يدل على استعداد
العرب القدماء على تشخيص القوة الكامنة في الأشجار ونبابيح المياه وتسميتها
بأسماء وربطها مع الالهيات ومهما يكن منشأ تعدد الآلهة فلا نرى أبدا أنه
أفاد العرب باستثناء بعض النفوس المتزمتة في بعض المراكز الحضارية —
الى جعل الدين مصدر تأملات أو أبحاث نظرية .

على أن حوادث الحياة والتجارب مع العلم بان قوى الطبيعة هي الغالبة
في الصحراء قد نمت في العربى المحارب قدرية عميقة لا لأن العربى بشبه
ايوب الصابر على الأذى بل لأن العربى المحارب بالاضافة الى المتناقضات في
خلقه لا يحتل أحداث الحياة بصورة سلبية فان موقفه منها في بادىء الامر
هو : موقف المناضل غير أنه اذا وجد أمام المقذور انحنى خاضعا شاعرا
بعقم الجهد أمام هذه القوى الهائلة المنطوية تحت كلمة « الدهر » .

ويميل هذا الاستسلام النهائى عليه حكما ذات بساطة لا تخلو من سمو
موحيه اليه بتصرفات مرضية ولكنها مؤثرة جداً في بغض الأحيان وهكذا
فان العربى بارتفاعه فوق نظراته التافهة للوجود قد عوض الى حد ما عن
مقر فكره الدينى .

موقف القرآن من التحمس :

اذا كان التحمس مذهب قريش فان من المتصور لرجل الاصلاح وهو
قرشى أنه سوف ينهض بدعوته من هذا المذهب ليجذب أفراد قبيلته

اليه من جانب ، ويحي عصبيتها القبلية والدينية. من جانب آخر كان نلسك هو المتصور . لكن واقع الأمر كان غير ذلك فرسالة الاصلاح التي اضطلع بعبيتها الرسول لم تكن نابعة من تصوره ولا مدفوعا اليها رغبة في زعامة أو رياسة أو جاه حتى تكون وفق ما تصورنا انما كانت رسالة الهيئة تبغى الاصلاح ما استطاعت اليه سبيلا ، رسالة هزت كيان القبائل العربية وأوثانها وكان على رأس هذه القبائل جميعا قبيلته صلى الله عليه وسلم فهدم عصبيتها القبلية والدينية ليحل محلها معان جديدة مدلولها الانساني كمبدأ الأخاء والتضامن والتكافل ، هدم بها عصبيتها الدينية فألغى تشريعاتها التي عرفت بالحمس « وحل محلها دينه وفرض حجه . قال تعالى : ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله ان الله غفور رحيم .
يعنى على قريش أن تتساوى مع الناس فرفعهم معهم في فريضة الحج الى عرفات والوقوف عليها والافاضة منها .

وأنزل عليه ، فيما كانوا حرموا على الناس من طعامهم ولبوسهم عند البيت حين طافوا عراة وحرموا ما جاءوا به من الحل من الطعام ، قوله :
« يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا وأشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين ، قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك يبين الآيات لقوم يعلمون » .

وقال معيبا عليهم : سلوكهم الدينى : « وما كان صلاتهم عند البيت الا مكاء وتصدية » أى أنهم كانوا : يطوفون عراة ويصفتون ويصفرون .
وقال : وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها .
لأن الحمس لا يدخلون تحت سقف ولا يحول بينهم وبين السماء عتبة باب ولا غيرها فان احتاج أحدهم في داره تسنم البيت من ظهره ولم يدخل من الباب فرد الله ذلك عليهم .

بقوله : وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون .

ثم بين أنهم يسندون هذه الشعائر الى ابراهيم .

وإذا كانت ملة أبيكم ابراهيم ، فابراهيم لم يكن من المشركين .
 وأخيرا : ألغى الوحي الالهي مظهر البيت القبلي القريش ، ومظهره الوثني
 واتى على مذهب الحمس فعصف به ثم رفع الوحي من شأن البيت الحرام
 وجعله مثابة للناس وآمنا وقبلة للناس جميعا وأصبحت عالمية البيت الحرام
 بالاسلام حقيقة مقررة .

أسماء الذين أهدم الرسول بتكسير الأصنام :

- ١ — مناة : بعث النبي عليا فهدمها وأخذ ما كان لها وقيل أبا سغيان
 .أبن حرب .
- ٢ — القلس : هدمه علي .
- ٣ — اللات : هدمها المغيرة بن شعبة وحرقتها بالنار .
- ٤ — العزى : هدمها خالد بن الوليد .
- ٥ — أساف ونائلة :
- ٦ — هبل .
- ٧ — ذو الخلصة : هدمه جرير بن عبد الله البجلي (١) .
- ٨ — ذو الكفين : هدمه الطفيل بن عمرو الدوسي فصرقه .
- ٩ — ذو الشورى .
- ١٠ — الأقيصر : كسرها النبي صلى الله عليه وسلم .

(١) عن جرير قال : كان في الجاهلية بيت يقال له الخلصة وكان يقال له الكعبة اليمانية
 الشامية .
 فقال رسوك الله : الله هل أنت مريحى من ذى الخلصة والكعبة اليمانية والشامية .
 فنفرت في مائة وخمسين . من أحس فكسناه وقتلنا من وجدنا عنده فأخبرته . قال فدعا لنا
 ولأحمس .
 قال النووي : ذى الخلصة بيت في اليمن كان فيه أصنام يعبدونها والمراد أن ذى الخلصة
 يسمونها الكعبة اليمانية . وكانت الكعبة التي في تسمى الشامية .
 قال المعاضى مياض : تذكر الشامية وهم وغلط من بعض الرواة والصواب حذفه . وقد
 ذكره البخارى بهذا الأبعناد وليس فيه هذه الزيادة والوهم صحيح مسلم ج ١٦ ص ٥٣
 فضائل جرير .

وأمر بهدم بقية الأصنام والأوثان والانصاب ، أما الأصنام التي كانت منصوبة حول الكعبة فطعنها الرسول بسبة قوسه في عيونها ويقول : « جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا » ثم أمر بها فكفنت على وجوها ثم أخرجت من المسجد فحرقت .

من موقف الرسول مع المذهب الأحمسي القرشي ، وموقفه من الأوثان العربية وأصنامها وانصابها ، وضح : أن مصدر الاسلام لا يتصل بسبب الى الوثنية العربية ، انما مصدره الوحي الالهى .

التشكك في الأوثان وسحب الثقة منها :

يقول خودا بخش : كان العرب كما يبدو يقصدون آلهتهم فيحجون الى اماكنهم المقدسة ويقدمون الأضحيات في معابدها ويخضبون بدماء هذه الأضحيات الهياكل المصنوعة من الأحجار أو الخشب ويستجيرون بكهنتها في وقت الشدة ويسألونهم عما يخبئه المستقبل ولكن كان ذلك تظاهرا وتصنعا فلم يكن هناك شعور بايمان حقيقى .

يقول دوزى : كان العربى يبدي غضبه لأقل شئ على الآلهة ويخاطبهم وكأنه يعرف حقيقتهم فيسخر منهم .

من هذه المظاهر التي لوحظت عليهم وضح لنا : أن عرب ما قبل الاسلام كانوا في حالة قلق دينى عاجزين عن الوصول الى ما هو أحسن بحيث يرضى حاجاتهم ومطالبهم ، يمارسون عبادة الأوثان ولكن بدون شعور بايمان حقيقى ، ووجود المسيحية واليهودية بينهم أبرزت حالة القلق الدينى وأدت ببعض منهم الى تحويل أفكارهم من الوثنية الى أفكار أسمى وسعوا في طلبها .

وسنقدم عدة نماذج من الذين سخطوا على أوثانهم وكان وراء هذا السخط بعض الخطوات الفكرية ومن أهم ما نشير اليه : تلك الخطوات الفكرية « عدم معقولية الاله أو المعبود » وهذا المعنى : يفيد موقف الساخطين ، ولازم أيضا للذين تشككوا في أوثانهم ورغبوا عنها الى ملة سماوية :

أولا : موقف الساخطين على الأوثان :

١ - ذو الخلصة وأمرؤ القيس :

لما أقبل امرؤ القيس بن حجر ، يريد الغارة على بني أسد ، مر بذي الخلصة ، وكان صنما يتباله ، وكانت العرب جميعا تعظمه ، وكانت له ثلاثة أقداح : الأمر ، والناهي ، والمتربص ، فاستقسم عنده ثلاث مرات : فخرج الناهي ، فكسر القداح وضرب بها وجه الصنم وقال :

لو كنت يا ذا الخلص الموتورا مثلى وكان شيخك المقبورا

لم تنه عن قتل العداة زورا

لو كان أبوك قتل ما عوقنتى ثم غزا بني أسد فظفر بهم •

فلما فتح رسول الله مكة وأسلمت العرب ووفدت عليه وفودها قدم عليه جرير بن عبد الله مسلما فقال له : يا جرير ألا تكفيني ذا الخلصة ؟ فقال : بلى فوجهه إليه ، فخرج حتى أتى بني أحمر من بجيلة فسار بهم إليه فقاتلته خثعم ، وباهله دونه فقتل من سدنته من بأهله يومئذ مائة رجل وأكثر القتل في خثعم وقتل مائتين من بني قحافة بن عامر بن خثعم فظفر بهم وهزمهم وهدم بنيان ذي الخلصة • وأضرم فيه النار فاحترق • وذو الخلصة اليوم عتبة باب مسجد تبالة •

٢ - سعد :

وكان لمالك وملكان ابني كنانة صنم يقال له : سعد ، وكان صخرة طويلة ، فأقبل رجل منهم بابل له ليقفها عليه يتبرك بذلك فيها فلما أدناها منه نفرت منه وكان يهراق عليها الدماء ، فذهبت في كل وجه وتفرقت عليه وأسف فتناول حجرا فرماه به وقال : لا بارك الله فيك الها نفرت على ابلى ثم خرج في طلبها حتى جمعها وانصرف عنه وهو يقول :

فشتتنا سعد • فلا نحن من سعد
من الأرض لا يدعى لغى ولا رشد

أتينا الى سعد ليجمع شملنا
وهل سعد الا صخرة بتقوفه

٣ - وقال أوس بن حجر يحطف باللات :

وباللات والعزى ومن دان دينها وبالله ان الله منهن أكبر

٤ - وقال بعضهم حين وجد الثعلبان يال على رأس صنمه :

اله يببول الثعلبان برأسه لقد ذل من بالت عليه الثعالب

وقال شاعر :

أكلت ربها حنيفة من جوع قديم بها ومن أعواز

وقال آخر :

أكلت حنيفة ربها زمن التقم والمجاعة

ولم يحذروا من ربهم سوء العواقب والتباعة(١)

ثانيا : المتشككون في أوثانهم :

الحنيفية :

خرج زيد بن عمرو بن نفيل : يطلب دين ابراهيم ، ويسأل الرهبان والأخبار حتى بلغ الموصل والجزيرة كلها ثم أقبل : فجال الشام كلها حتى انتهى الى راهب « بميعة » من ارض البلقاء كان ينتهى اليه علم اهل النصرانية فسأله عن الحنيفية دين ابراهيم ؟

فقال : انك لتطلب دينا ما أنت بواجد من يملك عليه اليوم . ولكن قد أظل زمان نبى : يخرج من بلادك التى خرجت منها ، يبعث بدين ابراهيم : الحنيفية ، فالحق بها فانه مبعوث الآن ، هذا زمانه .

وقد كان سأم اليهودية والنصرانية فلم يرض شيئا فخرج سريعا ، حين قال له ذلك الراهب ما قال ، يريد مكة .

ما معنى الحنيف ؟ فى معنى الحنيف أقوال :

١ - هو المائل عن الأديان كلها قاله ابن عباس .

٢ - أو المائل عما عليه العامة . قاله الزجاج .

(١) الأصنام ص ٤ هامش ، وتاج العروس مادة ت . ع . ل . ب .

- ٣ — أو المستقيم ، قاله قتيبة .
- ٤ — أو الحاج ، قاله ابن عجلان وابن الحنيفة .
- ٥ — أو المتبع ، قاله مجاهد .
- ٦ — أو المخلص ، قاله السدي .
- ٧ — أو المخالف لكل ، قاله ابن حجر .
- ٨ — أو المسلم ، قاله الضحاك .
- ٩ — قالوا : فإذا جمع الحنيف مع المسلم فهو الحاج أو المختن .
- ١٠ — أو الحنف هو الاختنان واقامة المناسك وتحريم الأمهات والبغيات والأخوات والعمات والخالات .

روى أبو حيان المفسر (١) عشرة أقوال متقاربة في المعنى .

- وانما خص ابراهيم بالامامة لما سنه من مناسك الحج والختان وغير ذلك من شرائع الاسلام مما تبتدىء به الى قيام الساعة .
- وصارت الحنيفية علما مميزا بين المؤمن والكافر .
- وسمى الحنيف من ابتعد واستقام على هديه وسمى المنكث عن ملته بسائر أسماء الملل . فقيل : يهودى ، نصرانى ، ومجوسى ، وغير ذلك من ضروب الملل .

والآراء الكثيرة المذكورة تتجه وجهتين :

- وجهة الاتجاه اللغوى عند العرب ، وتعنى : المائل أو المخالف .
- والوجهة الثانية اصطلاحية : وتعنى من اتخذ وجهته نحو ابراهيم ديننا ،

(١) البحر المحيط ج ١ ص ٤٠١ وقال الراغب الاصفهاني ج ١ ص ٢٩٠ على هامش

النهاية في غريب الحديث لابن الاثير .

وسميت العرب : كل من حج أو اختن حنيفا تنبئها أنه على دين ابراهيم وابن الاثير في كتابه السابق اورد معانى أخرى نقلت عبادى حنفا : أى طاهرى الاعضاء من المعاصى ، وقيل اراد أنه خلقهم حنفاء مؤمنين لما أخذ عليهم الميثاق « است بريكم قالوا بلى » فلا يوجد احد الا وهو مقر بأن له ربا وان اشرك به «واختلفوا فيه : والحنفاء جمع حنيف وهو المائل الى الاسلام الثابت عليه .

والخيف عند العرب : ما كان على دين ابراهيم .

من حيث التوحيد أو شريعته من اختتن أو شعائر الحج ، ومن حيث المفهـج
الاسلامى : سوى القرآن بين الحنيفية والاسلام والفترة .

يجعل الشهرستانى : (١) أن الصبوة فى مقابل الحنيفية فيقول : وكانت
الفرق فى زمان ابراهيم راجعة الى صنفين اثنين : حنفاء وصابئة .

مدار مذهب الصابئة : التعصب للروحانيين .

والصابئة تدعى : أن مذهبها هو الاكتساب .

مدار مذهب الحنفاء هو : التعصب للبشرية الجسمانيين .

والحنفاء تدعى : أن مذهبها الفترة .

وكانوا يقولون : انا نحتاج فى المعرفة والطاعة الى متوسط من جنس
البشر تكون درجته فى الطهارة والعصمة والتأييد فوق الروحانيات :

يمثلنا فى البشرية .

ويمايزنا : فى الروحانية .

يتلقى الوحي بطرف الروحانية ، ويلقى الى النوع الانسانى بطرف
البشرية .

قال تعالى : « قل انما انا بشر مثلكم يوحى الى انما الحكم اله واحد» .

وقال : قل سبحان ربي هل كنت الا بشرا رسولا .

قررها : ابراهيم ، وأطلق عليها : الملة الكبرى ، والأنبياء بعده أطلقوا
على دينهم : وصف الحنيف ، ولا سيما القرآن فالتوحيد : كان من أخص
أركان الحنيفية ، ولهذا يقترب عدم الشرك بكل موضع ذكرت الحنيفية فيه .

قال تعالى : حنيفا وما كان من المشركين .

وقال : حنفاء لله غير مشركين به .

والصابئة بمذهبها الروحي وعمقها التاريخي تضع أمامنا مشكلة وهى :

كيف عرف الانسان الاتجاه الروحي — وهو أعقد من الاتجاه المادى ؟

أعرفه بالعقل ؟ أم بالوحي ؟ وهل الانسان : فكر أولا ماديا أو روحيا ؟

يجيب الشهرستاني في المناظرة بين الصابئة والحنفاء : أنهم عرفوه أى
الاتجاه الروحي من الأنبياء (١) .

بعد ما قلنا عن معنى الحنيفية نرجع الى الحنفاء الشاكين في أصنامهم
نقول : ان التعدد في الأصنام ، والأنصاب ، وإنشاءهم لبيوت مقدسة ،
بزامون بهكنا الكعبة ، مع نظرات الساخطين عليها ، الى وجود المسيحية ،
بجانب اليهود ، وأشتات من الصابئة ، ولاجئين من الجوس ، كل ذلك :
حفلت به الجزيرة العربية وله آثاره الواضحة في خلق آفاق جديدة من التفكير
لدى بعض أفراد أدامهم ميولهم العقلي الى تقييم ما حولهم من وثنية واضطلعوا
بعبء مسئولية التفكير فيها .

قال الشافعى : في الام : فكانت الجوس يدينون غير دين أهل الأوثان
ويخالفون أهل الكتاب من اليهود والنصارى في بعض دينهم وكان أهل
الكتاب اليهود والنصارى يختلفون في بعض دينهم .
يقول : الشيخ مصطفى عبد الرازق معلقا :

وكان هذا الجدل يتناول بالضرورة شئون الألوهية والرسالة والبعث
والآخرة والملائكة والجن والأرواح ويدعو الى الموازنة بين المذاهب المختلفة
في تلك الشئون وقوى أمر هذا الجدل الدينى في ذلك العهد حتى تولدت نزعة
ترمى الى تلمس دين ابراهيم أبى العرب (٢) . وبذلك تسرب الشك في
الأصنام والأوثان الى نفوس العرب .

قال ابن إسحاق : واجتمعت قريش يوما في عيد لهم عند صنم من
أصنامهم كانوا يعظمونه وينحرون له ويعكفون عنده ويدبرون به وكان
ذلك عيدا لهم في كل سنة يوما . فخلص منهم أربعة نفر نجيا ثم قال بعضهم
لبعض تصادفوا وليكتن بعضكم على بعض .

قالوا : أجل وهم :

ورقة بن نوفل ، وعبد الله بن جحش ، وعثمان بن الحويرث ، وزيد

(١) راجع ما سبق في باب الصابئة .

(٢) التمهيد ص ١٠٣ .

ابن عمرو بن نفيل (١) .
 فقال بعضهم لبعض : « تعلموا والله ما قومكم على شيء لقد أخطأوا
 دين أبيهم ابراهيم ما حجر نظيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع ؟
 يا قوم. التمسوا لانفسكم فانكم والله ما انتم على شيء » فتفرقوا في
 البلدان يلتمسون الحنيفية دين ابراهيم .
 فأما ورقة بن نوفل فاستحکم في النصرانية واتبع الكتب من أهلها حتى
 علم علما من أهل الكتاب .

وأما عبيد الله بن جحش : فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم
 ثم هاجر مع المسلمين الى الحبشة ومعه امراته أم حبيبة بنت أبي سفيان
 مسلمة فلما قدمها تنصر وفارق الاسلام حتى هلك هناك نصرانيا وكان
 عبيد الله بن جحش حين تنصر يمر بأصحاب رسول الله وهم هنالك من
 أرض الحبشة فيقولون .

فحننا أي أبصرنا وصاأتم : أي تلتمسون البصر ولم تبصروا بعد .
 وأما عثمان بن الحويرث. فقدم على قيصر ملك الروم فتنصر وحسنت
 منزلته عنده .

قال صاحب الروض : ان قيصر الروم كان قد توج عثمان وولاه أمر مكة
 فلما جاءهم بذلك أنفوا من أن يجينوا. ملك وصلاح الأسود بن أسد بن
 عبد العزى الا أن مكة حى لقاح لا تحين فلم يتم له مراده . . قال وكان
 يقال له البطريق ولا عقب له ومات بالشام مسموما سمه عمرو بن جفنة
 الغساني الملك .

وأما زيد بن عمرو : فوقف فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية وفارق
 دين قومه فاعتزل الأوثان والميعة والدم والذبايح التي تذبح على الأوثان
 ونهى عن قتل الموعودة وقال أعبد رب ابراهيم ونادى قومه بعيب ما هم عليه .

(١) ذكر المسعودى في كتابه مروج الذهب : اسما اناس من العرب دعوا قومهم
 الى الله ونبهوهم على آياته في زمن الفترة كعس بن ساعده ، ورياب السبتي. وبيرا الراهب
 وكان من عبدا عيس .

خرج الى الشام يسأل عن الدين ؟ ويتبعه فلقي عالما من اليهود فسأله عن دينهم وقال انى لأنخب أن: أدين بدينكم فأخبرونى فقال لا تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله قال زيد ما أفر الا من غضب الله ولا أحمل من غضب الله شيئا أبدا وانى أستطيعه فهل تدلنى على غيره قال ما أعلمه الا أن يكون حنيفا .

قال : وما الحنيف ؟

قال : دين ابراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ولا يعبد الا الله .

فخرج زيد فلقي عالما من النصارى فذكر مثله فقال لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله قال ما أفر الا من لعنة الله ولا أحمل من لعنة الله ولا من غضب الله شيئا أبدا وانى أستطيع فهل تدلنى على غيره قال ما أعلمه الا أن يكون حنيفا .

قال : وما الحنيف ؟

قال دين ابراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ولا يعبد الا الله .

فلما رأى زيد قولهم فى ابراهيم خرج فلما برز مع يديه فقال اللهم انى أشهدك انى على دين ابراهيم .

وفى حديث للبخارى عن أسماء بنت أبى بكر قالت رأيت زيد بن عمرو ابن نفيل قائما مسندا ظهره الى الكعبة يقول : يا معشر قريش والله ما منكم على دين ابراهيم غيرى وكان يحيى الموعودة يقول للرجل اذا أراد أن يقتل ابنته لا تقتلها أكفك مؤنتها فياخذها فاذا ترعرعت قال لأبيها ان شئت دفعتها اليك وان شئت كفيتك مؤنتها .

ومن شعره يقول زيد بن عمرو بن نفيل :

أربا وانحدا أم ألف رب	أدين اذا تقسمت الأمور
عزلت اللات والعزى جميعا	كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا عزى أدين ولا أبنيتهما	ولا صنمى بنى عمرو أزور
ولا هبلا أدين وكان ربا	لنا فى الدهر اذ حطى يسير

(م - ١٧ الفكر الدينى)

عجبت وفي الليالي معجبات
بأن الله قد أفنى رجالا
وبينا المرء يعثر تاب يوما
ولكن أعبد الرحمن ربي
فتقوى الله ربكم احفظوها
تري الأبرار دارهم جنان
وخزي في الحياة وأن يموتوا

وفي الأيام يعرفها البصير
كثيرا كان شأنهم الفجور
كما يتروح الغصن العطير
ليغفر ذنبي الرب الغفور
متى ما تحفظنوها لا تبور
والكفار حامية سعي
يلاقوا ما تضيق به الصدور

وقال مما ذكره أبو الفرج :

أدين الأها يستجار ولا أرى أدين إن يسمع الدهر داعيا

مما سبق نلاحظ أن هؤلاء الأربعة خرجوا عن الوثنية ثم بعد ذلك تفرقوا
الى جهات مختلفة غير وجهة الوثنية . وكانت لهم وجهة نظر في اطراح
الوثنية هي : أنها لا تسمع ولا تبصر ولا تضر ولا تنفع وهم اذ يقولوا هذا
فانهم ما خرجوا عن وصف قطعة الحجر في أنها كذلك ، غير أنهم لم يبحثوا
فيما وراء ذلك من مشكلات دينية وبالرغم من أنهم لم يستهزئوا بالدين انما
استهزأوا بالاله المصنوع من حجر وغيره ، فان من الواضح أن فكرة وجود
اله مغاير لما عليه الأصنام كانت تؤرقهم غير أنهم لم يبحثوها ولو من ناحية
تحقيق حاجاتهم الدينية التي كانوا يحسون أن ما هم عليه لا يحقق رغبتهم
الدينية ولا سيما بعد ما بدا لهم أن آلهتهم تعتبر غريبة على هذا العالم .

انما رأوا أن عليهم اختيار دين مما هو منتشر بينهم فبعضهم اتخذ سبيل
المسيحية والبحث كورقة ومن تحير الى أن تنصر ومات كعبيد الله بن جحش
وآخر وقع في براثن السياسة فاهلكته والذي قال : «كذلك يفعل الجلد الصبور»
تحسس المسيحية واليهودية الى أن وقع هواه على الحنيفية دين أبيه ابراهيم .

«وسمى هؤلاء المفكرون بـ (الحنفاء) ولكنهم لم ينتظموا في طائفة ولم
يرتبطوا برباط واحد ولم يشتركوا في عبادة واحدة معينة ثم ظهر الصابئة

الذين كانوا يسمون أيضا الحنفاء نبذ هذان النوعان من الحنفاء : اليهودية
والمسيحية وآمنوا بدين ابراهيم وكانت تعاليمهم بسيطة فطرية تتفق مع
سلوك العرب .

ولتصبح الحنيفية دين العرب كانت في حاجة الى تعاليم محددة وتنظيم
قوى وطقوس دينية وكتاب سماوى ولما كانت الحنيفية توزها الاسس
السماوية التي تجذب الانسان فانها لم تتمكن من الانتشار بحيث تصبح دين
العرب .

وخلاصة القول : منح الاسلام العرب عقيدة التوحيد في أنقى صورها
غير متأثرة بغيرها وأشعرهم بمسئوليات الحياة وقضى على الفساد الاجتماعى
من جذوره .

وحطم حياتهم الانعزالية وجعلهم رسل الحضارة ولا نجد ما يعبر عن
البحث خيرا مما قاله الأستاذ براون : فقد رأينا في موقعه « ذى قار » علاقات
تدل على حيوية العرب العظيمة وشدة بأسهم بينما كان جيرانهم ينظرون اليهم
على أنهم كميات مهملة بشكل غير مألوف كما كانوا في عصر ما قبل
الاسلام (١) .

أما الاسلام ذلك القانون الالهى الفريد الذى يستطيع متعلم منصف
أن ينكر عظمته فقد جعل العرب يأخذون نصيبا كبيرا ويؤدون دورهم في
الحضارة . .

بعد ذلك نحب أن نذكر بعض التعليقات حول بعض الأسماء التي أطلقت
على ذلك النفر من بعض كتب السيرة فبعضها أطلق على هؤلاء النفر «حنفاء»
والبعض الآخر أطلق عليهم «المتحنثون» .

فمن ناحية كلمة «حنفاء» يجوز اطلاقها عليهم من ناحية المعنى اللغوى
أى الذين خرجوا على دين قومهم .

(١) حضارة الاسلام ص ٣١ صلاح الدين جودا ابنخشى ترجمة على حسن الخربوطلى .

• ومن ناحية المعنى الاصلاحي فإنه يشملهم جميعا من باب قصدهم فهم
 تصدوا جميعا — عند ما سحبوا من الأوثان . ودين قومهم — الحنيفية او
 من باب التغليب أى لما كان منهم من انتسب الى الحنفاء سموا جميعا بالحنفاء
 لان الذى اعتنق الحنيفية بعد أن بحث عنها واحد منهم فقط .

• أما من ناحية : اهل الحنث .

— حنث اليمين : أى نقضها .

قال الجوهرى : بلغ الغلام الحنث : أى بلغ المعصية أو الطاعة .

— وفيه أن الرسول كان يأتى حراء فيتحنث فيه : أى يتعبد فيه .

— يقال فلان يتحنث : أى يفعل فعلا يخرج به من الاثم والحرج .

— ومنه حديث حكيم بن حزام : رأيت أمورا كنت اتحنث بها فى الجاهلية .

• أى اتقرب بها الى الله .

ومنه حديث عائشة : ولا اتحنث الى نذرى أى لا أكتسب الحنث وهو :

• الذنب .

• ومنه : تكثروا فيهم أولا الحنث أى أولاد الزنا .

ما عرضناه من معان لكلمة « الحنث » فهى معان صالحة لاطلاقها

عليهم . فهم حنثوا أى نقضوا ما تواعبوا عليه وهو طلب الحنيفية ثم لم
 يطلبها غير واحد .

وبعضهم بلغ بحنثه (عبادته) المعصية ولا سيما ما كان من بعضهم

عندما ترك الحق واتبع السياسة فأهلكته ، والبعض الآخر بلغ بحنثه الطاعة

وكلهم طلبوا أمورا صالحة فى نظرهم لتعبدتهم وكلهم فعلا خرجوا به من

الاثم الى الطاعة بحسب اجتهادهم .

... وهكذا أوقفنا معاجم اللغة — كما رأينا — أمام حشد من المعانى

دون تنبيه منها يبين متى نشأ المعنى الاصطلاحى للفظ او متى نقل من معناه

اللغوى الى معناه المذهبى .

الباب الخامس

موقفهم من قضايا الفكر الدينى

- ١ - الألوهية .
- ٢ - الرسالة .
- ٣ - المغيبيات .
- ٤ - رموز أساطيرهم .
- ٥ - على هامش الأخبار العربية .

نظرة تحليلية حول الوثنية العربية :

راينا فيما سبق أن الجاهلي عرف حياة دينية تعمق به حينما ويطفوا بها على السطح حينما آخر يطفوا بها حتى يتسرب الشك الى نفسه حتى يخيل اليها ان البدوي قليل الدين قلما يكثر لما يعبد .

والعربي : اذ يتعمق حياته الدينية او يسخط عليها فانما يصدر في ذلك عن طبيعته البدوية وليس عن فكر ديني في أغلب الأحيان .

فالعربي ذكي الى حد تكفيه الاشارة فماتور الحكمة والامثال يشهد بذكائه وحاضر بديهته وطبيعته من وراء ذلك شخص ميال الى الاعتزاز بنفسه بما يخدم حرите الشخصية فلا يدين لاحد فهو ذكي غير ميال الى التفاهم الاجتماعي .

ونظامه القبلي : كشكل اجتماعي بدائي — صرفه عن أن يفكر في محيط اجتماعي اوسع فلم يفكر في تغيير مجرى حياته الاجتماعي او الفكري فانهصر فكره داخل قبيلته ولم يتهدا عن مألوفها الا بقدر ما يخدم حرите الشخصية فهو كعضو في قبيلته مخلص مطيع لتقاليدها . لذلك كان العربي مقلدا غير ميال الى التغيير الاجتماعي والعربي يحب من الأفكار ما يلهيه ويرفع عنه سامة الحياة ويتناسب مع سعة الخيال العربي الذي يتسع للعقاب والغول والجان والشياطين سعة تتناسب أيضا مع رحابة صحراء جزيرة العرب . يجب مثل هذا الفكر وليس ذلك لضعف طبيعة عقله وانما ليوله الفكرية فهو يرى أنه غير ميال الى التغيير ولم يغير ؟

انه رئيس في قبيلته او عضو عامل فيها فالتغيير لماذا ؟ فالحفاظ على وضعه فيه نوع من الفكر الذاتي المنطلق على نفسه . فلذلك اندفع نحو الخرافات ليحفظ بها نظامه القبلي . وليس العربي وحده مصدقا للخرافات فالامة اليونانية فيها خرافات لا تتناسب مع عقلها المنطقي .

فحياته الدينية كانت تقليدا غير مرتبطة بحياة عقلية ناضجة وليست كما يرى بعض الباحثين أن العقائد الدينية قبل الاسلام خضعت لعوامل

التطور ومن هؤلاء الأستاذ أنور الرفاعي اذ يقول : عرف عن عرب ما قبل الاسلام أنهم وثنيون وعرفت وثنيتهم وتقاليدهم في القرآن الكريم بالجاهلية وبالرغم من ذهاب معظم أخبارها ، فقد تسرب اليها نثف كثيرة من أساطير الجاهلين ومعتقداتهم وأفكارهم ، وكلها تدل على ان الوثنية ليست بسيطة التركيب ولا قريبة المتناول ، فما وصلنا منها يدل على أنها مرحلة راقية ، وان كثيرا من قديمها قد بقى في متأخرها وان بعض احوالها صيغ بالأفكار اليهودية أو الصابئة أو المسيحية أو اتحد مع عقائد أجنبية . ومن الضروري أن نلجأ في تفهمها الى تصنيف تاريخي يمهّد لبيان تطورها وتعقدتها في الزمن .

واستعراض الأساطير والعقائد العربية الجاهلية يدلنا على أن الوثنية العربية مرت في أطوار تشبه تلك التي مرت بها وثنيات الأمم الأخرى فانها عرفت ١

١ — الطور الحيوى : وفيه اعتقد العرب أن في كل شيء حياة فعبدوا الشجر والحجر والجن ، واعتقدوا أن الحجر شجر الشياطين . وأن الصفا والروة هما : رجل وامرأة فسقا في الحرم فمسخا حجريين وان الضب هو يهودى مسخ فلا يؤكل لحمه . . وأن الحجارة الحرم تحمل قدسيته فهم يحملون منها للعبادة في ديارهم . . . الخ .

٢ — الطور الطومى : وفيه تنحصر الحياة والأرواح في أشياء محدودة : ومن بقايا هذا التطور ما وجد عندهم من تسمية الانسان بأسماء الحيوان ومن عبادة بعض البهائم ، كالجمل الأسود عند طيء ، والكبش الأبيض ، ومن التشاؤم بالغراب والبوم . ومن عبادة الأصنام على شكل الحيوان كيعوق وهو على شكل نسر ، ويعوق وهو على شكل فرس . . الخ .

٣ — الطور الوثنى وتعدد الآلهة : وفيه وصل العرب الى تصور الاله بأشكال انسانية . وتعددت الآلهة عندهم وتخصصت ومهدت للطور الوجدانى الذى جاء به الاسلام .

نحن لا نشايح الأستاذ أنور الرفاعي فيما ذهب اليه من تحليل للوثنية العربية وانتقالها الى أطوار مختلفة لما رايناهم بينهم انهم مجتمع قبلي لكل قبيلة معبودها حجرا أو شجرا أو حيوانا وذهبت في عباداتها لهذه الأوثان المتعددة والمختلفة مذهب التقليد والمحاكاة .

يقول اسبتيينو موسكاتى (١) :

وقد عرفت القبائل البدوية في وسط الجزيرة طائفة كبيرة من الآلهة ، ولكنها ليست آلهة أو الهات محددة تحديدا واضحا لها صفاتها وأساطيرها الثابتة ، بل أرواح كل منها تهيمن على موضع وتحميه مثل البعول الكنعانية المختلفة . فخيال البدوي أضفى أرواحا على الآبار والأشجار والحجارة ، وشعر بوجود آلهة فيها .

وكانت تسكن الصحراء أرواح أخرى محلية غير الآلهة ، هي خليط من مخلوقات غريبة بعضها خير وبعضها شرير تملك القدرة على الإستخفاء وكان على المرء استرضائها اذا أراد اجتناب آذاها .

الوثنية في نظر الرازي :

يقول الرازي المفسر :

أعلم أنه ليس في العالم أحد يثبت لله شريكا يساويه في الوجود والقدرة والعلم والحكمة وهذا مما لم يوجد الى الآن .

لكن في الوثنية يثبتون الهين :

— أحدهما : حلیم : يفعل الخير .

— والثاني : سفیه : يفعل الشر .

وأما اتخاذ معبود سوى الله ففي الذاهبين الى ذلك كثرة :

الفريق الاول : عبدة الكواكب :

وهم الصابئة فانهم يقولون أن الله خلق هذه الكواكب وهذه الكواكب هي المدبرات لهذا العالم . قالوا فيجب علينا أن نعبد الكواكب ووالكواكب تعبد الله .

(١) الحضارات السامية ص ٢٠٦ ترجمة السيد يعقوب أبو بكر

الفريق الثاني : الفصاري : الذين يعبدون المسيح .

الفريق الثالث : عبدة الأوثان .

وأعلم أنه لا دين أقدم من دين عبدة الأوثان ، وذلك لأن أقدم الانبياء الذين نقل إلينا تاريخهم هو نوح وهو انما جاء بالرد على ما أخبر الله عن قومه في قوله : لا تخرن آلهتكم ولا تخرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا .

فعلمنا أن هذه المقالة كانت موجودة قبل نوح وهي باقية الى الآن بل أكثر أهل العالم مستمرون على هذه المقالة .

يقول الرازي : والدين والمذهب الذي هذا شأنه يستحيل أن يعرف فسادة بالضرورة ولكن العلم بأن هذا الحجر المنحوت في هذه الساعة ليس هو الذي خلقني وخلق السموات والأرض علم ضروري فيستحيل أطباق الجمع العظيم عليه فوجب أن يكون لعبدة الأوثان غرض آخر سوى ذلك .

فما هو هذا الغرض ؟

يقول الرازي :

الوجه الأول : اعتقاد الشبه :

ذكر أبو معشر جعفر بن محمد المنجم البلخي في بعض مصنفاته : أن كثيرا من أهل الصين والهند كانوا يقولون بالله وملائكته ويعتقدون أن الله جسما وذا صورة كاحسن ما يكون من الصور وهكذا حال الملائكة أيضا في صورهم الحسنة وانهم كلهم قد احتجوا عنا بالسماء وان الواجب عليهم أن يصوغوا تماثيل أنيقة المنظر حسنة الرواء على الهيئة التي كانوا عليها ويعتقدونها من صور الالهة والملائكة . فيعكفون على عبادتها قاصدين طلب الزلفى الى الله وملائكته .

قال الرازي تعليقا عليه : فان صح ما ذكره ابو معشر فالسبب في عيادة

الأوثان : اعتقاد الشبه .

الوجه الثاني : اعتقاد في الأسباب الظاهرة :

ذكره أحد العلماء وهو أن الناس رأوا تغيرات أحوال هذا العالم مربوطة بتغيرات أحوال الكواكب ، فبحسب قرب الشمس وبعدها عن سمت الرأس تحدث الفصول المختلفة والأحوال المتباينة ثم أنهم رصدوا أحوال سائر الكواكب واعتقدوا ارتباط السعادة والنحوسة في الدنيا بكيفية وقوعها في طوابع الناس فلما اعتقدوا ذلك بالغوا في تعظيمها .

فمنهم من اعتقد أنها أشياء واجبة الوجود لخواتمها وهي التي خلقت هذه
العوالم .

ومنهم : من اعتقد أنها مخلوقة للاله الأكبر لكنها خالقة لهذا العالم .
فالاولون اعتقدوا أنها هي الآلهة في الحقيقة .

والفريق الثاني : اعتقدوا أنها هي الوسائط بين الله وبين البشر فلا جرم اشتغلوا بعبادتها والخضوع لها ، ثم لما رأوا الكواكب مستقرة في أكثر الأوقات من الأبصار اتخذوا لها أصناما وأقبلوا على عبادتها قاصدين بطلب العبادات تلك الأجرام العالية ومتقربين الى أشباحها الغائبة ، ثم لما طالت المدة ألفوا ذكر الكواكب وتجردوا لعبادة تلك التماثيل .
فهؤلاء في الحقيقة : عبدة الكواكب .

الوجه الثالث : تعظيم الجهول :

ان أصحاب الأصنام كانوا يعينون أوقاتا في السفين المتطاولة نحو الألف والالفين ويزعمون أن من اتخذ طلسمًا في ذلك الوقت على وجه خاص فإنه ينتفع به في أوقات مخصوصة نحو السعادة والخصب ودفح الآفات .

وكانوا اذا اتخذوا ذلك الطلسم عظموه لاعتقادهم أنهم ينتفعون به فلما بالغوا في ذلك التعظيم صار ذلك كالعبادة ولما طالت مدة ذلك العقل نسوا مبدأ الامر واشتغلوا بعبادتها على الجهالة بأصل الامر .

الوجه الرابع : اعتقاد في الأرواح :

انه متى مات منهم رجل كبير يعتقدون انه مجاب الدعوة ويقبلون الشفاعة عند الله اتخذوا صنما على صورته يعبدونه على اعتقاد أن ذلك الانسان يكون شفيعا لهم يوم القيامة عند الله على ما أخبر الله بهذه المقالة في قوله :

هؤلاء شفعاؤنا عند الله .

الوجه الخامس : اعتقاد في المقدسات :

لعلهم اتخذوها مجاريب لصلواتهم وطاقاتهم ويسجدون اليها لا لها كما انا نسجد الى القبلة لا للقبلة ولا استمرت هذه الحالة ظن الجاهل من القوم انه يجب عبادتها :

الوجه السادس :

لعلهم كانوا من المجسمة فاعتقدوا جواز حلول الرب فيها فعبدوها على هذا التأويل (١) .

وبهذا الاتجاه الوثني فسوا ما كانوا عليه واستبدلوا بدين ابراهيم واسماعيل غيره فعبدوا الأوثان وصاروا الى ما كانت عليه الأمم من قبلهم من الضلالات . ومع ذلك بقيت فيهم بقايا عهد ابراهيم يتمسكون بها

من تعظيم البيت والطواف والحج والعمرة بعرفة والمزدلفة وهدى البدن والاحلال بالحج العمرة مع ادخالهم فيه ما ليس فيه .

فكانت كنانة وقريش اذا أهلوا قالوا :

لبيك اللهم لا شريك لك الا شريكا هو لك تملكه وما ملك فيوحدونه بالتلبية ثم يدخلون معهم أصنامهم ويجعلون ملكها بيده يقول الله تعالى : (وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون) . أي ما يوحدونني لمعرفة حتى الا جعلوا معي شريكا من خلقي .

لقد لاحظنا أن العربي كان متدينا سواء كان الدافع الي اعتقاده الديني

(١) مفتاح الغيب ج ١ ص ٢٣١ .

فكره كامية ، وليبيد ، وميس بن ساعدة ، أو الدافع اليه تقليد القبيلة
أو الدافع اليه بعض الاتجاهات السياسية كمسيحية غسان : على أى حال
مهما كان الدافع فانه كان متدينا .

وذهب الباحثون في تدينه مذاهب شتى من حيث قضايا الفكر الدينى
وليس الحال كما رأى بعض الباحثين أن العربى وقع بتدينه تحت أطوار
مختلفة واثما نقول : أن العربى حاله في دينه هو حاله مع آلهة كما تصوره
هذه الرواية التاريخية :

يقول الكلبي : كان الرجل إذا سافر ففزل منزلا أخذ أربعة أحجار
فنظر الى أحسنها فاتخذها ربا وجعل ثلاثة أثاقى لقدمه وإذا ارتحل تركه فإذا
نزل منزلا آخر فعل مثل ذلك (١) ويقول أبو عثمان النهدي (نهدي قبيلة
من قضاة) كنا في الجاهلية نعبد حجرا ونحمله معنا فإذا رأينا أحسن منه
ألقيناه وعبدنا الثانى وإذا سقط الحجر عن البعير قلنا سقط الحكم فالتمسوا
حجرا (١) .

ويقول ابن دريد (١) « كان الرجل منهم إذا وجد حجرا أحسن من حجر
أخذه وعبده » . فالعربى لم يعبد الوثن معتقدا أنه خالقه أو خالق الكائنات
لأنه تارة يستقسم عنده وتارة أخرى يسبه ويشتمه ومرة ثالثة يأكله وقت
المجاعة لذلك لا نجد تصرف العربى مع وثنه تطورا انما استخفافا ومثله
إذا انتقل من عبادة وثن الى عبادة كوكب لا نرى في ذلك تطورا أيضا لأنه
غير مصحوب بفكر عقلى انما هو انتقال من صورة مظلمة الى صورة مشعة
كتركه الحجر لحجر أحسن في صورته . أما ما يصح أن يطلق عليه «انتقال
منطور » فهو الانتقال الذى يصاحبه فكر ويتبعه قضايا دينية توجب على
المتدين النظر أو الشك ، لم يحصل شيء من هذا حتى الحنفاء الذين تشكروا
في الأوثان رأوا أن علاج شكهم اختيار دين آخر وتفرقت بهم سبل الاختيار
فلم يحاولوا عرض قضايا دينية أو قضايا فكرية ، وذلك شأن العربى ،

(١) الأصنام ص ٢٢ .

(٢) اسد الغابة في معرفة الصحابة ج ٢ ص ٢٢٥ ابن الأثير .

(٣) الاستغنى ص ٨٦ .

أما الإسلام فكان شيئاً جديداً وكلاماً متكاملًا وفي ذلك ما يدل على سماويته
ونبوة الرسول .

ونتيجة هذا التنقل في الاختيار وقع العربي تحت عدة تناقضات فكرية
ودينية أشار إليها القرآن منها قوله تعالى : « ولئن سألتهم من خلق السموات
والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون . ولئن سألتهم من
نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ليقولن الله . قل الحمد لله
بل أكثرهم لا يعقلون (١) » .

وأشار أيضا إلى لون آخر من ألوان تناقضهم في قوله تعالى : « يعبدون
من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله » (٢)

فمنهم من كان يعبد الله مع صنمه ومنهم من كان لا يعبد الله مع صنمه .
وسنشير إلى ألوان من عقائدهم لئلا نرى أن الحياة العقائدية في مكة لم يحكمها
قانون التطور إنما حكمها قانون الانتشار والتقليد . فانتشر في ربوع شبه
الجزيرة العربية متفرقات من الملل والنحل وعاش بها بعضها بعضا .

وكان تعدد آلهة الصحراء نتيجة لحالة التثنية التي كانت تعيش فيها
القبائل ولميلها الغالب إلى التفوق وكان الإله لا يستطيع إلا نادرا التغلب على
هذين العاملين ومد نفوذه إلى ما وراء حدود منطقتة المحلية مثلما فعلت الآلهات
الثلاث : اللات ومناة والعزى ، وكانت تعبد في المنطقة التي حول مكة وكان
يعلو عليهن أبوهن الله (٣) .

١ — موقفهم من قضايا الألوهية :

(أ) المشركون بالله :

يتسم موقفهم من قضايا الألوهية بالشرک . والإشراك بالله له صور ولكل
صورة طائفة .

(١) سورة العنكبوت ٦١ ، ٦٢ .

(٢) سورة يونس ١٨ .

(٣) الحضارات السامية ص ٢٠٦ اسبتيو هو سنكاتى ترجمة د . السيد يعقوب بكر .

١ — منهم من اتخذ آلهة من الاجسام المعدنية كالحجر والذهب والفضة والنحاس . .

٢ — ومنهم من اتخذ من النباتات كالشجر .

٣ — ومنهم من اتخذ من الانسان .

٤ — ومنهم من اتخذ من الاجسام البسيطة :

— اما سفلية : كعبدة النار وهم المجوس .

— او علوية : كعبدة الشمس والقمر وسائر الكواكب وهم نوع من الصابئة .

٥ — ومنهم من قال بالاثنية : النور والظلمة وهم الثنوية .

٦ — ومنهم من قال للملائكة عبارة عن الارواح الفلكية ولكل اقليم روح

من الارواح الفلكية يديره وكذا لكل نوع من انواع هذا العالم فيتخذون لتلك الارواح صوراً وتمثيل ويعبدونها وهم عبدة الملائكة .

وقد كان صنف من العرب يعبدون الملائكة وهم بخلاف الصابئة الذين يقدسون الملائكة ولا يعبدونها . ويزعمون انها بنات الله فكانوا يعبدنها لتشفع لهم الى الله .

وهم الذين قال الله فيهم : ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون :

وقوله : (أفرايتم اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى لكم الذكر وله الانثى تلك اذا قسمة ضيزى) .

٧ — ومنهم من قال للعالم الهان :

— احدهما خير وهو : الله .

— والآخر شر وهو الشيطان .

وهؤلاء هم الذين يثيرون اليهم القرآن الكريم بقوله :

« وقال الله لا تتخذون الهين اثنين انما هو اله واحد » .

ونهاية القول فان ما كان عليه العرب من مظاهر الشرك المتعددة منهم من كان يتعمق في عبادته حتى يرى الله وراء حقيقة الوجود فوجه اليهم القرآن الكريم هذه الأسئلة : « قل لمن الارض ومن فيها ان كنتم تعلمون بـ سيقولون لله : قل افلا تفكرون ، قل من رب السموات السبع ورب العرش

العظيم سيقولون لله قل أفلا تتقون . قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون سيقولون لله قل فانى تسجرون «(١)» .
وقال : ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون .

ومن الملاحظات العامة على المظاهر الدينية القديمة التي كانت في البابليين والمصريين القدماء والفرس وحتى اليونان كانت مرتبطة بالظواهر الطبيعية علوية ، أو سفلية ، ارتباط تاليه أو تقديس .

(ب) الدهريون :

والدهرية هم الذين يقولون بإسناد الحوادث الى الدهر واستقلال الدهر بالتأثير ، والدهر عندهم : هو حركات الفلك وأن العالم يدار بمقتضى تأثير هذه الحركات والعرب يقولون به ولا صانع سواه .

• أما تعريف الدهر عند الاسلاميين : فهو : مدة زمان الدنيا .
• وعرفه بعضهم بأنه أمد مفعولات الله في الدنيا أو فعله لما قبل الموت .

يقول الألوسى : وزعم بعض من لا تحقيق لهم أن الدهر من أسماء الله وهو غلط (٢) وأطلقه العرب بفتح الدال على المجدين الذين ينكرون الله وتأثيره ، أما إذا أرادوا منه الرجل المعمر قالوا دهري بضم الدال (٣) .

وعقيدة الدهرية ترجع أيضا الى بعض مبادئ الصابئة فهي خمسة :
الرب — النفس — المادة — الدهر — الفضاء .

وجعل الشهرستاني الدهرية من المعطلة فقال : معطلة العرب أصنافاً صنف منهم أنكر الخالق والبعث والاعادة وقالوا بالطبع المحيي والدهر المفنى وهم الذين أخبر القرآن عنهم :

(١) سورة المؤمنون : ٨٤ — ٨٦ .

(٢) روح المعاني ج ٨ ص ٦٩ .

(٣) لسان العرب لابن منظور .

وقالوا ما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا (١) .
يقول الشهرستاني : اشارة الى الطبائع المحسوسة في العالم السفلى
وقصر الحياة والموت على تركيبها وتحللها فالجامع هو الطبع والمهلك هو الدهر .

« وما يهلكنا الا الدهر وما لهم بذلك من علم ان هم الا يظنون » فاستدل
عليهم بضرورات فكرية وآيات فطرية في كثير من السور فقال تعالى : « او
لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة ان هو الا نذير مبين » .
وقال : ائتكم لتكفرون بالذى خلق الارض في يومين بـ
وقال : يا ايها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم .
فأثبت الدلالة الضرورية من الخلق على الخالق وانه قادر على الكمال
ابتداء واعادة .

روى صاحب الأغاني : يقول عدى بن زيد بلسان حال المقابر . يتضح
منها أن لديهم أكثر من معنى للدهر :

من رأنا فليحدث نفسه انه موف على قرن زوال
وصروف الدهر لا يبقى لها ولما تأتي به صم الجبال
رب ركب قد أناخوا عندنا وجياد الخيل تردى في الجلال
عمروا دهرا بعيش حسن أمنى دهرهم غير عجال
ثم أضحوا عصف الدهر بهم وكذك الدهر يودى بالرجال
وكذلك الدهر يرمى بالفتى في طلاب العيش حالا بعد حال

(ج) الموحدون :

« وقد نقلت الصحراء أيضا عدا . التقاليد الوثنية تتعالج دين التوحيد
الكبيرين اللذين كان مركزها على مقربة من حدود الصحراء فقد هاجر جماعات
من اليهود الى الجنوب ولعل ذلك كان من أيام تخريب الرومان لبيت المقدس
وكونوا جاليات صغيرة على الطريق التجارى وفي واحات الحجاز وكانوا يستغلون
بالزراعة خاصة وقد أتوا الى موطنهم الجديد بتقاليد قومهم الدينية والحضارية

(١) الملل والنحل ج ٢ ص ٢٤٦ .

واتخذوا العربية لغة لهم (١) .

كان منهم الموحد المقر بخالقه المصدق للبعث موقنا بأن الله يثيب الطيع ويعاقب العاصي مثل الذين تحنفوا والذين تهودا والذين تنصروا .

وبعض القبائل لم تتغير فطرتهم ولا سيما « ربيعة » التي لازمت الحنيفية المشوبة بالأوثان ومن الأشخاص مثل :

• قيس بن ساعدة .

• وأميه بن أبي الصلت .

• ولبيد بن ربيعة .

يقول الشهرستاني :

ومن العرب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، وينتظر النبوة ، وكانت لهم سنن وشرائع قد ذكرناها ، لأنها نوع تحصيل .

فمن كان يعرف النور الظاهر ، بالنسب الطاهر ، ويعتقد الدين الحنيفي وينتظر المقدم النبوي زيد بن عمرو بن نفيل ، وكان يسند ظهره إلى الكعبة ويقول : أيها الناس هلموا إلى ، فإنه لم يبق على دين إبراهيم أحد غيري . وسمع « أميه بن أبي الصلت » ، يوما ينشد :

كل دين يوم القيامة عند الله إلا ، دين الحنيفية : زور

فقال له صدقت : وقال زيد أيضا :

فلن تكون لنفسك ذكرا واقية يوم الحساب إذا ما جمع البشر
ومن كان يعتقد التوحيد ، ويؤمن بيوم الحساب : « قيس بن ساعدة
الأيادي » . قال في مواعظه : كلا ورب الكعبة ليعودن ما باد ولئن ذهب ليعودن
يوما . وقال أيضا :

كلا بل هو الله اله واحد ، ليس بمولود ولا والد ، أعاد وأبدى ، واليه
المتأب غدا .

(١) الحضارات السامية ص ٢٠٧ .

وأنشد في معنى الاعادة :

يا باكي الموت والأموات في جدث
دعهم : فان لهم يوما يصاح بهم
حتى يجيئوا بحال غير حالهم
منهم عراة ومنهم في ثيابهم
عليهم من بقايا يزهم خرق
كما ينبه من نوماته الصدق
خلق مضى ثم هذا بعد ذا خلقوا
منها الجديد ومنها الأزرقي الخنق

ومنهم : عامر بن الظرب العدواني ، وكان من شعراء العرب وخطبائهم وله وصية طويلة يقول في آخرها انى ما رأيت شيئاً قط خلق نفسه ، ولا رأيت موضوعاً الا مصنوعاً . ولا جائياً الا ذاهباً ، ولو كان يميت الناس الداء لأحياهم الدواء . ثم قال : « انى أرى أموراً شتى وحتى قيل له وما حتى ؟ قال : حتى يرجع الميت حياً ، ويعود لا شىء شيئاً . ولذلك خلقت السموات والأرض فتولوا عنه ذاهبين ، وقال : ويل : انها نصيحة ، لو كان من يقبلها بـ

وكان عامر ، قد حرم الخمر على نفسه فيمن حرمها ، وقال فيها :

ان أشرب الخمر أشربها للذتها
لولا اللذاذة والقينات لم أرها
سألة للفتى ما ليس في يده
نورث القوم أضغانا بلا أحن
أقسمت بالله أسقيها وأرويها
وان أدعها فانى ماقت قال
ولا أرتنى الا من مدى عالى
ذهابة بعقول القوم والمال
مزرية بالفتى ذى النجدة الحالى
حتى يفرق ترب الارض أوصالى

وهمن كان قد حرم الخمر في الجاهلية : قيس بن عاصم التميمي . وصفوان بن أمية بن الحرث الكنانى ، وعفيف بن معدى كرب الكندى ، وقالوا فيها أشعاراً . وقال الأسلم البالى ، وقد حرم الخمر والزنا على نفسه :

سألت قومي بعد طول مضاضة
وتركت شرب الراح وهى أثيرة
وعففت عنه يا أميم تكرماً
والسلم أبقي في الأمور وأعرف
والموسسات وترك ذلك أشرف
وكذلك يفعل ذو الحجى المتعفف

ومن كان يؤمن بالخالق ، وبخلق آدم عليه السلام ، عبد « لطابخة بن ثعلب بن ويرة » من قضاة ، وقال فيه :

وأدعوك يا ربي بما أنت أهله
لأنك أهل الحمد والخير كله
وأنت الذي لم يحييه الدهر ثانيا
وأنت القديم الأول الماجد الذي
وأنت الذي أحطنتني غيب ظلمة
دعاء غريق قد تشبث بالعصم
ونو الطول لم تعجل بسخط ولم تلم
ولم يرد عبد منك في صالح وجم
تبد أخلق الناس في أكثم العدم
الى ظلمة من صلب آدم في ظلم

ومن هؤلاء النابغة الذبياني ، آمن بيوم الحساب ، فقال :

ووجهتهم ذات الاله ودينهم
قويم ، فما يرجون غير العواقب
واراد بذلك الجزاء بالأعمال .

ومن هؤلاء زهير بن أبي سلمى المزني ، وكان يمر بالعضاء (١) وقد أورقت
أورقت بعد يبس فيقول : لولا أن تسبني العرب لآمنت أن الذي أحياك بعد
يبس سيحيي العظام وهي رميم ثم آمن بعد ذلك وقال في قصيدته التي أولها :
أمن أم أو في دمنة لم تكلم :

يؤخر فيوضح في كتاب فيدخر

ليوم حساب ، أو يعجل فينقم

ومنهم علاف بن شهاب التيمي ، كان يؤمن بالله تعالى وبيوم الحساب
وفبه قال :

ولقد شهدت الخصم يوم رفاعه
وعلمت أن الله جاز عبده
فأخذت منه خطة المقتال
يوم الحساب بأحسن الأعمال

وكان بعض العرب اذا حضره الموت يقول لولده : ادفنوا معي راحلتى حتى
أحشر عليها فان لم تفعلوا حشرت على رجلى . . قال جريبة بن الأشيم
الأسدي في الجاهلية وقد حضره الموت - يوصي ابنه سعدا :

يا سعد اما اهلكن فائتى
لا تتركن أباك يعثر راجلا
أوصيك ان أخا الوصاة الأقرب
في الحشر يصرع لليدين وينكب

(١) العضاءة بالكسر : أعظم الشجر ، أو ذات الشوك . جمعه ، عضاء بالكسر .

واحمل أباك على بعير صالح والخ المطية ، انه هو أصوب
ولعل لي مما تركت مطية في الحشر أركبها اذا قيل اركبوا

وقال « عمرو بن زيد بن المثنى » يوصى ابنه عند موته :

ابنى : زودنى اذا فارقتنى في القبر راحلة برحل فاتر
للبعث أركبها اذا قيل اظعنوا متساوقين معا لحشر الحشائر
من لا يوافيه على عثراته فالخلق بين مدافع أو عائر

وكانوا يربطون الناقة معكوس الرأس الى مؤخرها مما يلي ظهرها او
مما يلي كلكها وبطنها ويأخذون ولية ، فيشدون وسطها ويقلدونها عنق الناقة
ويتركونها حتى تموت عند القبر ويسمون الناقة « بلية » والخيط الذى تشد
به « ولية » وقال بعضهم يشبه رجلا في « بلية » كالبلايا في أعناقها الولايا .

واذا تصفحنا الشعر الذى ذكره ابن هشام في سيرته عن حادث الفيل
وجيش أبرهة لو تصفحناه جميعا وأردنا تحليله من ناحية عاطفتهم الدينية
ثم اردنا ان نصل الى ظواهر دينهم العام لما تردنا عن الحكم عليهم بأنهم
مؤمنون موحدون ، لا يشوب ايمانهم شوائب الوثنية او سذاجة الشرك .
فما رأينا في شعرهم اسما لوثن أو صنم .

فعندما تقرا شعر عبد المطلب يطالعك قوله :

لا هم أن العبد يمن مع رحمة فامنع حلالك
لا يغلبن صليبيهم ومحالهم غدوا محالك
لأهم : أى بالله ..

ثم قال لا يغلبن صليبيهم ..
فقابل بين الله والصليب .

فهذا منه يعنى ادراكا موضوعيا حين قابل بينهما أى بين الله والصليب
وان الله حقيقة والصليب زائف .

وحين لم يقابل بين وثنه والصليب ، كما هو واقعه المتورط في الوثنية .
والسؤال : هل كان عنده علم عن النصرانية ؟
كذلك شعر عبد الله بن الزبيرى :

يذكر في شعره : والله فوق العباد يقيمها . . فلم يذكر وثنا ولا صنما
وهو العنيد في جداله مع الرسول .
وأمية بن أبي الصلت :
الذي يبدأ تصديقه بقوله :
ان آيات ربنا ثاقبات
ثم ختمها بقوله :

لايمانارى فيهن الا الكفور
كل دين يوم القيامة عند الله الا دين الحنيفية بور

فالشعر الذى ساقه ابن هشام يذكرنا بأمرين اما انهم موحدون واما أنه
شعر مفتحل .

ولعل مثل هذه الملاحظات جعلت بعض المستشرقين يزعم أن الرواة
الاسلاميين هم الذين وضعوا لفظة الجلالة في شعر الجاهليين بدلا من كلمة
اللات التى تتفق معها في الوزن .

يقول كارلو فلينو :

« بالغ الاب شيخو في كتابه المسمى بشعراء النصرانية من شعراء
الجاهلية بالغ في ظنه هذا الرأى اى مبالغة كأنه زعم نصرانيا كل شاعر جاهلى
ورد في شعره شيء مما يقترب من اعتقاده وحدانية الله أو من التأملات
والاعتبارات الدينية فعد من النصارى امرؤ القيس والنابغة وطرفة يقول
فلينو : لا شك عند كل منصف في انهم من أصحاب الوثنية أما المؤكد المثبت
فانما هو ان دين النصرانية ذاع في القرن السابق للهجرة في شمال جزيرة
العرب فاعتنقه بعض القبائل مثل بنى تغلب وقسم غير صغير من بنى تميم
فصلا عن اكثر المقيمين بمملكة بنى غسان واكثر سكان مدينة الحيرة (١) .

فلينو : يرد على مبالغة شيخو قائلا : بأنه ربما تكون الأفكار التى
تقترب من التوحيد نتيجة — تأملات وليست نتيجة النصرانية ولا سيما ان
النصرانية من الفاحية التاريخية تأخرت عن معاصرة هؤلاء الشعراء » (٢) .

(١) يراجع : رسال الجاحظ : في الرد على النصارى ضمن مجموعة رسائل الجاحظ
تحقيق الاستاذ عبد السلام هارون وهى ملحقه بالكتاب اثبتناها لهجين مدى انتشارها في الجزيرة
العربية

(٢) تاريخ الاداب العربية وهى محاضراته التى ألقاها في الجامعة المصرية ١٩١٠ — ١٩١١
طبع دار المعارف .

ورأينا ما يؤيد فلينو في رواية مسلم عن عبد الله بن الصامت قال
قال : أبو ذر يا ابن أخي صليت سنتين قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم
قال : قلت : فأين كنت توجه ؟

قال : حيث وجهنى الله . يقول رسول الله « غفار الله لها وأسلم
سألها (١) .

فان أبا ذر لم يبين أثر المسيحية أو اليهودية في توجهه الى الله ربما
كان ذلك أثرا من الحنيفية ما زال موجودا بين العرب وهذا ما تميل اليه
وعباداة الرسول قبل البعثة كانت على دين ابراهيم وكان يدفعهم الى البحث
عن اتجاهات عقلية تميل نحو البحث عن حقيقة الدين ووجدنا مثل ذلك ظهر
مع الحنفاء .

يقول الشيخ مصطفى عبد الرازق : (٢) كل ذلك يدل على أن العرب عند
ظهور الاسلام كانوا يتشبهون بأنواع من النظر العقلى .

ويقول — وكان يعد العرب للجدل الدينى ويحفزهم اليه اما الدفاع عن
اديانهم الموروثة ضد الأديان الدخيلة عليهم واما المهاجمة لهذه الأديان جميعا
من أجل ما يلتمسون من الدين الحنيف دين ابراهيم .

« على أنه ينبغي أن لا نبالغ في تصور من تنصروا من العرب قبل الاسلام
ونظن أنهم قاموا بتعاليم النصرانية قياما دقيقا فقد عرفوا الكنائس والبيع
والشراء والرهبان والأساقفة والصوامع ولكنهم ظلوا لا يتعمقون في هذا
الدين الجديد وظلوا يخطونه بغير قليل من وثقتهم وربما كان مما يوضح
ذلك خبر توضيح قول عدى بن زيد العبادى :

سعى الأعداء لا يألون شرا على ورب مكة والصليب

فهو يجمع بقسمه بين رب مكة ورب الصليب .

والحق أن نصارى العرب في الجاهلية انما عرفوا ظاهرا من دينهم وقلما
عرفوا حدوده وقد سقطت الى أشعارهم وأشعار الوثنيين انفسهم كلمات

(١) فتح البارى السلام ابى نر ج ٨ .

(٢) تهيد في الفلسفة الاسلامية ص ١١١ .

ومصطلحات كثيرة منه ومن شخوصه وطقوسه فمنذ امرىء القيس وقوله :

يضىء سناه أو مصابيح راهب أهان السليط في الذبال المقتل

والشعراء يرددون ذكر الرهبان ومحارب كنائسهم يقول الأعشى :

كدمية صور محرابها بمذهب ذى مرمر مائر

وطالما تحدثوا عن نواقيسهم وقرعها في أواخر الليل يقول المرقش الأكبر

في بعض شعره :

وتسمع تزقاء من البوم حولنا كما ضربت بعد الهدو النواقس (١)

في ذلك ما يدل ولا سيما قول الأعشى وهو وثنى على أنه كان لديهم بعض معارف عن المسيحية أدخلوها في قصائدهم في بعض وجوه التشبيه أيا كان نوع هذا التشبيه كقول المرقش في جمعه بين البوم والنواقس وذلك يبعدها عن منظر التقديس وخاصة أن البوم مما يتشاع من العرب .

على أي حال فإن معارفهم عن المسيحية تفاهت اليهم فاستعملوا مصطلحاتها دون نظر إلى اتخاذها عقيدة كما هو واضح من أشعارهم .

وظهرت بوادر لمذهب الجبر والاختيار وذلك لا يكون من شدة وحيدهم يروى صاحب الأغاني (٢) ما نصه :

قال لى : يحيى بن متى رواية الأعشى وكان نصرانيا عباديا وكان معمرًا

قال :

— كان الأعشى قدريا .

— وكان ليبيد مثبتا .

قال ليبيد :

من هداه سبيل الخير اهتدى ناعم الببال ومن شاء أضل

وقال الأعشى :

استأثر الله بالوفاء وبال وعد وولى الملامة والرجلا

(٢) العصر الجاهلي ص ١٠٠ - ١٠١ دكتور شوقي ضيف داز المعارف .

قلت : فمن أين أخذ الأعشى مذهبه ؟

قال من العبادين نصارى الحيرة كان يأتهم يشتري منهم الخمر فلقنوه ذلك .

كذلك كانت لهم وجهة نظر في تقسيم القوى الروحية فكان فيها الأرواح الخيرة . مثل الملائكة وكان فيها الأرواح الشريرة مثل الشياطين .

وكانت فكرتهم عن هذه الأرواح انها تحل في ما حولهم من مظاهر الطبيعة . كذلك كانت لهم دراية عن تقسيم الشيء أو الأشياء : الى شيء مقدس ، والى شيء غير مقدس .

أشار الى ذلك القرآن فقال :

« وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا »

فقالوا : هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا .

٢ - موقفهم من الرسالة :

ذهبت الصابئة والبراهمة ومعهم الوثنيون الى القول باستحالة النبوات مرأينا في العرب من كان منهم من مال الى مبادئ الصابئة فطعنوا في أصل النبوة وهم الذين حكى الله عنهم أنهم قاتوا أبعد الله بشرا رسولا .

فان الصابئة لا يجوزون أن يكون الوسيط بشريا انما يجوزونه ملكا فرد الله عليهم بقوله :

وقالوا لولا أنزل عليه ملكا ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون .

ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون .

ولقد استهزئ برسول من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون (١) .

وهناك موقف اليهود والنصارى ومن تابعهم ممن يبسلم بأصل النبوة غير أنهم طعنوا في نبوة محمد .
والقرآن مملوء بالرد عليهم . وطعنهم من وجوه :

(١) الروض الاتف ج ٢ ص ٣٣ على سيرة ابن هشام .

تارة بالطعن في القرآن فأجاب الله بقوله : « ان الله لا يستحيى ان يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها » وتارة بالتماس سائر المعجزات كتوله تعالى : « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا » .

وتارة بأن هذا القرآن نزل منجما نجما وذلك يوجب تطرق التهمة اليه فأجاب الله بقوله « كذلك لنثبت به فؤادك » .

وهناك موقف من ينكر رسالة محمد على جهة العصبية القبلية حكى الله ذلك بقوله : « لولا انزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » .
فرد الله عليهم بقوله : « اهم يقسمون رحمة ربك » .

وهناك موقف أهل عبادة الأوثان والدهريين الذين لا يعرفون جنّة ولا نارا ولا قيامة ولا كتابا مثل الأوس والخزرج .

يقول الشهرستاني : وصف منهم أقروا بالخالق وابتداء الخلق ونوع من الاعادة ، وانكروا الرسل ، وعبدوا الأصنام ، وزعموا أنهم شفعاؤهم عند الله في الدار الآخرة وحجوا اليها ، ونحروا لها الهدايا وقربوا القرابين ، وتقربوا اليها بالمناسك والمشاعر واحطوا وحرموا . وهم الدهماء من العرب الا شرفمة منهم نذكرهم وهم الذين أخبر عنهم التنزيل . « وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى في الأسواق ؟ الى قوله : ان تتبعون الا رجلا مسحورا فاستدل عليهم بأن المرسلين كلهم كانوا كذلك : قال الله تعالى : « وما أرسلنا قبلك من المرسلين الا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق » .

ويقول تعالى : « وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا بساخر كذاب اجعل الآلهة الها واحدا ان هذا لشيء عجاب وانطلق الملائمة منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم ان هذا لشيء يراد ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة ان هذا الا اختلاق » .

٣ - قضايا الغيب :

ومن العرب من أقر بالخالق واثبت حدوث العالم وأقر بالبعث والاعادة وانكر الرسل وعكف على عبادة الأصنام .

• وهم الذين قال الله فيهم : ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى •

قال المسعودى : وهذا الصنف هم الذين حجوا الى الأصنام وتصدوها وتحروا لها البدن ونسكوا لها انفساء واحلوا لها وحرموا (١) •

يقول الشهرستاني : وصنف منهم أقرؤا بالخالق وابتداء الخلق والابداع وأنكروا البعث والاعادة وهم الذين أخبر عنهم القرآن :

« وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهي رميم ؟ »

فاستدل عليهم بالنشأة الأولى اذ اعترفوا بالخلق الاول • فقال عز وجل : قل يحييها الذي أنشأها اول مرة ، وقال : أقميينا بالخلق الاول ؟ بل هم في لبس من خلق جديد •

ومن العرب من يعتقد التناسخ فيقول : اذا مات الانسان او قتل اجتمع دم الدماغ وأجزاء بنيته وانصب طيرا « هامة » فيرجع الى راس القبر كل مائة سنة وعلى هذا أنكر عليهم الرسول فقال :

• لا هامة ولا عدوى ولا صفر (٢) •

يقول الأوسى : عند قوله تعالى : « نموت ونحيا » •

اعادة الروح لبدن آخر بطريق التناسخ وهو اعتقاد كثير من عبدة الأصنام (٣) •

يقول الشهرستاني : وشبهات العرب كانت مقصورة على هاتين الشبهتين :

• أحدهما : انكار البعث • بعث الأنام •

• والثانية : جحد البعث • بعث الرسل •

(١) مروج الذهب ص ٣٥١ ج ١ •

(٢) الملل والنحل ص ٢٤٥ ج ٢ •

(٣) روح المعاني ج ١ ص ٦٩ •

(٤) لا يرى المسعودى القول بالتناسخ في العرب للاستزادة يراجع ص ٢٨٣ ج ١ من

فعلى الأولى قالوا : « انذا متنا. وكنا ترابا وعظاما أئنا لبعوثون أو آباؤنا
الاولون ؟ »

وعبروا عن ذلك في أشعارهم :

حياة ثم موت ثم نشر حديث خرافة يا أم عمرو

ولبعضهم مرثية في أهل بدر من المشركين يقول فيها :

فماذا يا قليب قليب بدر ترى ماذا تكلم بالسنام
يخبرنا الرسول بأن سنحيا وكيف حياة اصداء وهام

وأما الشبهة الثانية : فكان انكارهم لبعث الرسول صلى الله عليه وسلم
في الصورة البشرية أشد واصرارهم على ذلك أبلغ . واخبر التنزيل عنهم بقوله
تعالى : « وما منع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهم الهدى الا أن قالوا : بعث الله
بشرا رسولا » . أبشر يهدوننا ؟

فمن كان يعترف بالملائكة كان يريد أن يأتيه ملك من السماء . وقالوا
« لولا نزل عليه ملك » ومن كان لا يعترف بهم كان يقول : الشفيع والوسيلة
لنا الى الله هي الأصنام المنصوبة اما الامر والشريعة من الله الينا — فهو
المنكر .

لاحظنا مما سبق تدرجا في مستويات القوى الروحية أو القوى المعبودة
المؤلهة لدى عرب الجاهلية فرأينا قوى روحية عليا معبودة مثل الملائكة
واختلطت صور الملائكة ببعض مثل بشرية أو اخضعوها لتصوراتهم
البشرية .

فقالوا عنها : أنها بنات الله قال تعالى : « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد
الرسم اناثا أشهدوا خلقهم ؟ ستكتب شهادتهم ويسألون » .

ووجدت قوى روحية سفلى في بنى مليح من خزاعة وهم رهط طلحة
الطلحات يعبدون (١) الجن والشياطين وأنهم كانوا يستخدمونها في كتابتهم

(١) تشككها في رمى الجن .

قال ابن اسحق انه حدث أن اول العرب نزع للرسم بالنجوم — حين رمى بها — هذا الحى

من ثقيف وانهم جاءوا الى رجل منهم يقال له : عمرو بن أمية احدينى ملاج .

ولهم معها أساطير واتخذوا أيضا منها شركاء لله قال تعالى « وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون » .

ولهم أيضا بجانب ذلك اتجاهات وثنوية لا تنفك عن سذاجة الفطرة كعبادة المحسوسات من شجر وحجر وغير ذلك ، ورأينا فيهم على جاهليتهم ووثنييتهم أنهم يعرفون لفظ الجلالة : الله : وتحدثنا الروايات التاريخية أنهم وجدوه في الكعبة منذ أن بناها إبراهيم ومعه اسماعيل وكانت قريش تعتبره هو المعبود الحقيقي ومظاهرها الوثنية زلفى إليه .

ورأينا فيهم من يتكلم عن الدهر كقوة عظمى تلو فوق التصور الانساني وعبدوا النيرات من شمس وقمر . الخ .

« ومع كل هذا لا يوجد في العرب طبقة دينية تختص بأمور الدين » وليس في بلاد العرب ولا سيما في منطقة الحجاز ونجد ، طبقة أكليريكية خاصة انما يقوم مقامها طائفة العرافين والزاجرين والقائنين والسحنة ولم يكن لهذه الطائفة ما يميزها أو يرفعها عن سائر الناس فلا مسحة خاصة مما ولا رتبة ولا فرقة في أساليب المعيشة بينهم وبين أبناء قبيلتهم لهم ما لها وعليهم ما عليها » .

رمزيات أساطيرهم :

الاختلاف في النفس عند العرب في الجاهلية :

يقول المسعودي : كانت للعرب مذاهب في الجاهلية في النفوس وآراء ينازعون في كفيياتها :

== قال : وكان أوهى العرب وانكرها رأيا — فقالوا له : يا عمرو : ألم تر ما يحدث في السماء من التخف بهذه النجوم . قال : بلى فانظروا فان كانت معالم النجوم التي يهتدى بها في البر والبحر وتعرف بها الاتوراز من الصيد لما يصلح الناس في معاشهم هي التي يرمى بها بهو — والله — طى الثنيا وهلاك هذا الخلق الذي فيها ، وان كانت نجوما غيرها وهي ثابتة على حالها لهذا الامر اراد الله به هذا الخلق لها هو ؟ يضيف السهيلي وقد فعل ما فعلت لتعب بنولهم عند نزعمهم للزنى بالنجوم .

١ — فمنهم من زعم أن النفس هي الدم لا غير ، وأن الروح والهواء الذي في باطن جسم المرء منه نفسه .

ولذلك سموا المرأة منه نفساء لما يخرج منها الدم . ومن أجل ذلك تنازع فقهاء الأمصار فيما له نفس سائلة اذا سقط في الماء : هل ينجسه أم لا ؟
وقال تابط شرا لخاله الشنفرى الأكبر وقد سأله عن قتيل قتله . كيف كانت قصته ؟ فقال : ألقته عضبا : فسأل نفسه سكباً . وقال ان الميت لا ينبعث منه الدم ولا يوجد فيه ، بدأ في حالة الحياة ، وطبيعة الحياة : النماء مع الحرارة والرطوبة ، لأن كل حي فيه حرارة ورطوبة فاذا ما بقى اليببىس والبرد نفيت الحرارة .

وقال ابن براق بن كلعة :

وكم لاقيت ذا نجب شديد تسيل به النفوس على الصدور
اذا الحرب العوان به استهامت وحال ، فذاك يوم قمطيرير

٢ — وطائفة منهم تزعم أن النفس طائر ينبسط في جسم الانسان فاذا مات أو قتل لم يزل مطبقا به متصورا اليه في صورة طائر يصرخ على قبره مستوحشا .

وفي ذلك يقول بعض الشعراء وذكر أصحاب الفيل :

سلط الطير والمنون عليهم . فلهم في صدى المقابر هام

(١) الهامة :

الهامة وهي اليوم وكانوا يعتقدون أن الرجل اذا قتل خرجت من راسه هامة تصيح ، أسقونى أسقونى حتى يأخذ بثأره ، قال ذو الأصبغ العدواني :
أضربك حيث تقول الهامة أسقونى (٢) .

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٣٤ .

(٢) مروج الذهب ج ١ ص ١٣٤ .

• ويضيف المسعودى ص ٣٦٩ .

وهى أن تتوحش وتصدح وتوجد أبداً في الديار المعطلة والفواويس وحيث
مصارع القتلى وأجدات الموتى .

ويزعمون أن الهامة لا تزال على ذلك عند ولد الميت في محلته بغنائهم
لنعلم ما يكون بعده فتخبره به .

وحتى قال الصلت بن أمية لبنيه هامتي تخبرنى بما تستشعرون . .
لفتجنب الثنماء والمكروه ولما جاء الاسلام قال : لا هام ولا صفر (١) :
ذكر الزبير ابن بكار أن العرب كانت في الجاهلية تقول : اذا قتل الرجل
لم يؤخذ بثأره خرجت من رأسه هامة وهى دودة فتدور حول قبره فنقول :
أسقونى أسقونى فان أدرك ثأره ذهبت والا بقيت .

يقول شاعرهم :

يا عمر ألا تدع شتمى ومنقصتى أضربك حتى تقول الهامة أسقونى

قال وكانت اليهود تزعم أنها تدور حول قبره سبعة أيام ثم تذهب .

وذكر ابن فارس وغيره من اللغويين نحو الأول الا أنهم لم يعينوا كودها
دودة وقال القزاز : الهامة طائر من طير الليل كأنه البومة . وقال ابن الاعرابي
كانوا يتشاعمون بها اذا وقعت على بيت أحدهم :

يقول : نعت الى نفسى أو احداً من أهل دارى .

وقال أبو عبيد : كانوا يزعمون أن عظام الميت تصير هامة فتطير ويسمون
ذلك الطائر (٢) : الصدى .

ويعبر هذا من فتن اليهود للسيطرة على عرب الجاهلية لأن معنى سبعة
أيام فترة زمنية كافية ليؤلب اليهود مواقع الثأر بين العرب أى على العربى
أن يثار . وبذلك أشعلوا الحرب بين الأوس والخزرج باستغلال تلك المعتقدات
في الوثيقة بينهم .

(١) ومعنى الحديث لحياء لهامة من الميت ولا تؤم بالبومة .

(٢) نتج البارى ج ١٠ ص ١٩٧ .

(ب) الغول :

« العرب يزعمون أن الغول يتغول لهم في الفلوات ويظهر لخواصهم في أنواع من الصور فيخاطبونها وربما ضيفوها . وكانت اذا تراعت لهم في الليالي وأوقات الخلوات فيتوهمون أنها انسان فيتبعونها فتزيلهم عن الطريق التي هم عليها وتتبعهم . كذلك اعتقادات ومزاعم في الشياطين والمردة والجن (١) .

يقول المسعودي : ويمكن لجميع ما قلناه مما حكيناه عما ذكرناه من أهل البقاع أن يكون ضربا من السوانح الفاسدة والخواطر الرديئة أو غير ذلك من الآفات والأدوار المعترضة لجنس الحيوان من الناطقين وغيرهم .

(ج) الهوائف والجان (٢) :

أما الهوائف فقد كانت كثيرة في العرب ، ومن حكم الهوائف أن يهتف بصوت مسموع وجسم غير مرئي . وقد كانت العرب قبل ظهور الاسلام تقول : أن من الجن من هو على صورة نصف الانسان وأنه كان يظهر لها في أسفارها وحين خلواتها وتسميه شقا :

وذكروا أشخاصا قتلتهم الجن :

— حرب بن أمية .

— عباس بن مرداس (٢) .

بيقول المسعودي :

ان ما تذكره العرب وتنبيء به من ذلك فانما يعرض لها من قبل التوحد في القفار والتفرد في الأودية والسلوك في المهامة الموحشة . لأن الانسان اذا صار في مثل هذه الأماكن وتوحد وتفكر اذا هو تفكر وجل وجبن واذا هو جبن داخلته الظنون الكاذبة والأوهام المؤذية والسوداوية الفاسدة فصورته له الأصوات ومثلت له الأشخاص وأوهمته الحال بنحو ما يمرض لخبوى الوسواس . وأنتج ذلك في رأسه سوء التفكير وخروجه على غير نظام قوى أو طريق مستقيم

(١) مروج الذهب ج ١ ص ٤٠١ المسعودي .

(٢) نفس المرجع ج ١ ص ٤٠٥ .

سليم لأن المنفرد في القفار والمتوحد في المساويز مستشعر للمخاوف مترهم للمتألف متوقع للحتوف لقوة الظنون الفاسدة على فكرة وانغراسها في نفسه فيتوهم ما يحكيه من هتاف الهواتف به واعتراض الجان له .

ونضيف أن مثل هذه الأشياء تعتبر من لوازم الوثنية ، إذ أن الايمان في الله موجب لطرح هذه الخواطر الفاسدة .

(د) التطير :

— التطير هو : أنهم كانوا في الجاهلية يعتمدون على الطير فاذا خرج أحدهم لأمر فإن رأى الطير طار يمنه تيمن به واستمر ، وإن رآه طار يسره تشاءم به ورجع .

— وربما كان أحدهم يهيج الطير ليطير فيعتمدها وكانوا يسمونه السائح والبارح .

فالسائح ما ولاك ميامنه بأن يعر عن يسارك الى يمينك ، والبارح بالعكس وكانوا يتيمنون بالسائح ، ويتشاءمون بالبارح لأنه لا يمكن رميه الا بأن ينحرف اليه .

يقول ابن حجر : وليس في شيء من سنوح الطير وبروحها ما يقتضى ما اعتدوه (١) .

وانما هو تكلف يتعاطى ما لا اصل له إذ لا نطق للطير ولا تمييز فيستدل بفعله على مضمون معنى فيه . وطلب العلم من غير مكانه جهل من فاعله .

وقد كان بعض عقلاء الجاهلية ينكر التطير ويتمدح بتركه .
قال شاعر منهم :

ولقد عدوت وكنت لا على واق وحاتم
فاذا الاشمام كالايا من والايامن كالاثام

وقال آخر :

الزجر والطير والكهان كلهم مضللون ودون الغيب أقفال

وقال :آخر :

بل شيء يوافق بعض شيء أحايينا وباطله كثير
يقول لبيد (١) :

لعفرك ما قدرى الضوارب بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله صانع؟
سلوهن ان كذبتمونى متى الفتى يذوق الثنايا أو متى الغيث واقع؟

يقول ابن حجر : وبقيت من ذلك بقايا في كثير من المسلمين .

يقول أبو هريرة : اذا تطير ثم فامضوا وعلى الله فتوكلوا .

عن أبي الدرداء : لن ينال الدرجات العلا من تكهن أو استقسم أو رجع

عن ابن مسعود : الطيرة شرك (وما منا الا تطير ولكن الله يذهب

بالتوكل) من كلام ابن مسعود .

قال ابن حجر : وانما جعل ذلك شركا لاعتقادهم ان ذلك يجلب نفعا

أو يدفع ضرا فانهم أشركوه مع الله .

وعن عبد الله عمر : من عرض له من هذه الطيرة شيء فليقل : اللهم

لا طبر الا طيرك ولا خير الا خيرك ولا اله غيرك .

ومن علاج التطير الفأل :

يقول أبو هريرة عن الرسول : لا طيرة وخيرها الفأل : وقال : وما الفأل ؟

قال : الكلمة الصالحة يسمعا احدكم .

وقال عن أنس : ويعجبني الفأل الصالح والكلمة الحسنة .

قال ابن بطال : جعل الله في فطر الناس محبة الكلمة الطيبة والأنس

بها كما جعل فيهم الارتياح بالمنظر الاثيق والماء الصافي وان كان لا يملكه

ولا يشربه .

الفرق بين الفأل : والتطير :

— الفأل من طريق حسن الظن بالله .

(١) ديوان لبيد ربهمه العاصري ص ٩٠ دار حجاز .

— والطيرة لا تكون الا في السوء وفيها سوء ظن بالله بغير سبب محقق
وذكر البيهقي في الشعب عن الحلبي ما ملخصه .

كان القطير في الجاهلية في العرب ازعاج الطير. عند ارادة الخروج
للحاجة وكانوا يتطيرون بصوت الغراب وبمرور الظباء فسموا الكل تطيرا
لان أصله الأول .

قال : وكان التشاؤم في العجم اذا رأى الصبي ذاهبا الى المعلم
تشاعم أو راجعا تيمن : . الخ فجاء الشرع يرفع ذلك كله وأسند التدبير الى
الله (١) .

(هـ) الكهانة :

الكهانة : ادعاء علم الغيب كالأخبار بما سيقع في الأرض مع الاستناد
الى سبب .

والكاهن : لفظ يطلق على :

- ١ — العراف الذي يضرب بالحصى — والمنجم .
- ٢ — ويطلق على من يقوم بأمر آخر ويسعى في قضاء حوائجه .
- ٣ — وقال في المحكم : الكاهن : القاضي بالغيب .
- ٤ — وقال في الجامع : العرب تسمى كل من أذن بشيء قبل وقوعه
كاهنا .

— الكهنة :

- ١ — قال الخطابي : الكهنة قوم لهم أذهان حادة ونفوس شريرة وطباع
نارية .
- وكانت الكهنة في الجاهلية فاشنية خصوصا في العرب لانقطاع النبوة
فيهم .

اصناف الكهانة : منها :

- ١ — منها ما يخبر الجلى به من يواليه بما غاب عن غيره مما لا يطلع

(١) يراجع فتح الباري ج ١٠ ص ١٧١ ، والسيرة الحلبية للاستزادة ج ١ ص ٦٥ .

الانسان عليه غالبا أو يطلع عليه من قرب منه لا من بعد .

٢ — ما يستند الى ظن وتخمين وحدث فهذا قد يجعل الله فيه لبعض الناس قوة مع كثرة الكذب فيه .

٣ — ما يستند الى التجربة والعادة فيستدل على الحادث بما وقع قبل ذلك وقد يعضد في بعضهم بالزجر والطرق — والفجوم (١) .

وكل ذلك مذموم شرعا عن أبي هريرة : من أتى كاهنا أو عرافا فصدقه

بما يقول فقد كفر بما نزل على محمد .

وعن ابن مسعود : من أتى عرافا أو ساحرا أو كاهنا فقد برىء مما نزل على محمد .

قال القرطبي : كانوا في الجاهلية يترافعون الى الكهان في الوقائع والأحكام ويرجعون الى أقوالهم وقد انقطعت الكهانة بالبعثة المحمدية ، لكن بقي في الوجود من يتشبه بهم وثبت النهى عن اتيانهم فلا يحل اتيانهم ولا تصديقتهم .

قال ابن اسحاق : الأحبار من اليهود ، والرهبان من النصارى ، والكهان من العرب ، ويربطون انتهاء الكهانة بقوله تعالى : « وانا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا » .

وتحدث عن الكواكب بقوله : « وجعلناها رجوما للشياطين » .

من الكهان :

١ — صاف بن صياد ، كان يتكهن ويدعى النبوة وينسبون اليه أنه تكلم مع الرسول . وينسبون اليه أنه قال فيه : اخسا فلن تعدو قدر الله نيك .

٢ — الغيطة الكاهنة بنت مالك بن الحارث : وينسبون اليها أنها قالت : شعوب ما شعوب تصرع فيه كعب لجنوب . وهو كعب بن لؤى .

(١) نتج الباري ج ١٠ ص ١٧٧ .

٣ - فاطمة بنت النعمان النجارية : كان لها تابع من الجن ويزعمون أن تابعها إذا جاءها اقتحم عليها بيتها ، وفي أول البعث جاءها وتعد على حائط الدار فقالت له لم لا تدخل فقال قد بعث نبي بتحريم الزنا .

٤ - أخطر ابن مالك من أعلم الكهان وعنده علم النجوم ينسبون إليه :

يا معشر بني قحطان	أخبركم بالحق والبيان
أقسمت بالكعبة والأركان	والبلد المؤمن السدان
لقد منع السمع عتاة الجان	بثاقب بكف الشان ذى سلطان
من أجل مبعوث عظيم الشان	يبعث بالتنزيل والقرآن
بألهدى وفاضل القرآن	تبطل به عبادة الأوثان

فقالوا : وماذا ترى لقومك فقال :

أرى لقومي ما أرى لنفسى	أن يتبعوا خير نبي الانس
برهانة مثل شعاع الشمس	يبعث في مكة دار الحمس
بمحكم التنزيل غير اللبس	

فقلنا يا أخطر من هو :

فقال : والحياة والعيش ، انه لمن قريش ، ما في حلمه طيش ، وما في خلقه طيش . . أخبرني به رئيس الجان .

١ - ويقال أن جنيا من بطن اليمن كان لهم كاهن في الجاهلية سألوه عن الرسول عندما انتشر أمره بين العرب فقال :

أيها الناس ان الله أكرم محمدا واصطفاه .

وجنب هم من مذحج وهم : عبد الله ، وأنس الله ، وزيد الله ، وأوس الله

قال ابن اسحاق : وكانت الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى وكلها من العرب قد تحدثوا بأمر الرسول قبل مبعثه لما تقارب من زمانه .

- أما الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى ، فمما وجدوا في كتبهم

من صفته وصفة زمانه وما كان من عهد أنبيائهم فيه .

— وأما الكهان من العرب : فانتهم به الشياطين من الجن فيما تسترق من السمع اذ كانت وهي لا تحجب عن ذلك بالقذف من النجوم. وكان الكاهن والكاهنة لا يزال يقع منهما ذكر بعض أموره لا تلقى العرب لذلك فيه بالآلة .

(و). السحر :

من صفات اليهود وليس من صفات العرب .

قال الراغب (١) : السحر يطلق على معان :

١ - أحدهما ما لطف ودق ومنه سحرت الصبى خادعته واستملته ومنه اطلاق الشعراء : يسحرون العيون لاستمالتها النفوس . ومنه قول الأدياء الطبيعة ساحرة .

٢ - الثاني : ما يقع بخداع وتخيلات لا حقيقة لها نجوما يفعلها المشعوذ من صرف الأبصار عما يتعاطاه بخفة يده . والى ذلك أشار قوله تعالى : يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى . وقوله : سحروا أعين الناس .

٣ - الثالث : ما يحصل بمعاونة الشياطين بضرب من التقرب اليهم والى ذلك أشار قوله تعالى : ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ٤ - الرابع : ما يحصل بمخاطبة الكواكب واستنزال روحانياتها بزعمهم :

والسحر يطلق ويراد به :

١ - الآلة التي يسحر بها .

٢ - ويطلق ويراد به : فعل السحر .

الآلة التي يسحر بها قد تكون معنى من المعانى : كالرقي والنفث في العقد وقد تكون من المحسوسات : كتصوير الصورة على المسحور وتارة نجف الأمرين وهو أبلغ .

والسحر : تخييل فقط ولا حقيقة له .

(١) مفردات القرآن مادة سحر .

وقال النووي : انه له حقيقة (١) .

والذى قال تخييل جعله انقلاب عين . والذى جعله حقيقة جعل له
تأثيرا على المزاج فيكون نوعا من الأمراض أو تأثيرا باحالة يتحول الجماد
حيوانا .

ونحن نرى أن ما يقع منه لا يخرج عن كونه خيالات باطلة ، ولما
كان السحر يشبه خوارق العادات رأى العلماء أن يفرقوا بينه وبين غيره من
الكرامة والمعجزة .

١ — السحر يكون بمعانها أقوال وأفعال حتى يتم للساحر ما يريد ،
وقال الجوينى نقلا بالاجماع على أن السحر لا يظهر الا من فاسق . وقال
القرطبي : كذلك « السحر » حيل صناعية يتوصل اليها بالاكْتساب غير
أنها لدقتها لا يتوصل اليها الا آحاد الناس ، وحده الوقوف على ظواهر الأشياء
وأكثرها تخييلات بغير حقيقة ، وإيهامات بغير ثبوت .

الكرامة : لا تحتاج إلى ذلك من أقوال الناس أو أفعالهم أو تعلم انما تقع
غالبا اتفاقا وأنها لا تظهر ، على فاسق .

المعجزة : مثل الكرامة غير أنها تمتاز عنها بالتحدى .

والسحر : يرجع الى اليهود منذ نبى الله سليمان وظهوره في جزيرة العرب
مرتبط باليهود .

قال النووي : عمل السحر حرام وهو من الكبائر بالاجماع .

قال صاحب المحيط : واما في زماننا الآن فكل ما وقفنا عليه في الكتب
فهو كذب وافتراء لا يترتب عليه شيء ولا يصح منه شيء البتة وكذلك العزائم
وضرب المتدل . والناس الذين يعتقد فيهم أنهم عقلاء يصدقون بهذه الأشياء
ويصغون الى سماعها .

قال : وقد رأيت بعض من ينتمى الى العلم اذا أفلس وضع كتباً وذكر
فيها أشياء من رأسه وباعها في الأسواق بالدراهم الجيدة .

(١) نصح التلخيص من ١٨١٢ ج ١٠ ص ١١٠

قال في فتح الباري (١) :

شرح : لا عدوى :

البرهان العقلي والحسي : رد على قول أن المرض يعدى بطبيعته عقيدة
للطبيين يجوز مشافهة من وقعت له شبهة في اعتقاده بذكر البرهان العقلي
إذا كان السائل أهلا لفهمه .

وأما من كان قاصرا فيخاطب بما يحتمله عقله من الاقتناعات .

وقول الرسول لا عدوى نفى لشبهة وقع فيها الطبيعيون أولا والمعتزلة

ثانيا :

فقال الطبيعيون : بتأثير الأشياء بعضها في بعض وإيجاد أياها وسموها

المؤثر طبيعة .

وقال المعتزلة : بنحو من ذلك في الحيوانات والمتولدات وأن قدرهم

مؤثرة فيها بالإيجاد وأنهم خالقون لأفعالهم مستقلون باختراعها .

واستند الطائفتان : إلى المشاهد الحسية ونسبوا من أنكر ذلك إلى إنكار

البدئية . وغلط من قال منهم غلطا فاحشا لالتباس ادراك الحس بادراك العقل،

فإن المشاهد إنما هو تأثير شيء على آخر وهذا حظ الحس فأما تأثيره فهو

حظ العقل .

فالحس ادراك وجود شيء عند وجود شيء وارتفاعه عند ارتفاعه . أما

إيجاده به للحس للحس فليس للحس فيه مدخل .

فالعقل هو الذي يفرق فيحكم بتلازمهما عقلا أو عادة مع جواز التبديل

عقلا .

على أي حال فإن تعدد الخرافات وتنوعها شغلت كاهل الوثني وشنت

فكره .

وكنا نرى في ذلك سببا وراء عدم ظهور وحدة القصيدة في قصيدة الشاعر

الجاهلي مضافا إليه تأثير الشاعر ببيئته القبلية أي كان مجتمعه تحكمه أنظمة

قبلية شتى ، ومن جانب آخر عدم وجود وحدة تجمع بينه وبين أديانه المتعددة

أضف ذلك كله الى شخصية الشاعر التي وقعت تحت ذاتية منغلقة ، بسبب ذلك كله وقع الشاعر تحت مؤثراته البيئية التي لهم تشعره بضرورة وحدة القصيدة .

تعقيب

سوف يكون تحليلنا لهذه الرمزيات من خلال اثرها على العربي واثره عليها ، حينما أبدعها خياله : كان يرى فيها نوعا من المناسبة بين مكوناته النفسية وبين ما هو كامن في طبيعة صحرائه من سعة لا حد لها تشعره بتساؤله فيها وجفاف في قسوة ، الى احياء تسوده رهبة .

فهو مثلا يرى في التطير أن اتجه الى التجارة نوعا من فهم سبيله فهو يرى في ميامنها تفاؤلا : يدفعه لوجهته وفي مياسرها تشاؤما : يدفعه ليعدل عن وجهته .

تبعا لمعتقدده هذا نراه يتجاوب فكريا مع أى معنى يوحى اليه من خلال مياهن الطير أو مياسرها ، ربما كان ذلك من وجهة نظرنا — محاولة من العربي يفك بها لغز الكون بعد ما بات يحس من نفسه ضعفه أمام لغزه بالرغم من شجاعته المشهود له بها في شعره .

كذلك يرى فيها : دلائل عرفان نحو مستقبله فخوفه من المستقبل دفعه نحو تلك الأشياء ليفهم بها مكامن الجهول ، وعلى أى حال انها في رمزياتها محاولات خفف بها عن نفسه عبء اليأس من عدم فهمه للوجود وأبعدت عنه فكرة الافتحار الذى قد يكون حلا قانطا وسلبيا لمشكلة اليأس من عدم فهم مستقبله ، والعربي حين بدأ يفكر فليس بدعا من بداية الفكر الانسانى في طفولته « كان الفكر الانطمانى في طفولته يتفتح لرؤية الكون الهائل تفتحا مشفوعا بالعجب والهيبة » (١) وكانوا يودون من مغزى هذه الرموز أن تكفيهم شر الحياة المادية الخبيثة وذلك لما يرون فيها من معايير مقدسة يفتزعون اليها ان الم بهم شيء أو هموا الى شيء .

وبالرغم من أنها تصورات خيالية فانها توقفتنا على شيء ذى بال في

(١) سيرة تاريخ ونن ص ٢٢ د . ماهز حسين نهى مكتبة النهضة .

حياة العربي النفسية والدينية : فانها من الناحية النفسية تفسر لنا مثيرات افعالاته وعواطفه ، وبها ايضا نستطيع ان نفسر مكوناته الشخصية ومؤثراتها الخارجية ، فمن طريق هذه المعتقدات يتسع لنا المجال لاستبطان احساسه الداخلي وتقدير طموحه في حياته البهامة .

ومن الناحية الدينية تفسر لنا اثر المعتقد على الانسان لما لها من معنى مقدس في نفس العربي لا يجد في نفسه متسعاً لمخالفتها فينكرها ومظهر تقديسها يظهر في أنه تصورهما على هيئة قوى روحية على شكل طيور ليتناسب طيرانها مع صحرائه — ولها قدرة الايحاء اليه أمراً أو نهياً مع التزامه بطاعتها في كلا الحالتين .

وفي هذا رؤية رمزية للكون تتناسب مع فكر لما يزال في دور الطفولة ويلتزم فكرة التشاؤم والتقاؤل من احساس العربي بتأثيرهما عليه نظرية انقسام الروح الى خيرة وشريرة أي بعضها يختص بالخير وبعضها يختص بالشر . يمنح العربي هذا كله معنى المعرفة يستوحى منها مغان الخير في مستقبل حياته . وليست فكرة الخير لديه — كما نتصور — رفيعة في معناها انما كانت فكرة رديئة رداءة رمزها : فهو يرى في قول الهامة اسقوني من دم قاتلي : دعوة خير بينما الهامة وقولها يتشابهان في الرداءة ، لكنها مع ذلك هي من دلائل الخير عند العربي صاحب الثار .

ولعل الذي جعل فكرته عن الخلود باهتة الألوان ما كابدته من شظف العيش وما يمسه في حياته من لغوب ومن جفاف في صحرائه لعل في ذلك مقنعا للعربي في عدم خلق أساطير يرمز بها الى البحث عن فكرة الخلود ، وكيف يبحث خلوده وربما يكون مكان بعثه لا يبعد عن صحرائه أو يناظرهما في القسوة والجفاف . على أي حال كانت كل معتقداته الرمزية تنبئ عن معنى خوفه :

— خوفه من العار : وأد البنات وثار .

— خوفه من خسارة في رحلته التجارية : لجأ الى التطير .

فصفة الخوف من المستقبل هي الغالبة على الروح العربية لذلك ، نرى شجاعة العربي فورة حماسية أو نزوة عصبية تشعلها كلمة وتطفئها أخرى .

فشجاعة الخوف : توترات عصبية من غير تركيز منه على الهدف وقيمه .

ومن هنا كانت فكرته العقلية عن الأشياء غير مركزة وغير ثابتة قد يضل عن مضمونها ان فاوض أو ناقش أو يتسرب معها في مساربها دون وعي منه بميز به بين ما هو ضروري وأساسى في القضية المطروحة وبين ما هو فيها من باب الطرافة . أو قد يصرفه عن مناقشة القضية كلمة غامزة يقولها : خبيت نكى دون أن يفتن الى خبثه ، وقد بصرفه بها عن مناقشة القضية دون أن يلتفت الى حقيقة الدور الذى حوله ، وأما اذا كانت نتيجة المناقشة سوف تنتهى الى جانب العربى فستثار العربى لينهى بنفسه دوره ثم أخيرا يتحمل مسئولية عمله بينما هو مدفوع اليه .

وفي النهاية : فان الاوهام والعقائد الشعبية وأعمال السحر التى كانت المركز الأساسى لدائرتهم الثقافية كانت تعمل دائما على قهرهم اذا حاولوا فهم وجودهم أو تغيير علاقاتهم الاجتماعية من مستواها القبلى الى مستوى انسانى ، فلما جاء الاسلام عصف بتلك الروح وأحل فيهم روحه الغامرة بالحياة . وكان من أرفع ما قدمه الاسلام أن ربط كتابه بالعقل الانسانى ، وأزال ما يعوق تفاهمه مع العقل ، وكان أهم ما يعوق رحلة التفاهم بينه وبين الدين وجود طبقة دينية اكليزيكية ترى فى نفسها : امتيازا دينيا يؤهلها للوصاية على لغة التفاهم بين العقل والقرآن .

« وقد دمغ القرآن بالشرك الذن اعطوا سلطة التشريع المطلق لبعض البشر من رجال آديان الذين بدلوا كلمات الله ، وغيروا شرع الله فأحلوا ما حرم الله وحرموا ما أحل الله افتراء على الله ، وفى هذا يقول فى شأن اهل الكتاب : « اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله والمسيح بن مريم وما امروا الا ليعبدوا الها واحدا لا اله الا هو سبحانه عما يشركون » .

اعتبرالقرآن : هؤلاء الاحبار والرهبان اربابا وآلهة معبودين من دون الله

وما كانت عبادتهم الا طاعتهم في احلال ما حرم الله وتحريم ما أحل الله ، أى اعطاهم حق التشريع فيما لم يأذن به الله تعالى كما فسر ذلك النبي صلى الله عليه وسلم لعدي بن حاتم الطائي .

فقد كان عدى تنصر في الجاهلية فلما دخل على النبي صلى الله عليه وسلم - وهو يقرأ هذه الآية من سورة التوبة « اتخذوا احبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » قال يا رسول الله : ما كنا نعبدهم « كأنه حصر مفهوم العبادة في الركوع والسجود والصلاة ونحوها » فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ألم يكونوا يطون لكم الحرام فتحطوه ويحرمون عليكم الحلال فتحرموه : قال : بلى ، قال فتلك عبادتكم أيها (١) .

فكان موقف القرآن من الطبقة الاكليريكية واضحا وفيه عنف لأن وجود مثل هذه الطبقة يعمل دائما على شل العقل عن وظيفته وعلى تغيير مفهوم المقدس وهو ما عناه الرسول بقوله : ألم يكونوا يطون لكم الحرام فتحطوه ويحرمون عليكم الحلال فتحرموه قال : بلى ؟

قال الرسول : فتلك عبادتكم أيهاهم .

أما بعد :

ففى القرآن ثلاث آيات متفرقات فى ثلاث سور مدنية تناولت موضوعا واحدا هو : الحياة الاعتقادية السائدة فى العالم ابان ظهور الاسلام من خلال مستوى مذاهبهم الدينية وكما فصلنا القول من قبل .

الآية الأولى من سورة البقرة آية ٦٢ يقول الله فيها :

« ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين : من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا . فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

الآية الثانية : من سورة المائدة آية ٦٩ يقول الله فيها :

« ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله

(١) الخصائص العامة للانسان . د . يوحنا العزقلاوى .

واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » •

الآية الثالثة : من سورة الحج آية ١٧ يقول الله فيها :

« ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا ان الله يفصل بينهم يوم القيامة ان الله على كل شىء شهيد » •

نلاحظ أن القرآن عدد فيها الكثير من الملل والنحل القديمة — رعاية منه للجانب التاريخى — ثم عرض لبعضها بالنقاش ، وفصل من قضاياها ما شاء أن يفصل ، وأعرض عن البعض — فى بعض مسائله — اذا كان مداره قائما على التقليد الساذج الذى لا يراعى فكرا ولا يراعى جانب العقل مثل هذه الملل يعرض عنها القرآن وحسبه فيه ان يردّها الى التقاليد وهو اذ يردّها الى التقاليد يكون قد أصاب النقد •

وكان الهدف الأساسى من منهج القرآن الجدلى لهذه الملل ، هو السعى بذويها الى نتيجة محددة هي : الايمان بالله وحده وتنزيهه •

واقترضاء سعيه الى تلك القضية المحددة ، أن يرفع دور العقل ووظيفته ويحط من شأن التقليد مزدريا لياه وكان ذلك منه بخطى معينة ومحددة لأن الحياة الاعتقادية التى أشاعتها هذه الأديان : كان مجال التفكير فيها محدودا ضيقا ، والانسان معها : كان متزمتا ، فبسبب مجال التفكير المحدود الضيق — من السيطرة الكاملة لهذه المذاهب المتزمتة عليه — اتخذ القرآن خطواته نحو رفع القيمة العملية للبحث والنقد وكانت خطواته معها متأنية مترففة غير أنه لا لين فيها •

يلاحظ ذلك من الآيات السابقة ، فمرة يقول : ان استجابوا للايمان « لهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » • ومرة يقول « لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » •

والثالثة الأخرى : ان الله يفصل بينهم يوم القيامة ان الله على كل شىء شهيد • ويغلب على ظنى — والأمر يحتاج الى توقيف — أن ترتيب نزول الآيات هو :

آية البقرة أولا • وآية المائدة ثانيا • وآية الحج ثالثا •

وان صح هذا وخاصة أن هذه السور منفية ، يمكن اعتبارها نموذجا تطبيقيا - من بين نماذج كثيرة حفل بها القرآن - في هذا المقام بالذات لنوع من الجدل المتدرج نحو غايته . وكنا نلاحظ من خلال تفصيل القرآن للاديان القديمة والنحل : منهجا سار عليه - ازاء تلك المعتقدات القديمة - حين ردها على كثرتها الى مبدأ التقابل ، فمن كان معتقده عن كتاب يدخل مع اهل الكتاب الذين تعلموا من كتب السماء التي حرقت ، يتقابلون مع الأميين الذين التمسوا تعليمهم من غيرهم بعيدا عن كتب السماء تقليدا . وهذا معا يتقابلون مع الذين آمنوا بالدين الخالص وهو دين الله « ألا لله الدين الخالص » .

مصر الجديدة في ١٩٨٣

دكتور

محمد ابراهيم الفيومي

ملحق على هامش الأخبار العربية

- * العربي والعبري •
- * من مظاهر اشتراكهما ((ايل)) •
- * من الأخبار السهرية المكتشفة •
- * رسالة الجاحظ في النصارى •

١ - العبري والعربي :

لا شك أن بين لفظ العبري والعربي وحدة من حيث الحروف وعددها وأسمائها وأجناسها ومن حيث المعنى أيضا فهما يطلقان على البدو الرحل ومن حيث الرقعة الجغرافية فانها واحدة من تباعد الأطراف بينهما ومن حيث الاتجاه الفكري الديني فان في مكة الحرم المقدس وفي فلسطين المسجد الأقصى ومقدسات دينية أخرى . ومن حيث النسب فان العرب أمة اسماعيل او اسماعيل واليهود أمة اسرائيل فكلنا أمة (ايل) وفي هذا ما يجعلني أتساءل هل الأصل في النطق هو العبري أو العربي بمعنى : أن الأصل هو العربي ثم هاجرت قبائل فنطقتة : عبري ، أو أن الأصل هو عبري ثم نطق على السنة من هاجر عربي ، قد يكون شيئا من هذا كان .

يقول د . سوسة : (١)

ويبدو لنا لأول وهلة عندما يرد ذكر العبري والعربي أن هناك تقاربا وثيقا في اللفظ بينهما حتى انه يتراءى للمرء ان الكلمتين تكادان تكونان كلمة واحدة ومن أصل واحد . الا أن السؤال الذي يرد الى الذهن هو أي اللفظين مشتق من الآخر ؟ . فالاستاذ عبد الحق فاضل الذي كتب مقالا في سومر عنوانه « عربي ، آرامي ، عبري » (٢) ثم ألحقه بكتاب عنوانه « مغامرات لغوية » طبع في بيروت (بلا تاريخ) يرى أن العربية والآرامية والعبرية مشتقة من أصل واحد من كلمة واحدة هي العربية باعتبارها أم اللغات السامية وأكثرها شبيها باللغات السامية المتطورة . والذي يهمنى هو «العبرية» و « العربية » فهو يذهب الى أن اشتقاق العبري من العربي كان بطريق القلب على حد تعبيره ، ويضيف الى ذلك قوله : « وما أكثر ما صنعت العرب من ذلك منذ أقدم عهودها » (٣) ؛ ونحن مع ترجيحنا رأيه القائل بأن العبري

(١) العرب واليهود

(٢) سومر ، ١٤ ، ١٩٥٨ ، ص ١٨٠ - ١٨٨

(٣) عبد الحق فاضل مغامرات لشعوبه بيروت بدون تاريخ ص ٣١

(م - ٢٠ الفكر الديني)

والعربي من أصل واحد ومن كلمة واحدة ، الا أننا لا نتفق واياه بأن العبرى مشتق من العربي اذ نرجح عكس ذلك ، أى أن العربي مشتق من العبرى وذلك نتيجة تقديم وتأخير في اللفظ . ودليلنا على ذلك هو التسلسل الزمني، فأى اللفظين جاء ذكره قبل الآخر ، هل هو العربي أم العبرى ؟ ..

لقد سبق أن أشرنا الى ان اقدم ذكر لكلمة « العبيرو » « الخبيرو » « والهبرى » « العبرى » يرجع الى القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، حيث ورد هذا اللفظ مرات كثيرة في رسائل العمارنة وكان يقصد به عرب البادية أو البدو الرحل ، ومما لا شك فيه أن استعمال هذا اللفظ بهذا المعنى كان قبل ذلك بكثير . أما لفظة « عربى » ، فأقدم ذكر لها ورد في الكتابات الآشورية اذ وردت أول اشارة ثابتة الى العرب في نقش للملك الآشورى شلمنصر الثالث (٨٥٩ - ٨٢٤ ق م) الذى قام بحملة على ملك دمشق عام ٨٥٤ ق م ثم وردت في كتابات أخلاف شلمنصر (١) وقد سمي ملوك بلاد العرب بملوك « العربى » كما أطلقت كلمة « العريبى » على الآراميين والأدوميين أيضا مما يدل على أن الآشوريين كانوا يعودن الآراميين والأدوميين من العرب كما هو واقع الحال . وقد مرت بنا الاشارة الى مقال بعنوان « العبرى ، العبيرو والعربى » نشر في احدى المجلات ، لم يتيسر لنا الاطلاع عليه ،

(١) لقد أشار الدكتور جواد على في كتابه « تاريخ العرب قبل الاسلام ج ١ ص ١٦١ ان أول اشارة الى العرب وردت في نص أرشورى يعود الى أيام الملك شلمنصر الثانى ملك آشور معتمدا في ذلك على ماركوليبوت والدكتور حتى ودائرة المعارف اليهودية الا أن شلمنصر الثالث كما بينا اعلاه . ويظهر ان الدكتور جواد على قد صحح هذا الخطأ في كتابه الاجرود المفضل في تاريخ العرب قبل الاسلام ج ١ ص ٥٧٤ حيث ذكر ان أول اشارة الى العرب ترجع الى زمن شلمنصر الثالث كما بينا اعلاه . ويظهر أيضا ان الدكتور حتى هو آخر قد صحح نفس الخطأ في الطبعة الاخره من كتابه تاريخ العرب « المطول » الطبعة الرابعة ١٩٦٥ ج ١ ص ٤٥ ونواد ان نرجى شكرنا الى الاستاذ طه باو بمصلنا الى هذا الخلاف .

والأرجح أنه يتناول بحث نفس الموضوع الذي نحن بصدده ، ومما يذكر في هذا الصدد أن العلماء اختلفوا في كيفية نقل كلمة « عربى » من النصوص الأثرية .

وهذا مما يزيد الاحتمال بأن كلمة عربى تحريف للعبرى بالتقديم والتأخير . وقد وردت تسميات العرب ، وملوك العرب ، وبلاد العرب ، الأعرابى ، فى العهد العتيق « التوراة » (١) ويؤيد الدكتور ولفنسون ارتباط المصطلح عربى ، بكلمة ، عربى ، بقوله « ويلاحظ أن كلمة عربى ترتبط بكلمة عربى ارتباطا لغويا متينا لأنهما مشتقان من أصل واحد وتدلان على معنى واحد » . ان كلمة عربى تؤدى المعنى الذى تؤديه كلمة عربى نفسها أى أن العبريين هم قبائل رحل كانت تنتقل بخيامها وابلها من مكان الى مكان وكان هذا الاسم يطلق على بنى اسرائيل (أبناء يعقوب) والقبائل الرحل كانت فى جهات طور سيناء وبادية سورية وفلسطين (٢) .

من مظاهر الاشتراك : ايل :

يبدو أن « عربى وعبرى » تفرعا من لغة واحدة هى اللغة الأكديّة التى كانت تستخدم فى كافة أنحاء فلسطين وما يحيط بها فى الألف الثانى قبل الميلاد كلغة مشتركة فى العالم الأدبى كله تقريبا لوجود ظواهر مشتركة . وفى اللغة العربىّة كلمات معربة من أسرة واحدة لها نفس النطق فى العبرية :

- | | |
|----------------|--------------|
| * طير ابابيل . | * اسماعيل . |
| * سراييل . | * عزرائيل . |
| * سلسبيل . | * جبرائيل . |
| * جنزبيل . | * ميكائيل . |
| * شرحبيل . | * اسرافيل . |
| * قطربيل . | * عبيداليل . |
| * اسرائيل . | * سجيل . |

(١) حز ، ٢٧ : ٢١ - آر ، ٣ : ٤ . ع ، ٢٥ : ٤ . اسن ، ١٣ : ٢١

(٢) تاريخ اللغات السامية ص ٧٨ ، ١٦٤ .

مثل هذه الكلمات على ما يبدو من نطقها أنها تتردد الى لغة واحدة وترجع الى عائلة واحدة في التراكييب اللغوية .

ويبدو أنها ذات صلة بنطق (ايل) وهو الله في نطقه العربي أو على نطق اللغة التي نطق بها نبي الله ابراهيم سواء تسمى لغة اكدية أو نبطية . . الخ .

يقول الشيخ رشيد رضا : (١)

من آلهة الكلدانيين (آل) وهي كلمة سامية عرفت في اللغة العربية والسريانية والعبرانية . قال صاحب القاموس : والأل الربوبية واسم الله تعالى . وكل اسم آخره (آل وايل) فمضاف الى الله تعالى . وقال آل المريض والحزين يئل ألا واللا أن وحن ورفع صوته بالدعاء . وقال في مادة (اى ل) : ايل بالكسر اسم الله تعالى . وفي لسان العرب بحث في كون الايل من أسماء الله تعالى ولكنه نقله عن ابن سيده ثم قال : والأل الربوبية ، والأل بالضم الأول في بعض اللغات وليس من لفظ الأول . ثم قال في (ايل) : من أسماء الله عز وجل عبراني أو سرياني ثم نقل عن ابن الكلبي أن جبرائيل وشراجيل وأشباهما كشرجيل تنسب الى الربوبية «لأن ايلا لغة في آل وهو الله عز وجل كقولهم عبد الله » أقول ونقل مثله من أسماء العرب ، ونقل عن أبي منصور أنه لا يجوز أن يكون ايل عرب فقيل آل ثم قال في مادة (اله) وقد سمت العرب الشمس لما عبدوها آلهة ، والآلهة الشمس الحارة حكى عن ثعلب ، والآلهة والآلهة (بالفتح والكسر) والآلهة (مضمومة الهمزة غير معرفة) لله الشمس . . الخ ثم ذكر أن : الآلهة والآلهة والآلهة العبادات . وذكر عند تفسير الآلهة بالمعبود في أول المسألة قولهم : اله بين الآلهة والآلهة والآلهة وأن أصله من اله ياله (من باب علم) إذا تحير .

هذا وان دل دلالة مادة اله على العبادة والمعبود سامية قديمة منقولة عن الكلدانيين وغيرهم . قال البستاني في دائرة المعارف عيد تعريف اسم (اله) بأنه اسم للذات الواجب الوجود المستحق لجميع المحامد — أي كما قال علماء المسلمين — وهو بالعبرانية الوهيم بصيغة الجمع تعظيما لا تكثيرا ،

وقد يطلق على غير الله ، ويهوه أى الكائن وهو خاص به تعالى . وايل أى القدير ، وبالسريانية الوهو وبالكلدانية الأها .

وفى تواريخ المتأخرين المؤيدة بالعاديات (الآثار القديمة) أن أعظم ارباب الكلدانيين وآلهتهم (ايل - أو - ال) فهو رب الأرباب وأصل الآلهة ، وليس له تمثال ولا صورة فى معابدهم . والظاهر أنهم كانوا يعتقدون مما ورثوا من دين نوح عليه السلام أنه منزه عن صفات الخلق وتخيلاتهم . وروى ديودورس عن فيلو أنه مرادف لزحل . ولا يصح هذا إلا ان يراد بزحل أبو المشتري كما قيل وقد أشاروا الى الايمان به فى عصور قديما ملوكهم ، ومما قالوا عنه فى أقدم الخرائط أنه أولد ولدتين (انا ، وبيل ، وانا) هذا هوراس (الثالث) الكلدانى . وقيل أن هذا الاسم بمعنى اسم الجلالة (الله) ويقولون انو اذا كان فاعلا وأنا اذا كان مفعولا وانى اذا كان مضافا اليه . ومن القاب عندهم - القديم والرأس الأصلى وأبو الآلهة ورب الأرواح والشياطين وملك العالم الأسفل وسلطان الظلام أو رأس الموت ، ووجدت آثار عبادته فى مدينة (آراك) وهى الوركاء . قال ياقوت : الوركاء موضع بناحية اروابى ولد به ابراهيم الخليل عليه السلام . وقد بنى أحد ملوكهم معبدا لابنه (قول) فى آشور سنة ١٨٣٠ قبل المسيح فصار اسم هذه المدينة بعد ذلك (تلان) وأصله (تل انا) وجاء ذكره فصار اسم هذه المدينة بعد ذلك (تلان) وأصله (تل انا) وجاء ذكره فى آخر للملك (أوركة) اكتشفت فى أنقاض (تل قبر) هذه ترجمته : « ان اله القمر ابن شقيب ، انو ، وبكر (بعلوس) قد حمل عبوه (أوركة) الرئيس التقى ملك (أور) على بناء هيكل (تسين كاثو) معبدا مقدسا له .

والثانى فى ثالثهم (بلوس - أو بيل) ولعلهما محرفان عن (بعل) و (بعلوس) ومن أسمائهم - انو - و - ايل و - ايل انيو - ومعناه السيد . وتلحق غالبا بلفظ - نيبرو - ومؤنثها - نيبروث - وهى قريبة من كلمة (نمرود) التى هى فى ترجمة التوراة السبعينية - نبروث - وكلمة - نيبرو - مشتقة من كلمة بابارا السريانية ومعناها طارد ، وتدل مادة نير فى العربية على الارتفاع فنير : رفع . والنبرة الشئ المرتفع ففيها معنى الشرف . ومعناها فى الآشورية يقارب معناها فى السريانية - فييل نبرو - بمعنى السيد الصياد أو رب الصيد . لذلك قيل أنه نمرود المذكور فى العهد العتيق ، ويقولون

انه كان يصيد الوحوش ، وهو بعلوس الذى ذكر مؤرخو اليونان انه يانى مويضة (بابل) ملكها الأول ، ودلت الآثار على أن الآشوريين كانوا يسمونها مدينة (بل نبرو) وظل الكلدانيون يعبدون نمرود مدة وجود دولتهم وكانوا يكترونه بأبى الآلهة ويكنون زوجه المسماة (مولينا - أو - انوتا) بام الآلهة العظام . ولكن وصفت في بعض الآثار بأنها زوج (نين) وهو ابنها وفي بعضها أنها زوج (آشور) ولها ألقاب عظيمة ووجد لها عدة هياكل .

والثالث من ثالوثهم (حو - أو - حيا) وهو حيوان بعضه كالانسان وبعضه كالسمك ، وزعموا انه خرج من خليج فارس ليعلم سكان ضفاف النهرين علم الفلك والأدب ، ونسب اليه اختراع حروف الهجاء ، وقد وجد اسمه على صحيفة من الآجر وجدت في خرائب (أور) ، ويرى بعض الباحثين أن اسمه من مادة الحياة العربية أو الحية ، وشعاره في القلم الكلدانى الشكل الأسفينى ، ومنه رسم الحية للدلالة على منتهى الذكاء والحكمة والاشارة الى الحياة . وله ألقاب عظيمة .

وكان للكلدان (ثالوث) آخر أحد آلهته (سينى) وهو القمر وهذا الاسم سامى فاسم القمر بالسريانية سين وكذا في السنسكريتية ، ومن ألقابه زعيم الأرباب في السماء والأرض (وبعل رونا) أى رب البناء ، وكانوا يصورونه في جميع تطوراته منذ يكون هلالاً ، وله هياكل كثيرة وأعظم معابده في (أور) .

والثانى (سان - أو - سانسى) وهو الشمس . والاسم سامى ايضا وعنه السننا بالربية وهو بالقصر الضياء وقيل ضوء النار والبرق والصواب انه أعم قال تعالى « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا » ومنه (شانى) بالعبرية ومعناها لامع ، واسم الشمس باللغة السنسكريتية (سيونا) ومن القاب هذه الاله : رب النار ونير الأرض والسماء . وكان له هياكل في المدن الكبيرة وأشهرها (بيت بارا) وبارا أوفرا اسم الشمس بالمصرية القديمة وكان اسم (هليبوليس) عندهم (سيبارا) وتسمى في الآثار (قيسبار شاشاماس) ومعنى الثلاثة مدينة الشمس . وللشمس زوجة عندهم يسمونها (أى) و (كولا) و (أنونيت) .

وثالث الثثة (فول) أو (ايفنا) أى الهواء وهو رب الجو القائم بتسخير الريح والحواصف والأعاصير المتصرف فى الزراعة والمواسم . ومن هياكله هيكى بناه الملك (شمائش وفل) الذى ملك الكلدان سنة ١٨٥٠ قبل المسيح .

وهذه الأخبار والآثار تشهد بصدق القرآن ، وكونه حجة لله على الأنام ، لأن من جاء به أمى لم يقرأ شيئاً من كتب الأولين ، ولا رأى اثراً من آثار الفابرين ، فيعلم منها خبر معبوداتهم . ولا يرد عليه ما أورد على العهد العتيق من كون كاتبه (عزرا الكاهن) كتبه بعد السبى فاقتبس منه كثيراً من تقاليد البابليين .

مكتشفات سومرية :

وفى كتاب : (السومريون تاريخهم وحضاراتهم وخصائصهم) وهو مجموعة أبحاث ، مستكشفة ما يفيد بلا شك أن سلسلة الأفكار الدينية قديمة ومتصلة وأنها ليست أساطير كما كان يظن وأن ما قاله القرآن عما سبق من الحضارات فإن المحدث من المستكشفات يؤيده .

ألا أن التأثير السومرى تغلغل الى التوراة عن طريق الآداب الكنعانية والهورية والحيثية والاكديية ، وعلى الأخص عن طريق الأخيرة، لأن اللغة الأكديية والهورية والحيثية والاكديية ، وعلى الأخص عن طريق الأخيرة، لأن اللغة الأكديية كانت تستخدم ، كما هو معروف جيداً ، فى كافة أنحاء فلسطين وما يحيط بها فى الألف الثانى قبل الميلاد كلغة مشتركة فى العالم الأدبى كله تقريباً . وعلى هذا كانت الأعمال الأدبية الأكديية بكل تأكيد معروفة معرفة جيدة عند الأدباء الفلسطينيين ، بما فى ذلك العبرانيون ، ويمكننا أن نتتبع أثر جزء غير قليل من هذه الأعمال الأدبية الأكديية الى نماذج سومرية أولى جدت صياغتها وتغيرت عبر القرون .

بيد أن هناك مصدراً ممكناً آخر للتأثيرات السومرية فى التوراة كانت مؤثراته الصق وأقرب اليه من مؤثرات المصدر الذى وصف قبل قليل ، أن هذا المصدر ربما يعود فى الواقع الى الأب ابراهيم نفسه . أن أغلب الباحثين يتفقون على أنه بينما تحتوى قصة ابراهيم كما وردت فى التوراة على الكثير مما هو أسطورى وخيالى ، فإنها تحتوى أيضاً على بذرة مهمة من الحقيقة

بما في ذلك ولادة ابراهيم في مدينة (أور) الكادانية ، التي ربما كانت حوالى ١٧٠٠ ق. م وأخبار حياته مع عائلته هناك . وكانت (أور) احدى أهم المدن السومرية القديمة ، بل كانت في الواقع عاصمة بلاد سومر في ثلاثة عهود مختلفة .

وفي أثناء التنقيبات الانكليزية - الأمريكية المشتركة التي أجريت هناك بين سنتي ١٩٣٢ و ١٩٣٤ كشف عن عدد كبير من الوثائق الأدبية . ومن الجائز جدا أن يكون لابراهيم وآبائه صلة ما مع الانتاج الأدبي السومري الذي كان يستنسخ أو يبتدع في مدرسة مدينتهم . وليس من المستحيل أبدا أن يكون هو وأفراد عائلته قد جلبوا معهم بعضا من التقاليد السومرية الى فلسطين ، حيث أصبحوا تدريجيا جزءا من التقاليد والمصادر التي استفاد الأدباء العبرانيون منها في تأليف وتنقيح كتب التوراة .

ومهما يكن الأمر ، فاننا نقدم هنا عددا من الأمثلة التوراتية المتطابقة مع ما هو موجود في الألب السومري والتي تشير بلا شك الى بقايا من التأثيرات السومرية :

١ - خلق الكون : لقد كان السومريون يعتقدون كما يعتقد العبرانيون القدامى بان البحر الأول كان موجودا قبل الخليفة . وكان الكون بالنسبة للسومريين . يتألف من سماء وأركس متحدين ولدقا بطريقة ما في هذا البحر الأولى وأن الاله - الريح « أنليل » الذي ربما لا يختلف عن روح الوهيم - أى روح الله - في سفر التكوين - هو الذي فصل السماء عن الأرض .

٢ - خلق الانسان : لقد خلق الانسان ، وفقا لتفكير كل من العبرانيين والسومريين ، من الطين وأشرب به - « نفس الحياة » . أما الغرض الذي خلق من أجله فهو خدمة الآلهة - أو للوحدة عند العبرانيين - بالصلاة والابتهال وتقديم القرابين .

٣ - أساليب الخلق : لقد تم الخلق وفقا لكل من الكتاب التورانيين والسومريين بصور رئيسة بطريقتين : بأمر الهى او به - « بفعل » أو « تكوين » عملى . وفي هاتين الحالتين كان التخطيط الالهى يسبق الخلق الفعلى على الرغم من عدم التعبير عن هذه الحاجة الى التخطيط على نحو واضح .

٤ - الجنة : لم يعثر حتى الآن على متطابقات سومرية لقصة جنة عدن وطرده الانسان منها . بيد أنه توجد عدة مواضيع تتصل بالجنة لها أهمية بالنسبة لأغراض المقارنة ، بما في ذلك موضوع واحد قوى يساعد على توضيح قصة «الطوفان» في سفر التكوين ٢ : ٢١ - ٢٣ . أضف الى ذلك وجود سبب وجيه للاعتقاد بأن فكرة جنة الهية ، أو حديقة الهية ذاتها من أصل سومري (انظر الفصل الرابع) .

٥ - الطوفان : تظهر الروايتان التوراتية والسومرية عن قصة الطوفان كما لوحظ منذ فترة طويلة ، عدد كبير من الأفكار المتطابقة تطابقا واضحا والقوية الصلة ببعضها البعض . ومما تجدر ملاحظته أيضا حقيقة وجود عشرة ملوك حكموا قبل الطوفان ، وكانت أعمارهم طويلة الى درجة غير طبيعية وفقا لرواية عراقية واحدة على الأقل . ويذكرنا هذا ببعض الآباء التوراتيين في فترة ما قبل الطوفان .

٦ - موضوع قابيل وهابيل : ان موضوع المنافسة في قصة قابيل وهابيل الذي ورد في التوراة بلا شك بصورة مختصرة جدا كان موضوعا محببا جدا عند الكتاب والشعراء السومريين (انظر الفصل السابع) .

٧ - برج بابل وتششتت البشر : لقد بدأت قصة تشييد برج بابل بلا ريب في محاولة لتوضيح وجود الزقورات في بلاد ما بين النهرين . أما بالنسبة للعبرانيين فان هذه الأبنية الشاهقة ، التي غالبا ما يمكن رؤيتها في حالة من الخراب والدمار ، أصبحت رموزا لشعور الانسان بعدم الأمان ، وما يتصل به من لهفة شديدة للحصول على السلطة ، تلك الالهة التي لا تعود عليه الا بالذل والعذاب . ولذلك فانه من المستبعد جدا الحصول على مثل مطابق لهذه القصة عند السومريين الذين كانت الزقورة بالنسبة لهم تمثل رباطا بين السماء والأرض ، أي بين الاله والانسان ، غير أننا قد نجد من الناحية الأخرى فترة العصر الذهبي التي تكون جزءا من القصة الملحمية السومرية « اينمر كار ونفس الكلمات » ، وأن نهاية هذه الحالة السعيدة جاءت على يد اله غاضب في فترة العصر الذهبي التي تكون جزءا من القصة الملحمية السومرية « اينمر كار وسيد اراتا » (التي أشير إليها في بداية هذا الفصل) .

٨ - الأرض وتنظيمها : ان الأسطورة السومرية « أنكى ونظام العالم »

تنظيم الأرض وعملياتها الحضارية « تقدم وصفا مفصلا لفعاليات « أنكى » ،
 إله الحكمة السومرية ، في تنظيم الأرض وفي تأسيس ما يمكن التعبير عنه
 بالقانون والنظام فيها . ان لهذه القصة أصداء توراتية في سفر تثنية الاثتراع
 ٣٢ : ٧ - ١٤ ، على سبيل المثال (لاحظ بصورة خاصة المقطع ٨) وفي
 المزمور ١٠٧ .

٩ - إله الشخصي : كان العبرانيون القدامى استنتاجا من العهد
 بين الإله وإبراهيم - لاحظ أيضا الإشارة إلى عبارة « إله ناحور » في سفر
 التكوين ٣١ : ٥٣ - على اطلاع على فكرة الإله الشخصي ، لقد طور
 السومريون الاعتقاد بوجود إله شخصي في وقت مبكر يعود على الأقل إلى
 منتصف الألف الثالث ق . م . إذ كان لكل ذكر بالغ الرشد ورئيس عائلة
 وفقا لرأى المعلمين والحكماء السومريين « إلهه الشخصي » ، أو ما يشبه الملاك
 الخير الذي ينظر إليه كإله له . وكان هذا الإله الشخصي على ما يحتمل
 جدا يتبنى من قبل رب الأسرة السومرية كنتيجة لوحى أو حلم أو رؤيا
 تتضمن تفهما متقابلا أو اتفاقا بين الطرفين لا يختلف عن العهد بين الآباء
 العبرانيين والإله يهوا .

في الواقع لم يكن هناك شيء قاطع بالنسبة للطرفين في العهد بين السومري
 وإلهه الحامى ، ولذلك كان في هذه الناحية يختلف اختلافا كبيرا عن العهد
 بين إبراهيم وربيه . ان كل ما كان السومري ينتظره من إلهه الشخصي هو أن
 يتكلم لصالحه ويتدخل في مجتمع الآلهة من أجله متى تطلبت الظروف ذلك
 وبهذا يحقق له حياة طويلة وصحة سليمة ، وكان الشخص مقابل ذلك يقوم
 بتجميد إلهه بالأدعية والابتهالات وتقديم القرابين ، على الرغم من أنه كان
 يواصل في نفس الوقت عبادة آلهة المجمع الإلهي السومري الأخرى ومع ذلك
 كانت هناك علاقة متينة وودية وموثوق بها بل ورقيقة بين السومري الشخصي .
 علاقة تحمل في طياتها تشابها غير قليل من العلاقة بين يهوا والآباء العبرانيين
 وبين يهوا والعبرانيين ككل في الأزمان المتأخرة ، كما تشير إلى ذلك الوثيقة
 الأدبية السومرية المعنونة « الإنسان وإلهه » .

١٠ - الشريعة : ان حقيقة كون كل من الشرائع التوراتية وشريعة
 حمورابى المعروفة منذ مدة طويلة تظهر العديد من التشابهات في المحتوى والصيغة

بل حتى بالتنظيم ، قد لوحظت في الواقع من قبل دارسى العهد القديم جميعهم ، ولكن شريعة حمورابى نفسها ، كما ظهر في السنوات الاخيرة ، عبارة عن مؤلف اكدى استند بصورة عامة الى النماذج السومرية الاولى « الفصل الرابع » وفي الواقع . هناك سبب وجيه يدفعنا الى الاستنتاج بأن نمو وتطور المفاهيم والممارسات والسوابق والتأليف القانونية والرائعين في الشرق الأدنى القديم يرجعان بصورة علمية الى السومريين والى توكيدهم المبالغ فيه كثيرا على المنافسة والتفوق (انظر الفصل السابع) .

١١ - الاخلاق والتعاليم الأخلاقية : ان المفاهيم الأخلاقية والمثل المعنوية التى طورها السومريون كانت متطابقة مع مفاهيم ومثل العبرانيين ، على الرغم من أنها كانت تفتقر الى حساسيتها الخلقية وحماسها المعنوى الواضحين تقريبا وعلى الأخص في تلك السجاياء التى ضربت عليها أمثلة في الأدب التوراتى التنبؤى . لقد كان السومرى من الناحية النفسية (السيكولوجية) أكثر تشامخا وتحفظا من العبرانى ، كان أكثر تحفظا من الناحية العاطفية وأكثر تمسكا بالشكليات وبالمنهجية . وكان ينزع الى النظر الى اخوانه من البشر بشيء من الشك والريبة ، بل وحتى بشيء من الخوف الذى بكبت الى حد غير قليل الدفاء والعطف والحنان البصرى ، تلك الصفات الحيوية جدا بالنسبة الى النمو الروحى والسعادة . وعلى الرغم من مكتسباته الخلقية الرفيعة فان السومرى لم يصل أبدا الى الاعتقاد السامى بأن « قلبا نقيا » و « ايادى طاهرة » كان تقدر عند الآلهة من أكثر الصلوات الطويلة والقرايين المتوافرة والطقوس المعقدة .

١٢ - الثواب والعقاب الالهيان والكارثة القومية : ان غضب « يهوا » واذلاله وتدميره للشعب الذى كان يجلب على نفسه ذلك تؤلف موضوعا يتكرر دائما في الكتب التوراتية . وكانت الكارثة القومية تحل عادة بهجوم عنيف يقوم به شعب مجاور يختار بصورة خاصة ليكون عصا الاله يهوا وسوطه . وتقدم الوثيقة التاريخية « لعنة أكد » نظيرا مثيرا لهذا الموضوع : وهو أن « انليل » الاله القائد في مجمع الالهة السومرى ، بعد أن اثار غضبه الشديد حاكم من حكام أكد اتصف بالكفر رفع نظره الى الجبال وجاء بالـ « جوتيين » البرابرة القساة الذين لم يدمروا أكد فقط بل شرعوا أيضا بتدمير كل بلاد سومر تقريبا .

١٣ — موضوع الوباء : تحتوى الأسطورة السومرية « اينانا وشوكاليتودا : خطيئة البستاني المميتة » على موضوع حلول وباء في بلاد سؤمر يطابق الى حد ما موضوع الوباء التوراتى فى قصة سفر الخروج . ففى كلتا الحالتين أرسل اله اغضبته أفعال سيئة واثم يقترفه فرد من الأفراد سلسلة من الأوبئة على بلاد بكاملها وعلى سكانها .

١٤ — المعاناة والاستسلام : موضوع « أيوب » . لقد تيسرت قبل فترة تتصف بكثرة البكاء وشدة الحزن .

١٥ — المعاناة والاستسلام : موضوع « أيوب » . لقد تيسرت قبل فترة قريبة جدا مقالة شعرية توراتية ذات أهمية غير قليلة بالنسبة للدراسات التوراتية المقارنة . ان موضوعها الرئيسى المعاناة والاستسلام البشرى ، متطابق مع الموضوع الذى عولج ببرقة متناهية وبشكل مثير للمشاعر فى سفر « أيوب » فى التوراة ، بل كانت الأحداث التى ذكرت كمقدمة متشابهة : رجل من الناس — لم يذكر اسمه فى القصيدة السومرية — كان غنيا وحكيما وعادلا . وكان ينعم ببركة صفاء العيش مع الأصدقاء وذوى القربى ، أصيب فى يوم من الأيام ، بلا سبب واضح بالسقم والعذاب والفقر وخيانة الأصدقاء وكره الناس له . على أننا نعتزف بأن هذه المقالة السومرية ، التى تتكون من أقل من مائة وخمسين سطرا لا تقارن بأية حال بالسفر التوراتى من حيث سعة المدى وعمق الفهم وجمال التعبير ، الا أنها أقرب كثيرا من حيث المزاج والانفعال والمحتوى الى المزامير التى وردت فى « سفر المزامير » والتى تتصف بكثرة البكاء وشدة الحزن .

١٦ — الموت والعالم السفلى : ان عالم الموتى ، ومثوى الأموات فى الميثولوجيا الاغريقية بقدر ما يتعلق الأمر بهذا الموضوع لهما ما يقابلهما فى « كور » السمرى . فقد كان الـ « كور » ، مثل عالم الموتى العبرانى ، سكن الأموات المظلم المخيف . وكان أرضا لا عود منها ، ولو أنه قد يستدعى منها فى حالات خاصة فقط (١) .

(١) السومريون : تاريخهم وحضارتهم وحمايتهم تاليف سمونيل نوح كريم — ترجمة

فيصل الوائلى .

هذه الأشياء كشفت عنها الحفائر وأكدت أحداثها غير ان بعض المؤرخين يذهب الى وصفها بالاسطورة ونقول : ان وصفها بالاسطورة لا يلغياها لأن هيكل الاسطورة كان حقيقة خارجة تلقفها الانسان بخياله فانهرف بها فأحدث فيها ما أحدث من الوان واسقط عليها مضامين اخيلته ليحيب بها حاجة في نفسه فمثلا تمثال أبو الهول في قصوره أسطورة ولكنه اجزاء هيكل حقيقية .

فوجهه : منتزع من الانسان وهو حقيقة خارجة • وجسمه : منتزع من الحيوان وهو حقيقة خارجة • لكن التشكيل العام هو الاسطورة •

فوصف الشيء بالاسطورة لا يلغى حقيقة وجوده انما يؤكد وجوده مع غرام الانسان به •

رسالة الجاحظ

ونحن نطالع رسائل الجاحظ وهو أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ١٥٠ - ٢٥٥ وهى تحقيق وشرح العلامة المحقق الاستاذ / عبد السلام محمد هارون نشر الخانجي وقع بصرنا على رساله : الرد على النصارى . . ورأينا فيها قيمة علميه تخدم وجهه نظرنا فى كتابنا : فى الفكر الدينى الجاهلى . . من جوانب فهى من جانب تعتبر وثيقه علميه شاهده على أن علم الاديان المقارن ، تد ظهر على أيدي العرب منذ القرن الثانى للهجره بأسلوبه العلمى الدقيق يعالج فيما يعرضه بأمانه علميه للفكره بين أنصارها وخصومها - بأسلوب هادىء ورزين قضا بالاطراف المتنازعه .

ومن جانب آخر تعتبر وثيقه علميه شاهده أيضا على أنتشار المسيحيه فى الجزيره العربيه والقبائل التى دانت ومدى علمها بها . . وكأنها ترسم رسما بيانيا للروافد التى حبلت المسيحيه الى مكه . . وهذا ما تعرضنا له فى كتابنا فهى تؤدى ما قلناه ونزيد عليه - ومن ثالث : يأخذك الجاحظ وهو يتصدر لمشاكل علم الاديان المقارن من غير أن يأخذك الملل ويجعلك شريكا فى احكامه بأسلوبه السهل المتع والممتع .

فاذا هو يدخل بك اعماق النفس واعماق المجتمع ليحصى الاسباب الاجتماعيه والنفسية والثقافية فانا مبتدىء فى ذكر الاسباب التى لها صارت النصارى أحب الى العوام من المجوس وأسلم صدورا عندهم من اليهود وأقرب موده وأقل غائله ، واصفر كقرا وأهون عذابا . ولذلك أسباب كثيره ووجوه واضحه يعرفها من النظر ويجعلها من لم ينظر . . . ذلك هو الجاحظ .

فتجد نفسك فى النهايه أمام وثيقه شاهده على عمق الجدل والحوار فى صياغة سلسله وفى ترفق ولين - ففيها جوانب لعلم الاجتماع الدينى واللوان من علم النفس الدينى - واليك الرساله :

١ - فصل من صدر كتابه في

الرد على النصارى (١)

الحمد لله الذي من علينا بتوحيده ، وجعلنا ممن ينفي شبهة خلقه (٢) وسياسة عباده (٣) ، وجعلنا لا نفرق بين أحد من رسله ، ولا نجحد كتابا أوجب علينا الاقرار به ، ولا نضيف اليه ما ليس منه ، انه حميد مجيد ، فعال لما يريد .

أما بعد فقد قرأت كتابكم ، وفهمت ما ذكرتم فيه (٤) من مسائل النصارى فبلكم ، وما دخل على قلوب أحدائكم وضعفائكم من اللبس ، والذي خفتموه على جواباتهم من العجز ، وما سألتهم من اقرارهم بالمسائل ومن حسن معونتهم بالجواب .

وذكرتم أنهم قالوا : ان الدليل على أن كتابنا باطل ، وأمرنا فاسد ، اننا ندعى عليهم ما لا يعرفونه فيما بينهم ، ولا يعرفونه من أسلافهم ، لأننا نزعم أن الله جل وعز قال في كتابه على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم : « واذ قال الله يا عيسى بن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله (٥) » ، وأنهم زعموا أنهم لم يدينوا قط بأن مريم اله في سرهم ،

(١) نشر هذا الاختبار من قبل ، بعد ظهوره على هامش الكامل ، في مجموعة يوتج فنكل ، وعنوانها (ثلاث رسائل لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ) وطبعت في المطبعة السلفية سنة ١٣٤٤ . وجعلت هذه المجموعة هدية من مجلة الزهراء التي كان يصدرها الاستاذ محب الدين الخطيب ، الى قرائها في السنة الثانية . والرسالة التي تليها هي (ثم اخلاق الكتاب) ، ثم (رسالة القيان) . وقد تمت بنشر هاتين الأخيرتين في الجزء الثاني من الرسائل في الصفحات ١٣٦ - ٢٠٦ .

(٢) يعنى كونه مخلوقا

(٣) اشارة الى ما يرى المعتزلة من أنه غير خالق لامعال العباد ، فهم يخلقون أعمالهم ويريدونها ، فيحاسبون على ما عملوا .

(٤) ب : « من ما فكرتم » .

(٥) الآية ١١٦ من سورة المائدة .

ولا ادعوا ذلك قط في علانيتهم • وأنهم زعموا أنا ادعينا عليهم ما لا يعرفون ، كما ادعينا على اليهود ما لا يعرفون ، حين نطق كتابنا ، وشهد نبينا : أن اليهود قالوا : أن عزيرا ابن الله (١) ، وأن يد الله مغلولة (٢) ، وأن الله فقير وهم أغنياء (٣) • وهذا ما لا يتكلم به انسان ، ولا يعرف في شيء من الأديان •

ولو كانوا يقولون في عزير (٤) ما نحلتمون وادعيتموه ، لما جحدوه من دينهم ، ولما أنكروا أن يكون من قولهم ، ولما كانوا بإنكار بنوة عزير أحق منا بإنكار بيوة المسيح ، ولما كان علينا منكم بأس بعد عقد الذمة ، راخذ الجزية •

وذكرتم أنهم قالوا : ومما يدل على غلطكم في الأخبار ، وأخذكم العلم عن غير الثقات (٥) ، أن كتابكم ينطق أن فرعون قال لهامان : « ابن لى صرحاً (٦) • وهامان لم يكن إلا في زمن الفرس ، وبعد زمن فرعون بدهر طويل ، وإن ذلك معروف عند أصحاب الكتب ، مشهور عند أهل العلم • وإنما اتخذ صرحاً ليكون إذا علاه أشرف على الله •

وفرعون لا يخلو من أن يكون جاحداً لله تعالى ، أو مقراً به • فإن كان دينه عند نفسه وأهل مملكته نفى الله وجحده ، فما وجه اتخاذ انصرح وطلب الاشراف ، وليس هناك شيء ولا اله ؟

-
- (١) ب : « عزير ابن الله » .
 (٢) إشارة الى الآية ٦٤ من المائدة .
 (٣) إشارة الى الآية ١٨١ من آل عمران .
 (٤) ب : مقط : « يقولون في شيء في عزير » .
 (٥) في جميع النسخ : « اللعنة » ، وهو خطأ ممدح في الرسم الذي يوجب رسمه جمع المؤنث السالم مبتبوتة .
 (٦) من الآية ٣٦ في غابرا .
 (٧) م مقط : « لم يكن في زمن الفرس » ، تحريف .

وان كان مقرا بالله عارفا به ، فلا يخلو من أن يكون مشبها أو نافيا للتشبيهه . فان كان ممن ينفي الطول والعرض والعمق والحدود والجهات ، فما وجه طلبه له في مكان بعينه ، وهو عنده بكل مكان ؟ وان كان مشبها فقد علم انه ليس في طاقة بنى آدم أن يببنوا بنيانا ، أو يرفعوا صرحا يخرق سبع سموات بأعماقهن ، والأجزاء التي بينهن ، حتى يحاذى (١) العرش ثم يعملوه .

وفرعون وان كان كافرا فلم يكن مجنونا ، ولا كان الى نقص العقل من بين الملوك منسوبيا . على أن الحكم قد يقوم (٢) بعقول الملوك بالفضيلة على عقول الرعية .

وذكرتم انهم قالوا : تزعمون أن الله تعالى ذكر يحيى بن زكريا يخبر انه « لم يجعل له من قبل سميا (٣) » ، وأنهم يجدون في كتبهم وفيما لا يختلف فيه خاصتهم وعامتهم انه كان من قبل يحيى بن زكريا غير واحد يقال له يحيى ، منهم : يوحنا بن فرح (٤) .

وزعمتم انهم قالوا لكم (٥) : انكم ذكرتم أن الله قال في كتابه لنبيكم : « وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحى اليهم (٦) » ، فاسألوا اهل الذكر ان كنتم لا تعلمون (٧) » ، وانما عنى بقوله : « اهل الذكر » : اهل التوراة ، وأصحاب

(١) ب : « يحازى » ، تحريف .

(٢) ب : « قد يقدم » .

(٣) من الآية ٧ في سررة مريم .

(٤) لم أجد له ذكرا في كتب الجاحظ ، كما لم أجد له خبرا الا في سفر: أرميا ٤٠ : ٨

و ٤١ : ١١ و ٤٣ : ٦ . واسمه في هذا السفر : يوحانان بن قاريح .

(٥) ب : « لك » صوابه في م ، ط .

(٦) كذا القراءة في الآية ٤٣ من سورة النحل . أما في الآية ٧ من سورة الانبياء

لقراءة الجمهور فيها : « يوحى اليهم » ، كما ورد في نسخة ب ، وقراها حطس فقط :

« نوحى اليهم » أنظر اتحاد نضلاء البشر ٢٠٦ .

(٧) هي الآية ٤٣ من سورة النحل ، ونصها هو نص الآية ٧ من الانبياء .

الكتب يقولون : ان الله قد بعث من النساء نبيات منهن مريم بنت عمران (١) ،
وبعث منهن حنة (٢) ، وسارى (٣) ، ورفقى (٤) .

وذكرتم أنهم قالوا : زعمتم ان عيسى تكلم في المهد ، ونحن على تقديمنا
له ، وتقريبنا لأمره ، وافراطنا بزعمكم فيه ، على كثرة عدتنا ، وتفاوت بلادنا ،
واختلافنا فيما بيننا ، لا نعرف ذلك ولا ندعيه (٥) ، وكيف ندعيه ولم نسمعه
عن سلف ، ولا ادعاه منا مدع .

ثم هذه اليهود لا تعرف ذلك ، وتزعم أنها لم تسمع به الا منكم ، ولا تعرفه
المجوس ، ولا الصابئون ، ولا عباد البددة (٦) من الهند وغيرهم ، ولا الترك

(١) انظر بقية نسبها في الطبرى ١ : ٥٨٦ .

(٢) هي حنة بنت نوثيل ، من سبط اشير . اتجيل. لوقا ٢ : ٣٦ .

(٣) سميت في العهد القديم « سارى » تكوين ١١ : ٢٩ ، ٣٠ / ١٢ : ٥ ، ١١ ،
١٧ / ١٦ : ١ - ٩ . وجاء في سفر التكوين ١٧ : ٥ في مخاطبة ابراهيم عليه السلام :
« فلا يدعى اسمك بعد ابرام ، بل يكون اسمك ابراهيم » وفي الفقرة الخامسة عشرة منه :
« وقال الله لابراهيم : سارى امرأتك لاتدعى اسمها سارى ، بل اسمها سارا » .
وفي حواشى سفر التكوين ان « سارة » بمعنى رئيسة . وسارة هذه هي بنت هاران الاكبر
عم ابراهيم ، كما في الطبرى ١ : ٢٤٤ ، وفيها الآية الكريمة : « وامرأته قائمة مضحكت
لبشرناها باسحاق ومن رراء اسحاق يعقوب » . وسارة تضبط بتخفيف الراء ، ويخطىء من
يشدها ، وان كانت قد ضبطت بذلك في اللسان (هجر ١١٨ ورقم ١٨٠) وشرح القسطلانى
٤ : ١٠٢ . ومما يعين ضبطها بتخفيف الراء قول جرير في ديوانه ٥٤٣ :

فيجمعنا والعز اولاد سارة اب لايبالى بعده من تعذرا

(٤) ورسعت في الطبرى « رفقا » ، وهو الوجه ، لان جميع المنتهى بالالف اللبنة من
الاسماء الاعجمية حقه ان يكتب بالالف ، ماعدا الاسماء الخمسة : موسى ، عيسى ، كسرى ،
بخارى ، متى . وهي رفقا ابنة بتويل بن فاحور بن تارخ ، وهي امرأة اسحاق ، كما
في الطبرى ١ : ٣١٣ وتسمى ايضا « رفقة » في التكوين ٢٤ : ١٥ ، ٢٦ / ٢٥ : ٢٠ .
(٥) ب ، م : « لايعرف ذلك ولا يدعيه » ، صوابه في ط .

(٦) البد ، بالضم : الصنم الذى يعبد ، وهو اعراب بت ، بالفارسية بضم
الباء ايضا . والجمع البددة . ب : « البيرة » ط : « المدرة » ، صوابها في م . وانظر
ما سبق في حواشى ٢٥٢ .

والخزر(١) ، ولا بلغنا ذلك عن أحد من الأمم السالفة ، والقرون الماضية ، ولا في الانجيل ، ولا في ذكر صفات المسيح في الكتب والبشارات به على السنة الرسل .

ومثل هذا لا يجوز أن يجهله الولي والعدو ، وغير الولي وغير العدو ، ولا يضرب به مثل ، ولا يروح به الناس ، ثم يجمع النصارى على رده ، مع حبهم لتقوية أمره . ولم يكونوا ليضادوكم .(٢) فيما يرجع عليهم نفعه . وكيف لم يكذبوهم في احيائه الموتى ، ومشيه على الماء ، وابراء الأكمة والأبرص ؟ بل لم يكونوا ليتفقوا على اظهار خلاف دينهم ، وانكار أعظم حجة كانت لصاحبهم ، ومثل هذا لا ينكتم ولا ينفك ممن يخالف وينم (٣) .

والكلام في المهد أعجب من كل عجب ، وأغرب من كل غريب ، وأبده من كل بديع ، لأن احياء الموتى والمشى على الماء ، واقامة المقعد ، وابراء الأعمى ، وابراء الأكمة (٤) قد أتت به الأنبياء ، وعرفه الرسل ، ودار في أسماعهم . ولم يتكلم صبي قط ، ولا مولود في المهد .

وكيف ضاعت هذه الآية ، وسقطت حجة هذه العلامة من بين كل علامة ؟؟ وبعد ، فكل أعجوبة يأتي بها الرجال (٥) ، والمعروفون بالبيان ، والمنسوبون

(١) م : « والخزر » ، تحريف . والخزر جيل من الترك كان يتر حكمهم في سهوب القوقاز الشمالية . وانظر مانتى (بلغار) و (الخزر) في دائرة المعارف الاسلامية .

(٢) ب ، م : « ولم يكن ليضادوهم » .

(٣) ب نقط : « ويتم » بالتاء .

(٤) الأكمة : الذي يولد أعمى ، ومصدره الكمه ، بالتحريك . وربما جاء الكمه في الشعر للعمى العارض ، كما جاء في قول سويد بن أبى كاهل الرشكري في المفضليات ٢٠٠ :

كبهت ميناه لسا أبيقتنا فهو يلحى نفسه لما نزع

(٥) ب ، م : « الرجل » ، واثبت ما في ط .

الى صواب الراى ، تكون (١) الحيلة فى الظن اليها اقرب ، وخوف الخدعة عليها
اغلب . والصبى المولود عاجز فى الفطرة ، ممتنع من كل حيلة ، لا يحتاج فيه
الى نظر ، ولا يشبهه من شاهده بدخل (٢) .

٢ - فصل منه

وسنقول فى جميع ما ورد علينا من مسائلكم ، وفيما لا يقع اليكم من
مسائلهم ، بالشواهد الظاهرة ، والحجج القوية ، والأدلة الاضطرارية ، ثم
نسألهم بعد جوابنا اياهم عن وجوه يعرفون بها انتقاض قولهم ، وانتشار
مذهبهم (٢) ، وتهافت دينهم .

ونحن نعوذ بالله من التكلف وانتحال ما لا نحسن ، ونسأله القصد
فى القول والعمل ، وأن يكون ذلك لوجهه ، ولنصرة دينه ، انه قريب
مجيب .

فأنا مبتدىء فى ذكر الأسباب التى لها (٤) صارت النصارى أحب الى
العوام من المجوس ، وأسلم صدورهم من اليهود ، وأقرب مودة ، وأقل
غائلة ، وأصغر كفرا ، وأهون عذابا .

ولذلك أسباب كثيرة ، ووجوه واضحة ، يعرفها من نظر ، ويجهلها من
لم ينظر .

(١) ب ، م : « تكون » ، صوابه فى ط .

(٢) ط نقط : « ولا يشبهه » . والدخل ، بالتحريك وبالفتح أيضا : الريبة والغش .
قال الله تعالى : « تتخذون أيمانكم دخلا بينكم » . وفى كلام ابنة الخسن :

ترى الفتيان كاللخل وما يدريك ما الدخل

(٣) انتشار مذهبهم : تفرقه وعدم ترابطه . ويقولون : ضم الله نشارك ، بالتحريك ،
أى لم شمشك .

(٤) ب : « التى بها » .

اول ذلك ان اليهود كانوا جيران المسلمين بيثرب وغيرها ، وعداوة الجيران شبيهة بعداوة الأقارب في شدة التمكن وثبات الحقد ، وانما يعادى الانسان من يعرف ، ويميل على من يرى ، ويناقض من يشاكل ، ويبدو له عيوب من يخالط . وعلى قدر الحب والقرب يكون البغض والبعد ، ولذلك كانت حروب الجيران وبنى الأعمام من سائر الناس وسائر العرب أطول ، وعداوتهم أشد .

فلما صار المهاجرون لليهود جيرانا ، وقد كانت الأنصار متقدمة الجوار ، مشاركة في الدار ، حسدتهم اليهود على النعمة (١) في الدين ، والاجتماع بعد الافتراق ، والتواصل بعد التقاطع ، وشبهوا على العوام (٢) ، واستمالوا الضعفة ، ومالئوا (٣) الإعداء والحسدة ، ثم جاوزوا الطعن وادخل الشبهة ، الى المناجزة والمتابذة بالعداوة ، فجمعوا كيدهم ، وبذلوا أنفسهم وأموالهم في قتالهم ، واخراجهم من ديارهم ، وطال ذلك واستفاض فيهم (٤) وظهر ، وترادف لذلك الغيظ ، وتضاعف البغض ، وتمكن الحقد .

وكانت النصارى لبعد ديارهم (٥) ، من مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ، ومهاجره ، لا يتكلفون طعنا (٦) ، ولا يثيرون كيذا (٧) ، ولا يجمعون على

(١) ب ، م : « حسدتهم اليهود النعمة » ، وهي صحيحة أيضا ، يقال حسده على الشيء وحسده اياه ، كما في قول شمر بن الحرث الضبي :

نقلت الى الطعام فقال منهم زعيم نحسد الانس الطعاما

(٢) ط نقط : « القوام » ، تحريف .

(٣) ب ، م : « ومالوا » ، ، صوابه في ط . والمالاة : المساعدة ، والمشيئة

(٤) ب ، م : « واستفاض فيهم » ، صوابه في ط .

(٥) ب ، م : « ديارها » .

(٦) ب ، م : « لا يتكلفون طعنا » ، صوابه في ط .

(٧) ب ، م : « ولا يثيرون كيذا » ، والوجه في ط .

حرب(٢) . فكان هذا أول أسباب ما غلظ القلوب على اليهود ، ولينها على
النصارى .

ثم كان من أمر المهاجرين الى الحبشة ، واعتمادهم على تلك الجنبية (٢)
ما حبيبهم (٣) الى عوام المسلمين . وكلما لانت القلوب لقوم غلظت على أعدائهم،
وبقدر ما نقص من بغض النصارى زاد في بغض اليهود .

ومن شأن الناس حب من اصطنع اليهم خيرا أو جرى على يديه (٤) ،
أراد الله بذلك أو لم يرده ، ويقصد (٥) كان أم باتفاق .

وأمر آخر ، وهو من أمتن أسبابهم واقوى أمورهم ، وهو تأويل آية
غلطت فيها العامة حتى نازعت الخاصة ، وحفظتها النصارى واحتجت ،
واستمالت قلوب الرعاع والسفلة ، وهو قول الله تعالى : « لتجدن أشد
الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين
آمنوا (٦) » . الى قوله : « وذلك جزاء المحسنين (٧) » . وفي نفس الآية
أعظم الدليل على أن الله تعالى لم يعن هؤلاء النصارى ولا أشباههم :
الملكانية (٨) واليعقوبية (٩) ، وانما عنى ضرب

(١) ب ، م : « ولا يجمع على حرب » ، تحريف .

(٢) الجنبية : الجانب . وفي ط نقط : « الجهة » .

(٣) ب نقط : « ما حبيبهم » ، صوابه في م ، ط .

(٤) الكلام بعده الى كلمة « باتفاق » ساقط من ط .

(٥) في الأصل ، وهو هنا ب ، م : « وبعد » ، والوجه ما أثبت .

(٦) الآية ٨٢ من سورة المائدة .

(٧) يعنى الايات ٨٢ - ٨٥ من سورة المائدة .

(٨) ب نقط : « الملكانية » ، صوابه في م ، ط ويقال ملكانيه وملكانيه أيضا بالهجر ،

كما في مفاتيح العلوم ٢٣ . ويقال أيضا الملكية ، كما في التنبيه والاشراف للمسعودى ١٢٣ ،

١٢٤ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٣١ . وجاء في مفاتيح العلوم ٢٣ : « وهم منسوبون الى

ملكاه ، وهم أقدمهم » ، أى أدم النصارى . وفي المل والنحل ٢ : ٦٢ : « الملكانية

أصحاب ملكا الذى ظهر بالروم واستولى عليها » . والحق أن الملكانيين منسوبون الى « ملكا»

ومعناه الملك بالسريانية . والمراد بهم أتباع مذهب قياصرة الروم الذى يسمى أيضا المذهب

الخلقيدونى ، الذى أقره الجمع المعقود في خلقيدونية سنة ٤٥١ م . وفي مفاتيح العلوم :

« وأهل الروم كلهم ملكانية » . وانظر تاريخ الامة القبطية (الحلقة الثانية ص ٩١ - ٩٣) .

(٩) اليعقوبية ، أو اليعاقبة : تالفة ترقق قدامه النصارى ، وهم الملكانية ، والنسختورية ،

بحيرا (١) ، وضرب الرهبان الذين يخدمهم سلمان (٢) .

وبين حمل قوله (٢) : « الذين قالوا انا نصارى » على الغلط منهم في الأسماء ،
وبين أن نجزم عليهم (٤) لأنهم نصارى — فرق .

كما ذكر اليهود أنه جاء الاسلام وملوك العرب رجلا ن : غسانى ولخمى ،
وهما نصرانيان ، وقد كانت العرب تدين لهما ، وتؤدى الاتاوة الهيما ، فكان
تعظيم قلوبهم لهما راجعا (٥) الى تعظيم دينهما . وكان اتهامه ، وان كانت
لقاحا (٦) لا تدين الدين (٧) ، ولا تؤدى الاتاوة ، ولا تدين للملوك ، فانها (١)

= واليعقوبية . وهم ينسبون الى مار يعقوب . قال الخوارزمى في مفاتيح العلوم : « وهم
قليل » . وفي الفصل لابن حزم ١ : ٤٩ : « ينسبون الى يعقوب البرذغانى ، وكان
راهبا بالتسطينية » . وانظر الملل والنحل ٢ : ٦٦ .

(١) بحيرا الراهب ، بفتح الباء ، كما في القاموس ، وقد رسم بالياء في آخره في
القاموس وشرحه ، والوجه كتابته بالالف كما في الاصابة ٥٩٥ . وهو الذى لقي الرسول صلى
الله عليه وسلم قبل البعثة في ركب قريش حين نزلوا بصرى من أرض الشام ، فاستضافهم
جميعا ، وعرف رسول الله معا كان يعرف من صفته من قبل . السيرة ١١٥ — ١١٧ .
(٢) سلمان الفارسي : صحابى جليل ، أصله من رام هرمز ، وقيل من أصبهان ،
وكان قد سمع بان النبى صلى الله عليه وسلم سيبعث ، فخرج في طلب ذلك ، وأسلم ،
وشهدا بدر ، وأخى النبى بينه وبين أبى الدرداء . الاصابة ٣٣٥ . والسيرة ١٣٦ ، ٣٤٥ ،
٦٦٣ ، ٦٧٧ . ب : « نجد منهم سلمان » م : « يجزمهم سلمان » وفي ط : « يجذبهم
سلمان » ، والصواب ما أثبت . وقد وجدت نصا حريحا في سيرة ابن هشام ١٢٨ يقول
فيه سلمان لاسقف الكنيسة في الشام قبل اسلامه : « ائى قد رغبت في هذا الدين فأحببت
ان أكون معك وأخدمك في كنيسةك » . ثم تروى السيرة تنقله في كنائس الموصل ، ونصيبين
، ودمشقية ، ومن عمورية انتقل الى أرض العرب حتى كان بالمدينة ولقى رسول الله صلى
الله عليه وسلم ، فدخل في الاسلام .

(٣) ب ، م : « وبين قوله » بسقوط كلمة « حمل » .

(٤) ب : « نجزم » ط : « نجري » . وأثبت ما في م .

(٥) ب ، م : « راجعة » ط : « راجع » ، صوابها ما أثبت .

(٦) يقال حى لقاح ، كسحاب : لم يدينوا للملوك ولم يملكوا ولم يصبهم سبباً في

الجاهلية . قال ثعلب : مشتق من لقاح الناقة ، لان الناقة اذا لقت لم تطاوع الفحل .

(٧) كلمة « الدين » ساقطة من ط . وفي ب ، م : « لا يدين » . صوابها في ط .

كانت لا تمتنع من تعظيم ما عظم الناس ، وتصغير ما صغروا .

ونصرانية النعمان وملوك غسان مشهورة في العرب ، معروفة عند أهل النسب ، ولولا ذلك لدلت عليها (٢) بالأشعار المعروفة ، والأخبار الصحيحة .

وقد كانت تتجر إلى الشام ، وينفذ (٣) رجالها إلى ملوك الروم ، ولها رحلة في الشتاء والصيف ، في تجارة مرة إلى الحبشة ، ومرة قبل الشام ومرة بيثرب (٤) ، ومصيفها بالطائف ، ومرة منيحين مستأنفا بحمده (٥) ، فكانوا أصحاب نعمة ، وذلك مشهور مذكور في القرآن ، وعند أهل المعرفة .

وقد كانت تهاجر إلى الحبشة (٦) ، وتأتي باب النجاشي وافدة ، فيحبوهم بالجزيل (٧) ، ويعرف لهم الأقدار ، ولم تكن تعرف كسرى (٨) ، ولا تانس بهم . وقيصر والنجاشي نصرانيان ، فكان ذلك أيضا للنصارى ، دون اليهود .

والآخر من الناس تبع للاول في تعظيم من عظم ، وتصغير من صغر .

(١) ب ، م : « وبانها » ط : « لانها » ، والوجه ما اثبت

(٢) ب فقط : « عليه » تحريف .

(٣) ط فقط : « وتنفذ » .

(٤) ومرة بيثرب ، ساقطة من ط .

(٥) كذا وردت هذه العبارة في ب . م مع تنوونها من ط . لكن في م : « بجهده » .

ولعلها « ومرة مرمين » من أيمن وبين تيميننا ، اذا أتى اليمين .

(٦) ب ، م : « تهاجر الحبشة » ، صوابها في ط .

(٧) يحبوهم ، من الحباء ، وهو العطاء بلا من ولا جزاء . ب ، م : « فيحبوهم » ط :

« فيحييهم » ، صوابها ما اثبت .

(٨) ط : « ولم يكن يعرف ذلك كسرى » .

وأخرى (١) : أن العرب كانت النصرانية فيها فاشية ، وعليها غالبية ،
 إلا مضر ، فلم تغلب عليها يهودية ولا مجوسية ، ولم تفش فيها النصرانية ،
 إلا ما (٢) كان من قوم منهم نزلوا الحيرة (٣) يسمون : العباد ، فانهم كانوا
 نصارى ، وهم مغمورون مع نبذ يسير (٤) في بعض القبائل . ولم تعرف
 مضر إلا دين العرب ، ثم الإسلام .

وغلبت النصرانية على ملوك العرب وقبائلها : على لخم ، وغسان ،
 والحارث بن كعب بنجران ، وقضاة ، وطى ، في قبائل كثيرة ، وأحياء معروفة .
 ثم ظهرت في ربيعة فغلبت على تغلب وعبد القيس وأفناء بكر (٥) ، ثم في
 آل ذى الجدين خاصة .

وجاء الإسلام وليست اليهودية (٦) بغالبة على قبيلة ، إلا ما كان من
 ناس من اليمانية ، ونبذ يسير (٧) من جميع أباد وربيعة . ومعظم اليهودية
 إنما كانت بيثرب وحمير وتيماء ووادي القرى ، في ولد هارون ، دون العرب .

فعطف قلوب دهماء العرب على النصارى الملك الذى كان فيهم ، والقراية
 التى كاذت لهم . ثم رأت عوامنا أن فيها ملكا ثائما ، وأن فيهم عربا كثيرة (٨) ،
 وأن بنات الروم ولدن للوك الإسلام ، وأن في النصارى متكلمين وأطباء ومنجمين ،

-
- (١) ط : « وأخرى ، وهى » .
 (٢) في الأصول : « إلا من كان » ، ووجه ما أثبت .
 (٣) نزلوا الحيرة ، ساقط من ب .
 (٤) النبذ ، بالفتح : الشيء القليل . ب فقط : « معمورون مع نبذ يسيرة » ،
 صوابه في ط .
 (٥) الاتناء : الأخطا النزاع من هاهنا وهاهنا ، الواحد فنو ، بالكسر .
 (٦) ب ، م : « لليهودية » ، صوابه في ط .
 (٧) ب : « ونبذ يتسيرة » تحريف . وانظرا ما مضى قريبا .
 (٨) ب ، م : « غربا كثيرة » صوابه بالعين المهملة كما في ط .

فصاروا بذلك عندهم عقلاء وفلاسفة حكماء ، ولم يروا ذلك في اليهود .

وانما اختلفت (١) احوال اليهود والنصارى في ذلك لأن اليهود ترى أن النظر في الفلسفة (٢) كفر ، والكلام في الدين بدعة ، وأنه مجلبة لكل شبهة ، وأنه لا علم الا ما كان في التوراة وكتب الانبياء ، وان الايمان بالطب ، وتصديق المنجمين من أسباب الزندقة والخروج الى الدهرية ، والخلاف على الاسلاف وأهل القدوة ، حتى أنهم ليبهرجون المشهور بذلك ، ويحرمون كلام من سلك (٣) سبيل أولئك .

ولو علمت العوام أن النصاي والروم ليست لهم حكمة ولا بيان ، ولا بعد روية (٤) ، الا حكمة الكف ، من الخراط والنجر والتصوير ، وحياسة البزيون (٥) لأخرجتهم من حدود الأدباء ، ولحتهم من ديوان الفلاسفة والحكماء ، لأن كتاب المنطق والكون والفساد ، وكتاب العلوى (٦) ، وغير ذلك ، لارسطاطاليس (٧) وليس برومى ولا نصرانى .

وكتاب المجسطى لبطليموس (٨) ، وليس برومى ولا نصرانى .

وكتاب اقليدس لاقليدس ، وليس برومى ولا نصرانى .

(١) ب ، م : « اختلف » .

(٢) ب نقط : « في الفلاسفة » .

(٣) ط : « كلام سالك » .

(٤) ب ، م : « روية » .

(٥) البزيون : السنفس . قال ابن برى : هو رقيق الديباج . وضبطه صاحب

القاموس كجر دخل وعصفور ، وصاحب اللسان بالضم نقط . ط : « الميون » تحريف .

وانظر اللسان والقاموس (بزن) .

(٦) ذكره في الحيوان ٦ : ٢٨٠ باسم « لآثار العلوية » . ط نقط : « المعدوى »

تحريف .

(٧) ب ، م : « لارسطوطيلس » ، واثبت ما في ط والحيوان .

(٨) انظر حواشى الحيوان ١ : ٨٠ .

• وكتاب الطب لجالينوس ، ولم يكن روميا ولا نصرانيا .

• وكذلك كتب ديمقراط وبقراط وافلاطون ، وفلان وفلان .

وهؤلاء ناس (١) من أمة قد بادوا وبقيت آثار عقولهم ، وهم اليونانيون ، ودينهم غير دينهم ، وأدبهم غير أدبهم ، أولئك علماء ، وهؤلاء صناع أخذوا كتبهم (٢) لقرب الجوار ، وتداني الأدار ، فمنها ما أضافوه إلى أنفسهم ، ومنها ما حولوه إلى ماتهم . إلا ما كان من مشهور كتبهم ، ومعروف حكمهم ، فإنهم حين لم يقدروا على تغيير أسمائها زعموا أن اليونانيين قبيل من قبائل الروم ففخروا (٣) بأديانهم على اليهود ، واستطالوا بها العرب ، وبخخوا بها على الهند (٤) ، حتى زعموا أن حكماغا أتباع حكمائهم وأن فلاسفتنا اقتدوا على مثالهم (٥) ، فهذا هذا .

ودينهم (٦) يرحمك الله — يضاهي الزندقة ، ويناسب في بعض وجوه قول الدهرية ، وهم من أسباب كل حيرة وشبهة .

والدليل على ذلك أنا لم نر أهل ملة (٧) قط أكثر زندقة من الذماری ، ولا أكثر متحيرا أو مترنحا منهم (٨) .

وكذلك شأن كل من نظر في الأمور الغامضة بالعقول الضعيفة :
إلا ترى أن أكثر من قتل في الزندقة ممن كان ينتحل الإسلام ويظهره ،

(١) ط لقط : « اناس » .

(٢) ب : « أخذوا كتبهم » ، وهو تحريف كتابي

(٣) ب ، م : « منجروا » ، صوابه في ط

(٤) البذخ : تطاول الرجل بكلامه وافتخاره ، ونعله كمرح يلرح ، وتعدد يقعد .

(٥) ب : « اقتدروا » ، تحريف . ط : « احتذوا » ، وأثبت ما في م .

(٦) ط : « فهذا هو دينهم » ، وإخاله تصرفا من الناشر . وما أثبت من ب ، هو

لغة الجاحظ .

(٧) ط : « أهل مكة » ، صوابه في ب ، م .

(٨) الترنح : التمايل والاضطراب . وفي جميع الأصول : « متحيزا » بالزاي ،

صوابه ما أثبت .

هم (١) الذين آباؤهم وأمهاتهم نصارى .

على أنك لو عدت اليوم أهل الظنة ومواضع التهمة لم تجد أكثرهم
الا كذلك .

ومما عظمهم في قلوب العوام ، وحببهم الى الطغام ، أن منهم كتاب
السلطين ، وفراشى الملوك (٢) ، وأطباء الأشراف ، والعطارين والصيافة .
ولا تجد اليهودى الا صبغا ، او دباغا ، او حجاما ، او قصابا ، او شعابا .

فلما رأت العوام اليهود والنصارى توهمت أن دين اليهود في الأديان
كصناعتهم في الصناعات ، وأن كفرهم أقدر الكفر ، إذ كانوا هم أقدر الأمم .

وانما صارت النصارى أقل مساخة من اليهود (٣) ، على شدة مساخة
النصارى ، لأن الاسرائيلى لا يزوج الا الاسرائيلى ، وكل مناكحهم مردوده
فيهم (٤) ، ومقصورة عليهم ، وكانت الخرائب لا تشوبهم ، وفحولة الاجناس
لا تضرب ولا تضرب فيهم ، لم ينجبوا في عقل ولا أسر ولا ملح (٥) . وانك
لتعرف ذلك في الخيل والابل ، والحمير والحمام .

ونحن — رحمك الله — لم نخالف العوام في كثرة اموال النصارى ،
وأن فيهم ملكا قائما ، وان ثيابهم أنظف (٦) ، وان صناعتهم احسن .

(١) ب : « وهم » ، والواو مقعنة .

(٢) يراد بالفراش من يتعهد فراش البيت وائانه . وانظر ما كتبت في ذلك في (حول
ديوان البحترى) ٣٩ — ٤٠ والحيوان ٣ : ٤٣٥ .

(٣) المسيح من الناس : الذى : الذى لاملاحة له . وقد مسخ مساخة .

(٤) ب : « وكل مناكحتهم مردون فيهم » ط ، م : « وكل مناكحهم مردودة فيهم » ،
صوابهما ما أثبت .

(٥) الاسر : شدة الخلق . وفي التنزيل العزيز : « نحن خلقناهم وشددنا أسرهم » .
والمح ، بالكسر : الرضاع واللبن .

(٦) ب : « وان مايبهم » م : « مايبهم » ط : « مايمهم » ، والوجه ما اثبت .
وانظر ما سياتى في ٢٢٥ من قوله : « والنصرانى وان كان أنظف ثوبا » .

وانما خالفنا في فرق ما بين الكافرين والفرقتين ، في شدة المعاندة واللجاجة ،
والارصاد لأهل الاسلام بكل مكيده ، مع لؤم الأصول ، وخبث الاعراق .

فأما الملك والصناعة والهيئة ، فقد علمنا أنهم اتخذوا البراذين الشهرية (١) ،
والخيل العتاق ، واتخذوا الجوقات (٢) ، وضربوا بالصوالجة ، وتحذفوا
المديني (٣) ، ولبسوا اللحم والمطبعة (٤) ، واتخذوا الشاكرية (٥) ، وتسموا
بالحسن والحسين ، والعباس والفضل وعلى ، واكتنوا بذلك أجمع ، ولم يبق
الا أن يتسموا بحمد ، ويكتفوا بأبي القاسم . فرغب اليهم المسلمون ،
وترك كثير منهم عقد الزنابير ، وعقدها آخرون (٦) دون ثيابهم ، وامتنع كثير
من كبرائهم من اعطاء الجزية ، وأنفوا مع اقدارهم من دفعها (٧) وسبوا من
سبهم ، وضربوا من ضربهم .

-
- (١) الشهرية ، سبق تفسيرها في ١٢٨ . وكلمة « اتخذوا » ساقطة من ب ، م .
(٢) الجوقة : جماعة من الناس ، معربة كما في شفاء القليل . والمراد فرق الفروسية
ونحوها .
(٣) تحذيف الثمر : تطريه وتسويته . وفي اللسان : « قال النضر : التحذيف في
الطرة أن تجعل سكينية كما تفعل البصاري » . فقد وضع التحذيف هنا موضع التحذيف . وفي
الأصول هنا : « وتحذفوا » ، ولا وجه له .
(٤) في اللسان : « اللحم : جنس من الثياب » . وفي القاموس : « ويكتم :
جنس من الثياب » . واللحم الناسج الثوب . وفي المثل : « اللحم ما أسديت » أي
تم ما ابتدأته من الاحسان . واللحمة ، بالضم : خيوط النسج العرضية يلحم بها
السدى ، كما في المعجم الوسيط . وفيه أيضا : « اللحم جنس من الثياب يختلف نوع
سداه ونوع لحته ، كالصوف والقطن ، أو الحرير والقطن » أي لا يكونان من نوع واحد أما
المطبعة ، فهي من قولهم : طابق بين تميمين : لبس أحدهما على الآخر . والمراد الثياب
المزدوجة المتطابقة .
(٥) الشاكرية ، يراد بهم الجند المستاجرون ، لأن الشاكري معناه كما في القاموس :
الاجير المستخدم ، معرب جاكز . وانظر حواشي الحيوان ٢ : ١٣٠ ورسائل الجاحظ ٢٠:١
(٦) ب ، م : « ومقدوها آخرون » ، وأثبت ما في ظ .
(٧) ب ، م : « وأنف مع اقدارهم من دفع » ، صوابه في ط .

وما لهم لا يفعلون ذلك وأكثر منه ، وقضاتنا أو عامتهم (١) يرون أن دم الجائليق (٢) والمطران والأسقف وفاء بدم جعفر وعلى والعياس وحمزة .

ويرون أن النصراني اذا قذف أم النبي صلى الله عليه وسلم بالغواية (٣) أنه ليس عليه الا التعزير والتأديب (٤) ، ثم يحتجون أنهم انما قالوا ذلك لأن أم النبي صلى الله عليه وسلم لم تكن مسلمة . فسبحان الله العظيم ! ما أعجب هذا القول (٥) وأبين انتشاره (٦) !

ومن حكم النبي صلى الله عليه وسلم : أن لا يساوونا في المجلس ، ومن قوله : « وان سبوكم فاضربوهم ، وان ضربوكم فاقتلوهم » .

وهم اذا قذفوا أم النبي عليه السلام بالفاحشة لم يكن له عند أمته الا التعزير والتأديب . وزعموا أن افتراءهم على النبي ليس بنكث للعهد ، ولا بنقض للعقد .

وقد أمر النبي عليه السلام ان يعطونا الضريبة عن يدينا عالية (٧) في قبولنا منهم (٨) ، وعقدنا لذمتهم ، دون اراقة دمهم (٩) . وقد حكم الله تعالى عليهم (١٠) بالذلة والمسكنة .

(١) ط نقط : « وعامتهم » .

(٢) الجائليق ، بفتح الجاء : رئيس من رساء النصارى ، يكون تحته المطران ، ثم الأسقف ثم القسيس ، ثم الشماس .

(٣) الغواية ، بالفتح : الضلال . ب ، م : « بالغوية » ، صوابه في ط .

(٤) التعزير : التأديب والعقاب .

(٥) ب ، م : « القوم » تحريف ما في ط .

(٦) انتشار الامرا : عدم احكامه . ط نقط : « انتشاره » .

(٧) ب ، م : « عليه » ، وتصح اذا قرئت « عليه » .

(٨) ب ، م : « منه » .

(٩) ب ، م : « وعقدنا له ذمته دون اراقة دمه » .

(١٠) ب ، م : « عليه » .

أو ما ينبغي (١) للجاهل أن يعلم أن الأئمة الراشدين ، والسلف المتقدمين لم يشترطوا عند أخذ الجزية ، وعقد الذمة عدم الاقتراء (٢) على النبي صلى الله عليه وسلم وأمه ، إلا (٣) لأن ذلك عندهم أعظم في العيون ، وأجل في الصدور من أن يحتسبوا إلى تخليده في الكتب ، وإلى اظهار ذكره بالشرط ، وإلى تثبيته بالبينات (٤) ، بل لو فعلوا ذلك لكان فيه الوهن عليهم ، والمطمعة فيهم ، ولظنوا أنهم في القدر الذي يحتاج فيه (٥) إلى هذا وشبهه .

وإنما يتواتق الناس في شروطهم ، ويفسرون في عهودهم ما يمكن فقد فعلوه ، وهو كالدلة والصفارة (٦) ، واعطاء الجزية ، ومقاسمة ويتعلق به الخصم ، فأما الواضح الجلى (٧) ، والظاهر الذي لا يخيل (٨) فما وجه اشتراطه ، والتشافل بذكره .

وأما ما احتاجوا إلى ذكره في الشروط ، وكان مما يجوز أن يظهر في العهد فقد فعلوه ، وهو كالدلة والصفارة (٩) ، واعطاء الجزية ، ومقاسمة الكنائس ، وأن لا يعينوا بعض المسلمين على بعض ، واشباه ذلك . فأما

(١) ط: نقط : « وما ينبغي » :

(٢) كلمة « عدم » من ط .

(٣) الا ، ساقطة من ب .

(٤) ط : « وتشبيته بالبينات » .

(٥) ب ، م : « فيهم » .

(٦) غيبى عنه غيباء وغباوة : لم يظن له . ب ، م : « يغنى بالنون . ط « يعبا » ،

صوابها ما أثبت .

(٧) الجلى : الظاهر . ب ، م : « الجليل » .

(٨) لا يخيل على احد : لا يشك . ط : « لا يخيل غيره » ، تحريف .

(٩) الصفارة ، كسحابة : صفر القدر . وفي اللسان : « ابن سيده : الصفر

والصفارة : خلاف العظم . وقيل الصفر في الجرم والصفارة في القدر » . ب ، م :

« والصفرة » ط : « الصفارة » بالفاء ، ووجهها ما أثبت .

(م - ٢٢ الفكر الدينى)

أن يقولوا لمن هو أذل من الذليل ، وأقل من القليل ، وهو الطالب الراغب في أخذ فديته ، والانعام عليه بقبض جزيته وحقن دمه : نعاهدك على ان لا تفتري (١) على أمة (٢) رسول رب العالمين ، وخاتم النبيين وسيد الأولين والآخرين (٣) فهذا ما لا يجوز (٤) في تدبير أوساط الناس ، فكيف بالجلّة والعلية ، وأئمة الخليقة ، ومصابيح الدجى ، ومنار الهدى ، مع أنفة العرب ، وبأو السلطان (٥) ، وغلبة الدولة ، وعز الاسلام ، وظهور الحجة ، والوعد بالنصرة .

على أن هذه الأمة لم تبتل باليهود ، ولا المجوس ، ولا الصابئين كما ابتليت بالنصارى (١) . وذلك أنهم يتبعون المتناقض من أحاديثنا ، والضعيف بالأسناد من روايتنا ، والمتشابه من آى كتابنا ، ثم يخزنون بضعفائنا ، ويسألون عنها عوامنا ، مع ما قد يعلمون من مسائل الملحدين ، والزنادقة الملاحين ، وحتى مع ذلك ربما تبرعوا (٧) الى علمائنا ، وأهل الأقدار منا ، ويشغبون على القوى (٨) ، ويلبسون على الضعيف .

ومن البلاء أن كل انسان من المسلمين يرى أنه متكلم ، وأنه ليس أحد أحق بمحاجة الملحدين من أحد .

ويعد ، فلولاً متكلمو النصارى وأطبائهم ومنجهوهم ما صار الى

(١) ب ، م : « يعاهدك ان لايفتري » ، ومع سقط « على » ، وصوابه في ط .

(٢) ب ، م : « على ام » .

(٣) ب ، م : « وخير سيد الاولين والآخرين » ، تحريف .

(٤) ب ، م : « فهذا ما يجوز » ، تحريف .

(٥) الباء : الكبر والفخر والعظمة . ب : « وبأوو » ط : « وشاو » صوابها

في ب .

(٦) ط : « كما ابتلت بالنصارى » ، صوابه في ب ، م .

(٧) ب : « تبروا » .

(٨) ب ، م : « على القوم » ، صوابه في ط .

اغبيائنا (١) وظرفائنا ، ومجاننا وأحداثنا (٢) شيء من كتب المنانية (٣) ،
والديصانية (٤) ، والمرقونية (٥) ، والفلافية (٦) ، ولما عرفوا غير كتاب
الله تعالى ، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، ولكانت تلك الكتب مستورة
عند أهلها ، ومخلاة (٨) في أيدي ورثتها . فكل نسخة عين (٩) رأيها
في أحداثنا وأغبيائنا فمن قبلهم كان أولها .

وأنت إذا سمعت كلامهم في العفو والصفح ، وذكرهم للسياسة ،
وزرايتهم على كل من أكل اللحم (١٠) ، ورغبتهم في أكل الحبوب ، وترك
الحيوان ، وتزهيدهم في النكاح ، وتركهم لطلب الولد ، ومديحهم للجائليق
والمطران والأسقف والرهبان ، بترك النكاح وطلب النسل ، وتعظيمهم
الرؤساء ب علمت أن بين دينهم وبين الزندقة نسبا ، وأنهم يحنون الى ذلك
المذهب .

-
- (١) م : « اغنائنا » ب ، ط : « اغبيائنا » ، صوابها ما أثبت . وانظر
ما سيأتي في السطر الخامس .
- (٢) المجان : جمع ماجن . ب ، م ، « وتحائنا » ، صوابه . والأحداث : جمع
حدث . وفي ب ، م : « وأخذائنا » ط : « وأخذائنا » ، صوابها ما أثبت .
- (٣) المنانية : اتباع ماني . وانظر ما سبق في ٢٥٤ .
- (٤) الديصانية : مرقعة من الجوس . قال ابن النديم : « انها سمي صاحبهم
بديصان بأسم نهر والد عليه . هو قبل ماني . والمذهبان قريب بعضهما من بعض ، وإنما
بينهما خلف في اختلاط النور بالظلمة » . وانظر الملل ٢ : ٨٨ والفهرست ٤٧٤ والحيوان
٥ : ٤٦ .
- (٥) المرقونية : مرقعة من الجوس ، اتباع مرقون . أثبت قديمين أصليين متضادين
أحدهما النور والآخر الظلمة ، وإثبتوا أصلا ثالثا هو الجامع . وفي مفاتيح العلوم ٢٥ :
« المرقونية » . وهي في جميع الأصول : « المرقونية » ، تحريف . وانظر الملل
والنحل ٢ : ٨٩ ومعجم استيفجاس . ١٢١٨ .
- (٦) لعله كناية عن أي مرقعة كانت .
- (٧) ب فقط : « مسطورة » .
- (٨) مخلاة : متروكة . وفي جميع الأصول : « محلاة » بالحاء المهملة .
- (٩) نسخة العين : نقيض قرنها ، وذلك من حرارة الحزن . وفي ب فقط :
« سحنة » بالمهمله ، تحريف .
- (١٠) الزراية : العيب والانكار . ب : « وذرياتهم » ، صوابه في م ، ط

والعجب أن كل جاثليق لا ينكح ، ولا يطلب الولد . وكذلك كل مطران (١) ، وكل أسقف . وكذلك كل أصحاب الصوامع من اليعقوبية ، والمقيمين في الديارات (٢) والبيوت من النسطورية . وكل راهب في الأرض وراهبة ، مع كثرة الرهبان والرواهب ، ومع تشبه أكثر القسيسين بهم في ذلك (٣) ، ومع ما فيهم (٤) من كثرة الغزاة ، وما يكون فيهم مما يكون في الناس ، من المرأة العاقر ، والرجل العقيم .

على أن من تزوج منهم امرأة لم يقدر على الاستبدال بها ، ولا على أن يتزوج أخرى معها (٥) ، ولا على التسرى عليها . وهم مع هذا قد طبقوا الأرض ، وملثوا الآفاق ، وغلبوا الأمم بالعدد ، وبكثرة الولد . وذلك مما زاد في مصائبنا ، وعظمت به محنتنا .

ومما زاد فيهم ، واتمى عددهم ، أنهم يأخذون من سائر الأمم ، ولا يعطونهم ، لأن كل دين جاء بعد دين ، أخذ منه الكثير ، وأعطاه القليل .

٣ — فصل منه

ومما يدل على قلة رحمتهم ، وفساد قلوبهم أنهم أصحاب الخصاء من بين جميع الأمم ، والخصاء أشد المثلة ، وأعظم ما ركب به انسان (٦). ثم يفعلون ذلك بأطفال لا ذنب لهم ، ولا دفع عندهم .

-
- (١) المطران ، يفتح الميم وكسرهما ، كما في القاموس .
 (٢) ط : « الديورات » تحريف . ويراد بالديارات أديار النصارى . والديارات معروفة في جموع الدار إذ هر جمع جمع لها ، فهي جمع للديار . وانظر مقدمة كتاب « الديارات » للشابستى . وأما الجمع المعروف للدير ، بالفتح ، فهو الأديار والأديرة .
 (٣) ب ، م : « في زل » ، صوابه في ط .
 (٤) ب ، م : « وقع مع ما فيهم » ، صوابه في ط .
 (٥) على ، ساطعة من ب . وفي ب ، م : « يزوج » .
 (٦) ط . نقط : « دكية انسان » .

ولا نعرف قوما يعرفون بخصاء الناس حيث ما كانوا الا ببلاد الروم
والحبشة ، وهم في غيرهما قليل ، وأقل قليل (١) .

على أنهم لم يتعلموا الا منهم ، ولا كان السبب في ذلك غيرهم ، ثم
خصوا أبناءهم وأسلموهم في بيعهم . وليس الخصاء الا في دين الصابئين ،
فان العابد ربما خصى نفسه (٢) ، ولا يستحل خصاء ابنه (٣) . فلو تمت
إرادتهم في خصاء أولادهم في ترك النكاح وطلب النسل كما حكيت لك قبل
هذا — لانقطع النسل ، وذهب الدين ، وفتن الخلق .

والنصراني وان كان أنظف ثوبا واحسن صناعة ، وأقل مساخة (٤) ،
فان باطنه الأم وأقذر وأسمج ، لأنه أقلف ، ولا يفتسل من الجنابة ، ويأكل
لحم الخنزير ، وامراته جنب لا تطهر من الحيض ، ولا من النفاس ، ويغشاها
في الطمث ، وهي مع ذلك غير مختونة .

وهم مع شرارة طبائعهم (٥) ، وغلبة شهواتهم ليس في دينهم مزاجر
كنار الأبد في الآخرة ، وكالحدود والقود والقصاص في الدنيا ، فكيفه
يجانب ما يفسده ، ويؤثر ما يصلحه من كانت حاله كذلك . وهل يصلح
الدنيا من هو كما قلنا (٧) ؟ وهل يهيج على الفساد الا من وصفنا (٨) ؟

(١) انظر الحيوان ١ : ١١٦ ، ١٢٤ .

(٢) انظر الحيوان ١ : ١٢٥ .

(٣) ب ، م : « خصاء نفسه » ، صوابه في ط .

(٤) انظر ما مضى في ص ٣١٨

(٥) يقال : شريش ويشرا شرا ، وشرارة ، فهو شريش كأمير ، وشريش كمشكيت .

وفي جميع الاصول : « شرار » ، والوجه ما أثبت . وانظر للحيوان ٤ : ٢٩٧/٦ : ٤٦٠ .
وأما الشرار ، بالكسر وكجبل ، فهو ما يتطاير من النار ، واحدهما بناء .

(٦) ب ، م : « بجانب ما يفسده » ، صوابه في ط .

(٧) ب ، م : « وهل يصلح الدنيا كعبا قلوا » صوابه في ط .

(٨) ب ، م : « وهل القهيج على الفساد الا كما وصفنا » ، صوابه في .

ولو جهدت بكل جهدك ، وجمعت كل عقلك أن تفهم قولهم في المسيح ،
لما قدرت عليه ، حتى تعرف به حد التصرانية ، وخاصة قولهم في الالهية .

وكيف تقدر (١) على ذلك وأنت لو خلوت ونصرائى نسطورى فسألته
عن قولهم في المسيح لقال قولا ، ثم ان خلوت بأخيه لأمه وأبيه وهو نسطورى
مثله فسألته عن قولهم في المسيح لأتاك بخلاف أخيه وصنوه . وكذلك جميع
الملكانية واليعقوبية (٢) . ولذلك صرنا لا نعقل حقيقة النصرانية ، كما
نعرف (٣) جميع الأديان .

على أنهم يزعمون أن الدين لا يخرج في القياس ، ولا يقسوم على
المسائل (٤) ، ولا يثبت في الامتحان ، وإنما هو بالتسليم لما في الكتب ،
والتقليد للأسلاف . ولعمري ، ان (٥) من كان دينه دينهم ليجب عليه
أن يعتذر بمثل عذرهم .

وزعموا أن كل من اعتقد خلاف النصرانية من المجوس والصابئين
والزنادقة فهو معذور ، ما لم يتعمد الباطل ، ويعاند الحق . فاذا صاروا
الى اليهود قضوا عليهم بالمعاندة ، واخرجوهم من طريق الغلط والشبهة .

٤ - فصل منه

فأما مسألتهم في كلام عيسى في المهد : أن النصارى مع حبهم لتقوية أمره
لا يثبتونه ، وقولهم : انا نقولناه ورويناها عن غير الثقات (٦) ، وأن الدليل

(١) ب ، م : « يقدر » .

(٢) انظر ما معنى في ص ٣١٢ .

(٣) م نقط : « يعرف » .

(٤) في جميع الاصول : « المسائل » ، والوجه ما اثبت .

(٥) ان ساقطة من ط .

(٦) في جميع النسخ : « اللغاة » ، وهو خطأ في الرسم ، لانه جمع لغة .

على أن عيسى لم يتكلم في المهد أن اليهود لا يعرفونه ، وكذلك المجوس ، وكذلك الهند والخزر والديلم . فنقول في جواب مسألتهم عند انكارهم كلام المسيح في المهد مولودا . و

يقال لهم : انكم حين سويتم المسألة وموهتموها ، ونظمتم ألفاظها ، ظننتم انكم قد أنجحتتم (١) ، وبلغتم غايتكم . ولعمري لئن حسن ظاهرها ، وراع الأسماع مخرجها (٢) ، انها لقبیحة المفتش ، سيئة المعرى .

ولعمري ان لو كانت اليهود تقر لكم باحياء الأربعة الذين تزعمون (٣) ، واقامة المقعد الذى تدعون ، واطعام الجمع الكثير من الأرغفة اليسيرة ، وتصيير الماء جمدا (٤) والمشى على الماء ، ثم أنكرت الكلام في المهد من بين جميع آياته وبراهينه (٥) لكان لكم في ذلك مقال ، والى الطعن سبيل . فأما وهم يجحدون ذلك أجمع ، فمرة يضحكون ، ومرة يفتاظون ويقولون : انه صاحب رقى ونيرجات (٦) ، ومداوى مجانيين ، ومتطبيب ، وصاحب

(١) أنجح : صار ذا نجح وظفر . ويقال أيضا نجح ، اذا أصاب طلبته . ط نقط :

« نجحتم » واثبت ما في ب ، م .

(٢) ب نقط : « لخرجها » ، تحريف .

(٣) ب ، م : « يزعمون » . وهؤلاء الأربعة فيما يذكر المفسرون هم : « عازر » ،

وكان صديقا له ، احياه بعد ثلاثة أيام فقام من قبره يقطر ونكه وبقي الى أن ولد له .

والثانى : ابن العجوز احياه وهو على سرير الموت ، فنزل عن أعناق الرجال وحمل سريره ،

وبقى الى أن ولد له . والثالث : بنت العشار ، وقد تمتعت بولدها بعد ما حيت .

والرابع : سام بن نوح عليه السلام . سألوه ان يحييه لبخبرهم عن حال السفينة .

فخرج من قبره . هذا ما ذكره أبو حيان في تفسيره ٢ : ٤٦٧ .

(٤) الجمد ، بالتحريك ، وكذا بالفتح : الماء الجامد . وقيل : هو بالتحريك يكون

جمعا لجامد ، مثل خادم وخدم . ب نقط : « جامدا » .

(٥) ب ، م : « وبرهانه » ، بوابه في ط .

(٦) كذا في ب والحيوان ٤ : ٣٧٠ . في م ، ط : « نيرجات » ، وهما

لغتان في التعريب قال صاحب القاموس : « والنيرنج ، بالكسر : اخذ كالسحر وليس به .

وعقب عليه الزبيدي بقوله : « هكذا في سائر النسخ . والمنقول عن نص كلام اللبث :

النيرج ، بأسقاط النون الثانية . وجاء في كتاب المعارف لابن قتيبة ١٧٨ : « وكان صاحب

نيرجات » . وأقول : هو بالفارسية « بيرنك » .

حيل وتربص خدع (١) ، وقراءة كتب ، وكان لسنا مسكينا (٢) ، ومقتولا مرحوما ، ولقد كان قبل ذلك صياد سمك ، وصاحب شبك ، وكذلك أصحابه . وأنه خرج على مواطأة منهم له ، وأنه لم يكن لرشدة (٣) .

ولحسنهم قولا ، والينهم مذهباً من زعم أنه ابن يوسف النجار (٤) . وأنه قد كان واطاً. ذلك المقعد قبل اقامته بسنين ، حتى اذا شهره بالقعدة (٥) ، وعرف موضعه في الزمنى ، مر به في جمع من الناس كأنه لا يريد ، فشكا اليه الزمانه وقلة الحيلة ، وشدة الحاجة ، فقال : ناولنى يدك . فناوله يده ، فاجتذبه فأقامه ، فكان تجمع (٦) لطول القعود ، حتى استمر بعد ذلك .

وأنه لم يحيى (٧) ميتاً قط ، وإنما كان داوى رجلاً يقال له « لا عازر (٨) » اذ (٩) أغمى عليه يوماً وليلة ، وكانت أمه (١٠) ضعيفة العقل ، قليلة المعرفة ، فمر بها (١١) ، فاذا هى تصرخ وتبكي ، فدخّل

(١) التربص : المكث والانتظار . ب ، م : « وترمض » . وفي ط : « وصاحب » رارى الوجه لهما أثبت .

(٢) ب ، م : « سكيناً » ، وأثبت ما في ط

(٣) يقال هو لرشدة بالكسر وقد يفتح : نقيض قولهم : لزنية أو لغير رشدة . والرشدة : النكاح الصحيح . ط : « لم يكن له شدة » ، تحريف .

(٤) ط : « وأخسهم قولا والابهم مذهباً » ، تحريف .

(٥) القعدة ، بالكسر : ضرب من القعود .

(٦) ط فقط : « تجهد » .

(٧) ب ، م : « لم يحيى » ، تحريف .

(٨) في جميع الاصول : « لاعار » ، وأنها هو « لعازر » المذكور في انجيل يوحنا

١١ : ٤٣

(٩) ب فقط : « اذا » .

(١٠) في انجيل يوحنا ١١ : ٥ أنها أخته واسمها « مرثا » . وفيه أيضاً أن يسوع

كان يحب مرثا وأختها ولعازر . وينهم من هذا أيضاً أن له أختين .

(١١) ط فقط : « بها » .

اليها ليسكتها ويعزيها ، وجس عرقه فرأى فيه علامة الحياة ، فداواه حتى أقامه ، فكانت لقلّة معرفتها (١) لا تثك أنه قد مات ، ولفرحها بحياته تثنى عليه بذلك ، وتتحدث به .

فكيف تستشهدون قوما هذا قولهم في صاحبكم ، حين قالوا : كيف يجوز أن يتكلم صبي في المهد مولودا (٢) ، فيجعله (٣) الأولياء والأعداء .

ولو كانت المجوس تقر لعيسى بعلامة واحدة ، وبأدنى أعجوبة ، لكان لكم أن تنكروا علينا بهم (٤) ، وتستعينوا بانكارهم . فأما وحال عيسى في جميع أمره عند المجوس كحال زرادشت في جميع أمره عند النصارى فما اعتلالهم بهم ، وتعلقهم في انكارهم ؟

وأما قولكم : وكيف لم تعرف الهند والخزر والترك ذلك ؟ فمتى أقرت الهند لموسى بأعجوبة واحدة ، فضلا عن عيسى ؟ ومتى أقرت لنبي بلأيه ، أو روت له سيرة ، حتى تستشهدوا (٥) الهند على كالم عيسى في المهد ؟

ومتى كانت الترك والديلم والخزر والبير (٦) والطيلسان (٧) مذكورة في شيء من هذا الجنس ، محتجا بها على هذا الضرب ؟

(١) ب ، م : « بقلة معرفتها » .

(٢) ب ، م : « مولود » .

(٣) ب مقط : « يجعله » .

(٤) ب ، م : « تكبروا علينا بهم » .

(٥) ب ، م : « حتى يستشهدوا » .

(٦) البير ، بياعين : أمة قديمة أنها من أمم الترك ، وتقرن بالطيلسان ، كما

في البيان ١ : ١٣٧ . وجاء في الطبرى ٤ : ٢٤٦ : « نبعت عبدالله بن شبيل بن هوف

الاحمسي في أربعة آلاف ناغار على أهل موتان والبير والطيلسان » ، ب : « والسرو »

م « والسر » ط : « والتمر » ، صوابها جميعا ما أثبت . ولم ترد « التتر » في

أثر من آثار الجاحظ ، كما أن معرفة العرب بالتمر جاءت متأخرة ، إذ لم يرد ذكرهم في الكامل

لابن الأثير قبل سنة ٣٤٥ .

(٧) الطيلسان : إقليم واسع كثير البلدان والسكان من نواحي الديلم والخزر ،

انتحه الوليد بن عقبة في سية ٣٤ . معجم البلدان . وانظر للحاشية السابقة .

فان سألونا عن أنفسهم فقالوا : ما لنا لا نعرف ذلك ولم يبلغنا عن احديتة ؟ أجبتناهم بعد اسقاط نكيرهم (١) وتثنيهم ، وتزوير شهودهم .

وجوابنا (٢) : أنهم انما قبلوا دينهم (٣) عن أربعة أنفس : اثنان منهم من الحواريين بزعمهم (٤) : يوحنا ، ومتى . واثنان من المستجيبة (٥) وهما : مارقثس ولوقثس (٦) ، وهؤلاء الأربعة لا يؤمن عليهم الغلط ولا النسيان . ولا تعمد الكذب ، ولا التواطؤ (٧) على الأمور ، والاصطلاح على اقتسام الرياسة (٨) ، وتسليم كل واحد منهم لصاحبه حصته التي شرطها له .

فان قالوا : أنهم كانوا أفضل من أن يتعمدوا كذبا ، وأحفظ من أن يفسوا شيئاً ، وأعلى (٩) من أن يغلطوا في دين الله تعالى ، أو يضيعوا عهداً .

قلنا : ان اختلاف رواياتهم في الانجيل ، وتضادها في كتبهم (١٠) ، واختلافهم في نفس المسيح ، مع اختلاف شرائعهم ، دليل على صحة قولنا فيهم (١١) ، وغفلتكم عنهم .

(١) في الاصول : « تكثيرهم » .

(٢) ط نقط : « مجوابنا » .

(٣) قبلوا دينهم : اخذوه وتلقوه ، كما يقبل الرجل الدلو من المستقى والقابلة المولد من الوالدة .

(٤) ب نقط : « يزعمهم » ، تحريف .

(٥) ب نقط : « من المسيحية » ، تحريف .

(٦) هما مرقثس ولوقثا .

(٧) ب ، م : « ولا التواطى » ، صوابها في ط .

(٨) ب ، م : « والاصلاح على اقتسام الرياسة » ، صوابه في ط .

(٩) ب ، م : « وأعنى » ، تحريف مافي ط .

(١٠) ب ، م : « وتضاد معانى كتبهم » .

(١١) الكلام بعده الى نهاية هذه الرسالة بجمع اصولها ، ساقط من ط .

وما ينكر من مثل لوقش أن يقول باطلا ، وليس من الحواريين ، وقد كان يهوديا قبل ذلك بأيام يسيرة ، ومن هو عندكم من الحواريين خير من لوقش عند المسيح في ظاهر الحكم بالطهارة ، والطباع الشريفة ، وبراءة الساحة .

٥ - فصل منه (١)

وسألتهم عن قولهم : إذا كان تعالى قد اتخذ عبدا من عباده خليلا ، فهل يجوز أن يتخذ عبدا من عباده ولدا ، يريد بذلك اظهار رحمته له ، ومحبته اياه ، وحسن تربيته وتأديبه له ، ولطف منزلته منه ، كما سمي عبدا من عباده خليلا ، وهو يريد تشريفه وتعظيمه ، والدلالة على خاص حاله عنده .

وقد رأيت من المتكلمين من يجيز ذلك ولا ينكره ، إذا كان ذلك على التبنى والتربية والابانة له بلطف المنزلة ، والاختصاص له بالرحمة والمحبة ، لا على جهة الولادة ، واتخاذ الصحابة . ويقول (٢) : ليس في القياس فرق بين اتخاذ الولاد على التبنى والتربية وبين اتخاذ الخليل على الولاية والمحبة .

وزعم أن الله تعالى يحكم في الأسماء بما أحب ، كما أن له أن يحكم في المعانى بما أحب .

وكان يجوز دعوى أهل الكتاب على التوراة والانجيل والزبور ، وكتب

(١) هذا الفصل وما يليه من الفصول الى نهاية هذه الرسالة ساقط من ط كما سبق التنبيه .

(٢) ب : « ونقول » م : « وتقول » ، صوابهما ما أثبت .

الأنبياء صلوات الله عليهم في قولهم : ان الله قال : « اسرائيل بكرى (١) »
 أى هو أول من تبنيته من خلقى . وأنه قال : « اسرائيل بكرى ، وبنوه
 أولادى » . وأنه قال لداود : « سيولد لك غلام ، ويسمى لى ابنسا ،
 واسمى له أبا (٢) » . وان المسيح قال في الانجيل : « أنا اذهب الى ابي
 وابيكم ، والهى والهكم (٣) » ، وان المسيح أمر الحواريين أن يقولوا في صلواتهم :
 « يا أبانا فى السماء تقديس اسمك (٤) » . فى أمور عجيبة ، ومذاهب
 شنيعة (٥) ، يدل على سوء عبادة اليهود (٦) ، وسوء تأويل أصحاب
 الكتب ، وجهلهم مجازات الكلام ، وتصاريح اللغات ، ونقل لغة الى لغة ،
 وما يجوز على الله ، وما لا يجوز . وسبب هذا التأويل كله الغى والتقليد ،
 واعتقاد التشبيه .

وكان يقول : انما وضعت الأسماء على اقدار المصلحة ، وعلى قدر
 ما يقابل من طبائع الأمم . فربما كان أصلح الأمور وأمنها (٧) ان يتبناه
 الله أو يتخذاه خليلا ، أو يخاطبه بلا ترجمان ، أو يخلقه من غير ذكر ،
 أو يخرجه من بين عاقر وعقيم . وربما كانت المصلحة غير ذلك كله . وكما

-
- (١) فى سفر الخروج ٤ : ٢٢ : « نقول لفرعون : هكذا يقول الرب ، اسرائيل
 ابنى المبكر » . وفى سفر هوشع ١١ : ١ : « لما كان اسرائيل غلاما أحببته ومن مصر
 دعوت ابنى » . وفى رسالة بولس الى اهل رومية ٩ : ٤ : « الذين هم اسرائيليون ،
 ولهم اللبني والمجد » .
- (٢) فى صموئيل الثانى ٧ : ١٢ - ١٤ : « متى كملت ايامك واضطجعت مع
 آبائك اثمهم بعدك نسلك الذى يخرج من احشائك واثبت مملكه . هو بينى بيننا لا سسمى
 وانا اثبت كرسى مملكته الى الابد . أنا اكون له ابا وهو يكون لى ابيا » .
- (٣) جاء فى انجيل يوحنا ٢٠ : ١٧ فى مخاطبة عيسى عليه السلام لريم الجدلانية :
 « قال لها يسوع : لا تلمسينى لانى لم اصعد بعد الى ابي . ولكن اذهبي الى اخوتى
 وقولى لهم : انى اصعد الى ابي وابيكم والهى والهكم » .
- (٤) فى انجيل متى ٦ : ٩ : « صلوا انتم هكذا : أبانا الذى فى السموات ليتقدس
 اسمك » . وانظر أيضا انجيل لوقا ١١ : ٢ .
- (٥) ب : « شيعه » م : « شنة » ، والوجه ما اثبت ، وان كانت « شنة »
 صحيحة أيضا .
- (٦) ب : « عبارة » ، واثبت ما فى م .
- (٧) ب : « وامته » م : « وامنه » ، ولعل وجهه ما أثبت .

تعبدنا أن نسميه جوادا ونهانا أن نسميه سخيا أو سرى (١) وأمرنا أن نسميه مؤمنا ونهانا أن نسميه مسلما ، وأمرنا أن نسميه رحيفا ونهانا أن نسميه رفيقا .

وقياس هذا كله واحد ، وإنما يتسع ويسهل على قدر العادة وكثرتها .
ولعل ذلك كله قد كان شائعا في دين هود وصالح وشعيب واسماعيل ، إذ كان (٢) شائعا في كلام العرب في اثبات ذلك وانكاره .

وأما نحن — رحمك الله — فإنا لا نجيز أن يكون لله ولد ، لا من جهة الولادة ، ولا من جهة التبني ، ونرى أن تجوز جهل عظيم ، واثم كبير ، لأنه لو جاز أن يكون أباه ليعتوب لجاز أن يكون جدا ليوسف ، ولو جاز أن يكون جدا وأبا ، وكان ذلك لا يوجب نسبا ، ولا يوهم مشاكلة في بعض الوجوه ، ولا ينقص من عظم ، ولا يحط من بهاء ، لجاز أيضا أن يكون عما وخالا ، لأنه ان جاز أن يسميه (٣) من أجل الرحمة والمحبة والتأديب — أبا ، جاز أن يسميه آخر من جهة التعظيم والتفضيل والتسويد أيضا (٤) ، ولجاز أن يجد له صاحبا وصديقا ، وهذا ما لا يجوز إلا من لا يعرف عظمة الله ، وصغر قدر الانسان .

وليس بحكيم من ابتذل نفسه في توقير عبده ، ووضع من قدره في التوفر على غيره . وليس من الحكمة أن تحسن إلى عبدك بأن تسيء إلى

(١) في النسختين : « سرنا » ، والصواب ما أثبت . والمسرى : وصف من سرو كسرف ودعا ورضى ، سراوة وتسرؤا وسرا وسراء ، وهى المروءة في شرف .

(٢) م : « إذا كان » .

(٣) الكلام بعده إلى « ينسبه » التالية تساقط من م .

(٤) في النسختين : « والتفضيل أبا والتسويد أبا » ، و « أبا » الأولى مقحمة .

نفسك ، وتأتى من الفضل ما لا يجب بتضييع ما يجب . وكثير الحمد لا يقوم بقليل الذم (١) ، ولم يحمد الله ولم يعرف الهيته من جوز عليه صفات البشر ، ومناسبة الخلق ، ومقاربة العباد .

وبعد ، فلا يخلو المولى في رفع عبده وكرامه من أحد أمرين :
 أما أن يكون لا يقدر على كرامته الا بهوان نفسه ، ويكون على ذلك قاورا ، مع وفارة العظمة ، وتمام البهاء .

وان كان لا يقدر على رفع قدر غيره الا بأن ينقص (٢) من قدر نفسه فهذا هو العجز ، وضيق الذرع (٣) .

وان كان على ذلك قادرا فائرا ابتذال نفسه والخط من شرفه فهذا هو الجهل الذى لا يحتمل (٤) .

والوجهان عن الله جل جلاله منفيان .

ووجه آخر يعرفون به صحة قولى ، وصواب مذهبي ، وذلك ان الله تبارك وتعالى لو علم انه قد كان فيها أنزل من كتبه على بنى اسرائيل : ان اباكم كان بكرى وابنى ، وانكم ابناء بكرى — لما كان تغضب عليهم (٥) .
 اذ قالوا : نحن ابناء الله ، فكيف لا يكون ابن ابن الله ابنه (٦) ،

(١) في النسختين : « ما يقول بقليل الذم » ، والصواب حذف « ما » . لا يقوم به : لا يعادله .

(٢) ب : « ينقض » ، صوابه في م .

(٣) الذرع : الطاقة وهو ايضا : بسط اليد . والمراد ضيق الخلق ، على المثل . م : « الزرع » ، تحريف .

(٤) في النسختين : « لا يحمل » ، والوجه ما أثبت .

(٥) التغضب : الغضب ، واستعار الراعى التغضب لشدة غليان القدر في قوله :
 اذا أحشوها بالوقود تغضبت على اللحم حتى تترك اللحم باديا

وفي النسختين : « تعصب » بالعين المهملة ، صوابه ما أثبت . وانظر الآية ١٨ من

سورة المائدة .

(٦) ب : « لا يكون ابن ابنه » م : « لا يكون ابن الله ابنه » . والصواب ما أثبت .

وهذا من تمام الاكرام ، وكمال المحبة ، ولا سيما ان كان قال في التوراة :
بنو اسرائيل ابناء بكرى .

وانت تعلم ان العرب حين زعمت ان الملائكة بنات الله كيف استعظم
الله تعالى ذلك واكبره ، وغضب على اهله ، وان كان يعلم ان العرب لم
تجعل الملائكة بناته على الولادة واتخاذ الصاحبة ، فكيف يجوز مع ذلك ان
يكون الله قد كان يخبر عباده قبل ذلك بأن يعقوب ابنه ، وأن سليمان
ابنه ، وأن عزيزا ابنه ، وأن عيسى ابنه (١) ؟ .

فالله تعالى اعظم من ان يكون له ابوة من صفاته ، والانسان احقر
من ان يكون بنوة الله من انسابه .

والقول بأن الله يكون ابا وجدا (٢) واخا وعمما ، للنصارى الزم ،
وان كان للاخرين لازما ، لان النصارى تزعم ان الله هو المسيح بن مريم ،
وان المسيح قال للحواريين : « اخوتي » . فلو كان للحواريين اولاد لجاز
ان يكون الله عمهم ا

بل قد يزعمون ان مرقس هو ابن شمعون الصفا (٣) ، وأن زوزرى
ابنته ، وان النصارى تقر ان في انجيل مرقس (٤) : « ما زاد (٥) امك
واخوتك على الباب » وتفسرها : ما زاد (٦) : معلم . فهم لا يمتنعون
من ان يكون الله تبارك وتعالى ابا وجدا وعمما .

(١) وان عزيزا ابنه ، ساقط من ب .

(٢) ب : « ابا واحدا » ، صوابه في م .

(٣) في الفصل لابن حزم ٢ : ٢ ان ماركس هو تلميذ شمعون الصفا بن توما .

(٤) في النسختين : « في الانجيل مرقس » صوابه ما اثبت . وانظر انجيل مرقس

٣ : ٣٢ .

(٥) ب : « ماذا » بذالين معجمتين . والذي في الانجيل : « هوذا » .

(٦) ب : « ماذا » بذالين معجمتين .

ولولا (١) أن الله قد حكى عن اليهود أنهم قالوا : ان « عزيزا ابن الله (٢) » ، (ويد الله مغلولة (٣)) ، و « ان الله فقير ونحن أغنياء(٤) » وحكى عن النصارى أنهم قالوا : « المسيح ابن الله » وقال : (قالت النصارى المسيح ابن الله (٥)) . وقال : (لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة (٦)) — لكنك لأن أخز من السماء أحب الى من أن ألفظ بحرف مما يقولون . ولكنى لا أصل الى اظهار جميع مخازيهم ، وما يسرون من فضائحهم ، الا بالاخبار عنهم ، والحكاية منهم .

فان قالوا : خبرونا عن الله ، وعن التوراة ، اليست حقا (٧) ؟ قلنا : نعم . قالوا : فان فيها « اسرائيل بكرى (٨) » وجميع ما فكرتم عنا معروف في الكتب .

قلنا : ان القوم انما أتوا من قلة المعرفة بوجوه الكلام ، ومن سوء الترجمة ، مع الحكم بما يسبق الى القلوب . ولعمري ان لو كانت لهم عقول المسلمين ومعرفتهم بما يجوز في كلام العرب ، وما يجوز على الله ، مع فصاحتهم بالعبرانية ، لوجدوا لذلك الكلام تأويلا حسنا ، ومخرجا سهلا ، ووجها قريبا . ولو كانوا ايضا لم يعطلوا في سائر ما ترجموا لكان لقائل مقال ، ولطاعن مدخل ، ولكنهم يخبرون أن الله تبارك وتعالى قال في العشير

(١) بي : « ولي » :

(٢) اشارة الى الآية الكريمة : « وقالت اليهود مزير ابن الله » ، وهي الآية ٣٠

من التوبة .

(٣) الآية ٦٤ من سورة المائدة .

(٤) الآية ١٨١ من سورة آل عمران

(٥) الآية ٣٠ من سورة التوبة . والانتباس هنا بطرح الواو ، فان نص الآية :

« وقالت النصارى » . وهو امر جائز كما اشرت الى ذلك في كتابي تحقيق النصوص ص ٥٥ .

(٦) الآية ٧٣ من سورة المائدة .

(٧) في النسختين : « حق » ، صوابه ما اثبت .

(٨) انظر ما مضى في حواشي ص ٣٢٢ .

آيات (١) التي كتبها. أصابع الله : « انى أنا الله الشديد ، وانى أنا الله الثقف. (٢) ، وأنا النار التي تاكل النيران (٣) ، آخذ الأبناء بحوب الآباء ، القرن الأول والثانى والثالث الى السابع (٤). » . وأن داود قال فى الزبور : « وافتح عينك يارب » و « قم يارب » ، و « أصغ الى سمعتك يارب (٥) » . وأن داود خبر أيضا فى مكان آخر عن الله تعالى : « وانتبه الله كما ينتبه السكران الذى قد شرب الخمر (٦) » . وأن موسى قال فى التوراة : « خلق الله الاشياء بكلمته ، وبروح نفسه » . وأن الله قال فى التوراة لبني اسرائيل : « بزراعى الشديدة اخرجتكم من أهل مصر (٧) » . وأنه قال فى كتاب اشعيا : « احمد الله حمدا جديدا ، احمده فى اقصى الأرض ، يملأ الجزائر وسكانها ، والبحور والقفار وما فيها ، ويكون بنو قيدار فى القصور ، وسكان الجبال (٨) — يعنى قيدار بن اسماعيل — ليصبحوا ويصيروا لله الفخر والكرامة ، ويسبحوا بحمد الله فى الجزائر (٩) » .

-
- (١) فى النسختين : « فى العشر آيات » ، والوجه ما اثبت .
 (٢) الثقف : الفطن الذكى .
 (٣) فى النسختين : « أكل النيران » .
 (٤) فى سفر الخروج ٣٤ : ٧ : « معتقد اثم الآباء فى أبناء فى الجيل الثالث والرابع » .
 (٥) انظر المزامير ١٧ : ١ و ٢٨ ، ٢ و ٦١ : ١
 (٦) فى المزامير ٧٨ : ٦٥ : « تاسيقظ للرب كجبار منعيط من الخمر » . معيط الشارب : قال عيط معيط ، بكسر العين ، وقد عيط تعييطا .
 (٧) انظر الخروج ١٣ : ٣ والتثنية ٤ : ٥/٣٤ : ١٥ والمزامير ١٣٦ : ١١-١٢ .
 (٨) فى سفر اشعيا ٤٢ : ١٠ ، ١١ : « غنوا للرب أفنية جديدة تسبيحه من اقصى الأرض ، ايها المنحدرون فى البحر وملؤه ، والجزائر وسكانها . لترنح البرية ومدنها صوتها الديار التي سكنها قيدار . لترنم سكان سالف من رؤس الجبال » .
 (٩) فى سفر اشعيا ٤٣ : ١١ - ١٢ : « ليهنئوا . ليعطوا الرب مجدا ويخبروا بتسبيحه فى الجزائر » . وفى الاصل هنا : « يصبحوا ويصيروا لله الفخر والكرامة ، ويلبسون بحمد الله فى الجزائر » . وقد اصلحت العبارة فى ضوء ما فى السفر .
 (م - ٢٣ ، الفكر الدينى)

وأنه قال على اثر ذلك : « ويخرج الرب (١) كالجبار ، وكالرجل الشجاع المجرب (٢) ، ويزجر ويصرخ ، ويهيج الحرب والحمية ، ويقتل أعداءه (٣) ، يفرح السماء والأرض » .

وأن الله قال أيضا في كتاب اشعيا : « سكت . قال : هو متى أسكت ، مثل المرأة التي قد أخذها الطلق للولادة اتلف (٤) ، وان ترانى أريد احرق الجبال والشعب (٥) ، وآخذ بالعرب في طريق لا يعرفونه (٦) » .

وكلهم على هذا اللفظ العربى مجمع . ومعنى هذا لا يجوزه احد من اهل العلم ، ومثل هذا كثير تركته لمعرفةكم به .

وانت تعلم ان اليهود لو أخذوا القرآن فترجموه بالعبرانية لأخرجوه من معانيه ، ولحولوه عن وجوهه ، وما ظنك بهم اذا ترجموا : (فلما آسفونا انتقمنا منهم (٧)) ، و (لتصنع على عيني) و (السموات مطويات بيمينه) و (على العرش استوى (١٠)) ، و (ناضرة . الى ريبها ناظرة (١١)) ، وقوله : (فلما تجلى ربه للجبل جعله كسا (١٢)) ،

(١) في النسختين : « ويحيى الرب » وفي سفر اشعيا : « الرب كالجبار يخرج » .
 (٢) في سفر اشعيا : « كرجل حروب ينهض غيرته »
 (٣) في سفر اشعيا : « يهتف ويصرخ ويقوى على أعدائه » .
 (٤) لاريب ان في العبارة تحريفا . والذي في سفر اشعيا ٤٢ : ١٤ : « قد صمت منذ الدهر ، ، سكت تجلجت . كالوالدة اصيح وانفخ وأنخر معا » . سكت وجلجت بتاء المتكلم فيهما .

(٥) في سفر اشعيا : « أخرج الجبال والاكام واجلج كل عشبها واجعل الانهار يبسا وانشف الاجام » .

(٦) كذا . والذي في السفر : « واسير العمى في طريق لم يعرفوها » . اسير من التسيير ، والعمى : جمع اعمى

(٧) الآية ٥٥ من سورة الزخرف .

(٨) الآية ٣٩ من سورة طه .

(٩) الآية ٦٧ من سورة الزمر .

(١٠) الآية ٥ من سورة طه .

(١١) الآية ٢٢ ، ٢٣ من سورة القيامة .

(١٢) الآية ١٤٣ من سورة الأعراف .

و (كلم الله موسى تكليماً (١)) ، و (جاء ربك والملك صفاً صفاً (٢)) .
 وقد يعلم أن مفسري كتابنا وأصحاب التأويل منا أحسن معرفة ،
 وأعلم بوجوه الكلام من اليهود ، ومتأولي الكتب ، ونحن قد نجد في
 تفسيرهم ما لا يجوز على الله في صفته ، ولا عند المتكلمين في مقاييسهم (٣) ،
 ولا عند النحويين في عربييتهم . فما ظللك باليهود مع غبارتهم وغيرهم ،
 وقلة نظرهم وتقليدهم ؟ .

وهذا باب قد غلطت فيه العرب أنفسها ، ونصحاء أهل اللغة اذا
 غلطت قلوبها ، وأخطأت عقولها ، فكيف بغيرهم ممن لا يعلم كعلمها ؟ .

سمع بعض العرب قول جميع العرب : « القلوب بيد الله » ، وقولهم
 في الدعاء : « نواصينا بيد الله » وقوله جل ذكره : (بل يدها مبسوطتان (٤)) ،
 وقولهم : « هذا من أيادي الله ونعمه عندنا » وقد كان من لغتهم أن الكف
 أيضاً يد (٥) ، كما أن النعمة يد ، والقدرة يد ، فغلط الشاعر (٦) فقال :
 هون عليك فان الأمور بكف الاله مقاديرها (٧)

(١) الآية ١٦٤ من سورة النساء .

(٢) الآية ١٢ من سورة النجم .

(٣) في النسختين : « مقاييسهم » .

(٤) الآية ٦٤ من سورة المائدة .

(٥) في النسختين : « الكفر أيضاً يد » ، والوجه ما أثبت . وهو تهديد للاعتراف
 بالبيت التالي ، الذي أثبت للاله كما ، وذلك من سوء أدب الشاعر ، وإنما يعبر باليد في
 ذات الله لمعنى النعمة والقدرة .

(٦) هو محمد بن حازم الباهلي كما في المتمد ٣ : ٢٠٦ . وسماه « ابن أبي حازم » ،
 تحريف . وهو محمد بن حازم بن عمرو الباهلي . كان من ساكني بغداد ، ومولده ومنتزه
 بالبصرة . وهو من شعراء الدولة العباسية . شاعر مطبوع ، الا كان كثير الهجاء للناس .
 ولم يمدح من الخلفاء الا المأمون . كان يقول المقطعات الصغيرة فيحسن . وهو صاحب البيت
 المشهور :

يا رائد الليل مسرورا بأوله ان الحوادث قد يطرقن أسحارا

وقد عاتبه يحيى بن أكرم على اختصاره للشعر ، فأجابه بأشعار حسن .

انظر الاغانى ١٢ : ١٥١ - ١٦٠ والمرزباني ٤٢٩ وتاريخ بغداد ٧٨١ .

(٧) في المتمد : * لا تحرصن فان الامور *

وقد كان إبراهيم بن سيار النظام، يجيب بجواب ، وأنا ذاكره ان شاء الله . وعليه كانت علماء المعتزلة ، ولا آراه مقنعا ولا شافيا .

وذلك انه كان يجعل الخليل مثل الحبيب ، مثل الولي ، وكان يقول : خليل الرحمن مثل حبيبه ووليه وناصره . وكانت الخلّة والولاية والمحبة سواء .

قالوا : ولما كانت كلها عنده سواء جاز ان يسمى عبدا له ولدا ، لمكان التربية التي ليست بحضانة ، ولمكان الرحمة التي لا تشتق من الرحم (١) ، لان انسانا لو رحم جرو كلب فرباه لم يجز ان يسميه ولدا ويسمى نفسه ابا . ولو التقط صبيا فرباه جاز ان يسميه ولدا ويسمى نفسه له ابا ، لانه شبيه ولده ، وقد يولد بثقله مثله . وليس بين الكلاب والبشر ارحام ، فاذا كان شبهه شبيهه (٢) الاثنان ابعد من الله تعالى من شبهه الجرو بالانسان ، كان الله احق بالا يجعله ولده ، وينسبه الى نفسه .

قلنا لابراهيم النظام عند جوابه هذا وقياسه (٣) الذي قاس عليه ، في المعارضة والموازنة بين قياسنا وقياسه : ارايت كلبا الف كلابه (٤) ، وحمى واحمى دونه ، هل يجوز ان يتخذه بذلك كله خليلا ، مع بعسده التشابه والتناسب ؟

فاذا قال : لا . قلنا : فالعبد الصالح ابعد شبيها من الله من ذلك الكلب المحسن الى كلابه ، فكيف جاز في قياسك ان يكون الله خليل من لا يشاكله

(١) في اليتختين : « لا يشتق » ، تحريف .

(٢) ب : « شبيهه » .

(٣) ب : « وان قياسه » ، .

(٤) الكلاب : صاحب الكلاب ، كما ان المكنب صاحبها الذي يعلمها اخذ الصيد ويصطاد

بها . ب : « ارايت كلابا » حلوايه في م .

ولم كان احسانه ، ولا يجوز للكلاب ان يسمى كلبه خليلا او ولدا لتلكان حسن تربيته له ، تأديبه اياه ، ولم كان حسن الكلب وكسبه عليه ، وقيامه بمقام الولد الكاسب والاخ ، والبار .

والعبد الصالح لا يشبه الله في وجه من الوجوه ، والكلب قد يشبه كلابه لوجوه كثيرة ، بل ما اشبهه به مما خالفه فيه ، وان كانت العلة التي منعت من تسمية الكلب خليلا ولدا بعد تشبهه من الانسان .

فلو قلتم (١) فما الجواب الذي اجبت فيه ، والوجه الذي ارتضيته ؟ .

قلنا : ان ابراهيم صلوات الله عليه ، وان كان خليلا ، فلم يكن خليله بخلة كانت بينه وبين الله تعالى ، لان الخلة والاخاء والصدائة والتصافى والخلطة واشباه ذلك منفية عن الله تعالى عز ذكره ، فيما بينه وبين عباده ، على ان الاخاء والصدائة دخلتان في الخلة ، والخلة اعم الاسمين ، واخص الحالين . ويجوز ان يكون ابراهيم خليلا بالخلة (٢) التي ادخلها الله على نفسه وماله ، وبين ان يكون خليلا (بالخلة وان يكون خليلا (٣) . بخلة بينه وبين ربه — فرق ظاهر ، وبون واضح . وذلك ان ابراهيم عليه السلام اختل في الله تعالى اختلالا لم يختلله احد قبله لقنهم اياه في النار ، وذبحه ابنه ، وحمله على ماله في الضيافة والمواساة والاثرة ، وبيعداوة قومه ، والبراءة من ابويه في حياتهما ، وبعد موتهما ، وترك وطنه ، والهجرة الى غير داره ، ومسقط رأسه « فصار لهذة الشدائد مختلا في الله وخليلا في الله . والخليل والمختل (٤) سواء في كلام العرب . والدليل على ان يكون

(١) في النسختين : لم قلتم « ، والوجه ما اثبت .

(٢) الخلة ، بالفتح : الحاجة والقر .

(٣) تكلمة ينتقر اليها الكلام .

(٤) في النسختين : « مخلول » ، تحريف . وفي اللسان : « ورجل مخل ومختل

وخليل . واخذ : بعدم . غير « .

الخليل من الخلّة كما يكون من الخلّة قول زهير بن أبي سلمى ، وهو يمدح
هرما :

وان اتاه خليل يوم مسغبة يقول لا عاجز مالى ولا هرم (١)

وقال آخر :

وانى الى ان تسعفانى بحاجة الى آل ليلى مرة لخليل

وهو لا يمدحه بأن خليله وصديقه يكون فقيرا سائلا ، يأتى يوم المسألة
ويبسط يده للصدقة والعطية ، وانما الخليل فى هذا الموضع من الخلّة
والاختلال ، لا من الخلّة والخلال .

وكأن ابراهيم عليه السلام حين صار فى الله مختلا أضافه الله الى
نفسه ، وأبانه بذلك عن سائر أوليائه ، فسماه خليل الله من بين الأنبياء ،
كما سمى الكعبة : بيت الله من بين جميع البيوت ، وأهل مكة : أهل الله
من بين جميع البلدان . وسمى ناقته صالح عليه السلام : ناقته الله من بين
جميع النوق . وهكذا كل شىء عظمه الله تعالى ، من خير وشر ، وثواب
وعقاب . كما قالوا : دعه فى لعنة الله ، وفى نار الله وفى حرته . وكما
قال للقرآن : كتاب الله ، وللمحرم : شهر الله . و (على هذا المثل قيل
لحمزة رحمة الله ورضوانه عز ذكره عليه : أسد الله ، و (٢) لخالد رحمة
الله عليه : سيف الله تعالى .

وفى قياسنا هذا لا يجوز : ان الله خليل ابراهيم ، كما يقال : ان ابراهيم
خليل الله .

(١) ديوان زهير ١٥٣ والعينى ٤ : ٤٢٦ .

(٢) هذه التكملة من م وان كانت عبارة الدعاء هذه ليست من اسلوب الجاحظ .

فان قال قائل : فكيف لم يقدموه على جميع الانبياء ، اذ كان الله قدمه بهذا الاسم الذي ليس لاحد مثله ؟ .

قلنا : ان هذا الاسم اشتق له من عمله وحاله وصفته ، وقد قيل لموسى عليه السلام : كلیم الله ، وقيل لعيسى : روح الله ، ولم يقل ذلك لابراهيم ، ولا لمحمد صوات الله عليهما ، وان كان محمد صلى الله عليه وسلم ارفع درجة منهم ، لان الله تعالى كلم الانبياء عليهم السلام على السنة الملائكة ، وكلم موسى كما كلم الملائكة ، فلهذه العلة قيل : كلیم الله . وخلق في نطف الرجال ان قذفها (١) في ارحام النساء على ما أجرى عليه تركيب العالم ، وطباع الدنيا ، وخلق في رحم مريم روحا وجسدا ، على غير مجرى العادة ، وما عليه المناكحة . فلهذه الخاصة قيل له : روح الله .

وقد يجوز ان يكون في نبي من الأبياء خصلة شريفة ، ولا تكون تلك الخصلة بعينها في نبي ارفع درجة منه ، ويكون في ذلك النبي خصال شريفة ليست في الآخر . وكذلك جميع الناس ، كالرجل يكون له ابوان ، يحسن برهما وتعاهدهما ، والصبر عليهما ، وهو أعرج لا يقدر على الجهاد ، وفقير لا يقدر على الانفاق . ويكون آخر لا أب له ولا أم له ، رهو ذو مال كثير ، وخلق سوى ، وجلد طاهر ، فأطاع هذا بالجهاد والانفاق ، وأطاع ذلك ببر والديه والصبر عليهما .

والكلام اذا حرك تشعب ، واذا ثبت اصله كثرت فنونه ، واتسعت طرقه . ولولا ملالة القارئ ، ومداراة المستمع لكان بسط القول في جميع ما يعرض اتم للدليل ، وأجبع للكتاب ، ولكننا انما ابتدانا الكتاب لنقتصر به على كسر النصرانية فقط .

(١) في النسختين : « اذقذها » ، ووجهت العبارة بما ترى .

٦ - فصل منه

قلنا في جواب آخر : ان كان المسيح انما صار ابن لله لان الله خلقه من غير ذكر ، فادم . وحواء (١) لذ كانا (٢) من غير ذكر وانثى . أحق . بذلك ، ان كانت العلة في . اتخاذه ولدا انه خلقه من غير ذكر . . وان كان ذلك لمكان التربية . فهل رباه الا كما ربي موسى (٣) ، وداود ، وجميع الأنبياء . وهل تأويل : « رياه » الا غذاه ، ورزقه ، وأطعمه ، وسقاه ، فقد فعل ذلك (٤) بجميع الناس . ولم سميتم سقيه لهم . واطعمه اياهم تربية ؟ ولم رياه وانتم لا تريدون الا غذاه ورزقه ، وهو لم يحضنه ، ولم يياشر تقلبيه ، ولم ينول بنفسه سقيه واطعمه ، فيكون ذلك سببا له دون غيره ، وانما سقاه لبن أمه في صغره وغذاه بالحبوب والماء في كبر .

٧ - فصل منه

والاعجوبة في ادم عليه السلام ابداع ، وتربيته اكرم ، ومنقلبه أعلى واشرف ، اذا كانت السماء داره ، والجنة منزله ، والملائكة خدامه . بل هو المقدم بالسجود والسجودات الخضوع . وان كان بحسن التعليم والتثقيف (٥) ، فمن كان . الله تعالى يخاطبه ، ويتولى مناجاته دون ان يرسل اليه ملائكته ويبعث اليه رسله ، أقرب منزلة ، واشرف مرتبة ، وأحق بشرف . التأديب وفضيلة التعليم .

(١) رسمت في النسختين : « حوى » .

(٢) ب : « اذا كان » م : « اذا كان » ، والوجه ما اثبت .

(٣) في النسختين « الاحمد بن موسى » ، صوابه ما اثبت ، وهو من دقيق التحريف ،

(٤) ب : « فهل فعل ذلك » ، صوابه في م .

(٥) اى « وان كان تقديمه بحسن التعليم » ، وكلمة « التثقيف » سائطة من م .

وفي النسختين : « وان كان يحسن التعليم » ، والوجه ما اثبت .

وكان الله تعالى . يكلم آدم كما كان يكلم ملائكته ، ثم علمه الأسماء كلها ، ولم يكن ليعلمه الأسماء كلها الا بالمعاني كلها ، فاذا (كان (١)) ذلك كذلك فقد علمه (٢) جميع مصالحه ومصالح ولده ، وتلك نهاية طباع الأدميين ، ومبلغ قوى المخلوقين .

٨ - فصل منه

فاما قولهم انا نقول على الناس ما لا يعرفونه (٢) ، ولا يجوز أن يدينوا به ، وهو قولنا ان اليهود قالت : ان الله تعالى فقير ونحن أغنياء . وأنها قالت : ان يد الله مظلومة ، وانها قالت : ان عزيزا ابن الله ، وهم مع اختلافهم وكثرة عددهم ، ينكرون ذلك ويأبونه أشد الإباء .

قلنا لهم : ان اليهود لعنهم الله تعالى كانت تطعن على القرآن ، وتلتبس نقضه ، وتطلب عيبه ، وتخطيء فيه صاحبه ، وتأتيه من كل وجه ، وترصده بكل حيلة ، ليلتبس على الضعفاء ، وتستميل قلوب الأغنياء (٤) .

فلما سمعت قول الله تعالى لعباده الذين أعطاهم ، قرضا ، وسألهم قرضا على التضعيف ، فقال عز من قائل : (من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له (٥)) . قالت اليهود (٦) على وجه الطعن والعييب والتخطئة والتعننت : تزعم أن الله يستقرض منا ، وما استقرض منا

(١) تكلمة ينتقز اليها الكلام .

(٢) ب : « علمه » ، صوابه في م .

(٣) سقطت كلمة « لا » من النسختين ، ولا يستقيم الكلام بدونها .

(٤) ب : « الأغنياء » ، صوابه في م . وفي النسختين : « ويستميل » ، تحريف .

(٥) الآية ٢٤٥ من سورة البقرة . وقراءة نصب « فيضاعف » هي لعاصم وابن عامر

ويعتوب . وقراءة الجمهور « فيضاعفه » بالرفع . على الاستئناف . اتخافت تضاعف البشر ١٥٩ .

(٦) ب : « قالت » ، فقط .

الا لفقره وغنانا ! فكفرت بذلك القول اذا كان (١) على وجه التكذيب والتخطفة ، لا على وجه ان دينها كان في الاصل ان الله فقير ، وان عباده اغنياء . وكيف يعتقد انسان ان الله عاجز عما يقدر عليه ، مع اقراره (٢) بأنه اغنياء . وكيف يعتقد انسان ان الله عاجز عما يقدر عليه ، مع اقراره (٢) بأنه الذي خلقه ورزقه ، وان شاء حرمه ، وان شاء عذبه ، وان شاء عفا عنه . وقورته على جميع ذلك كتدبرته على واحد .

ومجاز الآية في اللغة واضح ، وتأويلها بين ؟ وذلك ان الرجل منهم كان يقرض صاحبه لارفاقه (٣) ، ليعود اليه مع اصل ماله اليسير من ربحه ، ثم هو مخاطر به الى ان يعود في ملكه . فقال لهم — بحسن عاداته ومنته : آسوا فقراءكم (٤) ، وأعطوا في الحق اقرباءكم ، من المال الذي اعطيتمكم ، والنعمة التي خولتكم ، بأمرى اياكم وضمانى لكم ، فاعتده منكم قرضاً وان كنت اولى به منكم ، غاننا موفيكم حقوقكم الى مالا ترتقى اليه همة ولا تبلفه امنية . على انكم قد امنت من الخطار ، وسلمتم من التفرير .

والرجل يقول لعبده (٥) : اسلفنى درهما ، عند الحاجة تعرض له (٦) ، وهو يعلم ان عبده وماله له . وانما هذا كلام وفعال يدل على حسن الملكة ، والتفضل على العبد والامة ، واخبار منه لعبده انه سيعيد عليه ما كانت سخت به نفسه .

(١) ب : « اذا كان » ، صوابه في م .

(٢) في النسختين : « مع قراره » .

(٣) الارفاق : النفع . وفي م : « لارفاقه » .

(٤) الـ اناسا : مصدر آسأه بماله : اناله منه وجعله فيه اسوة ، نهي المشاركة .

وفي الحديث « ما احد عندي اعظم يدا من ابي بكر ، آسأنى بنفسه وماله » . وفي ب :

« واسوا » على التخفيف ، وان ذكر صاحب اللسان أنها لغة ضعيفة ، ففى حيث :

الحديبية : « ان المشركين واسونا للمصلح » .

(٥) ب : « لعبد » ، صوابه في م .

(٦) في النسختين : « ترض له » ، تعريف ما اثبت .

وهذا ليس بغلط في الكلام ولا بضيق فيه (١) ولكن المتعنت يتعلق بكل سبب ، ويتشبه بكل ما وجد .

وأما اخباره عن اليهود أنها قالت : (يد الله مغلولة (٢)) ، فلم يذهب الى أن اليهود ترى أن (٣) ساعده مشدودة الى عنقه بغسل . وكيف يذهب الى هذا ذاهب ، ويدين به دائن ؟ ! لأنه لا بد أن يكون يذهب الى أنه غل نفسه أو غله غيره . وأيهما كان ، فإنه منفي عن وهم كل بالغ يحتمل التكليف ، وعامل يحتمل التثقيف ، ولكن اليهود قوم جبرية والجبرية (٤) تبخل الله مرة وتظلمه مرة (٥) ، وان لم تقر بلسانها ، وتشهد على اقرارها ، بقولهم : (يد الله مغلولة) يعنون بره واحسانه (٦) . وقولهم : مغلولة ، لا (يعنى (٧)) أن غيره حبسه ومنعه ، ولكن اذا كان عندهم أنه الذي منع أياديهم ، وحبس نعمه ، فهي محبوسة بحبسه ، ممنوعة بمنعه .

والذي يدل على أنهم أرادوا باليدين النعمة والافضال ، دون

(١) في الاصلين : « وهذا ليس بغلط في الكلام ولا يضيق ليه » .

(٢) الآية ٦٤ من سورة المائدة .

(٣) في اليسختين : « بان » تحريف .

(٤) في اللسان : « الجبرية : الذي يقولون : اجر الله العباد على الذنوب ، اى اكرهم » والمعروف عند المتكلمين أن الجبر هو نفي الفعل حقيقة عن العبد ، واضافته الى الرب تعالى . . والجبرية أصناف . فالجبرية الخالصة هي التي لا تثبت للعبد فعلا ولا قدرة على الفعل أصلا . والجبرية المتوسطة التي تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة . فأما من أثبت للقدرة الحادثة أثرا ما في الفعل وسمى ذلك كسبا فليس بجبرى . والمعتزلة يسمون من لم يثبت للقدرة الحادثة في الإبداع والاحداث استقلالاً - جبرياً . الملل والنحل ١ : ١٠٨ .

(٥) في اللسان (ظلم ٢٦٧) : وظلمه (بالتشديد) : انباه أنه ظالم ، أو نسبه الى الظلم « وانشد :

ابست تظالمنى ولست بظالم وتنبهنى نبهها ولست بنائم

وفي ب : « وتعلمه » ، صوابه ما أثبت من م .

(٦) يره ، ساقطة من ب . وهي في م : « يده » ، ووجه هذه ما أثبت .

(٧) تكلمة ينتقل الى مثلها الكلام .

لساعد والنزاع ، جواب كلامهم حين قال : (بل يداه . مبسوطتان ينفق كيف يشاء (١)) . دليلا على ما قلنا ، وثناهدا على ما وصفنا .

فان قالوا : فكيف لم ينقل ان اليهود بخلت الله وجحدت احسانه ، دون ان يقال ان يد الله مغولة ؟ .

قلنا : ان اراد الله الاخبار عن كفر قوم (٢) وسخط عليهم ، فليس لهم عليه ان يعبر عن دينهم وعيوبهم بأحسن المخارج ، ويجليها (٣) بأحسن الالفاظ . وكيف وهر يريد التنفير عن قولهم ، وأن يبغضهم الى من سمع ذلك عنهم .

ولو اراد الله تعالى تليين الأمر وتصغيره وتسهيله ، لقال قولا غير هذا . وكل (٤) صدق جائز في الكلام . فهذا مجاز مسألتهم في اللغة ، وهو معروف عند أهل البيان والفصاحة .

وأما قولهم : ان اليهود لا تقول ان عزيزا ابن الله . فان اليهود في ذلك على قولين : أحدهما خاص ، والآخر عام في جماعتهم .

فأما الخاص ، فان ناسا منهم لما رأوا عزيزا أعاد عليهم التوراة من تلقاء نفسه ، بعد دروسها وشتات أمرها غلوا فيه ، وقالوا ذلك ، وهو مشهور (٥) من أمرهم . وان فريقا من بقاياهم لباليمن والشام ودخل بلاد الروم . وهؤلاء بأعيانهم يقولون : ان اسرائيل الله ابنه (٦) ، واذا كان ذلك على خلاف تناسب الناس ، وصار (٧) ذلك الاسم لعزير

(١) من الآية ٦٤ في سورة المائدة .

(٢) ب : « على كفر قوم » ، صوابه في م .

(٣) م : « ويجليها » .

(٤) في النسختين : « وحل » ، ووجهه ما اثبت .

(٥) ب : « مشهود » .

(٦) انظر ما سبق في ص ٣٣١ - ٣٣٢ . وهو ترجمة لكلمتي « اسرا » و

« ايل » . وفي تفسير أبي حيان ١ : ١٧١ ان « اسرا » بمعنى العبد ، في العبرانية .

(٧) ب : « وساز » بالسين .

بالطاعة والعلامة ، والمرتبة لانه (١) من ولد اسرائيل .

والقول الذى هو عام فيهم ، أن كل يهودى (٢) ولده اسرائيل ، فهو ابن الله ، إذ لم يجدوا ابن ابن قط الا وهو ابن .

٩ - فصل منه

فان قالوا : ليس المسيح روح الله وكلمته ، كما قال عز ذكره : (وكلمته القاها الى مريم وروح منه (٢)) أو ليس قد أخبر عن نفسه حين ذكر أمه انه نفخ فيها من روحه ؟ أو ليس مع ذلك قد أخبر عن حصانة فرجها وطهارتها (٤) ؟ أو ليس مع ذلك قد أخبر انه لا أب له ، وانه (٥) كان خالقا ، إذ كان يخلق من الطين كهيئة الطير ، فيكون حيا طائرا ؟ فأى شيء بقى (٦) من الدلالات على مخالفته لمشكلة (٧) جميع الخلق ، ومباينة جميع البشر ؟

قلنا لهم : انكم انما سألتمونا عن كتابنا ، وما يجوز في لفتنا وكلامنا ، ولثم تسألونا عما يجوز في لغتكم . وكلامكم . ولو أننا جوزنا ما في لغتنا . ما لا يجوز ، وقلنا على الله تعالى ما لا نعرف ، كنا بذلك عند الله والسماعين في حد المكثرين ، وأسوأ حالا من المنقطعين ، وكنا قد أعطيناكم أكثر مما سألتم ، وجزنا بكم فوق أمنيتمكم .

(١) ب : « لا لانه » : و « لا » محبة تفسد الكلام :

(٢) في النسختين : « أن يكون يهودى » .

(٣) الآية ١٧١ من سورة النساء .

(٤) في الاصل : « أو ليس مع ذلك قد أخبر عن حصانة فرجها وطهارتها ، أخبر انه

نفخ فيها من روحه » وفي هذا تكرار لاوجه له .

(٥) ب : « وأن » ، صوابه في م .

(٦) في النسختين : « نفى » ، تحريف .

(٧) في النسختين : « بمشاكله » . والمقصود نفى المشكلة :

ولو كنا اذا قلنا : عيسى روح الله وكلمته ، وجب علينا (١) في لغتنا ان يجعله الله ولدا ، ونجعله (٢) مع الله تعالى الها ، ونقول (٣) : ان روحا كانت في الله فانفصلت منه الى بدن عيسى ويطن مريم . فكنا اذا قلنا : ان الله سمى جبريل روح الله وروح القدس ، وجب علينا ان نقول فيه ما يقولون في عيسى . وقد علمتم ان ذلك ليس من ديننا ، ولا يجوز ذلك بوجه من الوجوه عندنا ، فكيف نظهر للناس قولا لا نقوله ، وديننا لا نرتضيه .

ولو كان قوله جل ذكره (٤) : (فنفخنا فيه من روحنا (٥)) يوجب نفخا كنفخ الزق ، او كنفخ الصائغ في المنفاخ ، وان بعض الروح التي كانت فيه انفصلت فاصلة الى بطنه ويطن امه (٦) ، لكان قوله في آدم يوجب له ذلك ، لانه قال : (وبدا خلق الانسان من طين . ثم جعل نسله (٧)) . الى قوله : (ونفخ فيه من روحه (٨)) وكذلك قوله : (فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين (٩)) .

والنفخ يكون من وجوه ، والروح يكون من وجوه :

فمنها ما اضافه الى نفسه ، ومنها ما لم يصفه الى نفسه . وانما

(١) ب : « وجب علينا » ، تحريف ، ما في م .

(٢) في النسختين : « ويجعله » ، محرف .

(٣) في النسختين : « ويقول » .

(٤) في النسختين : « ولو قال جل ذكره » . ليقطع للكلام مما بعده .

(٥) من الآية ٩١ من الانبياء و ١٢ من التحريم .

(٦) في النسختين : « بعض روح » .

(٧) في النسختين : « بطنها ويطن امها » .

(٨) الايتان ٧ ، ٨ من سورة السجدة .

(٩) الآية ٩ من سورة المتجدة .

(١٠) الآية ٢٩ من الحجر و ٧٢ من ص .

يكون ذلك على قدر ما عظم من الأمور ، فمما سمي روحا وأضافه الى نفسه ، جبريل الروح الأمين ، وعيسى بن مريم . والتوفيق كقول موسى حين قال : ان بنى فلان اجابوا فلانا النبي ولم يجيبوك . فقال له (١) : « ان روح الله مع كل احد » (٢) .

واما القرآن فان الله سماه روحا ، وجعله يقيم للناس مصالحهم في دنياهم وابدانهم ، فلما اشتبها من هذا الوجه الزمهما اسمها فقال لنبيه صلى الله عليه وسلم : (وكذلك اوحينا اليك روحا من امرنا (٣)) وقال : (تنزل الملائكة والروح (٤)) .

١٠ - فصل منه

قد جعلنا في جواباتهم وقدمنا مسألهم (٥) ، بما لم يكونوا ليبلغوه لأنفسهم ، ليكون الدليل تاما ، والجواب جامعا ، وليعلم من قرأ هذا الكتاب تدبر هذا الجواب ، انا لم نغتم عجزهم ، ولم ننتهز غرتهم ، وان الادلال بالحجة ، والثقة بالفليح والنصرة ، هو الذي دعانا الى ان نخبر عنهم بما ليس عندهم ، والا نقول في مسألهم بمعنى لم ينتبه له منتبه ، او يشر اليه مشير (٦) ، والا يوردوا فيما يستقبلون ، على ضعفائنا ومن قصر

(١) ب : « تعالوا له » ، تحريف .

(٢) الإشارة الى ماجاء في سفر العدد ١١ : ٢٧ - ٢٩ : « فركض غلام وأخبر موسى وقال : الداد وميداد يتنبآن في المحلة . فأجاب يشوع بن نون خادم موسى من حدائته وقال : ياسيدي موسى ، اردعهما . فقال له موسى : هل تغار انت لى ، يالبت كل شعب الرب كانوا انبياء اذا جعل الرب روحه عليهم » .

(٣) الآية ٥٢ من الشورى .

(٤) الآية ٤ من المعارج .

(٥) م : « وتومنا منسألهم » .

(٦) في النسختين : « او يشر » ، وانما هو مطب على : « لم ينتبه » .

نظره منا ، شيئا الا والجواب قد سلف فيه . ، والسنتهم قد مذلت به (١) .
 وسفسالهم ان شاء الله ، ونجيب عنهم ، ونستقصى لهم في جواباتهم ،
 كما سألنا لهم انفسنا (٢) ، واستقصينا لهم في مسائلهم .

فيقال لهم : هل يخلو المسيح ان يكون انسانا بلا اله ، او الها
 بلا انسان ؟ او ان يكون الها وانسانا ؟

فان زعموا انه كان الها بلا انسان ، قلنا لهم : فهو الذي كان صغيرا
 مشب والتحي (٣) ، والذي كان يأكل ويشرب ، وينجو ويبول . ، وقتل
 بزعمكم وصلب ، ولوته مريم وأرضعته ، ام غيره هو الذي كان يأكل ويشرب
 على ما وصفنا ؟ فأى شيء معنى الانسان الا ما وصفنا وعددنا ؟ .

وكيف يكون الها بلا انسان ، وهو الموصوف بجميع صفات الانسان .
 وليس القول في غيره ممن صفته كصفته ، الا كالقول فيه كاشتمالها على غيره ؟ .
 وان زعموا انه لم ينقلب عن الانسانية ولم يتحول عن جوهر البشرية ،
 ولكن لما كان اللاهوت فيه ، صار خالقا وسمى الها . قلنا لهم : خبرونا عن
 اللاهوت . اكان فيه وفي غيره (٤) ، ام كان فيه دون غيره ؟

(١) مذلت به : اذاعته وانفضته ، واصل المذل اتساعة السر . قال قيس من الحطيم :
 فلا تمذل بترك كل سر . اذا ما جاوز الاثنين مائتي
 ب : « قد دلت به » م : « قد زلت به » والوجه ما أبدت .
 (٢) ب : « كما سألناهم انفسنا » ، صوابه في م .
 (٣) التحى : ظهرت لحيته . ب : « والتحي » بالجيم ، تحريف .
 (٤) ب : « اكان فيه وفي غيره » نقط ، وبقية العبارة من م مع سقوط كلمة
 « به » الثانية ، وقد اثبتنا تكلمة للقول .

فان زعموا انه كان فيه وفي غيره ، فليس هو اولى بان يكون خالقاً ويتسمى الها من غيره . وان كان فيه دون غيره ، فقد صار اللاهوت جسماً .

وسنقول في الكسر عليهم اذا صرنا الى القول في التشبيه ، وهو قول معظمهم (١) ، والذي كان عليه جماعتهم ، الا من خالفهم من متكلميهم ومتفلسفيهم ، فانهم يقولون بالتشبيه (٢) والتجسيم ، فرارا من كثرة الشناعة ، وعجزا عن الجواب . وكفى بالتشبيه قبحا ، وهو قول يعم اليهود واخوانهم من الرافضة ، وشياطينهم من المشبهة والحشوية (٣) والناطقة (٤) ، وهو بعد متفرق في الناس . والله تعالى المستعان .

(١) ب : « قول منع لهم » م : « منعلهم » ، وأثبت مارايته العوالب .

(٢) في النسختين : « في التشبيه » .

(٣) انظر ما سبق من الكلام على الحشوية في ص ٢٨٨/١ .

(٤) في النسختين : « الناطقة » ، وأثبت واوا قبلها لان هؤلاء غير هؤلاء . وانظر للناطقة

رسائل الجاحظ ٢ : ٥ ، ١٢ ، ١٤ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢١ .

(م - ٢٤ الفكر الديني)

المراجع العربية

على رأس هذه المراجع القرآن الكريم ثم الكتاب المقدس ودائرة المعارف
الاسلامية .

- | المؤلف | الكتاب |
|------------------------------|-----------------------------------|
| ١ - ابن الأثير : | - أسد الغابة في معرفة الصحابة |
| (٦٣٠ هـ - ١٢٢٨ م) | |
| علي بن أحمد بن أبي الكرم | - النهاية في غريب الحديث والأثر |
| ٢ - ابن الخطيب التبريزي : | - تهذيب اصلاح المنطق |
| | (شرح على اصلاح المنطق) |
| ٣ - ابن السكيت : | - اصلاح المنطق |
| ٤ - ابن الكلبي : | - الأصنام |
| أبو المنذر هشام بن أبي النصر | تحقيق أحمد زكي باثنا ، |
| محمد بن السائب | الدار القومية |
| ٥ - ابن النديم : | - الفهرست |
| محمد بن اسحاق | |
| ٦ - ابن تيمية : | |
| ٧ - ابن حجر العسقلاني : | - فتح الباري شرح صحيح البخاري |
| ٨ - ابن حزم : | - الفصل في الملل والنحل ، الخطبي |
| ٩ - ابن عبد ربه : | - العقد الفريد ، نشر الأستاذة : |
| أبو عمر أحمد بن محمد | أحمد أمين ، أحمد الزين ، ابراهيم |
| | الاببياري |
| ١٠ - ابن قتيبة (٢١٣هـ) | - المعارف ، تحقيق د. ثروت عكاشة ، |
| | دار المعارف |
| أبو عبد الله بن مسد | - الشعر والشعراء |
| ١١ - ابن كثير : | - القرآن العظيم (تفسير) |
| ١٢ - ابن منظور : | - لسان العرب |
| أبو الفضل جمال الدين محمد | |
| بن مكرم | |
| ١٣ - أبو حيان (أثير الدين) : | - البحر المحيط (تفسير) |

- | المؤلف | الكتاب |
|--------------------------|--|
| ١٤ — احمد أمين (دكتور) : | — فجر الاسلام |
| ١٥ — الأزرقى : | — خبار مكة وما جاء فيها من الآثار
ط٠ خباط ، بيروت سنة ١٩٦٤ م |
| ١٦ — الأصفهاني : | — الأغاني |
| أبو الفرج علي بن الحسين | ط٠ دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٧ م |
| ١٧ — الأصفهاني (الراغب) | — مفردات القرآن |
| سبتيينو موسكاتي | الحضارات السامية القديمة
ترجمة الدكتور السيد يعقوب بكر
مراجعة : محمد القصاص
ط٠ دار الكاتب العربي |
| ١٨ — الألوسي : | — روح المعاني (تفسير) |
| السيد محمود شكري | — بلوغ الأرب في معرفة احوال العرب
سنة ١٣٤٢ هـ |
| السيد عبد الرازق الحسيني | عنى بشرحه وتصحيح ضبطه : محمد
بهجة الأثرى : دار الكتب الحديثة
— الصابئة : قديما وحديثا
تقديم : أحمد زكى باشا
طبعة أولى ١٩٢٥ ، المطبعة الزحمانية
بمصر |
| ١٩ — البكري : | — معجم ما استعجم |
| عبد الله بن عبد العزيز | بتحقيق الأستاذ مصطفى السقا |
| ابن محمد بن عمر | مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر |
| ٢٠ — البلاذرى : | — فتوح البلدان ، القاهرة سنة ١٣١٨ |
| (٢٧٩ هـ — ٨٩٢ م) | |
| أحمد بن يحيى بن جابر | — الجانب الالهى فى التفكير الاسلامى
وهبة |
| ٢١ — البهى : | — الآثار الباقية عن القرون الخالية
(ليبسك ١٨٧٨ م) |
| دكتور محمد | الانجلو المصرية |
| ٢٢ — البيرونى : | — تاريخ الأدب الجاهلى ، |
| أبو الريحان محمد أحمد | |
| الخوارزمي | |
| ٢٣ — الجندى : | |
| (الأستاذ على) | |

الكتاب	المؤلف
— الزينة في المصطلحات الاسلامية	٢٤ — الرازى :
علق عليه حسين بن فيض الله الهمداني	(أبو حاتم)
— مفاتيح الغيب (تفسير)	٢٥ — الرازى (فخر الدين)
— الروض الأنف ،	٢٦ — السهيلي :
القاهرة ١٩١٤ م	أبو القاسم عبد الرحمن
	ابن عبد الله الخثعمي
— حاشية الشهاب على البيضاوى	٢٧ — الشهاب :
— الملل والنحل ، الانجلو	٢٨ — الشهرستاني :
تخريج د . محمد بن فتح الله بدران	المتوفى (٥٤٨ هـ)
	أبو الفتح محمد بن عبدالكريم
— جامع البيان في تفسير القرآن	٢٩ — الطبرى (ابن جرير)
(تفسير)	
— مقدمة في : تاريخ الحضارات القديمة	طه بافر
الجزء الأول الوجيز في تاريخ حضارة	
وادي الرافدين ، الطبعة الأولى ١٩٧٣	
مطبعة الحوادث ، بغداد	
— أبو الأنبياء	٣٠ — العقاد :
— الله	عباس محمود
موسوعة العقاد الاسلامية	
دار الكتاب اللبناني	
— قضايا في الاجتماع الاسلامى	٣١ — الفيومى :
حول حركة تفاعل الانسان وتكيفه	د . محمد ابراهيم
بالوحي	
— القلق الانساني ، سنة ١٩٧٥	
الانجلو المصرية	
— جامع الأحكام (تفسير)	٣٢ — القرطبي :
— الخصائص العامة للاسلام	٣٣ — القرضاوى :
مكتبة وهبة	(د . يوسف)
— مروج الذهب	٣٤ — المسعودى المتوفى (٣٤٦ هـ)
ط . دار الشعب ، القاهرة	أبو الحسن على بن الحسين
	ابن على

المؤلف	الكتاب
٣٥ — المقدسى :	— البدء والتاريخ
٣٦ — المكلاى :	— لباب العقول فى الرد على الفلاسفة
أبو الحجاج يوسف محمد	— فى علم الأصول ، تحقيق د. فوقية حسين محمود ، دار الأنصار ١٩٧٧
٣٧ — النيسابورى :	— غرائب القرآن و رغائب الفرقان (تفسير)
٣٨ — الهمذانى :	— الاكليل ، نشر وتعليق الأب أنستاس الكرملى ١٩٣١
ابن يعقوب	— تقاريف اليعقوبى
٣٩ — اليعقوبى :	— الاسلام فى حضارته ونظمه ، دار الفكر ، دمشق
أحمد بز. أبى يعقوب، بن جعفر ابن وهيب المعروف بابن واضح	— لهجات عربية شمالية تبل الاسلام بحث مستخرج من مجمع اللغة العربية الملكى سنة ١٩٣٦ م
٤ — أوند الرفاعى :	— الفكر العربى ومكانته فى التاريخ ترجمة د. تمام حسان
٤١ — انوليمان	مراجعة د. محمد مصطفى حلمى
٤٢ — أوليرى (ديلاس)	— علوم اليونان وسبل انتقالها الى العرب ، ترجمة دوهيب كامل مراجعة الأستاذ زكى على
٤٣ — بدوى :	— رسائل فلسفية ، نشر جامعة بنى غازى
دكتور عبد الرحمن	— شخصيات قلقة فى الاسلام
٤٤ — برييه (أميل)	— الآراء الدينية والفلسفية لفيلون الاسندرى ، ترجمة د. محمد يوسف موسى و د. عبد الحليم النجار ط ٣

- | المؤلف | الكتاب |
|------------------------------|---|
| ٤٥ — تارن : | — الحضارة الهلينية،
ترجمة عبد العزيز جاويد |
| ٤٦ — حتى : | — تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين
ترجم الجزء الأول د. جورج حداد
وعبد الكريم رافق ، مراجعة جبريل
جبور ، ترجم الجزء الثاني د. كمال
اليازجي ، مراجعة د. جبريل جبور
دار الثقافة ، بيروت |
| ٤٧ — حلان : (أحمد زيني) | — السيرة الحلبية |
| ٤٨ — دراز (د. محمد عبد الله) | — يدخل الى القرآن ، عرض تاريخي
مقارن لترجمة محمد عبد العظيم على |
| ٤٩ — دروزة : | — القرآن والمبشرون |
| الاستاذ محمد عزة | — قصة الحضارة ترجمة الاستاذ محمد
بدران ، دار التأليف والترجمة والنشر |
| ٥٠ — ديورانت (ول) | — تاريخ الفلسفة في الاسلام
ترجمة د. محمد عبد الهادي أبو ريده
لجنة التأليف والترجمة والنشر |
| ٥١ — دي بور : | — تفسير المنار |
| ٥٢ — رشيد رضا : | — النشر الفني في القرن الرابع الهجري |
| (الاستاذ الشيخ محمد) | — العرب واليهود في التاريخ |
| ٥٣ — زكي مبارك | — حقائق تاريخية تظهرها المكتشفات
الأثرية ، العربي للاعلان والنشر سنة
١٩٧٥ ط ٤ |
| (دكتور) | — تاريخ الأدب العربي ،
العصر الجاهلي ، دار المعارف |
| ٥٤ — سوسة : | — النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية
بيروت |
| دكتور أحمد | — التاريخ اليهودي العام ، دار الجيل |
| ٥٥ — شوقي ضيف (دكتور) | |
| ٥٦ — شيخو (لويس) | |
| ٥٧ — صابر طعيمة (دكتور) | |

- | الكتاب | المؤلف |
|---|---------------------------------------|
| — حضارة الاسلام ، ترجمة على حسنى
الخربوطلى | ٥٨ — صلاح الدين خوادبخشى |
| — السومريون : تاريخهم وحضارتهم
وخصائصهم ، ترجمة فيصل الواثلى
نشر وكالة الكويت | ٥٩ — صموئيل نوح كريم |
| — الساميون ولغاتهم ، تعريف بالقرابات
اللغوية والحضارية للعرب
دار المعارف | ٦٠ — ظاظا (دكتور حسن) |
| — التفكير الفلسفى فى الاسلام
الانجلو المصرية | ٦١ — عبد الحليم محمود
(دكتور) |
| — الاثر الفلسفى الاسكندرى فى قصة
حى بن يقظان ، بحث مستخرج من مجلة
كلية الآداب بجامعة فاروق الأول
(الاسكندرية) المجلد الثانى ١٩٤٤
لجنة التأليف والترجمة والنشر | ٦٢ — غففيىفى
(دكتور) أبو العلا |
| — التاريخ الاسلامى العام ، الجاهلية ،
الدولة العربية ، الدولة العباسية ،
النهضة المصرية ١٩٧٢ | ٦٣ — على حسنى ابراهيم
(دكتور) |
| — الفلسفة الشرقية
بحوث تحليلية نشرت فى مجلة
الرسالة ١٩٣٧ م | ٦٤ — غلاب
(دكتور محمد) |
| — تاريخ الدولة العربية
ترجمة د. محمد عبد الهادى ابر ريدة
— من الاسكندرية الى بغداد | ٦٥ — فلهوزن (يوليوس)
مستشرق المسمى |
| — بحث فى تاريخ التعليم الفلسفى والطبى
عند العرب ، ترجمة د. عبد الرحمن
بدوى ضمن المجموعة المسماة :
التراث اليونانى فى الحضارة
الاسلامية ، دار النهضة | ٦٦ — ماكس مايرهوف |
| — السيرة تاريخ وفن ، دار النهضة | ٦٧ — ماهر حسن فهمى (دكتور) |

المؤلف	الكتاب
٦٨ — محمد التونجي فرهنك	— المعجم الذهبي فارسي وعربي دار العلم للملايين بيروت
٦٩ — محمد عبد المعيد خان	— معجم الأدباء — الاساطير العربية قبل الاسلام سنة ١٩٣٧
٧٠ — محمد نعمان الجارم	— أديان العرب في الجاهلية سنة ١٩٢٣ م
٧١ — مذکور	— في الفلسفة الاسلامية، منهج وتطبيقه دار المعارف
(دكتور ابراهيم بيومي)	— ملتقى اللغتين العبرية والعربية
٧٢ — مراد فرج المحامي	— تمهيد في الفلسفة الاسلامية
٧٣ — مصطفى عبد الرازق	لجنة التأليف والترجمة والنشر
(الاستاذ الشيخ)	— مفتاح باب الأبواب في اصول الديانات ١٣٢١
٧٤ — ميرزا :	— أمراء عسان ، ترجمة د. بنفلى جوزى و د. قسطنطين زريق
(محمد مهدى)	— تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بنى امية ، نص احاضرات التي القاها بالجامعة المصرية سنة ١٩١٠ ، سنة ١٩١١ عنيت بنشرها مريم نيلينو ، تقديم دكتور طه حسين ، دار المعارف بمصر ط ٢
٧٥ — نولدكه	— روح الحضارة العربية ، ترجمة د. عبد الرحمن بدوى ، دار العلم للملايين ١٩٤٩
٧٦ — نيلينو	— معجم البلدان
كارلو — مستشرق ايطالى	— اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها ترجمة د. محمد سليم سالم مراجعة : محمد على ابو درة
٧٧ — هانز هيتزش شيدر	
٧٨ — ياقوت :	
شهاب الدين أبو عبد الله الحموى	
٧٩ — جيبون (اوارد)	

المؤلف	الكتاب
٨٠ — فتنج :	— العرب ترجمة دكتور راشد البراوى الانجلو المصرية
٨١ — ستوقنزف	— تاريخ الامبراطورية الرومانية الاجتماعى والاقتصادى ترجمة : زكى على مكتبة النهضة المصرية — انطاكية القديمة
٨٢ — جلانكيل ديونى	ترجمة : د. ابراهيم نصحى الناشر : النهضة المصرية
٨٣ — د. عبد اللطيف احمد على	— مصر والامبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية دار النهضة العربية ١٩٧٤
٨٤ — النابغة الذبياني	— ديوان النابضة الذبياني دار صادر
٨٥ — ابن سعد	— طبقات ابن سعد
٨٦ — لبيد بن ربيعة العامرى	— ديوان لبيد ، دار صادر

المراجع الأجنبية

كتب المؤلف

أولاً - دراسات في الفلسفة والفكر الإسلامى :

- ١ - لنقل الانسانى - الطبعة الأولى سنة ١٩٧٥ م - الطبعة الثانية سنة ١٩٨٠ م - الطبعة الثالثة سنة ١٩٨٣ م - الناشر الأنجلو المصرية .
- ٢ - الاسلام واتجاهات الفكر المعاصر - الطبعة الأولى سنة ١٩٧٧ م الناشر الأنجلو المصرية .
- ٣ - في الفكر الدينى الجاهلى (قبل الاسلام) - الطبعة الأولى سنة ١٩٧٩ م . عالم الكتب - الطبعة الثانية سنة ١٩٨٠ م . دار القلم الكويت - الطبعة الثالثة سنة ١٩٨٣ دار المعارف المصرية .
- ٤ - ملاحظات على المدرسة الفلسفية فى الاسلام - انطبعة الأولى . . الأنجلو المصرية سنة ١٩٨٠ م .
- ٥ - رسالة فى الحوار الفكرى بين الاسلام والحضارة - الطبعة الأولى . . عالم الكتب سنة ١٩٨٢ م .
- ٦ - الوجودية فلسفة الوهم الانسانى - الطبعة الأولى سنة ١٩٨٣ م الناشر الأنجلو المصرية .
- ٧ - تأملات فى أزمة العقل العربى الطبعه الأولى سنة ١٩٨٣ الانجلو المصرية .

ثانياً - دراسات فى علم الاجتماع :

- ٨ - مقدمة فى علم الاجتماع الدينى - الطبعة الأولى سنة ١٩٧٤ - الطبعة الثانية سنة ١٩٨٣ م . الناشر مكتبة الأزهر .
- ٩ - قضايا فى الاجتماع الإسلامى - الطبعة الأولى سنة ١٩٧٧ م . . الناشر الأنجلو المصرية .

ثالثاً - دراسات فى الشخصيات :

- ١٠ - الامام الغزالى وعلاقة اليقين بالفعل - الطبعة الأولى سنة ١٩٧٦ م . الناشر الأنجلو المصرية .
- ١١ - مع البوصيرى وابن عطاء الله - الطبعة الأولى . . سنة ١٩٨٣ م الأنجلو المصرية .

رابعاً - بحوث :

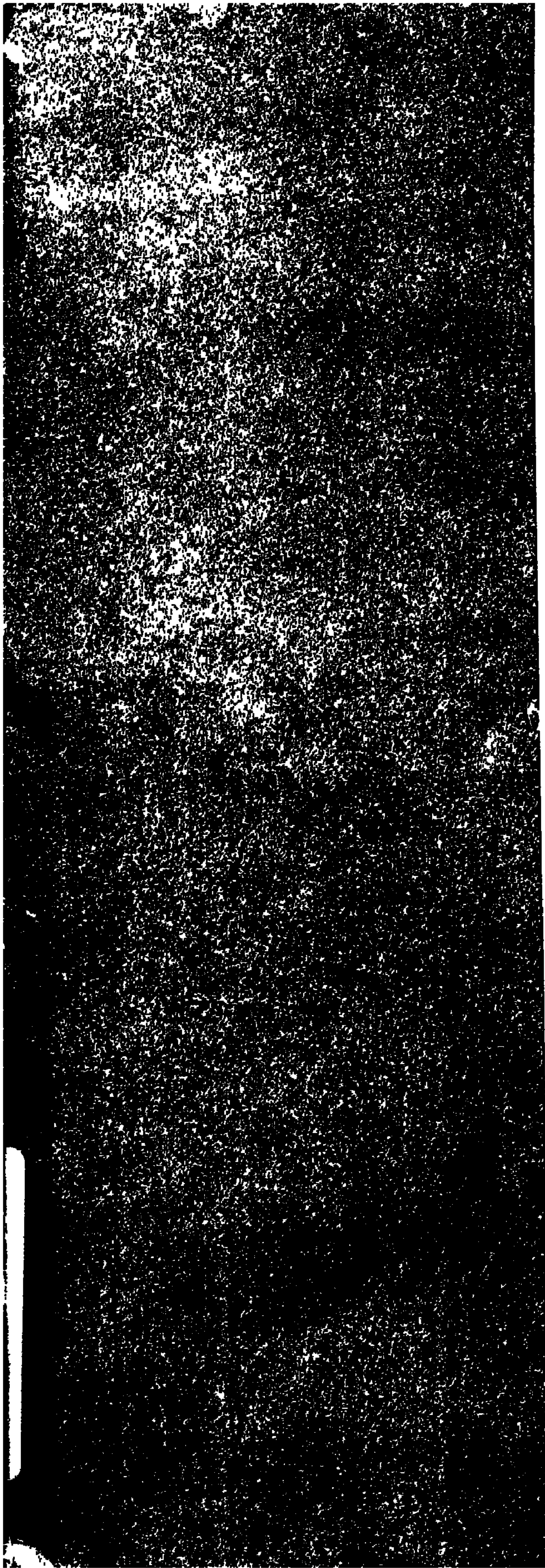
- ١٢ - ابن باجه : فيلسوف مغترب .. نشر على مقالات في مجلة الأزهر
سنة ١٤٠٢ هـ .
- ١٣ - النزعة العقلية عند الأمام الشافعي .. نشر بعضه في مجلة الوعي
الاسلامي الكويت سنة ١٣٩٧ هـ - والآخر في منبر الاسلام سنة ١٣٩٩ هـ
القاهرة - ومكتمل في حويله كلية الدراسات الاسلامية والعربية - جامعة
الأزهر .

رقم الايداع : ٨٣/٣٢٥٤

الترقيم الدولي : ٢ - ٠٥٢٢ - ٠٢ - ٩٧٧

مطبعة القاهرة الجديدة

٣٣ شارع الجيش ت : ٩٠٤٢٨٦



12-10/01

